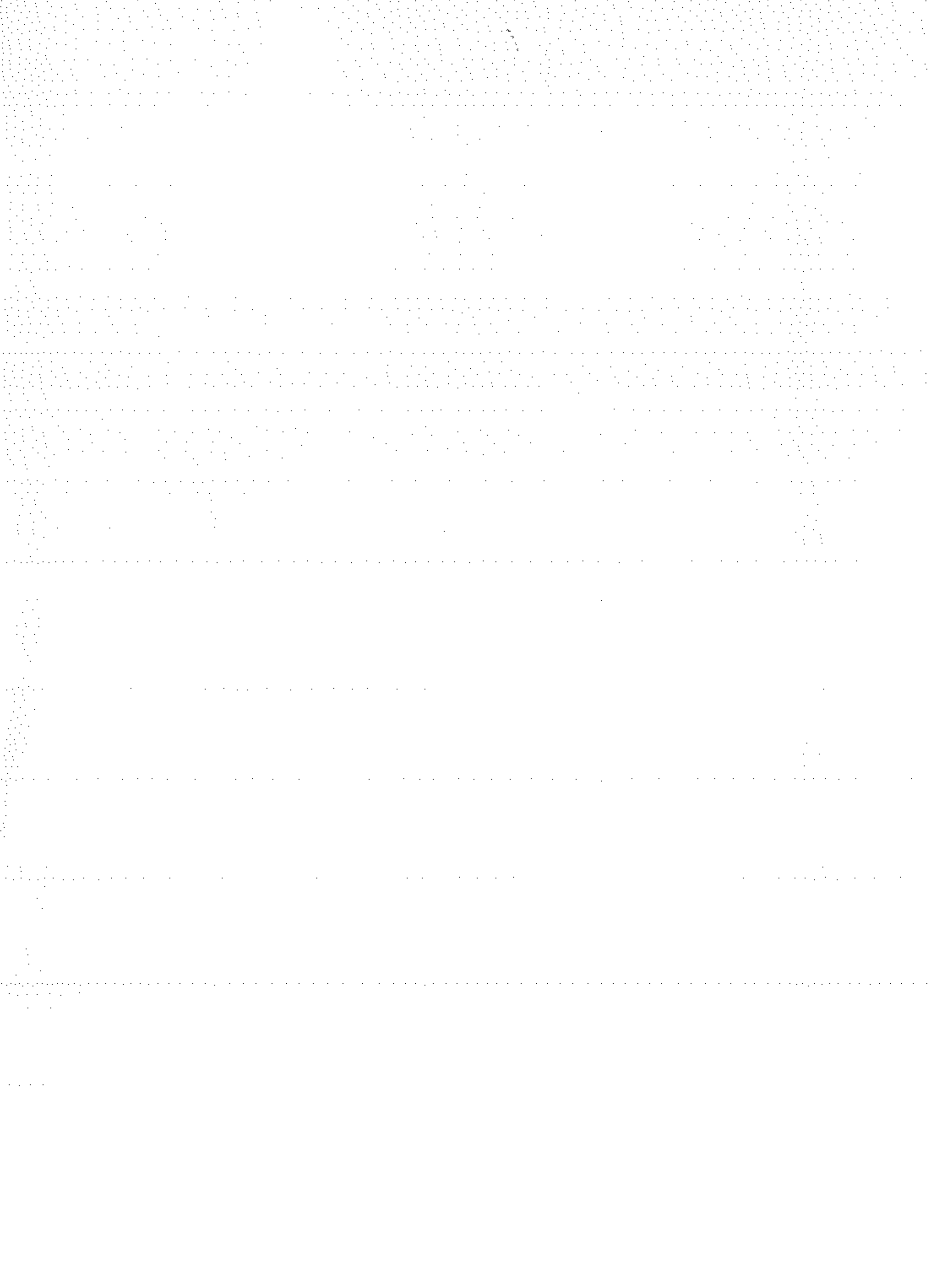
مذكرات الأمينة الأولى
جولييت المير سعاده



دار سعاده



مذكرات الأمينة الأولى جولييت المير سعاده

Juliette Elmir Saadeh-Memoirs -

طبعة ثانية منقحة ومزيدة بمجموعة صور

بيروت ـ لبنان 2004

دار سعاده المجتمع معرفة
للنشر

مذكرات الأمينة الأولى

جولييت المير سعاده



تمهيد

ما إن يقع النظر على مكان وزمان تدوين هذه المذكرات حتى يتبادر للذهن السؤال: لماذا في «أكرا» (غانا)، ولماذا عام 1966؟ ولماذا تأخر نشرها حتى يومنا هذا؟

يخطئ من يظن أن رحلة عذاب والدتي التي تفوق كل وصف وتصوّر، والتي لم يُكشف النقاب عنها حتى اللحظة، قد عرفت نهايتها بإخلاء سبيلها بعفو خاص في أواخر عام 1963. ولا ننسى أن هذا العفو قد صدر رغم ممانعة دائمة عندما تأكد أنها مصابة بورم رجّح أنه سرطاني يهدد حياتها.

لم يسبق أن تعرّضت امرأة من بلادنا وفي شرقنا من قبل لمثل هذا الاضطهاد المبرمج.. ولم يقابل مصير يهزّ الضمائر بمثل ما قوبلت به من تجاهل ولامبالاة.

خرجت والدتي من السجن في 26 كانون الأول 1963، كما ورد في مذكراتها، تحمل تذكرة مرور تحدّد لها البلدان الأجنبية التي بإمكانها التوجه إليها، واستقلت الطائرة فجر الثامن والعشرين منه متجهة إلى باريس حيث كنا بانتظارها.. أنا وزوجي فؤاد الشمالي وكمال خير بك وزوجته نجاة، إذ كنا نسكن في شقة واحدة.

لم يكن ليخطر في بالها أو بالنا أن رحلتها إلى الحرية ستكون أطول وأغرب رحلة ما بين دمشق وباريس في سجل هذه الرحلات الروتينية. ففي تطور مناخي غير مألوف، غطى ضباب كثيف فرنسا ومحيطها مما استدعى إغلاق مطار باريس والمطارات المجاورة أمام الملاحة الجوية، فاضطرت الطائرة إلى الهبوط في مطار لندن. وحوّل المسافرون جنوباً واجتازوا بحر «المانش» ثم استقلوا القطار من مرفأ «لو هافر» شمال فرنسا إلى باريس. هكذا استغرقت الرحلة يومين والتقينا أخيراً

في اليوم ما قبل الأخير من سنة 1963 على ما أذكر، ولما يمض على وجودي في باريس سوى سبعة أشهر.

كنت قد بلغت التاسعة عشر ربيعاً خيّم الظلام على نصفها منذ اختُطفت منا في ذلك اليوم المشؤوم من نيسان 1955. فما همّ إن تلبّدت سماء الدنيا ما دامت قد عادت إلينا!

وما إن حطت رحالها والتقطت أنفاسها حتى أمطرناها بوابل من الأسئلة المحبوسة عن ملابسات الاعتقال وظروف السجن والمحاكمات في مسألة عدنان المالكي، فباحت بما أثقل صدرها سنوات طويلة من وقائع مذهلة عن اعتقال فريد واستثنائي بكل تفاصيله كاد يودي بحياتها أكثر من مرّة.

وصلت يحدوها توق إلى الاستقرار والسكينة لتستجمع قواها وتلملم نتف حياتها المبعثرة.. ولتكتب شهادتها على أحداث مصيرية كانت معنية بها بشكل مباشر.. بصفتها الشاهد الأول والضحية.. شهادة تكتسب أهميتها من إحجام المشاركين فيها والمواكبين لها، على اختلاف درجاتهم ومسؤولياتهم، عن تدوين الوقائع التي كان من شأنها تغيير مجرى حياتها ومسار الحركة القومية الاجتماعية تغييراً جذرياً ما زالت مفاعيله ماثلة حتى قيام الساعة.

كانت تدرك مدى أهمية هذا التسجيل بوصفه وثيقة تاريخية لأحداث تاريخية.

ولكن، هيهات.. فظروفنا في باريس كانت في غاية الاضطراب وعدم الاستقرار على كل صعيد. ذلك أننا كنا في بداية رحلة التشرد الذي فرضه انقلاب رأس سنة 1961 - 1962 الفاشل في لبنان.

خلال الفترة الأولى، أي ما بين آخر عام 1963 وبداية عام 1966 تاريخ رحلتها إلى «أكرا» (غانا)، تسنّى لها الاجتماع بكثير من الرفقاء والمسؤولين ممن طاولتهم الملاحقات، أو شاركوها السجن، أو عايشوا الأحداث أو تتبعوها عن كثب والذين كانوا إما مقيمين في باريس أو مجرد عابرين ما بين بلدان الاغتراب

والوطن. وقد استعرضت معهم الكثير مما جرى، في الأسباب والنتائج، مدققة في كل شاردة وواردة حفرت في ذاكرتها بوشم الجمر.

أذكر أنها كانت تحرص على تسجيل كل ما تراه هاماً، ولو على نحو متقطع، وعلى إبداء رأيها أو وجهة نظرها، وأنها كانت تعرض بعض مدوناتها على فؤاد وكمال وعلى بعض المقربين المطلعين وتورد أحياناً آراءهم في كتاباتها.

فور وصولها، كان لابد بادئ ذي بدء من معالجة وضعها الصحي الخطير. وقد صادف وجود الصديق الأمين الدكتور قسطنطين صايغ الذي كان يتدرج آنذاك في المركز الأوروبي لعلاج السرطان في «فيلجويف» (باريس)، مناسباً لتمكينها من مراجعة الأخصائيين. فخضعت لعملية جراحية دقيقة في المركز المذكور تكلّلت بالنجاح وحرّرتها من الورم.

وما إن تماثلت للشفاء، حتى اتضح لها أن مسألة تأمين مورد ثابت يؤمن لها عيشاً كريماً باتت أمراً ملحّاً لا يحتمل التأجيل. فوجدت حلاً للمشكلة عبر الصديق الدكتور قسطنطين صايغ الذي أمّن لها عملاً كممرضة في أحد مستشفيات جنيف عام 1964 حيث عملت قرابة سنة قبل أن يقنعها الصديق الرفيق المغترب في فنزويلا، شفيق مفرّج، بإلحاح منه، بالعدول عن العمل متعهداً بإيجاد حل ثابت ودائم. فعادت إلى باريس، إلاّ أن الأمور لم تنتظم على النحو المنشود، إلى أن انتهى بها الأمر بالتفكير جدياً في إنشاء مصلحة تجارية مستقلة بمساعدة بعض رفقائها الميسورين في أفريقيا. فقامت برحلة إلى «أكرا» في غانا لدراسة المشاريع الممكنة.

هناك، حيث أمضت بضعة أشهر، كانت استراحتها الفعلية الأولى. فاغتنمت الفرصة لكتابة الجزء الأهم في نظرها من المذكرات، والممتدة أحداثه المصيرية الخطيرة من عام 1947 إلى عام 1963، كاشفة الكثير من الأسرار والغموض الذي اكتنف تلك المرحلة، وتاركة إلى وقت لاحق كتابة الجزء الأول منها، من عهد الطفولة حتى مغادرة توكومان في كانون الأول 1946 إلى بوينس آيرس في الأرجنتين، تمهيداً للعودة إلى الوطن.

أذكر أنها أعطت هذا الجزء من المذكرات للرفيق الراحل رجا اليازجي الذي كان آنذاك في «أكرا» (غانا) للاطلاع عليها وإبداء الرأي وأنها انتظرت طويلاً قبل أن يعيدها إليها.

وقد تأخّرت كتابة الجزء الأول مدة ثلاث سنوات لأسباب عديدة قاهرة. منها الصحية، وأخرى بداعي السفر إلى الأرجنتين لتدهور صحة والدتها المسنة، التي كانت قد عادت إلى الأرجنتين وقد يئست من رؤية ابنتها حرة قبل شهر واحد من الإفراج عنها. ثم إنها رغبت في قضاء بعض الوقت مع عائلتها التي فارقتها منذ زمن بعيد، والاعتناء بوالدتها التي كانت بحاجة إلى رعاية صحية مستمرة.

ومن ثم كانت جولة في أميركا اللاتينية وأخرى في أميركا الشمالية بدعوة كريمة من الرفقاء المنتشرين في المهاجر، لتعود وتستقر معنا عام 1968 في جنيف (سويسرا) التي انتقلنا إليها في حزيران عام 1967 في أعقاب حرب الأيام الستة.

لقد شهدت هذه المرحلة الأخيرة من الإقامة في المنفى نوعاً من الاستقرار سمح لها بالانكباب مجدداً على تدوين مذكراتها من بدايتها.. هذه البداية المجبولة بدهشة الطفولة في الميناء - طرابلس الشام حيث انطبع مشهد الطبيعة وكل زاوية من زوايا البيت العائلي الفريد في ذاكرتها بصور حيّة لا تمحى، والتي شملت قصة تعرّفها على والدي وعلى القضية معاً، والحب الذي نشأ بينهما وتكلّل بالزواج، ومشوار العمر والنضال، وكل المرحلة التي سبقت عودتنا إلى الوطن. وقد أنجزتها في منتصف آذار من عام 1969.

وقد حرصت حرصاً بالغاً على حفظ هذه المذكرات. فأودعتها في خزنة في أحد مصارف جنيف حتى يحين زمن نشرها.

ولابد من الإشارة هنا، إلى أننا عمدنا إلى تنظيم هذه المذكرات وفق تسلسلها الزمني، وقسّمناها إلى فصول تبعاً للمراحل المختلفة. كما أننا اخترنا لها عنواناً لأنها أغفلت الأمر.

في بداية تلك السنة تردّد أنّ عفواً عن السوريين القوميين الاجتماعيين المعتقلين بتهمة القيام بانقلاب عسكري على حكم اللواء فؤاد شهاب في اليوم الأول من عام 1962، بات وشيكاً. وبدأ يراودها الحنين للعودة إلى موطنها كما بالنسبة لنا جميعاً. فعادت إلى لبنان في أيلول 1969.

عادت والشوق يغمرها.. تريد أن تمضي ما تبقّى من العمر في ربوع بلادها التي أُبعدت عنها قسراً، تارة بالهجرة، وتارة بالسجن وأخرى بالإبعاد. وأن تساهم، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً، في المسيرة التي اختارتها بملء إرادتها والتزمت بها حتى اليوم الأخير والرمق الأخير..

والسبب الجوهري الآخر هو عائلتها التي فقدت ركنيها في أدقّ مراحل الطفولة. ففيما غادرت شقيقتي صفية إلى الولايات المتحدة الأميركية لمتابعة تخصصها، ظلت شقيقتي الصغرى راغدة في لبنان مع خالتي ديانا حيث كانت تتابع دراستها. كانت تأمل في أن تستطيع إعادة اللحمة والتعويض عمّا فات..

كان بإمكانها أن تجلس ساعات لتخط رسائل كثيرة إلى رفقائها والأصدقاء.. كما كان بإمكانها أن تستكمل مذكراتها لو شاءت..

كنت قد عدت إلى لبنان بفارق ستة أشهر في آذار عام 1970، وكثيراً ما كنت أراها لدى عودتي من العمل جالسة إلى مكتب الزعيم الذي نقلته إلى منزلها، تكتب وتقرأ.

لم تقل يوماً لماذا لم تضف شيئاً إلى هذه المذكرات التي ختمتها بمغادرتها السجن ودمشق.. وكأن الزمن الذي تلا ذلك الزلزال المدمّر كان مجرد هزات ارتدادية لما سبق.

بتقديري، أنها أدركت، مع مرور الزمن واختبار الواقع والناس والتشنّج العارم المستحكم بالمواقف، التحول الهائل الذي طرأ على كل ما ألفته من قيم ومعايير وعقلانية، ومن التزام واستهدافات، فأصبح الزمن الراهن غير الزمن الذي كان.

وربما أدركت مع تباشير الاضطرابات التي سبقت اندلاع الحرب اللبنانية، أن نشر تلك المذكرات قد يفسّر على غير ما قصدت، أي مجرد تبيان الحقيقة ولا شيء سوى ذلك. فطلبت منّا أن ننشرها بعد وفاتها. فهي لم تفقد يوماً الأمل والإيمان بالأجيال.

ودخلنا دوّامة الحرب.. ودخلت والدتي مجدداً في صراع مع المرض انتهى بوفاتها في 24 حزيران 1976. ولكن دوامة الحرب استمرت ردحاً طويلاً من الزمن استحال معها نشر هذه المذكرات.

وها نحن ننشرها اليوم وقد أكسبها الزمن أبعاداً جديدة وزادها عمقاً وألقاً وقيمة.

أليسار سعاده

بيروت، في 26 أيار 2003

المقدمة

القريان

هذه المذكرات صرخة. كيان وحياة في صرخة. صرخة ضد ظلم تعددت مراحله وتنوّعت مصادره وأشكاله وتفاقمت تركُته من الآلام. وصرخة أمام انكسار صورة للعالم نذرت لها صاحبة المذكّرات نفسها. وهي تعيد إلى الضوء واحدة من تراجيديات صراع الأحزاب والصراع على السلطة في بلادنا. وفوق ذلك تقدّم صورة عن الحياة اليومية والمفارقات التي عاشها مؤسس حزب من أكثر الأحزاب تعرّضاً للاضطهاد، وفي الوقت نفسه من أكثر الأحزاب هيكلة وانبناء على (النظام). ومن قلب هذا النظام وقعت كوارث (تنظيمية) أصابت ذلك الحزب وسائر أركانه؛ لكن ما أصاب المؤسس وأفراد أسرته كان أحفلها بالمفارقات.

جولييت المير سعاده زوجة مؤسس الحزب السوري القومي الاجتماعي وقائده ليست مصدراً فكرياً للحزب. غير أنها عاشت رؤية أنطون سعاده (القومية الاجتماعية) مثل وعد فردوسي وحقيقة خلاصية. ولهذه الرؤية نذرت نفسها، فجسّدت بذلك حالة الانتماء والتماهي الكامل بالحزب عبر التماهي بالمؤسس أو (الزعيم). وهو تماه بلغ درجة من التجريد والتصعيد بحيث تحوّل إلى موقف طوباوي شمولي في النظر إلى الحزب ومؤسسه. وفي هذا النظر تراجعت الوقائع الحياتية الحميمة كالعواطف المباشرة والعلاقات الشخصية إلى المرتبة الثانية، بينما تقدّمت الصورة المثالية التي وُظّفت توظيفاً عالياً بعد استشهاد المؤسس لتبني العزاء وتواجه الكارثة بتحويل الغائب إلى رمز.

جولييت سعاده في هذه المذكرات تقدّم الصورة المثالية والرمز بلغة غير رمزية ولا تأويلية. وهي في حرصها على تقديم الوقائع مجرّدة صافية تصل إلى نوع من البوح بلغة مشرقة عفوية تحفظ حيوية المحكي وحميمية المسارّة. إنها تبني الصورة بالمعيش واليومي وبسرد مباشر أقرب إلى الحكاية، بعيداً عن لغة البيانات والخطب والشعارات التي أنهكها التكرار. بل كأنها تحاذر أن تمس الوقائع بأي تنظير لتقدّمها في صفائها كإرث وكأمانة.

مع ذلك فإن جولييت سعاده، في هذه المذكرات، لا تلفظ مرة واحدة اسم زوجها مجرداً من لقبه الحزبي مع أن (الزعيم) رتبة حزبية محضة وليس اسماً ثانياً لأنطون خليل سعاده، وإن كانت رتبة المؤسس). لم تناده مرة باسمه المجرد أو باسم تحبّب كما يطيب للزوجة المغرمة، أو باسم حنون مثل (أبو صفية)؛ بل قدّمت المستوى الحزبي في حياتهما على المستوى العائلي الشخصي، وعاشت نوعاً من الفناء في شخص الزوج الذي تشير إليه بلقب «الزعيم» لكونه أكثر من زوج. أو هو زوج متعالٍ ولا ندّيّة في العلاقة به. إنه ما بعد وما فوق، ولا يليق به إلاّ ما يفيض عن العلاقة الإنسانية المألوفة. الحبّ اللائق به هو التفاني أثناء حياته والترميز بعد مماته: هكذا لما اغتيل هذا المثنى «الزعيم ـ الحبيب» فداء عن الرفاق والحزب (الذي هو الأمة تضميناً أو تمثيلاً) صار الحزب هو (الزعيم) الفادي أو بديله، وصارت، هي المصطفاة لرفقة الزعيم، ناهضة برسالة لمّ الشمل والسهر على استمرارية الحزب. ولهذا الحزب سوف تعطي جولييت سعاده نفسها لتكون أمّ القوميين بل أم الشعب السوري، كما يرد على لسانها مراراً في هذه المذكرات. وبدل أن تحمل بناتها وتمضي إلى الأرجنتين لتربّيهن في جوّ عائلي بعيد عن حياة الحزب المهدَّدة، تشبثت بالبقاء في الوطن وآثرت تقديم نفسها لقضية «الزعيم» أي للحزب وبالتالي لـ «سورية الطبيعية» فاحتملت بذلك ضياع الجوّ البيتي الحميم الذي كان من حقّ بناتها. أي أنها غامرت مرة ثانية، فقدّمت الحزب على حياة أسرتها وعلى سلامة هذه الأسرة، لتساعد على لمّ الشمل وفتح «بيت الزعيم»

واستئناف مسيرة النضال. وتكون منذ البداية قد اختارت طريق الخطر، اختارت أن تعيش حلمها الطوباوي بالنيابة عن الغائب وبالأمانة له حتى كانت القربان. ولكن الخطر جاءها من حيث لم تنتظر وبالصورة التي لم تتوقعها أبداً.

كنت في مرحلة قصيرة شاهدة على بعض من تلك الآلام. وهذه الصرخة وما تختزنه من ألم لا تسمح بالمناقشة والتعليق. إنها تراجيديا قائمة بذاتها ومن داخل تصوّر أبطالها، ولا موقع لي فيها غير موقع الشهادة. فمع أنني ابتعدت كثيراً، ما زلت أحمل في وجداني ووعيي ذلك الذي وقع على جولييت المير سعاده؛ ولم أقدر في أي يوم أن أنسى ذلك الظلم وتلك الآلام التي نزلت بالأسرة وببنيّات طفلات. حملت ذلك قرابة نصف قرن كطعنة لما آمنت به. طعنة لا أنساها، تربطني بذلك الألم، وبقدر ما تربطني به تفصلني عن منطق مجرياته. لم أنسحب من مؤسسة الحزب والعمل الحزبي كله مباشرة بعد كارثة 1955 . لم يكن وعي الشرخ قد اكتمل بالنسبة إليّ. انسحبت نهائياً بعد محاولة الانقلاب في 31 كانون الأول 1961 لأسباب متعددة أهمها يتعلق بالتحزّب ووضعية المحازبة أساسياً؛ ولا مجال في هذه المقدمة لعرض المواقف الخاصة. لكن إذا كنت قد انفصلت بشكل قاطع عن مؤسسة الحزب والعمل الحزبي، فإنني لم أنفصل عن تلك الآلام التي وقعت على عائلات فقدت أعزّاء من بيت واحد بلا جدوى، وبالأخصّ تلك الآلام التي حلّت بأنطون سعاده وعائلته ولا تزال، وإن توارت خلف كبرياء الصمت.

تورد صاحبة المذكرات اسمي مرات. ولا أعود هنا إلى ما ذكرَته لتأييد كلامها، فهو ثابت، كما أنه بالنسبة لي متطابق مع إفاداتي المدوّنة في التحقيق، فوق أنه لا يشكل إلا موضوعاً جانبياً في هذه المذكرات وإن كان يتلاقى مع لحظة فاصلة في سياق هذه الوقائع. هي اللحظة الأولى التي سمعنا فيها عن مقتل ضابط كبير.

وبالفعل كنت قد دعوت إلى اجتماع (إذاعي) أي إعلامي، يقدّم أفكار الحزب واتجاهاته لعدد من الطالبات والمعلمات. اخترت لمكان الاجتماع موقعاً له وزنه المعنوي لأنه بيتها؛ الأحرى إنه البيت الذي انتهت إلى التخلي عنه بعد أن أصبح

بشكل أساسي مركزاً لرئيس الحزب يومذاك. لكن بما أنه كان بيتها الأول لسنوات، ظلّ يحمل اسمها. وفي ذلك البيت كنت قد أقسمت يمين الانتساب إلى الحزب أمامها، وإليه اصطحبت زميلاتي حيث أقسمن اليمين.

وكنت غالباً ما أختار بيتها للاجتماعات الإذاعية لما كان لحضورها من أثر. ولأنها لم تكن تتردد بل ترحّب. مع أنني بالنسبة للاجتماعات الإذاعية كنت دوماً محكومة بأوقات الطالبات والمعلمات، ولذلك كنّا نحن الذين نحدد الوقت. وكنت أدهش لهذا الاستعداد الدائم والانطباع الذي تمنحه بسعة الوقت على الرغم من تعدد مسؤولياتها وواجباتها العائلية، وعلى الرغم من استقبالها كل قومي آت من أطراف الوطن «السوري» أو من المهجر. كان لديها، فوق ذلك، حضور يشعّ بكرم روحي وإشراق مؤثر واستقبال سمح ولطافة هي البديهة عينها. وكنّا جميعاً ننهل من ذلك الحضور ونأتلف في ظله. وفي هذا الظلّ تحولت الرفقة الحزبية إلى صداقة، واتسعت الصداقات والروابط بين حزبيين من أطراف سورية الطبيعية، من فلسطين إلى لبنان وحوران والبادية والجزيرة الفراتية فضلاً عن المدن الكبرى. بل إن أعداداً من القوميين كانوا يحملون إليها مشكلاتهم العائلية فيلقون إصغاء خاصّاً متعاطفاً وذكياً. حتى إننا، أدونيس وأنا، عقدنا خطوبتنا في بيتها. وكان في الحزب، بفضل حضورها، نوع من دفء عائلي وشعور بالرعاية ومناخ من التواشج والإلفة. وغدا بيتها بيت (الأم الكبرى).

ولقد فاجأني كلامها في المذكرات على المشكلات المالية المستمرة أثناء إقامتها في دمشق. صحيح أنها نادراً ما كانت تبدو في ملابس جديدة أو أي شيء يدل على السعة، وكان هندام بناتها على مستوى رفيع من الأناقة والذوق، لكن مع البساطة. ولابد أن تلك الأريحية في شخصها هي التي كانت تبعد صورة القلّة وتوحي بالفيض.

في الاجتماعات التي كنت أدعو إليها الطالبات كانت تدهشني بنوعية إصغائها. كان مستوى من الإصغاء يكرّم المتكلّم. وكان ذلك يترك أثره في الحاضرات. وبينما كنّا جميعاً نتكلم بالعامية، كانت هي، إذا تدخّلت، تكلّمت بالفصحى. كما علّمها

سعاده ـ وبعبارات قصيرة لتلفت إلى وجوه جديدة للموضوع المطروح، ولا تشتبك في جدال. وإذا سألت جاءت أسئلتها موجزة بسيطة لكنها تفرض وجهة مختلفة. كان لحضورها، على خفره، سرّ خاص، هو بلا ريب سر ذلك الإيمان والتماهي الكامل مع ما تمثله، وسرّ التأمل الطويل في الطريق بين الرؤيا والفاجعة. كانت تلك الاجتماعات تنجح دائماً دون أن يعني النجاح انتساب الحاضرات إلى الحزب. أهم ما كان ينتج عنها هو سقوط الأوهام والأفكار المسبقة حول الحزب وانكسار حاجز الفرية. وبفضل خصوصية حضورها، كان يولد جو من الإصغاء والتفهّم والتعاطف والرغبة في مزيد من المعرفة ومزيد من اللقاءات.

في ذلك اليوم، كان الاجتماع قد انتهى وانصرفت المدعوات عندما وصل شخص وأخبر عن اغتيال ضابط كبير في الجيش. اضطربنا. لم نتبادل أي تعليق. لكن لم يغب عن أي منّا احتمال ارتباط الاغتيال بمشروع انقلاب (في بلد تعددت فيه الانقلابات)، وكلّ انقلاب عسكري يحمل مفاجآته، والحزب في مقدمة المتأثرين. سألتها ماذا ستفعلين. قالت لا أعرف. لا شيء. سنفهم بعد قليل. أنت اذهبي إلى بيتك.

كان معظم الأعضاء اللبنانيين الذين جاؤوا لحضور الاجتماع الدوري للمجلس الأعلى قد غادروا، ومن بقي سارع للانطلاق. وهي تقف وحيدة تودّع.

ذهبتُ إلى مركز الحزب، وكان في طريقي، وهناك عرفت تفاصيل الخبر. الضابط القتيل هو العقيد عدنان المالكي والقاتل هو القومي يونس عبد الرحيم. أحسست برجفة في قلبي هي أكثر من الخوف. حاولت أن أفهم. لم يكن أحد يفهم شيئاً والكل مصاب بالذهول. ثمّ ذهبت إلى البيت.

كنا أختي سنية صالح وأنا في غرفة صغيرة عند جارة، في مكان مرتفع من حي المهاجرين بدمشق، في طابق ثالث في مبنى مُعتم له درج حلزوني تنفتح عليه أبواب عديدة. أختي سنية كانت قد عادت من المدرسة. الجارة في البيت قبل موعدها، ربما بسبب رهبة ما وقع.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً ونحن نستعد للنوم سمعنا ما يشبه طرقاً خفيفاً على الباب. خفنا ولم نفتح أو نسأل عن الطارق. تواصل الطرق الخفيف. أحسست بغرابة الطرق الذي لا يكاد يُسمع. أخيراً سألت، من؟ اجابني صوت منخفض: (أنا العمّ) وهو لقب رئيس الحزب يومذاك جورج عبد المسيح أو اسمه المستعار أو كنيته. فتحت مسرعة. سألت باستغراب: ما القصة؟ قال: ألم تسمعي بما حصل؟ قلت، تعني مقتل الضابط؟ لكن ما علاقتنا بذلك؟ أجاب: لا علاقة لنا. لكن القاتل قومي. ولابدّ أن يتعرّض الحزب للمساءلة. وتعرفين أنني محكوم بالإعدام في لبنان. إن قبضوا عليّ سيسلمونني. هل أقدر أن أدخل؟

وقعت عليّ عبارة سيسلمونني واتّصلت بكلمة الإعدام. أي كما حصل لأنطون سعاده. مثل البرق مرّ في رأسي سؤال: هل أقدر أن أتركه يُسلم إلى لبنان ليعدم مثل أنطون سعاده؟ سؤال يحمل جوابه. قلت تفضل، وأدخلته إلى الغرفة. خافت أختي ولم تتكلم. قال انزلي قولي لكامل حسّان واسكندر شاوي أن يذهبا. نزلت، بحثت، انتظرت، ولم أر أحداً. غضب لما عرف أنهما ذهبا قبل التأكّد من وصوله إلى العنوان وقال، ماذا لو أنني لم أجدك؟

بدأت أسأل نفسي، كيف الخروج من هنا والمبنى يعجّ بالسكان المحافظين؟ وكيف سيتمكن شاوي وحسّان أو غيرهما من دخول هذا المبنى دون إثارة التساؤلات لاسيما في مثل ذلك الظرف؟ وباختصار دلني على بعض البيوت وذهبت في الليلة التالية أدعو اسكندر شاوي الذي جاء وتولى تهريبه.

لمّا قُبض عليّ خفت لأول وهلة. ثمّ تذكرت الموقف وسألت نفسي: هل كنت اقدر أن أسلم رئيسي ليُسلم إلى لبنان حيث يواجه حكماً بالإعدام؟ هل كنت أقدر أن أحنث بقسمي الحزبي الذي يفرض عليّ أن أساعد رفاقي وأحميهم؟ طبعاً لا. وإذن لابدّ من حمل النتائج. وهكذا وصلت إلى التحقيق باردة القلب والأعصاب. قمت بواجبي، ولهذا ثمن قبلت أن أدفعه راضية، لأنه أسهل بكثير مما كنت سأحمله طول عمري لو رفضت استقباله وقُبض عليه. سألني المحققون كيف تفعلين هذا؟

بل قال لي القاضي جلال عقيل «يا بنتي، ماذا صنعت بنفسك؟» أجبت، قمت بواجبي فقوموا بواجبكم. لا يهمني الحكم. وبالفعل كنت مستعدة لكل شيء.

أورد هذه الوقائع فقط لأقول إنني لم أفهم في أي يوم، ولا أقدر أن أفهم كيف ولماذا تُرِكَت جولييت المير سعاده لتقع في أيدي الضباط الغاضبين لمقتل رفيقهم. مع أنه ثبت في التحقيق الطويل جهلها وجهل كبار المسؤولين الموقوفين من المدنيين بكل ما يتصل بمقتل الضابط، لم أفهم كيف تُرِكَت مع بناتها الطفلات لذلك المصير وهنّ ما كدن ينهضن من محنة قتل أنطون سعاده.

بيت الإلجاء والحماية، الذي فُرِض عليه أن يكون ملجأ لرئيس الحزب ولكل لاجئ من لبنان؛ البيت الذي تحمّل أعباء الإلجاء وتبعاته على مستويات مختلفة، تُرِك، وتمّ التخلي عن أهله. وقصة الأوراق التي عُثر عليها في البيت تبلبل العقل.

ليس من شأني أن أتّهم أحداً، ولم أقم خلال ما يقارب نصف قرن بأيّ استعلام أو استطلاع. وسمعت عن قصص وكتب تناولت موضوع الاغتيال ولم أسعَ للحصول عليها ولا استفهمت عنها. أعرف شيئاً واحداً: جولييت سعاده البريئة تُرِكت.

لم يعذّبني السجن ولا التحقيق الذي طال كثيراً، وفي بعض المرات استمرّ ستاً وثلاثين ساعة متوالية دون نوم ودون أن أنهض عن الكرسي. ولا آلمني تسريحي من عملي ولا عذّبني ما أصاب أختي وأسرتي. عذّبني هذا السؤال: كيف تُرِكت؟

وفي خضمّ التساؤلات التي بلبلتني بدا لي أنّ الخطأ، أو الفشل، يُفتدى بالضحية. وكما مات المؤسس لنبل الموت مع الرفاق في ثورة ليس لها من الواقعية غير واقع الإيمان بالحق في العمل السياسي والكرامة وتمسّك الرفاق بالرد على التحدي، أي الواقع العلائقي النظري الفكري لا الميداني، تُرِكت جولييت سعاده (الأمينة الأولى) في الحزب تقع بين أيدي العسكريين الغاضبين؛ تركت كغنيمة رمزية، واعتُقلت كغنيمة رمزية غير عسكرية أو سياسية.

وبالفعل فإنّ جولييت المير سعاده مثّلت في الحزب ما هو أكثر من العمل الحزبي. هي نفسها عملت بوعي على ما تسميه هنا (وحدة الصف) لكنها فوق ذلك كانت الصورة التي تستحضر معنى الفداء في مقتل أنطون سعاده: كانت بملابسها السوداء ووجهها الملائكي ببراءته البديهية، مع بناتها اليتيمات على ركبتيها، هي الأيقونة التي تحرس المعنى أو الرمز التمّوزي الذي أنتجته فاجعة 8 تموز. كانت صورتها تلك مع راغدة وأليسار وصفية بجدائلهنّ وبراءتهنّ، وهي تتصدّر بيوت القوميين، عنواناً آخر لتلك الفاجعة.

ولابدّ لي هنا من القول إنّ جولييت سعاده في مواقفها خلال التحقيق و المحاكمة حرصت على كرامة ما تمثله وما تصوّرت أن القوميين ينتظرونه منها؛ منذ البداية لم تخطّط للدفاع عن نفسها ومحاولة إخراج نفسها من مأزق لا يدَ لها فيه ولا علاقة. لم تحسب حساباً لنفسها ولا تحسّبت للنتيجة. كان اهتمامها منصبّاً على حماية الحزب والدفاع عن المؤسسة. فكانت في موقفها الشجاع الملتزم، وربما دون أن تدري، تقدّم نفسها كهدف ثمين. وكل ما عبّرت عنه من أنها لا تمثل أكثر من رمز جاء متأخراً وتالياً للأحكام التي لم تتوقعها.

وبالنتيجة حوكمت جولييت سعاده بوصفها «الأمينة الأولى»، أي بما تمثّله لا بما فعلته ولا بناء على وقائع. ومن الأدلة على ذلك مرافعة المحامية التي كلّفها الادعاء بعرض قضية جولييت سعاده. لم يكن في تلك المرافعة ما يتصل بأية أدلة على مسؤولية المتّهَمة. بل ركزت المحامية كلامها على شخص جولييت سعاده و«خيانتها لمعاني الأمومة الأنوثة»، أي هاجمتها في موقعها وبما تمثله لا بما فعلته. بينما اختصّ محام آخر بمهاجمة أنطون سعاده الغائب كشخص وأفعال الحاضر كأفكار. ولمّا رفض رئيس المحكمة التوقيع على الأحكام التي صدرت بالأكثرية، أبعد القضاء السوري عن تلك المعركة وألقى بمسؤولية الحكم على ذمة السياسة ومعارك الأحزاب.

في السجن التقيتها، رغم وجودنا في «الانفراد»، بفضل تواطؤ بعض الحرس. فقد كان حضورها يوقع في أنفس الحرَس كما يوقع في أنفس القضاة، حرَجاً وإحساساً بالظلم. بل إن حضورها في قاعة المحكمة كان يكشف هيبتها ويريك توزيع المواقع. وكنّا نستقوي بحضورها وهي تتحوّل إلى محط الأنظار وقطب المشاعر والتساؤلات. وربما تحسّباً لهذا الاستقطاب المعنوي، جيء، في بعض المناسبات، بحشد كبير من الضباط، من مختلف الرتب، جلسوا في الصفوف الأولى وهم بملابس الجبهة. أما هي فلم تكن تلتفت ولا تتكلم. وقد خفت من شعورها ببديهية براءتها وتركيزها على الدفاع عن الحزب. قلت لها احصري همّك في الدفاع عن نفسك. ليس عليك أي مسؤولية في أي شيء، وليس مطلوباً منك الآن أن تحمي أحداً. قالت لي: لكن عن أي شيء أدافع؟ لم تُوجّه لي تهمة محدّدة. يسألونني عن أشياء كثيرة عامة في الحزب. ورفاقي هم الحزب. كيف لا أدافع عنهم؟

كانت غرفتها فوق غرف التحقيق. مرة واحدة لسبب ما سُمح لي بالذهاب إلى الحمام ليلاً، وكان قرب غرفتها تماماً وله نافذة صغيرة مقفلة لكنها تطل على موقع التحقيق. سمعت صوتاً. فجأة وقف شعري وأحسست بشيء يمسك ما بين كتفيّ، واصطكت أسناني. ما ذلك الصوت؟ لم يكن صوت إنسان ولا صوت حيوان. صوت قادم من عمق مجهول، من وحش مجهول. أسرعت إلى الغرفة ولم أنم ولم آكل ولم أتوقف عن التساؤل. لا يمكن أن يكون إلا صوت شخص يعذبونه. سألتها بعد أيام، فقالت إن أشدّ ما يعذبها وينهكها هو سماع هذه الأصوات في الليل، وأنها لا تقدر أن تنام لأنّ الأصوات تبدأ دائماً في الليل.

لابدّ لي من التوقف عند ما ذكرته حول الوصية التي حمّلتني إياها إلى مسؤولي الحزب:

كنت بعد مضي خمسة أشهر قد خرجت بكفالة من السجن، كما خرج عدد كبير من المتّهمين بالجُنَح. ثمّ لم تمض أيام حتى أعادوني وأعادوا معظم الخارجين بكفالة، من شمال سورية إلى جنوبها، بتهمة إلقاء قنبلة أو متفجرة على منزل

قاضي التحقيق المدني جلال عقيل. أنزلوني إلى التحقيق وجابهوني بالتهمة. نفيت واستنكرت. فقرأوا عليّ إفادة شخص يزعم الاشتراك معي في إلقاء المتفجّرة ويفصّل مجموعة كبيرة من الوقائع والأسماء والبيوت التي يدّعي أننا ذهبنا إليها، وذكروا اسمه على أنه لبناني من عائلة بيروتية معروفة. أجبت أنني في ذلك اليوم نمت في بيت صديقتي فلانة وأبوها هو فلان وكان هناك ضيوف غير حزبيين سهروا حتى ما بعد منتصف الليل، وجميعهم يقدرون أن يشهدوا أنني لم أتحرك ولم أخرج إلى أي مكان. رفض المحققون استدعاء الشهود ووضعوني في الانفراد كالمعتاد، لكن فتحوا زجاج النافذة ووضعوا شبكاً خشبياً، ومنعوني من إطفاء النور، ووضعوا شرطياً يصوب بندقيته نحو الداخل. كما رفضوا أن أستدعي محامياً. في اليوم التالي كانت هناك جلسة محكمة. لم ينزلوني، لكن القاضي طلب حضوري باعتبار أن الدعوى واحدة. أنزلوني مخفورة وعزلوني عن الآخرين. وفي كل يوم يضغط المحققون عليّ للاعتراف بإلقاء المتفجرة ويصرّون على صحّة ما جاء على لسان ذلك الشاهد المزعوم.

بعد يومين كانت هناك جلسة فأنزلوني منفردة ووضعوني محاطة بالشرطة منفردة. تلفّتُّ حوالي، كانت القاعة تزدحم بالناس، بعضهم من أهالي المتهمين، بعضهم حزبيون من خصوم الحزب، بعضهم معنيون أو متفرجون.

قلت للشرطي أريد أن أقابل المدعي العام. سأله فرفض. طلبت مقابلة رئيس المحكمة فرفض. ناديت بصوت عال وقلت أريد التكلم مع محاميّ. في البداية رفضوا. كنت واقفة والناس ينظرون وأنا أحتج. ثم جاؤوا بالمحامي يحيط به شرطيان وقيل لي معك دقيقتان. كنت قد أعددت نفسي ورتبت جملتين تختصران الموضوع. صرخت بأعلى صوتي: «المخابرات ضربت جلال عقيل ويتهمونني. عندي عشرة شهود لا يدعونهم وجاؤوا بشهود زور». قبل أن أكمل تعالت أصوات الضباط «بس بس». سكتّ؛ لكن الصرخة وصلت. وجلست هادئة بينما الهمهمة واللغط يتعالى، والمطرقة تطرق لإسكات الناس. لقد أوصلت صوتي، الآن إذا حُكِمت لن أذهب

مظلومة في الخفاء والغموض أحمل تهمة بشعة وباطلة. في اليوم التالي أطلق سراحي.

الأيام القليلة التي أمضيتها أواجه هذه التهمة الباطلة كانت تعادل سنوات من السجن. في الأشهر السابقة، مع أنهم كانوا يهددونني بحكم لا يقل عن عشر سنوات، لم أضطرب ولم أحس بأي ظلم. هو ثمن سأدفعه عما قمت به باختياري. أما الظلم فلا شيء في الدنيا يعادله في القسوة والقهر. وفي ذلك الإحساس لم تفارقني صورة جولييت سعاده وصورة بناتها لأنهن كنّ شريكات في تحمّل ظلم هائل مزدوج لم تنفع معه براءة ولا طفولة.

في تلك المناسبة لم ألتق السيدة سعاده. لكن لمّا عدت لأكمل مدة حكمي قبل الذهاب إلى لبنان، بحيث أذهب حرة بلا ملاحقة، التقيتها. وكانت تعرف أنني لن أعود. أخبرتني ببعض التفاصيل التي توردها في هذه المذكرات حول ظروف اعتقالها والأوراق التي يقولون إنهم ضبطوها في البيت، وطلبت أن أذهب إلى مركز الحزب في بيروت وأبلغ المسؤولين. لكنني قلت لها، لا أعرف كيف سيستقبلون كلامي الشخصي، وقد لا أعرف كيف أتصرف، فقد يعتبرونها مبادرة مني، وربما ظنّوا بأنني مستاءة بسبب الاختيار الذي وقع عليّ وأدخلني السجن. وقد لا أصل شخصياً. لكن إن كتبت رسالة خطيّة أتعهد بإيصالها مهما حصل. المهم أن يصل صوتك أنت بلا وساطة.

كان يجب أن تصرخ صرختها وتوصل صوتها ولو إلى الحزب. الصمت على الظلم موت مزدوج. أعطيتها دفتر الأدب الفرنسي فكتبت عليه بالإسبانية لأختها ديانا. وهكذا أمكنني إيصال الدفتر إلى ديانا في بيروت، وهي أوصلته إلى المسؤولين في الحزب. لم أذهب إلى المركز، لكنّ مسؤولاً من المجلس الأعلى جاء وطرح عليّ بعض الأسئلة وبدا أنه مطّلع على الشكوى.

أشكر لهذه المذكرات تقديمها لصورة أنطون سعاده في حياته اليومية العائلية والحزبية، في عفويتها وبساطتها وجمال إنسانيتها، حيث نراه في سلوكه مع بناته

وفي كفاحه اليومي ضد الفقر، ونرى واقعية الرفاق في حياتهم اليومية، في تفانيهم أو في احتيالهم على الدهر والفقر وحتى على الحزب، ككل البشر. ونرى إلى ذلك الواقع الغرائبي القاسي المتناقض، واقع الهجرة والغربة، أي الانفصال عملياً عن البيئة التي يعمل الحزب لإنهاضها، ومن داخل حدود الواقع اليومي الصعب والإكراهات المتعددة. وبينما نرى أنطون سعاده يطول بنشاطه وعمله مساحات شاسعة من المهجر إلى الوطن، نلقاه وهو يعمل في الدكان ويركب الدراجة لتوزيع الجريدة ويكافح الخفافيش في سقف البيت ويتولى مهمات الجريدة من الكتابة إلى صفّ الحروف إلى الطبع والتوزيع، ويكدح كأي كادح، ويتحسّر لأنه لا يجد الوقت لكتابة الجزء الثاني من نشوء الأمم بينما يغرق في مشكلات يومية. ونرى نقاط ضعفه ومرضه وحاجته للعناية الشخصية.

نرى هذا كله متداخلاً بلا انفصال بمعضلة فعلية واجهها، وهي التأليف بين فكرة أو رؤية قومية عالية وإشكالية، وبين المنظومة الحزبية كأداة لتحقيق تلك الرؤية. فمنذ كان في المهجر بل منذ التأسيس الأول للحزب بدأت معاناته مع المحازبين. وتاريخ أنطون سعاده هو تاريخ محاولاته وبحثه منذ 1921، وكان في السابعة عشرة من عمره، عن طريق للعمل حين كتب أوائل مقالاته حول الصهيونية(*).

أواخر عام 1967 التقيت الأمينة الأولى رفيقة سعاده في باريس، مع الشاعرين الراحلين، فؤاد الشمالي، صهرها، وكمال خيربك.

لم تكن سنوات السجن الطويل قد بددت تلك الهالة الخاصة التي تشع من حضورها. ولا كان اهتمامها بالحزب وشؤونه قد تغيّر. لكنها لم تفاتحني في مسألة خروجي من الحزب، ولا تكلّمت على مرحلة السجن. وأدركت الفارق الهائل بين ارتباط كلّ منّا بالحزب، كان ارتباطي من مستوى السياسي المحدّد ببرنامج وأهداف؛ أما ارتباطها فلم يكن منفصلاً عن وجودها ذاته ولا عن هويتها الكيانية،

(*) أنظر عرضاً مفصّلاً لمسيرة سعاده السياسية قبل تأسيس الحزب في:
Sofia A. Saadeh, Antun Saadeh and Democracy in geographic Syria; London: Folios, 2000, pp28-24.

ولا ينال منه حدثٌ مهما كانت طبيعته وهوله. حدثتني فقط عن البنات ودراستهن ومستقبلهنّ. لم تشر إلى أي مشروع خاصّ بها. مع أنني تمنيت أن أسألها، لكنني آثرت الصمت. وهي اكتفت بالقول إنها، حالياً، قد استأنفت عملها كممرضة في جنيف.

التقيتها في أوقات حاسمة من حياتي، وفي بعض محطات العذاب في حياتها. وكان ذلك لقاءنا الأخير. كأننا افترقنا البارحة، رغم الزمن الطويل الذي كان قد مرّ منذ خروجي من السجن حاملة رسالتها أو وصيتها، بينما هي عانقت مصيرها واحتضنت آلامها.

كانت ملابسها لا تزال سوداء، ووجهها لا يزال يحتفظ بذلك البهاء الروحي، وكلامها المؤمن يطلع من نبع صاف كأنه لم يعبر الأهوال. حتى خطوط الحزن في وجهها كانت حالمة لا قاتمة. وحدها نظراتها كانت تبحث عن غائب، وكأنها ترجع من سفر طويل.

خالدة سعيد

هذه مذكرات حياتي، هي من نفسي، من صميم الحقيقة التي عشتها مع زعيمي ورفيق حياتي وانتهت بفاجعة لا مثيل لها في التاريخ.

هذه الفاجعة التي ضربتني في صميم أعماقي تجرّني إلى التماس ذكريات كل دقيقة من الدقائق التي عشتها قرب زعيمي الخالد ورفيقي الوفيّ. ذكريات حياة عظيمة في أساسها، بسيطة في مظاهرها. فيها ارتفاع المثاليّة، وفيها هدوء النفسيّة الواعية، وجمال الحقيقة وقوّتها التي تدفقت بكاملها على مر الأيام التي عشتها قرب أنبل وأعظم رجل، النابغة والمفكر العميق. في هذا الفراغ المؤلم الذي تركه بيننا، نحتاج إلى ذكره ونهفو إليه في كل برهة من حياتنا، نحتاج إلى استرجاع تعاليمه، حقيقة حييناها في الصراع المستمر إلى جانبه، المعلم الهادي لكل الأجيال.

كم كنت أتمنى أن أقصّ على أولادنا حين شيخوختي، تاريخ حياتنا، ومعالم تلك الأيام السعيدة ظاهرة على وجهي، بينما هو جالس معنا يتابع حديثي، وأستعيد الأيام التي مرّت ويحياها معي، مجدداً تلك الحياة التي ابتدأت على أساس حب متين ومثالي ولكي يشعر بأن أيامي تنتهي متدفقة بالسعادة. أما التاريخ فقد وضع له نهاية جبّارة، ولكنها نهاية مُبكّرة، نهاية صبغت الحياة والذكريات بخطوط حمراء.. وتلك هي فاجعة الأبطال.

جولييت المير سعاده

الفصل الأول

هاجرنا من طرابلس إلى بوانس آيريس (الأرجنتين) وكنت في حداثة سني. وقد حافظنا في الأسرة على التقاليد التي تأسست عليها عائلتنا. وعلى رغم هذه التقاليد والمشاعر المرتبطة بتقاليد ومشاعر الأمة، فإن الفرد قد يفقد، وكذلك المجتمع بكامله، الشعور بجذوره الحقيقية؛ ذلك أن الروابط العائلية والاجتماعية والوطنية تنتهي عملياً، خصوصاً بين مهاجرينا الذين لم يغادروا الوطن إلا سعياً وراء المال وتأمين العيش. ولهذا كان من الضروري الاستقرار في تلك البلاد حتى يتوافر لهم الوقت اللازم لتحقيق ذلك الهدف، أي جمع المال والثروة. وربما تعرض المهاجر للفشل في مساعيه هذه، وهو يخوض تجارب كثيرة في وجود عائلة تكون قد ترسخت في تلك البلاد، فلا يعود أمامها مجال للعودة إلى الوطن إلا نادراً. وبهذا يفقد المهاجر الشعور بجذوره الحقيقية، ويبدأ البحث عن جذور جديدة في بلاد الهجرة تؤمن له الاستقرار والحفاظ على ثروته وعائلته.

أما نحن فقد هاجرنا إلى الأرجنتين لأن والدي كان مستوطناً فيها حتى قبل مجيئه إلى طرابلس وزواجه من والدتي، وفي الأرجنتين وُلد له أربعة أولاد. ومع ذلك لم نجد في تلك البلاد جذورنا، أو بالأحرى صَعُب علينا إيجاد جذور فيها. وظلت بالنسبة لنا بلاداً غريبة اضطررنا للجوء إليها بسبب وجود والدنا فيها، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى عندما واجهنا مخاطر الموت، وهربنا منه عند أول فرصة أتيحت لنا بعد انتهاء الحرب.

عادت والدتي إلى طرابلس بعد سنوات من الغربة، وقد أنجبت في بوانس آيريس أربعة أولاد، ثلاث بنات وصبي. إحدى بناتها، الأكبر سناً، ديانا توفيت وهي

في الثالثة من العمر. فحزنت عليها أمي كثيراً، وضَعُف جسمها. لذلك خطرت على بالها فكرة السفر إلى الوطن وتفقد والدتها هيلانة ملحم خالو. وهكذا قررت العائلة، أي والدي وأمه، أن تذهب أمي في زيارة إلى الوطن مع أولادها الصغار، وكانت حينذاك حاملاً بي في شهرها الثالث.

بعد أن وصلت أمي إلى طرابلس بمدة قصيرة، وبعد مجيئي إلى هذه الدنيا بأيام قليلة، توفيت جدتي هيلانة. وظلت والدتي حزينة عليها فترة لا بأس بها. ثم تقرر أن يأتي والدي إلى الوطن لدرس إمكانات العمل فيه. وبالفعل جاء إلى طرابلس، لكن بعد مرور حوالى السنة لم يُوفّق في مساعيه، فعاد إلى بوانس آيريس وكنت قد بلغت الثالثة من العمر. ثم أنجبت أمي مولودة أسمتها مارغريت، لكنها توفيت باكراً. لم أكن آنذاك أذكر والدي، ولا أتذكر شيئاً سوى ما كنا نسمعه من والدتنا عن أخباره، وما كنا نشاهده في الصور. أما أختي كتالينا وأخي جورج فكانا لا يزالان يذكرانه، ويتذكران حياة الأرجنتين واللغة والأصدقاء لأنهما كانا أكبر سناً وأكثر وعياً في تلك الأيام. وبالنسبة إلى عودتي مع أمي وأخوتي إلى الأرجنتين فقد سبقتها أحداث الحرب العالمية الأولى التي لم تترك لنا مجالاً للهرب منها، ونالنا قسط كبير من الحرمان والجوع والأمراض. وعندما وصلنا إلى الأرجنتين أخيراً، كنا نختزن في أنفسنا الكثير من مشاعر وطننا وتقاليده، والأحاديث التي كنا نسمعها عن أجدادنا وكانت تشكل بالنسبة إلينا حقيقة تلك الجذور التي تحيا فينا.

حياة الجالية في الأرجنتين لها طابع غريب. فمن ضمن هذا الجو والمطالب التي تعيش فيها، كانت تمثل هيئات اجتماعية غريبة أيضاً. وكان للمال المركز الأول في أوساطها. وتغلّب هذا المركز على المراكز الفكريّة التي كان من الممكن الوصول إليها، إذ لم يهاجر من بلادنا حاملو الشهادات والعلوم، بل ولا المهتمّون بالفكر والأدب إلا نادراً. وهؤلاء النادرون كانوا ينعزلون جانباً لأن المحيط العام للجالية يجاهد للحصول على الأموال والثروات. وحين كان أولادهم ينطلقون في طريق العلم والفكر، فإنما كان أكثرهم يتحركون بشعور المواطن الأرجنتيني الذي لا يربطه

أي رباط فخر واعتزاز بتراث آبائه وأجداده، خصوصاً وأن فكر الآباء والأجداد لم يكن يحمل سوى النقمة على بلاد حكمتها السلطنة العثمانية واستبدت بها.

لم أذكر بداية الحرب العالمية الأولى، ولم أشعر بحرمان مادي في ذلك الوقت. كانت الحياة تسير في بيتنا طبيعية كالعادة، وكنت أحبّ بيتنا وفيه قضيت معظم طفولتي. وكنت أجد فيه المجال للّعب والالتقاء بأولاد عائلتنا وجيراننا الذين أصبحوا يشكّلون في حياتي مراكز حساسة. إذ كان لي فيهم عبرة وكل واحد له خصائصه وطبيعته، وكل بيت له طابعه الخاص أيضاً. هذه الأمور الصغيرة والكبيرة كانت لي عالم خبرة وتجارب، وفيها ابتدأت أفكر وأتأمل وأعي.

كنت أحب بيتنا الصغير الدافئ، وكل شيء فيه كان يمثّل لي حكايات تتطوّر مع الأيام وصوراً منعشة أذكرها بحنان. أشياء صغيرة، جداً صغيرة كانت تحتل مكاناً كبيراً في مخيّلتي. لماذا؟ لا أحد يستطيع أن يفك هذه الأسرار النفسيّة. وعندما نكبر نجد أنفسنا تحت مفعول هذه الأشياء الصغيرة وقد أصبح لها في نفوسنا مكان عميق. يرافقنا هذا الشعور دون إرادتنا، وما إن يبرز هذا الشيء أمامنا صدفة حتى تطل ذكريات جميلة وبعيدة تشدّنا إلى تلك الطفولة التي حييناها في بيتنا، في أرضنا، في وطننا.. ونعود لنبحث عنها طيلة حياتنا حتى النهاية.

ولكن ما إن انصرمت السنتان الأولى والثانية من الحرب وما إن فقَدَت والدتي كل الطرق للحصول على المال مباشرة أو غير مباشرة من والدي، حتى ابتدأت تصرف من أغراض البيت ما تستطيع التخلّي عنه من أثاث وفضيّات ونحاس وقناديل إلى ما هنالك. في نفس الوقت كانت قد ظهرت علامات الجوع والأمراض في الشعب، وبات منظر الشوارع مؤثّراً وفيها يطوف الناس، شبه عراة، شبه أموات، يرتجفون من البرد وهم كالهياكل العظمية تلفّها خرق بالية.

هذه المشاهد عند الأطفال، هؤلاء التعساء الذين فقدوا آباءهم وأمهاتهم بسبب الأمراض الوبائية المتفشية، لا أستطيع ذكرها، ولا أستطيع محوها من مخيلتي.

أطفال بالكاد يتكلمون، عيونهم مفتوحة كالرعب، واجفانهم لم تعد تطبق وهي معلّقة من مرض الباري باري أي فقدان الفيتامينات. عظام صغيرة تخلو من اللحم، وقطعة خيش تلفها في الوسط. يستعطفون، وهم لا يستطيعون السير، لقمة صغيرة قدر الإصبع. القاذورات أصبحت مكان التفتيش من قبل الأطفال، لعلّ قديراً مقتدراً أهدر في ساعة غفلة فتافيت من الخبز أو الطعام.

كنت صغيرة مثلهم، وكنت أرتجف مثلهم من الحزن. ولم تكن حالتنا في البيت لتسمح لي بالتخلي عن حصتي من الخبز، فقد كان الحرمان موجوداً أيضاً في بيتنا. ولكن أمي ظلت ساهرة علينا، تستر ما تستطيع من حرماننا، وتلفّتنا إليها، فنقعد في البيت بانتظار جواب لبيع قطعة ذهب من مجوهراتها أو خزانة أو شيء ما يكفي أياماً قليلة لشراء خبز يردّ غائلة الجوع. أذكر ذاك البيت الذي كانت حديقته مكان سلوتي، وفيه أشجار الورد الخيّر، وتشكيلات من الزهر نسقتها والدتي في ساعات الترفيه، واعتنت بها وكنّا نرويها بدلو صغير عند الحاجة. أذكر فيه قاعة الجلوس وفيها على الصفّين مقاعد طويلة قرب النوافذ المطلة على الحديقة من أحد الجوانب ومن الجانب الآخر على الدار. أذكر قنديل الكاز الكبير المدلّى من السقف، وكيف كنت أحاول إنزاله بجنزير خاص لإشعاله ولا أفلح. أذكر ليالي الشتاء وأقاربنا مجتمعون في بيتنا ومنقل النحاس الكبير مليء بالنار. أذكر كيف كانت تعقد فيه الاجتماعات العائلية في الأعياد وعندما ندعو إحدى العرائس والبيت كله مضاء بأنوار الكاز. ومن وراء هذه الأنوار الظلال الطويلة التي تنعكس على الجدران، كنا نحن الأطفال نسمع رنين الضحك ويدخل قلوبنا الفرح واللامسؤولية، وكأن الحياة ليست غير هذا.

كنت أهوى الشارع الضيّق أمام بيتنا، وكل الشوارع كانت مثله. على الجانبين بيوت أدخلها وكأنها بيتي، خالتنا روزة وعائلتها تسكن أمام بيتنا، قربها بيت أصدقاء وقربه أقرباء آخرون. سقوف هذه البيوت تطل على سقوفنا وهناك نلقاهم ونحدثهم. وفي كل زاوية وفي كل ممرّ بيوت لأصدقاء ورفقاء من المدرسة. لكن في السنين

الأخيرة للحرب اختفى من أمامنا هذا الجو الهنيء وضاعت العائلات وتفرّقت عن بعضها. ولم يعد يوجد ركن للعائلة. فانشلّ المجتمع بين الحرب والأمراض، ومن بقي منه ذهب ضحيّة الجوع.

تلك البيوت التي كنت أدخلها أيام الهناء والطمأنينة، ألعب في أروقتها الرخامية الواسعة ذات الجدران المزخرفة، والحدائق المليئة بالأشجار والفاكهة، نقطف منها مع أولاد البيت، خلسة عن آبائهم، الفاكهة الخضراء لنلعب بها ونرميها.. كل ذلك لم يبق منه شيء، وقد مات جميع أفراد تلك العوائل بعد أن باعوا ما فيها من أثاث وأغراض، وذهبوا ضحية الحرب في الجبهة أو الأمراض التي جلبتها الحرب أو الجوع. ودخل هذا البيت جائع ومريض وعريان، واحدٌ ليقتلع النوافذ ويبيعها أو يتدفأ بها، وآخر يستر عُريه ويأوي بعيداً عن النظر. وحتى رخامها لم يسلم. وفي الليل عندما كنت أمرّ أمام هذه البيوت وأذكر من كان فيها وكيف أصبحت الآن كالهيكل دون نوافذ ودون أبواب ودون سقوف، يدخل شعاع القمر إليها ويتسرّب من سقفها إلى أنحاء الغرف والدار وكأن أصابع تمتد لتتناول ما بقي فيها، سكانها السكون والجرذان فقط، كنت أرتعب وأركض وكأنني أشعر بأن هذا سيكون نصيبنا قريباً، فأركض وأركض حتى أصل البيت وأقترب من أمي وأبقى صامتة قربها طويلاً. أقول لا، لا، لا تأخذ أمّنا من بيننا، وأنظر إليها وهي تذوب أيضاً، بينما أصابعها تغزل من الصوف الذي أخرجته من الفراش الذي بقي لدينا، تغزله ليلاً ونهاراً، وقد علّمتنا الغزل لنساعدها ونردّ عنّا البرد إذ لم يعد لدينا سوى قماش الوسائد المخملية التي صنعتها لنا تنانير ومن الغزل كانت لنا الكنزات واللفافيح.

وعلى رغم هذا لم ترد والدتنا أن نترك المدرسة ونحن لا نملك مالاً لندفع الأقساط. فعمدت إلى التفاهم مع مدراء المدارس لشقيقي ولنا، وهو كان في مدرسة الفرير ونحن في المدرسة الإنجيلية في طرابلس التي كان يديرها الأستاذ شكري فاخوري. وكانت المعلمة في المدرسة من الكورة، اسمها الأول زمرد، لكني لا أذكر لقبها. وصيغة التفاهم بين أمي والمدرستين كانت على أن تدفع لهما القسط

مضاعفاً بعد انتهاء الحرب، وكان هذا بالنسبة إلينا فرصة لتجنب المأساة التي كان علينا مشاهدتها في كل مكان. ومع أن الحرمان الموجود في البيت رافقنا إلى المدرسة، إلا أننا كنا نحتفظ بكبريائنا بطريقة مدهشة. كنا نرى كيف أن الأولاد الآخرين ينعمون بكل شيء إلى حد الإفراط، غير أننا لم نفقد مرّة واحدة شعورنا بالكبرياء. والغريب أن الإنسان عندما يشعر بتلك الأوضاع، يعمد إلى الدفاع عن نفسه بالتمسك بالكبرياء حتى لا يفقد هذه الهالة من الشجاعة.

لم يكن أحد ليدعم أحداً أو يقف إلى جانبه في تلك الأيام المشؤومة، وقد ظهرت في بلادي أمراض لا يقدر على تصورها العقل البشري من قسوة وأنانية، بل حتى إن الجوع وموت الآخرين تحوّلا إلى مجالات للطمع والاستغلال عند بعض الناس. فلم يعد المرء إنساناً بل تحوّل ذئباً.. وهؤلاء الذئاب صنعوا ثروات كبيرة على حساب الضحايا، ضحايا الحرب.

وكانت الأجراس تقرع بحزن طيلة النهار، وكنّا نعرف أنها تدعو إلى الصلاة على أرواح الموتى. وعندما يسمع الأهالي ذلك الرنين الحزين كان سؤالهم الأول: من مات؟ ودائماً ما يكون أحد الأصدقاء أو الأولاد. فيعمّ الحزن إذ إن المصير إلى هذه النهاية أصبح قريباً، والجوع يشمل الشعب، والأمراض الوبائية تتفشّى بينهم. ودامت هذه الحالة طويلاً، حتى إن أحداً لم يعد يسير وراء ميت ليشيّع جثمانه، فتوقفت الأجراس وأخذ رجال الدين على عاتقهم دفن الأموات بصمت من دون أجراس. وكم من المرّات وأنا ذاهبة أو عائدة إلى البيت، كنت أصادف تابوتاً مرفوعاً على أكتاف شخصين اثنين، ولا أحد وراءه سوى الكاهن أو الشيخ يتمتم بصوت ضعيف، لعله هو أيضاً مريض أو جائع، صلاة مختصرة قبل أن يواريه التراب. وهكذا كان الخوف يزيد الأنانية ويدفع الإنسان لأن يحافظ أكثر وأكثر على ما يملكه سواء كان قليلاً أم كثيراً.

أما الحالة العالمية، الاقتصادية أو السياسية، فلم أكن أعيها في ذلك الحين. إنما كنت أسمع أن مهربي الحنطة من سهول الشام كانوا ملاحقين من قبل الدرك

حتى القتل، إذ إن الجوع كان يدفع سكان لبنان الذي ليس فيه هذا الكنز النادر إلى الحصول عليه خلسة من سهول الشام وتهريبه إلى لبنان لبيعه بأرباح كبيرة أو لتأمين قوت عيالهم. وكانت الحبوب من بلادي تذهب كلها إلى العنابر التي تحجزها الحكومة التركية لتمدّ بها حلفاءها العسكريين، وهم الألمان. وكان الجيش التركي، وكل جندي إجباري من سورية - وهؤلاء في فوهة المدافع - يموتون من الضعف وقلة التغذية والحرمان من الخبز والطعام. ووصل الغش في الرغيف إلى حدّ لم يتصوره العقل، ومنه مزج نشارة الخشب والصفوة.. إلى ما هنالك من أساليب حفظ المواطنون من ذكرها الكثير. وقد تعرّفنا على خبز الذرة وأحببناه كثيراً، لكن حتى هذا لم يكن وجوده سهلاً.

ومن الأمراض والجوع والكراهية للأتراك واستبدادهم، كان رجالنا يتهربون من العسكريّة وكان الموت عقاباً لكل فارّ من الخدمة. ومن المشاهد المحزنة صورة الدرك وهم يصوبون بنادقهم إلى كل أفراد العائلة عند تفتيش البيوت، بل وإطلاق النار على الفارّ إذا وجدوه. ومرّات يصطحبون أمهات وأخوات الفارّين ويعدمونهن دون تحقيق ودون مراجعة قانون. وقد اختفت من شواطئنا كل المراكب والزوارق وأصبحت أكواماً من الحطب بعد أن أضرموا فيها النيران خوفاً من الهرب إلى شواطئ بعيدة والإفلات من قبضة المستبدّين.

وغابت عن شواطئنا تلك الزوارق البهيجة ومعها الهيصة عند دفعها داخل البحر، وكذلك وصول غلة الصيد من مياهنا. وسرعان ما أصبحت شواطئنا خالية من المارة وبائعي النقولات والخس والخبز بالسمسم المرتب على فرش خشبي كبير يحمله البائع على رأسه، ثم يعود عند الغروب منفرج الأسارير وجيبه مليء بالعملة الرنانة التي كانت تسقط في جيب عميق داخل سروال طويل السرج. وكنا نحن الأولاد، وقد قلّ عددنا كثيراً أثناء الحرب، نؤمّ الشاطئ خصوصاً أيام الصيف وكأننا نبحث عن طريقة لنمضي النهار الذي لم يترك للصغار أي مجال للتمتع في بيوتهم.

وانتهت الحرب العالمية الأولى، وكانت ليلة غمر فيها ضوء القمر بيتنا كله، خصوصاً غرفة العليّة التي كنّا ننام فيها، وسمعنا الأجراس تدقّ بفرح، وصفير الإنذار يطول، والأصوات في الشوارع تهرج وتمرج ومن كل حدب وصوب أصوات فرح. وبعضهم كان يبكي، يبكي وحدته وفقدان أحبائه، قبل أيام قليلة ماتوا قبل أن يروا الفرج، هذا الفرج الذي كان الخلاص من الموت.

أمي أيقظتنا واحداً واحداً وغمرتنا، وقفنا عند النافذة قربها نسمع أصوات المارّة الذين استيقظوا وطافوا الشوارع يعبّرون عن فرحهم وفرجهم من ذلك الجحيم. وكنا نبكي، بكينا كلّنا لأن أمي كانت تبكي. إنها حياة شاقة وطويلة في نهايتها شؤم وموت (حدث هذا سنة 1918 أي بعد خمس سنوات حرب).

وعندما انتهت الحرب، أخذت تتوافد إلى بلادنا عساكر من مختلف أنحاء العالم من بينهم الأستراليون والهنود والمصريون والسنغاليون والإنكليز وغيرهم. وكانت الأسواق والشواطئ مزدحمة بهذه الوجوه الغريبة. وكنا في تلك السن الصغيرة نسرّ برؤيتهم وندهش لعاداتهم مثل القبعة ذات الريشة الصغيرة على رؤوس الجنود الأستراليين، والجنود الأسكتلنديين بتنانيرهم التقليدية مع الحزام العريض الذي ينتهي طرفه بذنب الخيل، والهنود في عماماتهم المتنوعة أشكالاً وألواناً، والمصريين وكان بعضهم بالجبة والقبعة الصغيرة. وكل هؤلاء الجنود كانوا من المناطق الخاضعة للنفوذ الإنكليزي، ومن بينهم «اللجيون دوهنور» أي المتطوعون.

لم نعِ في ذلك الوقت معنى أبعد من أنهم كانوا أدوات الهدنة والاستقرار. وبما أنهم أتوا بعد نهاية الحرب، فقد كانوا يمثلون بالنسبة إلينا أداة سلام. وما هي إلاّ أيام حتى حدث اتصال بينهم وبين بعض التجار المحليين وعدد محدود من العائلات، خصوصاً الأولاد الذين وجدوا في مستودعات الجيش الكثير من الأشياء التي تلذ لهم وكانوا يفتقدونها. واستطاع بعض المواطنين إقامة تجارة صغيرة مع الجنود، وقد وصل إلى كل بيت، لحوم ومأكولات وحرامات وأحذية عسكرية وما إلى هنالك من لوازم كان الشعب بأمسّ الحاجة إليها.

لكن إقامتهم طالت، وبدت منهم تصرفات شاذة خصوصاً في مدينة مثل طرابلس فيها التقاليد المحافظة. وظهر منهم الأشقياء الذين تصرّفوا بطرق لاأخلاقية. وابتدأنا نحسب لهم حساباً خصوصاً في أيام الأعياد عندما كان يسمح لهم بالشرب وحرية التجول، وكنا نعمد إلى إقفال الأبواب عند الغروب.

هذه الملاحظات لم تكن سوى ملاحظات سطحية، فنحن الصغار لم نكن نعي معنى هذا الاحتلال وبالضبط الاحتلال الأجنبي.. وكم كان في بلادي من الكبار الذين يغفلون أيضاً هذه الحقيقة أكثر من الصغار.

كنت أسمع بين حين وآخر أنّ الحلفاء ينوون أن يفعلوا ببلادي هذا الأمر أو ذاك، وكنت أسمع من دون أن أفهم أهمية هذه الأقوال، إلى أن كبرت وأنا في الغربة ورأيت كيف أصبحت بلادي مجزأة ومقسمة، هذا له حصة الأسد، وذاك الجزء الآخر.. وعندما هاجرت من بلادي كانت بلادي كلها، في الشام وفي الأردن وفي لبنان، بلاداً سورية وكنت أحمل جواز سفر كتب عليه: من مواليد طرابلس الشام. وعدت إليها وأنا من مواليد طرابلس لبنان، فقد أصبح هذا البلد جمهورية لبنان، والشام جمهورية سورية، والأردن مملكة هاشمية والعراق كذلك، وفلسطين ظلت تحت قبضة الإنكليز الذين سهّلوا تسليمها إلى اليهود.

أما أنت يا بلادي فتبقين فخري واعتزازي ومسقط رأسي، أنت جذوري الطيبة، فيك أحيا وفيك أموت ليحيا الآخرون، أولادي وأولاد الآخرين الجيل الطالع المستمر استمرار بقائك. فما ذنبك أنت إذا وقعت ذبيحة الغدر والطمع؟ ما ذنبك إذا وقعت بغفلة من أبنائك؟ غداً سيكون لك أبناء مجاهدون، لا يغفلون ولا يساومون ولا يرضون عنك بديلاً. غداً سيرى العالم من هم أبناؤك الأبطال. اقبليني في ترابك الطيب، اقبليني يا بلادي، يا أرضي، يا سورية.

كل شيء فيها صاف، هواؤها، أرضها، جبالها، بحارها. هل أجمل منها؟ أذكرها في طفولتي وأحلم بها لأعود إليها. نعم أذكرها. مشوار على الشاطئ أصطاد السلطعون أو الحلزوم، أو أجمع من رمالها حلازيم ملونة وأحجاراً غريبة وأصدافاً

وأبواقاً. كم وكم جمعت من شواطئها، وكم كان عليلاً هواء هذا البحر، وأمواجه تتدحرج لتداعب أقدامنا، وتخطف منا أشياء وتعيد إلينا أخرى. ونرى هذا البحر، صديقنا، شريكاً في ألعابنا. والغروب على شواطئها رائع ونحن نقف محدّقين في الشمس المودّعة، قرصٌ من النحاس الأحمر يهبط ويهبط ببطء. كنا نودّع الشمس هكذا كل يوم على أن نعود في اليوم التالي. أيادينا دوماً مليئة من خيراته، أشياء وجدناها نحن وأشياء أعطانا إياها الذين هم أكبر سناً ويغامرون في عباب البحر.

ولي فيها أيضاً ذكريات كثيرة: في الجبال، جبال بلادي الوديعة، طرقها وممرّاتها، منحدراتها وهضابها، المفاجآت في سفوحها، هنا وهناك نبع صغير، بين الخضرة، يتدحرج نزولاً وهو يغنّي، حوله الأزهار الغريبة. أزهار البريّة. كنت ولا أزال أحبّها. هذه الأزهار في البريّة كلها أصوات وألوان ترقص بخجل متواضع، وتعبق رائحتها الطيبة، لكني لم أستطع التمتّع بهذه الأماكن طويلاً فقد وقعت الحرب وعندما كنت قادرة على الصعود إلى الجبال لم أكن أعي كثيراً بل كنت صغيرة، ولم يعد في أيام الحرب ما يوفّر لنا الاصطياف.

كل هذه الأماكن وكل هذه الأحداث اشتركت في حياتي، وكانت كلّها من صميم بلادي، عاشها أبناء أمتي وعشتها أنا وسيعيشها أولادنا دون انقطاع، بل في وعي لما يحيط بهم، ويفخر لما هو ملكهم، هذه هي جذورنا، في الماضي والحاضر والمستقبل.

ألم يكن لأجدادنا تاريخ؟ ألم يكن بينهم من تغرّب وتشرّد وجاهد ومات في سبيل هذه الأرض؟ نعم كثيرون تحمّلوا المشاقّ ولم يهاجروا ولم يرضوا بأرض غيرها. نعم هذه كانت بلادي وكما عرفتها وعرفها آبائي وأجدادي.

من الأشياء التي كانت تبهجني وأحتفظ بذكراها المشاوير التي كنت أقوم بها ناحية البحر لوحدي، مروراً على بعض الحقول الصغيرة حيث نبتت زهور الربيع بعد الحصاد أو قبله، زهور مبهجة الألوان مثل الأقحوان، فكانت تجذبني وأدخل إلى تلك الأرض أجمع من هنا وهناك مختلف الأنواع خصوصاً أزهار البريّة التي لا

تتواجد في البيوت. هذه الأزهار كان لها بالنسبة لي رمز وجمال لم أجدهما في الزهور الأخرى، خصوصاً زهرة المرغريت البيضاء، الناصعة ببياضها وفي وسطها زرّ من الذهب. كم كانت هذه الزهرة متواضعة وجميلة وناصعة. وبياضها يتوسّطه لون الذهب. كنت أجمع بهدوء وأبقى بين هذه النباتات أتنشق ملء رئتي رائحة التراب والعشب البرّي. وكان هواء البحر، بحر بلادي، يصل إليّ منعشاً، والشمس تغمرني خيّرة ودافئة. كنت أقف لوحدي ساعات وكأنّ بيني وبين هذه الطبيعة حديثاً، أحبها وهي تعكس على نفسي انطباعاً لذيذاً. هذه الصورة حفرتها في قلبي ذكراً وفيّاً ومؤونة أتغذى بها في غربتي.

كان للحياة في بلادي لون يختلف عما هو موجود في العالم، لا أحد يركض من الفجر حتى آخر الليل ليحصل على العيش، ولكلّ مهنة طابعها ولكنّها مندمجة في جوّ متساوي الوسط. وكنا نرى كيف أن صيادي السمك ينزلون البحر في زوارقهم المليئة بالشبك الذي تفوح منه رائحة البحر. أصواتهم وهم يدفعون الزوارق من الشاطئ إلى البحر كانت تفرحني فأقف لأسمع غناءهم الحماسي: «هايا اليسار»، وهذا أيضاً تعبير خالص من بلادي، إذ إنه يعود إلى زمن أليسار القرطاجية، وبحّارتها يدفعون الزوارق ويهتفون باسمها: «ها يا أليسار». وبقي هذا الحماس البحري في بلادي، وحتى في بلاد روسيّة نسمعهم يهتفون هذه العبارة على ضفاف الفولغا. وكانت هنالك مواسم يبحر فيها الصيادون في الليل لطرح شباكهم. أما الغنيمة التي كانوا يأتون بها في النهار، ويطرحونها على الرمال، فكانت من أبهج المناظر، والسمك لا يزال حياً.. على مختلف أحجامه وألوانه. وفيها بعض الحلازيم والأصداف التي كانت من نصيبي. كل شيء أذكره عن طفولتي في بلادي كان يحدثني بأشعار رقيقة عذبة. أيام الأعياد والشعب ممتزج ببعضه، في البيوت وفي الكنائس وفي الجوامع وفي الشوارع، ولكل عيد طابع خاص. وكنا نترك العيد لننتظر القادم نحن الأطفال الذين كانت الأعياد بالنسبة لنا الفرحة الكبيرة.

كانت لي خالتان في الوطن، خالتي روزه الأكبر سناً من أمي وخالتي ألومبيادة الأصغر، والأقرباء الآخرون مبعثرون في أنحاء العالم: خالي الأكبر حنا في طرابلس ثم هاجر إلى كاليفورنيا، خالتي روزه متزوجة من سابا دياب في طرابلس، والدتي حنّه زوجة عبده المير، خالي قسطنطين أعزب مهاجر إلى أوستراليا، خالي الياس متزوج في الإسكندرية من آل دوماني، وفي بوانس آيريس خالتي ألومبيادة متزوجة الياس حنانيّاً من طرابلس، خالتي مريانة متزوجة زحلوط في البرازيل، ومن بينهم لم أعرف سوى خالتي روزه دياب وألومبيادة حنانيّا وهما تسكنان في طرابلس.

هاجر أخوالي مثلما هاجر غيرهم الكثير من بلادي إلى الغربة البعيدة، إلى كل حدب وصوب: أميركا الجنوبية، والشمالية، وأفريقيا، خصوصاً إلى بلاد غير عربيّة، ذلك أن الوضع الذي أرغمهم على الهجرة كان هو ذاته في كل البلاد العربية. وكانت البلاد الأميركية الغنيّة والفتيّة تحضن كل من أمَّها.. وهكذا هاجر والدي وهو في حداثة سنّه إلى الأرجنتين.

كانت أمي تقصّ علينا كيف فقدت والدها في أضنه، تركيا، وكيف تدهورت بعد وفاته حالتهم المادية، وكان هذا بعد أن فقد ثروته كلها في الأرض الغريبة، وكان يعمل تاجر حنطة في أضنه، وكانت أحواله جيدة وينعم مع عائلته بالخيرات نتيجة نجاح الأعمال. ولكن لم تمرّ سنوات قليلة حتى احتال عليه زبائن أرمن من سكان أضنه، فأفلس بعضهم وهرب آخرون. ومرض جدي من جراء هذه الضربة ومات وهو لا يزال في شبابه، تاركاً سبعة أطفال أكبرهم سناً خالي حنا في الثانية عشرة. وعادت الأم الحزينة إلى بلدها طرابلس بعد أن فقدت هذه العائلة ركنها، ومعها أولادها السبعة. ولم يكن أمام هذه العائلة التي عاشت حياة هنيئة مع أب حنون وزوج محترم، وفقدت كل شيء في لحظة، سوى البحث عن معيشتهم والحفاظ على مركزهم العائلي خصوصاً أن عائلة ملحم كانت إحدى العائلات المعروفة في طرابلس. وأصبح وضع البنات ومستقبلهنّ مصدر قلق عند الأم الأرملة، إذ لم يكن المجال مفتوحاً في ذلك الوقت أمام المرأة لأي عمل خارج البيت. فعكفت على

أولادها تعيش باقتصاد وحرمان، وأعدت بناتها لخدمة أنفسهن وتعليمهن الخياطة والأشغال اليدوية. بعد ذلك هاجر خالي حنا إلى أميركا وهو لم يزل في سن المراهقة، وتبعه خالي قسطنطين، وقد ذهبا بحثاً عن العمل. الاثنان لم يعودا إلى الوطن، حنّا تزوج مرتين وقسطنطين بقي عازباً. ثم تزوجت خالتي روزه في سن الرابعة عشرة، وبقيت في طرابلس. وتزوجت والدتي وهي في السادسة عشرة وذهبت إلى الأرجنتين. وتزوجت مريانة وذهبت إلى البرازيل ولم تعد إلى الوطن. ثم تزوجت خالتي ألومبيادة من الياس حنانيّا وبقيت في طرابلس وماتت فيها. وتزوج خالي الياس من آل دوماني في الإسكندرية وذهب يعمل مع والدي في بوانس آيريس وعاد بعد سنين طويلة إلى طرابلس ومات فيها. والدتي عادت لترافقني في المحنة الأخيرة منذ سنة 1954 حتى 1963 وقد شاخت ورجعت إلى بيتها في بوانس آيريس حيث توفيت في أواخر سنة 1967.

الفصل الثاني

لم يبق لنا اختيار بالبقاء في بلادنا، وكانت الهجرة في ذلك الحين قائمة على قدم وساق. فما من أحد في المهجر إلاّ ودبّ فيه الحماس لإنقاذ ذويه بعد أن عرف وسمع عن أهوال الحرب وما جرّته من مصائب على شعبنا. وما عاد بالإمكان الحصول على مكان للسفر، فعدد البواخر قليل بعد الحرب ولا يكفي طلبات الراغبين في السفر، خصوصاً أن كل الدول الأوروبية كانت تواجه موجات من المهاجرين منها إلى العالم الجديد. وهل كانت هناك بلاد أتعس من بلادنا بعد تلك الأحداث؟ لم تبق عائلة إلا وودعت أحد أفرادها إلى الغربة. وقد أرسل لنا والدنا دراهم لدعمنا أولاً، ثم لتغطية مصاريف السفر. وانتظرنا حتى 1920 لتأمين مكان على إحدى البواخر المسافرة.

وكانت أول تجربة لي ابتعادنا عن الوطن وعن بيتنا وأهالينا وأغراضنا وذكرياتنا. ولم يخفف من قلقي في الابتعاد عن هذا الوطن سوى أنني كنت بصحبة أمي وأشقائي وكنت أصغرهم.

أول خبرة واجهتها هي الوقوف أمام الدوائر في جمارك بيروت حيث وصلناها على ظهر باخرة صغيرة أقلعت من طرابلس، تابعة لعبد الوهاب. وهناك صعدنا الباخرة حتى مرسيليا، وكان السفر غير مريح. وبعد أيام قليلة وصلنا مرسيليا، وتولى شقيقي متابعة معاملات السفر، وكانت بالنسبة لنا صعبة من حيث الشروط الصحيّة، فمررنا في دوائر الفحص والتصوير.. إلخ. ثم نزلنا في فندق في شارع رئيسي، وكان فيه من المشاهد ما استرعى نظري واهتمامي، فهذه أول مرّة أشاهد فيها شعباً أجنبياً، كيف يعيش وكيف يشتغل. وكان الوقوف على الشرفة لمتابعة

الحركة في الشارع من البائعين ومركباتهم الصغيرة المظللة وأكثرهم من النسوة، والسيدات الممشوقات المسرعات الخطى وتحت آباطهن رغيف خبز، طوله مُبالغ فيه بالنسبة إليّ، وأطفال يختلف شعرهم ولباسهم القصير أكثر مما اعتدته. وكنت أشاهد لأول مرة محلاتها الكبيرة وضجيج شوارعها المزدحمة بالمارّة، فأنسى شيئاً من حنيني لبلدي. وقد يكون هذا من الأسباب التي ترغّبني في التنقل الدائم لمعرفة الشعوب وكيف تعيش وكيف تفكر.

أول خبرة دون معرفة اللغة كانت النزول لشراء بعض الفاكهة والحلويات من أمام الفندق، فمددت يدي لأخذ ما اشتهيته، فما كان من البائعة إلاّ أن كلمتني بلهجة عالية. لم أفهم منها، فعرضت عليها الدراهم لكنها تابعت بلهجة عالية، فجمدت ونظرت إليها دون أن أفهم ما بها. وهنا وصل شقيقي وسألني عما أريد فقلت له هذا، وأفهمني أنها تطلب سعر البضاعة أكثر مما أعرض عليها وأنه ممنوع لمس الأغراض بيدي، حتى لو أخذتها. فدفعنا وانصرفنا. ولم أعد أجرؤ على شراء أشياء لوحدي، وقد سمعت أصوات الباعة كلهم، وهم دوماً غاضبون. والمحلات في مرسيليا مشهورة بالتلاعب والسماسرة كثُر في ذلك الوقت، فما نكاد ندخل محلاً بصحبة شقيقي الذي كان يتكلم الفرنسية حتى يقول لنا: «لنخرج فهم متلاعبون». ولكن وجدنا في النهاية أنهم كلهم متلاعبون، فبعد أن اشترت أمي ترانشكوت (معاطف مطر) لي ولديانا، وجدنا أنهم غلبونا بالسعر. وبقي في ذهني بعد هذه السفرة أن في مرسيليا سماسرة كثر.

وبعد الجهد وصلنا الأرجنتين. السفر عذاب، والاستغلال في البواخر على أوجه ولكننا بالصبر والتحمّل وصلنا بوانس آيريس في 20 أيلول 1920، وكان الطقس جميلاً إذ إنه ابتدأ فصل الربيع.

هذا هو لقائي بوالدي، الذي لم أذكره قبلاً. أول لقاء كنت أنظر إليه مطوّلاً، أراه شبيهاً بالصورة التي كانت على جدار قاعة الجلوس، ولكنه متعب ونحيل. وهو كان ينظر إلينا ويضمنا إليه وكأنه يعرفنا تمام المعرفة. كنت أفهم أنني سأجد فيه

صديقاً أيضاً وأنني سأحبه، أو يجب أن أحبه. وكان بيني وبينه الزمن الذي حرمني من معرفة أشياء عنه، والحرب التي قامت كانت الحاجز بيني وبينه، وعدم استلام أخبار منه أثناء الحرب كان كذلك سبب انقطاع بيننا.

في هذه السنّ، الطفل أو المراهق يبحث عن أشياء كثيرة خارج الجو العائلي، خصوصاً أن بيتنا كان في ضواحي المدينة، وفيه الاتساع الكافي والحديقة المشجرة في آخر البيت، وقربه بيوت مماثلة تسكنها عائلات عندها أولاد مثلنا، يلعبون كلهم في الشارع أمام البيت، وهو شارع غير معبّد يقع أمام خط للسكك الحديدية، حيث كانت القطارات تمرّ على الدوام، وقربنا الحواجز والحراسة لفتح وقفل هذه الحواجز عند مرور القطار.

أول أصدقاء كنا نلعب معهم هم أولاد الجيران، ثلاث بنات وصبي، أبناء امرأة أرملة تعمل في المكتب. ومنهم ابتدأنا نتعلم اللغة الكستيليانوس، وكنا نفرح بما نحفظ. ولكن كان علينا أن نذهب إلى المدرسة. وهذه أصعب مرحلة في حياتي المدرسية، إذ ابتدأت المدرسة ولم أكن أفهم من اللغة شيئاً. وقد تقرّر أن ندخل مدرسة أرجنتينية حكومية لنكسب اللغة. كنت أجلس في الصفّ وأتخيّل رفيقاتي في الوطن. كنت أشعر بدرجة النظام الموجود في هذه المدارس والفرق بينها وبين مدارسنا الصغيرة التي ما كانت تفتح أياماً حتى تقفل أياماً أخرى بسبب اضطرابات الحرب. كنت أجلس بين تلاميذ ذكور وإناث، وهم خليط من الجنسيّات: قربي ولد لقبه إيطالي، والأخرى إسبانية.. إلخ. وكل واحد له مزاج متأثر بجنسيته. لكنني لم أجد بين التلاميذ الذين تعرّفت عليهم بعد مرور زمن إنكليزيات ولا إفرنسيات ولا من شمال أوروبا.

معلمتنا كانت شابة جميلة، وقصيرة القامة. تشبه إلى حد بعيد ابنة خالتي روزه طُرفندا. وكنت أتأملها وأذكر كل أفراد العائلة الذين تركتهم هناك، كل أولاد خالاتي، وهل من الممكن أن أبدّل تلك الوجوه القريبة إليّ بهذه الوجوه الغريبة عني؟ كلا. كل شيء في بادئ الأمر صعب، وهذا التبديل أيضاً صعب. كنت أنظر إلى

معلمتنا طويلاً، وكانت تشعر بهذا التحديق وأحياناً ترى عينيّ تدمعان. وكانت تضحك لي دوماً وتخصّني بعنايتها لأنها تعرف جهلي للغة.

وهذا كان أول الحواجز التي ابتدأت تسقط من أمامي كانت تشكّل صعوبة بيني وبين المحيط الغريب، فأخذت أتشجّع للتحدث معها وإن كانت في كلامي الأغلاط الكثيرة، وكانت تفرح بحديثي وتصحّح لي وكأنها تسلية ممتعة لها، وإذا لفظت بعض الكلام بطريقة مضحكة كانت تجمعني في الفُرَص مع الآنسات الأخريات وتطلب مني أن أعيد حديثي أمامهن، وكان الضحك يتبع هذا وتغمرني وكأنها أختي الكبيرة.

وابتدأت التكلم بالإسبانية، وفي السنة الثانية دخلت وشقيقتي ديانا المدرسة الإنكليزية حيث كان لنا فيها مجال أوسع للنشاط الدراسي، إذ لم تكن اللغة الإنكليزية غريبة بالنسبة إلينا، عدا عن أن الإسباني إجباري وندرسه في الصباح، والإنكليزي بعد الظهر. وأمضينا سنوات في تلك المدرسة حتى أنهينا الابتدائي باللغتين الإسبانية والإنكليزية. وتابعت أنا سنتين بعد الابتدائي باللغة الإنكليزية. وليس في الأرجنتين مدارس ثانوية إنكليزية إنما يدرس التلميذ البرنامج ويقدم الفحص أمام لجنة ترسل امتحانه إلى إنكلترا. بعد ذلك تركت هذه المدرسة وذهبت إلى مدرسة ثانوية حكومية حيث أنهيت وشقيقتي ديانا الدراسة.

شقيقي جورج كان يدرس في الليل الفرع التجاري التابع للحكومة، وقد أنهى هو أيضاً اختصاصه في هذا المجال. أما العمل فكان لزاماً علينا كلنا لمساعدة والدي في إعادة إنعاش التجارة بعد أن أفلس برفقة خالي الياس. وكان على شقيقي العمل طيلة النهار مع والدي، ونحن نساعدهما قدر الإمكان. في حين أن شقيقتي كتالينا بقيت في البيت ترافق والدتي في الأعمال البيتية، وكانت تتخصص في الفنون اليدوية.

عادت والدتي إلى بوانس آيريس لتجد الحالة المادية ضعيفة لدى والدي، وكأنه يبدأ من جديد أعماله في التجارة. فما كان عليها المسكينة، بعد حرب طويلة

وحرمان كبير وانهماك ثقيل، إلاّ أن تواجه تلك الظروف التي لم تكن إلاّ بسبب شقيقها، خالي الياس، وقد انصرف إلى لعب القمار فتدهور المحل التجاري الذي كان والدي قد أسسه منذ زمن.

هكذا كان الوضع، وكنت ابتدأت أعي وأفكر. أفكر بالذين يحيطون بي وقد تراكمت عليهم الأثقال منذ الصغر، مثل أمي التي فقدت والدها منذ حداثة سنّها وحرمت من أشياء مريحة، وتحمّلت مسؤوليات عائلة في أول عمرها، وتغرّبت إلى بلاد تختلف فيها الحياة بجوهرها ومظاهرها. وقد ترك هذا الشيء آثاراً كثيرة في نفسها، وكان هذا الخط بارزاً في توجيهها لنا والذي أتى نتيجة قلقها واضطراب وضعها العائلي والمادي. فلم تر أمامها الأفق الواسع. ومع ذلك كانت متحرّرة من الطقوس القديمة، لكنها متحفظة في حياتها العائلية لدرجة أنها لم تعِ حاجات نفسية ولا روحية كنا بحاجة لها ونحن نكبر. وكان في طبيعتها، على رغم تضحياتها ووعيها وواجباتها، الكثير من الاستبداد العفوي، فما كان لها جيّداً هو جيّد، وبارداً لها هو بارد والعكس. أما من ناحية الآفاق البعيدة والنفسية التي تنشأ في حياة الطفل وبعد ذلك في المراهقة فلم تعِها والدتي ولم تعالجها. لهذا، ولأسباب شتى، منها الصحية ومنها العصبيّة ومنها النفسية، كان في هذا البيت تفاوت كبير بين مزاج الأخوة ونفسياتهم وروحياتهم، وبقي كل واحد منا قطعة من الآخر مادياً ولكن ليس نفسياً ولا روحياً. فقط كانت القواعد الخلقية والمقاييس الاجتماعية ضمن البيت هي المقاييس التي سرنا عليها كلنا، دون الاشتراك مع بعضنا بأشياء أعمق من ذلك. وكنا ننوي متابعة الدراسة، لكن والدي توفي بعد مرور تسع سنوات على وصولنا لعنده. فبدا لنا وكأن أشياء كثيرة يجب أن تتغيّر، أولها الاتكال على أنفسنا، وكنت بلغت الثامنة عشرة، وعليّ أن أهتم بواجباتي المادية. كنت أعاون شقيقي جورج في المحل بعض الساعات ووالدتي بعض الساعات، وكانت شقيقتي كتالينا قد تزوجت من خليل مسوّح وغادرت بوانس آيريس إلى ولاية مندوسا، فبقيتُ مع شقيقتي ديانا نتناوب على العمل في البيت والمحل مع شقيقي.. إلى أن بحثت عن حلٍّ لوضعي، أكبر مسؤولية وأقرب إليّ نفسياً فدخلت مدرسة التمريض، وكان

الطب يجذبني لكن أهلي لم يعيروا اهتماماً لهذه الناحية، إذ وجدوها مهنة صعبة وتتطلب سنوات طويلة ليست في برنامجهم، فقد وضعوا أمامهم الزواج وكأن هذا الحل هو الأسرع والأفضل.

وعندما انتهيت من مدرسة التمريض وحصلت على شهادتي، وجدت على وجه السرعة عملاً في أحد مستشفيات بوانس آيريس الخاصة، وهو مستشفى إنكليزي. وكان من الصدف أن فيه ممرضات إنكليزيات كن رفيقاتي في المدرسة سابقاً، وطاب لي الجوّ والعمل وانصرفت بكل قوّتي ومعنوياتي في ذاك العمل الإنساني أجني ثماره معنوياً ونفسياً. وكان لي مكانة بين تلك الجالية من جراء اجتهادي وعطائي، وعيّنت ممرضة مسؤولة بعد سنة، وكان هذا امتيازاً على رفيقاتي الإنكليزيات، وفخراً لأنني سورية الأصل. بقيت في المستشفى ثلاث سنوات، فقد أتيت إلى هذا المكان الغريب عني في جوهره وفي مظهره، ولهذا عليّ أن أعطي صورة عن نفسي التي تكونت ضمن بيت كانت له قواعد اجتماعية خلقيّة متحفظة جداً دون انشراح روحي أو نفسي ودون الجرأة نحو الأفق البعيد الذي كانت نفسي تبحث عنه.

كنّا كلّنا فخورين بأمنا، وقد انحنى أمامها احتراماً وتقديراً رجالات عندما اجتازت تلك المرحلة الصعبة أثناء الحرب وخرجت منها بكبرياء وشرف، في حين عجز عن تخطّي هذه الصعوبات رجال كثُر بإمكانياتهم المادية والثقافية. ولم تقُدْنا إلا في الطريق السليم. وكنا نذكرها في شبابها وهي جميلة الطلعة، أنيقة للغاية في لباسها الأوروبي الذي كان يحضره لها ولأخوتها خالها مخائيل ملحم، حين يسافر إلى باريس ليشتري تجهيزات لمحله. وكانت صورها وهي في آخر طراز من الأزياء الباريسية مع القبعة وكأنها خارجة للتو من واجهات محلات باريس. بقيت أمّنا على عاداتها في الأناقة والاعتدال، وهكذا كانت تلبسُنا بذوق وترتيب مما تصنعه يداها، باقتصاد وأناقة. وكنا نعرف كم كانت تسهر على راحتنا وصحتنا،

وكان يرافقها دائماً كتاب الصحة القديم وفيه أعراض الأمراض وعلاجها. كانت في كل الأحوال أماً عظيمة، صبورة وجبّارة.

أمّا أبي فلم يكن لي نصيب في معرفته حتى كبرتُ ولاقيته في الأرجنتين، ومع ذلك أستطيع أن أصوّره مثل ما كان. والدي رجل مجاهد في الحقل العملي، وقد بنى خلال سنوات مركزاً تجارياً كبيراً على رغم أنه كان شبه أمّي. ولكن انفتاح نفسه وخبرته خلال سنوات الهجرة أكسباه تفهّماً في هذا الحقل. ومن ناحية أخلاقه ونفسيّته، فقد كان يعطي من نفسه ومن ماله لأي سائل، وكان مشهوراً بهذه المعاملات الإنسانية تجاه مواطنيه القادمين حديثاً إلى الأرجنتين. وبقي على هذه الحالة الأخلاقية حتى موته في سنّه التاسعة والخمسين على ما أظن. أما من الناحية الاجتماعية، فقد كان له أصدقاء كثيرون بين الشعب الأرجنتيني ومن الدرجة المتعلّمة، وبين المواطنين السوريين كذلك. أصدقاؤه جميعاً قدماء لم يتغيّروا معه في الصدق والمحبّة.

لم يصرف أبي الكثير من الوقت مع عائلته، فقد انصبّ اهتمامه على إنعاش أشغاله التجاريّة من جديد بعد الخسارة الفادحة، فكان في أوقات الاستراحة وأيام العطلات دوماً مع التجّار عساه يقوم بصفقة رابحة أو يقترض مبلغاً يستعين به. ولكن كان عنده الحسّ الاجتماعي، أي أنه كان يقصد الحياة الاجتماعية. وأذكر أنه كان يصطحبنا جميعاً إلى الحفلات والسهرات السورية، وكانت علاقاته الاجتماعية مستمرّة مع الآخرين. وكنت أنا في مقتبل صباي عندما توفي والدي، وشعرت بهذا التغيّر وإن لم أكن أرتبط معه بتلك العلاقات الأبويّة التي تجري بين الآباء وبعض أولادهم.

منذ صغري كنت أتأمل وأتساءل. أتأمل كل من حولي، أمي، أخوتي، خالاتي، أقرباءنا جميعهم، وكل من يحيط بي، أتأمل وأقارن وأميّز بعقلي وبنفسيّتي وحساسيتي. وكنت، مثلاً، عندما يفرض أحد أفراد العائلة عقوبة عليّ، أضع قضيتي

بيني وبين نفسي، والعقوبة كذلك، وأزنها في ميزان حكمتي. وكنت أخرج بنتيجة أنّ الإنسان الكبير لا يحكم بعقله دائماً ولا بميزان الحقّ، إنما بطبيعته وبحماسه وأعصابه تجاه الصغار لأنهم صغار وأضعف منه. وأقول لنفسي: هذا ما صنعته أنا، هل هو خطير هذا الخطأ؟ كلا إنه خطأ بسيط وهو من عوائد الطفولة، إذن لماذا أستحق هذه العقوبة التي تجرحني نفسياً؟ لماذا يخطئ الكبير، وهو المفروض فيه أن لا يخطئ، تجاه الصغير الذي من الطبيعي أن يخطئ. وكنت أثور على تلك الأوضاع عندما أرى أن لا أحد يهتمّ بمعنويّات الطفل ولا بنفسيته. وهل في الطفل شيء آخر غير هذه الحاجات الرقيقة؟ وكنت أقول لنفسي: لو كنت أنا الكبيرة لحكمت على الطفل عكس ذلك، ولأخذت موضوعه بعناية ومعرفة ورافقته في مفاهيمه واكتشفت أنه ليس هو المذنب بل أنا. كم وكم من الأمور الصغيرة في حياة الطفل تكبر وتكبر وهو يريد أن يعبّر عنها بانطلاق واعتزاز، فيجد نفسه صغيراً وضعيفاً وغير مفهوم من أحد، فينطوي على نفسه ويصمت.. وكم من صمت يحتاج إلى تحليل ودراسة!

بعض العائلات في بلادنا تنظر إلى أولادها حسب مراحل أعمارهم فقط منذ الولادة وحتى يبدأ الطفل بالمشي لوحده، حاجاته هي العناية الصحية والمادية، وبعد ذلك الطاعة والحفاظ على نظام البيت، ثم العناية بتصرفاته الأخلاقية والدراسة. وهذه أشياء لا تشمل حياة الطفل ومستقبله لا نفسياً ولا معنوياً، فإذا به شخص غريب يتبع عادات البيت من دون أن تُنمّى شخصيته ولا يتكشّف منها شيء سوى الانطباع المكتسب في البيت. وإذا أراد الاتجاه نحو هدف ما في حياته ورغب في أن يعبّر عمّا في نفسه يشعر بأن لا أحد يفهمه ويصبح غريباً في عائلته.

هذا ما كنت أفكر به، وبقيتُ أفكّر به. وظلت حالة الجوّ الذي عشت فيه خالية من المفاهيم النفسيّة والروحية. وهي الأشياء التي لم نعالجها مطلقاً في البيت لا مع والديّ ولا مع أخوتي. وابتدأت أتجه إلى أشياء خارج البيت: الطبيعة كانت

سلوتي الكبيرة، تعلقت بها وكأنني أتحدث وإياها في صمت خفي. إنها قويّة وعظيمة وصادقة تعكس في نفسي الثقة والأمل.

هذه سنوات المراهقة، سنوات المدرسة والرفقاء فيها، وهناك تتبلور شخصيّة المراهق. كنت حسّاسة للأمور العاطفية، لذلك حفظت حبّاً صادقاً للصديقات اللواتي صادقنني، وكنت أودّ مساعدتهن والإخلاص نحوهن. وبرزت شخصيتي بين الذين أحاطوني بمحبة، وابتدأت أشعر بالميزات التي كنت أحملها في نفسي، وكان هذا يعني الثقة والسير إلى الأمام. كانت رفيقاتي يدعونني إلى بيوتهن لقضاء الظهر أو عطلة بعد الظهر. وكنت أشعر بأنهن يتصرفن بحرية حين يدعونني، وكنت أودّ دعوتهن بهذه السهولة، لكنني لم أجرؤ لأن والدتي لم تردنا أن ندعو أحداً إلى البيت من دون الرجوع إليها وأخذ موافقتها. وهذا الأمر كان صعباً إذ إنها لم ترغب بوجود رفيقات في بيتنا يلعبن معنا إلا نادراً، وكانت تخاف من تربيتهن. وكان هذا من الأشياء التي وضعت في حياتي العائلية حاجزاً نفسياً كبيراً إذ إنها في الأمور الأخرى كلها، النفسية والروحية، كانت تسير على نفس الطريقة. وكنت أحسّ بأنني لا أملك حريّتي في الأمور التي تتعلق بي، وهي بريئة الشكل، خصوصاً على المستوى المعنوي تجاه رفيقاتي. وبُعدي عن مطاليبي النفسية يعني بُعدي عن الروابط الأساسية مع أفراد البيت.

حبّ العائلة لبعضها من الأمور الطبيعيّة، خصوصاً إذا تربّى أفرادها على قواعد خلقيّة ونظام عائلي متين. ولكن هذا لا يمنع من تشكل الروابط الروحيّة والنفسيّة، فلا يعود الولد إلى أبويه في أموره الخاصة إذ إنه ما تعوّد أن يعالج وإياهم أي قضيّة خارج الأمور العاديّة. والأخوة في هذا الجوّ يتخذ كل واحد منهم، حسب طبيعته ومزاجه، وجهة نظر إلى الحياة قد تختلف في جوهرها عن الآخر. أظنّ بأن هذا ما حدث معي بالفعل. كنت أعيش مع أخوتي ووالديَّ حياة هنيئة، أحاول جهدي كي أترك في نفسهم انطباعاً طيباً. وكنت أشعر مرات بأنني كبيرتهم وعليَّ أن أحلّ مشاكلهم العاطفية، فأحاول عند الأزمات العائليّة أن أسهّل الأمور

بطريقة أو بأخرى حتى يعود الهناء إلى البيت وبين أفراد العائلة، وأعود أنا لتأملاتي حول هذه القضية أو تلك التي كانت تعني لي أخيراً، استهتار النفس والقضايا النفسية والمعنويّة. كنت أشبّه الإنسان بتجاهله هذه الأمور الحسّاسة الهامّة بإنسان لا يأخذه سوى المشهد. فإذا رأى أحدهم شجرة تحترق هابه أمرها وحزن عليها وحفظ قصّتها ليرويها لأولاده، بينما نفوس بشريّة تحترق ولا أحد يدري بها.

لا شك في أن طبيعتي ومزاجي كانا عاملين كبيرين في تكوين شخصيّتي. كنت أنفر من الأنانية، ومن السطحيّة، ومن الاستهتار والاستهزاء. وعندما الاحظ أن الجمع حولي يستهتر بشعور غيره، أنفر وأنعزل. والاستهزاء كان بالنسبة إليّ من علامات الضعف الشخصي فأنفر منه. والأنانية كانت تجرحني بعمق. وكنت أهرب من السطحيّات لأنني أشعر بأنها تحوّلني إلى ألعوبة. هذه كانت غربتي بين الذين يحيطون بي، يحبّونني ويريدونني من دون الدخول إلى أعماقي، من دون الدخول إلى عالمي.

هذا العالم من الشعور والنظرة الخاصّة كنت أحمله في نفسي عندما دخلت لأول مرّة جوّاً غريباً في مؤسسة صحيّة، فيها الممرّضات من مختلف أنحاء العالم، الإنكليزيات والأسوجيات والدنماركيات والألمانيات وكنت أنا وحدي السوريّة، ومديرة المؤسسة كانت من الروس البيض الهاربين من السوفيات.

أول مقارنة بيني وبينهم كانت في حريّة تصرّفاتهم وكلامهم وانفتاحهم المطلق، وانكماشي وعدم انفتاحي الاجتماعي. وعرفت أن ذلك حاصل نتيجة تربية مختلفة كلياً. وقررت أن أهذّب نفسي وأن أكتسب درساً من كل ما أجده في هذا المحيط الجديد الذي قدّرت حسناته وعرفت سيئاته. فعكفت على عملي كممرضة بكل قوّتي وخبرتي وصبري، ورحت أقطف من ثمار هذه الجهود، معنويّاً ونفسيّاً، إذ إنني أصبحت محط ثقة واحترام جميع الأطباء والموظفين. وخلال ثلاث سنوات أخذت أعوّض ما فقدته من تعبير نفسي عن طريق هذا العمل الإنساني، لينعكس عليّ بالثقة والتشجيع.

ابتدأت أشعر بأنني سيّدة نفسي في العمل والقول والاختيار، وكنت سعيدة بذلك. فمن هنا ينطلق الفرد حسب نفسه، صعوداً أو نزولاً. خلال السنوات الثلاث التي قضيتها في العمل، لم أجد في المحيط الأجنبي الذي كنت أعمل فيه تفوّقاً عقلياً بالنسبة لشعبنا، بل العكس. ولكن وجدت التفوّق في التربية الصحيحة، والنظام في المجتمعات، والتفهّم للأمور الأساسيّة في حياة هذه المجتمعات، والنظرة إلى الحياة وتطورها، ونموّ الفرد وشخصيته والاهتمام بشؤونه النفسية والروحية. كنت أفتقد الكثير من هذه الأشياء وما كان عليّ سوى أن أثبّت مركزي بتفوقي كممرّضة، وتحفّظي في الجو الغريب، وقبول أو رفض ما أقدّره لائقاً أو غير لائق بي. وعرفت كيف أصقل طبيعتي وعاداتي المتكبّرة. فالعمل الإنساني والاحتكاك الدائم مع كل مصائب الطبيعة البشرية أكسباني خبرة إنسانية وسيكولوجية. ولم تكن تلك السنوات الثلاث ضياعاً، بل وضعتني أمام الحقيقة، حقيقة الحياة، وأصبحت أنظر إليها من النافذة المشرعة، فتبدّلت في عقلي مفاهيم، وزالت مفاهيم ورست مكانها نظرة أشمل وأقرب للحقيقة. المسؤولية أصبحت لها قواعد في الحقوق والعطاء؛ فلكل عمل درجة وأهميته تكمن في المقاييس المعترف بها، وليس باعتباط بل عن وعي.

في تلك المؤسسة كانت العصبيات الوطنيّة بارزة، وكان هناك حوار دائم بين الألمانيات والإنكليزيات، ومن ضمن الأخيرات يهوديّات الأصل متخفيّات بمذاهب بروتستانتية. وكان في ذلك الوقت التنظيم الهتلري في ألمانيا على قدم وساق، والجوّ الإنكليزي متكهرب على الدوام، والأسوجيّات والفنلنديات وأخريات من أصل أوروبي شمالي يقفن مع إنكلترا. وكنت أستمع لهن، وأجد أنه ما من ممرّضة إلا وتعبّر بفخر وحماس عن بلدها وسياسة بلدها إلى حد اتخاذ مواقف العداء من رفيقاتها من غير جنسية. أما أنا فلم أكن موضع هذا الحوار، وللأسف لم أكن لا

من هذا الصف ولا من ذاك. لم تكن لي قضيّة وطن حرّ. وطني بحوزة متآمرين مستعمرين منذ زمن بعيد. وطني تركي ثم فرنسي أو إنكليزي. وطني: أين هو؟ وما هو؟ لماذا هذه البلبلة وهذه الفوضى في وطني؟ كثيرة هي الأسباب، خارج إرادتنا وبإرادتنا. خارج إرادتنا بسبب المطامع الأجنبية، وبإرادتنا بسبب الجهل. سوريّة كانت منذ زمن بعيد هي تاريخ العالم، وبعده التقهقر. واليوم يهجرها الكثير من أبنائها من غير وعي لقضية، وقد ضاعت عليهم المفاهيم القومية بعد استبداد طويل. هذا ما كنت أفكر فيه حين أقارن وطني بوطنهنّ، وقضيتي بقضيّتهن: لماذا لا تكون لي أنا قضية مثلهن؟ ووطن حرّ مثلهن أدافع عنه وأستعدّ لحمايته؟ ألأنني لست إنكليزية ولا ألمانية ولا أسوجية، بل سوريّة، وسورية ذبيحة، وأنا ابنتها؟ إذاً هذا كله لأنني ولدت في سورية وهنّ ولدْنَ في وطن غير وطني، وطن حرّ، وأنا في وطن مستعبد! هذا كان سبب آلامي وتأملاتي، في ذلك الجو المختلف كل الاختلاف في القضايا الوطنية بين حريّتهم واستعمارنا.

نعم أنا ولدت في سورية ولن أرضى بديلاً عنها، هي وهبتني الحياة وإليها أعود. سأعود ولكن يجب أن أكون فخورة بها وتكون هي فخورة بي. متى.. متى أعود؟

سنة 1938 تركت المستشفى الإنكليزي بعد أن أرهقت نفسي في العمل، وكان عليّ أن أستريح بأمر من الطبيب من جراء نوبات حادّة أصابتني في المرارة. وبعد استراحة لعدة أشهر عدت في سنة 1939 إلى التمريض في مؤسسة أخرى للدكتور بوش. وأخذت أتمرّن بمساعدة الدكتور بوش في الوقوف معه في العمليات حتى أكتسب خبرة أكثر في حال أن السرعة دعته إلى إجراء عملية جراحية في المناطق البعيدة حيث لا توجد مؤسسات صحيّة ولا خطوط حديدية. وكان يملك طائرة إسعاف خاصة به يستعملها لنقل المرضى إلى بوانس آيريس أو لإجراء العمليّة في الولاية البعيدة إذا كانت حالة المريض خطرة. وبعد مدّة، قرر والدا الدكتور بوش

وهما في الثانية والستين والسابعة والستين من العمر السفر إلى أميركا، وكان الأب مريضاً بالزلال، فطلب مني مرافقتهما إلى أميركا الشمالية في رحلة ترفيهية كونهما لا يعرفان اللغة الإنكليزية. فكانت رحلة ممتعة استغرقت ثلاثة أشهر عدنا بعدها إلى بوانس آيريس في أواخر شهر آب 1939 . كانت الإذاعة في الباخرة مرغوبة لدى الركاب وقد بدأت دلائل الحرب العالمية الثانية تلوح في الأفق. وفي اليوم الثاني من عودتي انطلقت صفارات الإنذار ليلاً علامة الخطر، وقد أجرينا اتصالات مع عدّة صحف لمعرفة السبب.. وكانت ليلة مشؤومة مع إعلان الحرب العالمية الثانية.

التقيت بصديقاتي الممرّضات، بعضهن اتصلن بي هاتفياً، وكلّهنّ على استعداد للذهاب إلى الوطن الأم للتطوّع في التمريض خلال الحرب. وكنّ جميعاً يدعونني، كل واحدة تدعوني للتطوّع في خدمة جيش وطنها. وكنت أحزن، فأين قضيتي لأخدمها؟ ليست ألمانيا ولا إنكلترا ولا فرنسا ولا سويسرا، إذن لماذا لا أخدم أنا قضيتي، وأين هي؟ ولم يكن لي هذا الشرف مثلهن. لقد ذهبن كلّهنّ إلى الجبهات، كل واحدة في جبهة معاكسة للأخرى، والكل في قضية وطنه.

رغم مرور السنين على غربتي والاختلاط الدائم بالأجانب، من أرجنتينيين وإنكليز وألمان وغيرهم من الأوروبيين، ورغم أنه كان لي بينهم العديد من الأصدقاء، فلم أرد التخلّي عن جنسيتي والشعور بها، لم أرد أن أكوّن عائلة يكون أبوها أجنبياً مع أنني كنت أقدّر تمام التقدير مزايا وأخلاق كل من تقدّم وطلبني للزواج. ولكن لم يكن هذا هو السبب الرئيسي وإن كنت حينذاك أبحث عن مزايا مثلها في رجال من أبناء أمتي. وإنما كنت أفكر في أنه من المستحيل أن أصرف حياتي وجهدي وأن أضع كل إمكانياتي الماديّة والمعنويّة في تكوين بيت قد يكون في النهاية بيتاً إنكليزياً أو ألمانياً أو أرجنتينياً، وهم عندهم من هذه الضمانات الكثير. بل عليّ أن أصرف شبابي وعطائي في بناء بيت يعود بثماره إلى وطني، إلى بلادي، إلى شعبي. هذه هي حقيقة نفسي، كانت ومازالت هي، هي، تخطّ لي الطريق كي أسير عليه.

تابعت بعد وصولي إلى بوانس آيريس العمل في التمريض، وكان هذه المرّة التمريض الخاصّ وأكثر أيامي كنت مشغولة في مصحّ الدكتور بوش. وبعد الرحلة التي قمت بها إلى أميركا الشمالية، حيث زرت أكبر مستشفيات نيويورك واطلعت على المعلومات الموسعة في هذا الفنّ، قررت أن تكون رحلتي الثانية إلى نيويورك للتخصّص في فنّ التخدير، أي البنج الحديث. لكن، وهذا هو القدر، لم تمضِ على عودتي سوى أيام قليلة حتى التقيت بالزعيم الخالد.

الفصل الثالث

كان لقائي بالزعيم في بيت أهلي، وصدفة. ولم أكن قد عرفت أو سمعت بوجوده في بوانس آيريس، وكان قد جاء إلى تلك البلاد قبل عودتي من نيويورك وتمّ اتصال بينه وبين أفراد عائلتي. التقيت بالزعيم عندما لبّى دعوة لتناول فنجان شاي في بيتنا. لم أكن أدري بمجيئه، وكنت أستريح طيلة النهار من عملي الليلي، وقد دعتني شقيقتي بعد أن أيقظتني من النوم الساعة الخامسة لتقول لي إن هناك أشخاصاً مدعوين على الشاي في بيتنا، وسألتني إذا كنت أرغب في تناول الشاي معهم؟ فسألتها من هم؟ فقالت زعيم حزب سوري. قلت زعيم حزب؟ وما أكثر الزعماء في بلادنا، كم من هؤلاء الأدعياء أتوا إلى هنا ولم يكونوا سوى تجّار، وأجبتها: لا أريد أن أرى أحداً، فالطقس جميل والربيع في أوجه، وأتمنى مشواراً في الطبيعة. وقلت لنفسي: ومن يا ترى هذا الزعيم، أيكون رجلاً ضخماً يمثّل في حركاته العظمة والزعامة كما شاهدت سابقاً؟ لا، إن الرجل الذي سيأتي من بلادي لينقذ بلادي لم يولد بعد، ومن يدري متى يأتي؟

وبينما أنا ألبس ثيابي وأسرّح شعري، إذ بالمرآة تعكس صورة منتعشة، جميلة، وفي نظرات هذه الصورة دنيا هناء وصفاء، وكأن الربيع يدخل النفس ويضفي على وجوهنا جمال ذلك الفصل، فصل ولادة الطبيعة. وعندما انتهيت من ترتيب وضعي، دخلت القاعة حيث أهلي وضيوفهم. كانوا جميعهم على المائدة يشربون الشاي. رأيتهم كلهم، ولم أرَ الرجل الضخم الذي تخيلته. رأيت رجلاً شاباً ذا وجه وتعابير جذابة، وشكل لطيف، صاحب نظرة شريفة وعميقة، عميقة جداً، وكان يرافقه رجل أصغر منه سنّاً ولكن تعابير وجهه لم تعنِ لي شيئاً اسمه خالد أديب.

وقفوا لتحيتي ومدّ يده ليصافحني. شعرت عندما وضعت يدي في يده باطمئنان وصفاء، وابتسم لي قائلاً: «بكل سرور». وكان صوته واضحاً، هادئاً وفيه حرارة نفسه.

جلست، وقدموا لي فنجاناً من الشاي وهو قدّم لي السكر، بكل لطف، وكانت تصرفاته الاجتماعية على المائدة جداً عالية. وتابعت أنا كل حركة من حركاته، وأصغيت لحديثه باهتمام ودقة، وتابعت كل كلمة من كلماته. حدّثنا عن الحركة، عن النهضة التي بعثها في رسالته إلى شعبه. لم أفكر أن رجلاً من بلادي قام وحقق في صفوف الشعب هذه اليقظة، هذه النهضة، وهذا التغيّر. وسمعت كيف أن رجالاً ونساء في بلادي وفي صفوف هذه الحركة يدخلون السجون ويحملون راية المبادئ التي آمنوا بها. وحدّثنا عن الملاحقات من قبل الدولة المنتدبة، وعن التشرد والسجون وقوة الإيمان والعزيمة الصادقة في نفوس القوميين، وكيف كانوا يدخلون السجون وهم يهتفون دون خوف ودون تردد. وكنت أصغي، وكنت أحيا هذه المشاهد المشرّفة، هذه العزيمة الصادقة السامية العظيمة. نعم كنت أحيا مع شعبي قضيّة مقدسة، قضيّة حياة أمة. ويا للغرابة، هذا في بلادي وأنا لا أعرف عنه، لا أعرف شيئاً عن بلادي، وماذا أستطيع أن أقدّم لها. لا أعرف أن هناك نساء ورجالاً يقدّمون أرواحهم فداء لأمتي؟ كنت أصغي وأحيا، كل ما تمنيته لنفسي، لبلادي.

عندما كان ينظر إليّ كنت أتخيّل أنه يرافقني في الصور التي كنت أحياها، وأرى في أعماق عينيه صفاء وصدق كلامه. كان يرتدي ثوباً بسيطاً، وسلسلة لساعة من المعدن البسيط تربط بين الساعة في جيبه وعروة الجاكيت.

آفاق جديدة بدأت تتفتح أمامي، فيها الآمال لعالم جديد وحياة جديدة، وابتدأت أخطو إلى ذلك العالم الذي فيه تحيا أمتي حياة عزّ وكرامة، وشعرت أن حملاً ثقيلاً، حملاً فيه التردد الكثير في حياتي، بدأ ينزاح عن أكتافي. وعندما انصرفوا، مدّ يده ليصافحنا واحداً واحداً وتمنّى لنا السير في صفوف هذا الحزب، وقال إن الحركة تعتمد في الدرجة الأولى على الشبيبة، كونها صافية، مدركة لم تدخل

المفاسد نفوسها، وعندها الاستعداد وحرية تقرير المصير. وذهب تاركاً وراءه ابتسامة وشيئاً غريباً في جو البيت وفي نفس كل فرد من أفراد العائلة. وكان ذلك في أيلول 1939.

ساعات قليلة كانت كافية لأرى في هذا الرجل باعث نهضة. هذا كان أول لقائي بالزعيم. خرجت تلك الليلة إلى عملي في المستشفى، وكانت سيدة تنظر إليّ وأنا جالسة على كرسي ورأسي متكئ أنظر إلى بعيد، أبعد مما حولي. فقالت السيدة لي: ما بك، هل التقيت بشاب جميلٍ وغني؟ قلت نعم التقيت بشاب جميل ولكن لم يكن غنياً، بل أكثر من هذا، رجل كلّمني كلاماً لن أنساه، لقد أنعشني حديثه واهتديت إلى نفسي التي كانت متضعضعة.

لن أنسى ذاك اللقاء الأول، وكأن شخص الزعيم المحبوب أمامي الآن وفي كل حين في تلك الوقفة، والابتسامة لا تفارقه وهو يمدّ يده ليصافحني.

ومضت الأيام، ولم نتحدث عنه في البيت، ولم أجد نفسي على استعداد للحديث عنه في البيت وبقي أثر تلك الزيارة وشخص الزعيم وكأنها أشياء خاصة بي عليّ المحافظة عليها. بعد ذلك زارتنا سيدة لتحدثنا عن الحزب والحركة في الوطن، وعن الزعيم ومناصريه، كيف أن الصحف كلها تتحدث عنه وعن مبادئه، وعن الملاحقات والسجون من قبل الانتداب، وكيف أن الشباب الواعي المثقف ينتمي إلى هذه الحركة الجبارة.

وهذه السيدة هي ميريانا فاخوري مديرة مديرية السيدات الناشئة حديثاً في بوانس آيريس، وقد قامت بهذه الزيارة بعد أن تمت اتصالات عدة من قبل الزعيم وناموسه خالد أديب (الذي سيطرد لاحقاً) مع عائلتي، ولم أكن بعد قد عدت من أميركا. وبعد زيارته الأخيرة لنا وتعرّفي عليه جاءت هذه السيدة لتحدثنا وترغّبنا في الانتماء إلى الحزب. وهنا أقول إن الزعيم لا شك شعر باهتمامي في الموضوع، وإن إصغائي الجدّي وأسئلتي حول الحركة جعلته يدرك أنني على استعداد لأكون

في الصفّ، وقد يكون تأكد من جوابي له حين ودّعنا في عصرية النهار الذي شاهدته فيه لأول مرة، عندما قال آمل أن تكونوا من أبناء الحركة وهي بحاجة إلى الشباب الذي يحمل في نفسه العزيمة الصادقة ويستطيع تحقيق هذه الرسالة، فأجبته أنا بأنني أشعر باستعداد كلّي لأخدم وطني وقضيتي.

تركت لنا السيدة مريانا فاخوري كرّاس المبادئ، وذهبت على أن تعود لاحقاً لتعقد معنا جلسة نقاش حول القضية. وبعد أيام حضرت المنفذة وأقسمتُ اليمين، هذا القسم المحفور في قلبي، في عقلي عبر الأيام والسنين، عبر الحياة. هل أقسم أحدنا هذا اليمين ولم يرتعش ضميره أمام خطورة هذا القسم ومسؤولياته؟ ألم يكن هذا القسم الوحيد في حياتنا ونحن نتعاهد أمام الشعب، أمام الأمة، على السير معاً، تحت كل الظروف، دون التخلّي عن هذه الأمانة حتى الموت؟ هذه حادثة عميقة، نبيلة، عظيمة، فيها فخر واعتزاز، وعمقها أقوى من الموت، جذورها لا تقتلع بل تنمي فينا حبّ التضحية والعطاء، الحبّ لمن حولنا، لشعبنا الحبيب العظيم. بعد أيام أقسمت اليمين أيضاً شقيقتي كتالينا، وكانت تسكن وزوجها وابنها في طابق قريب من بيتنا. وهكذا فعلت شقيقتي ديانا. فأصبحنا نحن الثلاث قوميات حديثات في الحزب.

هذه الذكريات تعني لي اجتياز هاوية التردد والسير نحو هدف فيه ولادة جديدة في حياة جديدة، وتركت اللهو كما يترك المراهق ألعاب الطفولة.

وابتدأنا نحضر اجتماعات حزبية. أول اجتماع كان عاماً، أعني أن المنفّذيّة دعت جميع القوميين، وصادف يوم أحد، وفي بيت إحدى السيدات القوميّات وكانت دارها واسعة. أول مرّة أشاهد الزعيم يتحدث في اجتماع عام. كنت أراقب هذا الاجتماع والمجتمعين، وقد لاحظت جدية الوجوه، ونظامية التصرّف، والتقيّد التام. لم أرَ قبل هذه الجلسة اجتماعات للجالية فيها نظام وجديّة على هذه الصورة. والكثير من الحضور شباب يضفون على الاجتماع نوعاً من العزيمة والإيمان، وكان عددهم يفوق الستين. شعرت بغبطة وبهيبة الاجتماع. كنت أتابع حديث الزعيم،

وأفهمه ملياً، وكنت أراقب تعابير وجهه وحركاته، مرّات أصغي ومرّات أسرح في الخيال من جرّاء حديثه وأضيع في مكان بعيد، وأعود لأراه وهو أيضاً يراقب وجوهنا جميعاً، وكانت نظراته حادة، عميقة، ولكنها دافئة، توحي بالثقة والقوة.

لا أذكر تماماً الآن موضوع حديثه، لعلّ هذا الحديث الذي كرره الزعيم علينا مرّات ومرّات ليضعنا أمام أهميّة العمل والمسؤوليّة هو أول ما سمعته منه، وتابع حول هذه المسؤولية لنعي خطورة الأمانة الملقاة على عاتقنا.

بعد اختتام الاجتماع كان الزعيم يقف مع بعض المجتمعين إما لطرح سؤال أو لتداول الأخبار عن الجالية، وكنت أبقى بعض المرّات مع هذه الحلقات من المجتمعين به بعد اختتام الجلسة. وكنت أسمع من بعض الأعضاء نقلهم أحاديث عن الجالية في الأرجنتين، وعن الصحف وتعليقاتها حول الحركة والزعيم. وكان بين هذه الأحاديث بعض الهجوم على الحركة وعلى المبادئ، كما كان هناك تحيّز كبير من البعض الآخر. وكان الشباب القوميون، المتعلمون منهم، يطالعون الصحف ويحتكون بالجالية قصد التعرّف على آرائهم، وهذا ما كنت أسمعه منهم معظم الأحيان في آخر الاجتماع.

اجتماعات السيدات كانت ترأسها المديرة، وكان عددنا في هذه المديرية لا يتجاوز العشر. ولكن هذه الاجتماعات كانت تختلف كلياً بمواضيعها وعمقها عن الاجتماعات العامّة، ولا يخفى أن موضوع الوطن وقضية كبيرة كهذه لم يكن يعيها بعد المهاجر ولا القوميون الحديثو الانتماء. فالمهجر بعيد لم يوفر لهم أي خبرة ولا معلومات سابقة، وكان على الزعيم أن يشرح هذه القضايا بمفهومها الحقيقي، وكذلك كل المواضيع التي كانت من ضمن حياة الجالية في المهجر.

كنت أشعر بهذا الفارق، وإن لم أشترك أبداً في أي نقاش في بادئ الأمر. وكانت لغتي العربية قد ضعفت كثيراً لقلة الممارسة، خصوصاً أن استعمالها في البيت مع أهلي لم يكن إلا حول قضايا عادية، أما الأفكار وتحليل المواضيع الكبيرة فكنت أفكر فيها بطريقة غربية وأتحدث بها على هذه الطريقة. ولهذا كنت أخجل

من ضعف لغتي، فلا أريد الاشتراك. ومن جراء هذا التوقف أخذت ألاحظ كل الآراء وأزنها وأنقد أخطاءها وأتابع السماع دون الدخول في النقاش. وقد لاحظ الزعيم عليّ هذا الموقف، وسألني رأيي مرات حول هذا الموضوع أو ذاك حين كنّا نقف لنتحدث معه بعد أن ينتهي الاجتماع، وكنت أعطيه رأيي وفي معظم الأحيان أعبّر باللغة الإنكليزية. وكان يهتم بي ويشجعني على أن أتابع دراسة اللغة العربية. ولم يخفِ سروره عندما أحضر الاجتماعات، وكنت ألاحظ كيف كان يتابع بنظره تعابير وجهي، وكنت أسرّ ضمناً وتقوى معنوياتي وأتشجع لبحث الأمور معه. وكان الزعيم يخصني باهتمامه، فيقصد الاجتماع بي، وطرح الأسئلة عليّ وأخذ رأيي في قضايا كانت محور الاجتماع. كان يبحث لا شك عما في أعماق نفسي ويثير صمتي، وأدرك أنه يبحث عن الجوهر في كل منّا حتى يفوز بالقيم، إذا وجدها، فيحركها لتعطي ثمارها.

ابتدأت أهتم بمطالعة الصحف وإن كانت من الصفّ الضعيف، فقط لأتابع موقف الجالية وما تقدّر من أهمية هذه الحركة وهذا الرجل. وقد وجدت الصحف في المهجر، كالعادة، صوت فئة على فئة، وطائفة على طائفة، ومؤسسة على مؤسسة، ولهذا لم تعالج القضايا الوطنية كقضية عامة ولم تأخذ هذا الموضوع إلا من ناحية شخصية سواء كانت طائفية أم سياسية، وأكثر الأحيان لمصالح اقتصادية. لذلك لم نعرف من خلالها الوقائع في بلادنا، بل التحزبات الشخصية. مثلاً عند وصول الزعيم إلى الأرجنتين تنبهت الفئات القائمة على أساس لبنان الطائفي وأمها الحنون «فرنسا»، وحملت حملتها الشعواء على الزعيم، واختلقت الأكاذيب عليه وعلى مهمته في المهجر، واتهمته أنه أحد عملاء الطابور الخامس، وأنه هارب من لبنان لملاحقته من قبل السلطة بسبب هذه التهمة، وأنه أتى من ألمانيا بعد أن قابل هناك هتلر واتفق معه على سياسة البلاد. وكانت الصحف الأخرى تابعة للمرسلين من الطائفة المارونية الذين ذهبوا إلى أبعد من هذا، ونشروا في صحفهم أن الزعيم يعمل لصالح ألمانيا، وأنه موجود حالياً في ألمانيا (وهذا بعد أن كان الزعيم يلتقي بهم إما على الطريق وإما في بيت أحد المواطنين).

وكانت هناك بعض الصحف التي اعتدلت في موقفها وإن لم تعطِ للقضية حقها، فلم تهتم بالصراحة اللازمة، ولم تحدد موقفها من الحركة بحزم ووضوح. وكان بعض المنتمين إلى الحزب يعملون في الصحافة، وبهذه الطريقة كانت تصدر مقالات عن الحركة وعن المقابلات بين الزعيم وبعض المواطنين ذوي المراكز الحساسة في الجالية.

وبعد وقت قصير من انتمائي إلى الحزب، ابتدأت أعرف أكثر عن الرفقاء ومعنوياتهم، عن تصرفاتهم، عن انضباطهم أو عدم انضباطهم، عن سلوكهم الخلقي والحزبي، وأخذت أفهم ما يعانيه الزعيم من أثر هذه الأمراض المتفشية في نفوس شعبنا الذي لم يعتد الجهاد في سبيل قضيّة قومية، ولم يعتد التقيد بالنظام ولا التضحيات، خصوصاً في المهجر حيث كان للمال وجمعه الحساب الأول، أما في المواضيع الأخرى فكان منفلتاً من مسؤوليات نجاحها، بحيث لم يعِ الناس ولم يأت من يوضح لهم واجباتهم نحو وطنهم وقضيته المقدسة، فلم يمارسوا العمل ولا التضحيات من أجله، ولم يمارسوا البطولة حتى يعوا معنى البطولة. والمصير، مصير الرسالات بين من يجهل الرسالة، كان أصعب وأشق وأخطر.

بعد زمن قصير تعرفت على هذه الأمور وغيرها التي كانت تقف عثرة في طريق العمل الشاق الطويل الذي اعتاده الزعيم في الصراع والانتصار في رسالته المصيرية.

نعم، كنت أتقرّب أكثر إلى فهم هذه القضايا بالاحتكاك الدائم مع الزعيم في الاجتماعات العامة وفي الاجتماعات العائلية وبين الرفقاء والأصدقاء. وما تكاد تلوح دلائل انتصارات في أوساط الجالية وبين صفوف الشباب حتى تظهر غير هذه الدلائل المفرحة، فيخمد الفرح في قلوبنا ويتعكر الجو، ويحمى الجدل بين أصحاب المصالح الخاصة وأصحاب العقيدة، فهنا فئة تلوم وتهاجم، وهناك فئة تدافع وترفع مبادئها القومية. وينتهي في هذا الصراع من لم يكن أهلاً لحمل الرسالة ويتفهم الآخر معنى الصراع من أجل العقيدة وصحتها.

وعندما قدم أول آذار سنة 1940 انتُدبت من قبل منفذية السيدات للمشاركة مع اللجنة التي تشكلت لإقامة مأدبة عشاء على شرف الزعيم، وكان من الضروري نجاح هذه الحفلة لأنها الأولى التي تقام على شرفه. فدعانا إلى بيته وكان يسكن بنسيون في ضواحي بوانس آيريس في غرفة بالاشتراك مع ناموسه خالد أديب، وكان معه في الغرفة نفسها سابقاً الأمين أسد الأشقر، ناموسه أيضاً، وقد سافر عائداً إلى أفريقيا قبل تعرفي على الزعيم، فلم أره ولم أعرفه حين كان في بوانس آيريس. ولكن خالد أديب بقي معه، وعندما دعانا نحن لجنة المأدبة كان حاضراً. دخلت مع رفقائي غرفة الزعيم، وكانت محاطة بنوافذ تطل على حديقة البيت، وفيها ثلاثة أسرة ـ مقاعد، وفي وسطها طاولة للطعام وللكتابة وقربها خزانة غير كبيرة وبعض الرفوف المزدحمة بالكتب. كل شيء فيها نظيف لأن أصحاب البنسيون كانوا عائلة ألمانية، ولكن كل شيء عتيق، وإيجار البنسيون أيضاً كان متواضعاً (هذا ما عرفته لاحقاً). وكان الزعيم مستلقياً في فراشه، وعرفت من رفقائي حين دخلنا أنه في حالة مرض وتعب. وقد سألوه عن صحته وإذا ما كان قد تحسن، فأجاب والابتسامة على شفتيه أنه متحسن، ونظر إليّ وقال إنه مسرور بمجيئي لزيارته مع رفقائي وأنه يهنئني على تطوعي للسعي في نجاح الحفلة. شكرته وأنا أنظر إليه وقلبي ينكمش من الحزن عليه. دلائل التعب واضحة على وجهه، ولا أحد حوله ليهتم بأمره وصحته، وهو الذي نذر نفسه لأمته، أراه وحيداً مع آلامه لا يد تمتد إليه بحنان، وفي بيت غريب وبلد غريب، ومن يدري ما يعانيه الزعيم من آلام نفسية؟

هذه الصورة لوضع الزعيم وصحته ترافقني مدى الأيام، ترافقني مع أحداث مؤلمة واكبت تلك الفترة. أراه في هذه الصورة كما كنت أرى في مخيلتي القديسين وهم يتحملون العذاب بسبب رسالتهم. أراه وقد أنكر البعض تضحياته، ونسي البعض الآخر واجبهم تجاهه في أدق ساعات الظلمة. أراه المعلم الواعي، قائد الأجيال. وأراه مصوّباً نظره نحو قمم يعيش عليها جيل لسنا نحن منه، فيصفح

عمن يسيء إليه بمحبة واعية، ويعطي دون حساب العطاء البنّاء الذي يبني الجسور بين جيل وجيل.

وبينما الدعوة للرسالة كانت تنتشر بين المواطنين في الأرجنتين، كانت الحرب قائمة في الوقت نفسه على الرسالة وصاحب الرسالة من قبل الفئات التي اعتادت قيادة الجالية لمصالحها، والفئات التي تقف عند حدود الطائفية، والغافلين عن حقيقة قضيتهم. وكان على الزعيم أن يجابه لوحده تلك المعركة وهو مريض، متعب. وقد أرهقته السجون في الوطن والملاحقات والتشريد، وأخيراً سجنه في البرازيل التي وصلها ليحمل إلى أبناء أمته مبادئه السورية القومية ويوصلها إلى من لم يعِها أو من لم يتعرف عليها. وصل البرازيل سنة 1939 فوجد من هؤلاء المواطنين المؤامرة التي دبروها بجهل المفاهيم القومية والوطنية، وأوعزوا للحكومة البرازيلية أنه رجل خطر ملاحق من قبل الحكومة الفرنسية في لبنان، وقادم من ألمانيا، ويعمل في الطابور الخامس (وفي تلك السنين كانت قضية الطابور الخامس هي البعبع لكل الدول في العالم). فأوقفته الشرطة وأودعته السجن حتى تم التحقيق معه وترجمة مبادئه وبعض كتبه، ثم أُفرج عنه ببراءة بعد ثلاثة أشهر مع الاعتذار منه، وانتقدت الحكومة البرازيلية بعد مطالعتها المبادئ أخلاق الجالية هناك التي تضيع على نفسها إمكانيات رجل مثله. هذه الحادثة تركت في نفس الزعيم أثراً عميقاً، وقد روى لي لاحقاً كيف أن ناموسيه خالد أديب وأسد الأشقر لم يعلماه بمجيء الشرطة إلى بيته والسؤال عنه، وأخذا يتباحثان وهما في المقهى ما إذا كان في نية الشرطة أن توقف الزعيم أم لا. وقال لي الزعيم: كان من واجبهما إعلامي حتى أحضر للشرطة بنفسي مع الأصدقاء لتوضيح الحقيقة قبل أن يتخذوا هذا التدبير المفاجئ، وبدلاً من البحث عني وإعلامي ظلاّ طيلة النهار في المقهى يتداولان ما إذا كان الزعيم سيوقف أم لا.

قلت إنني ابتدأت التعرف على رفقائي في الحزب عن كثب، وعرفت حسنات الكثيرين منهم ذوي الأخلاق العالية وإخلاصهم للحركة وللزعيم. كما تعرفت على

قوميين لم أميزهم عن بقية المواطنين الذين اعتادوا الوصول عن أي طريق كان. عرفت هؤلاء كلهم بالاحتكاك معهم في مهمات حزبية كنت مكلفة بها. وقد بدأ عندي الشك في إخلاص خالد أديب. ولكن في ذلك الحين لم يكن بيني وبين الزعيم أي حديث خارج الاجتماعات. أما خالد فكان يأتي إلى بيتنا دوماً بصفته من طرابلس وهو صديق لأخي جورج، وكنت أسمع منه ما هو غير لائق برجل مثله وهو ناموس الزعيم. مثلاً كان يسألني: «هل تظنين أن الزعيم متغيّر في أطباعه؟» وأسأله أنا: ماذا تعني حضرة الناموس؟ يقول: «أعني أنه أصبح عصبي المزاج، أخاف عليه». وأقول له: الزعيم لم يتغير بالنسبة لنا، ولا أحد لاحظ على الزعيم شيئاً من هذا، بل العكس فقد أخذت صحته تتحسن وهو نشط. فيقول لي خالد: وهل تظنين أنه من اللائق بنساء قوميات أن يقمن بشراء ألبسة للزعيم؟ قلت: ولكن هذا ما دخله في اللياقة! والزعيم ليس له أهل هنا وقد أحسنت الرفيقة إميليا يونس بتفقّد خزانة الزعيم لمعرفة ما يلزمه، وهي امرأة برهنت على متانة الروابط بينها وبين عائلة الزعيم، وكانت بمثابة أمّ له وأخت لوالده عندما عرّج الدكتور خليل سعادة على الأرجنتين في الماضي. ونحن لا نرى أي فارق بين هذه الألبسة والبدلات التي اهتمت بشرائها الرفيقة إميليا للزعيم. ويعود ليقول إنه قلق على الزعيم، وهو يتحدث مع بعض القوميين في المقاهي فينقلون إليه نفس الشعور. وكنت أثور على هذا التصرف المبطّن وفيه النية السيئة، إذ كيف يتحدث وهو ناموس الزعيم هكذا أحاديث مع المواطنين؟

بعد ذلك عرفت الكثير عن خالد أديب، وتدخلت مراراً في أمور رفقائنا معه. وقد بدأ التذمر من تصرفاته أولاً من قبل عائلات القوميين بعد أن أصبح له المجال بينهم لصرف الوقت معهم واصطحابهم إلى الملاهي ومحلات السهر، فيعودون في أوائل ساعات الصباح. وهكذا بدا لأهالي القوميين نسق جديد لم يعتادوا عليه، فحملوا الحزب من جرائه مسؤولية التفريط بأخلاق الشباب وصرفهم المال في طرق غير لائقة. وعرف الزعيم بهذا، واستدعى خالد مرات ليؤنبه على هذا التصرف ويدعوه إلى الانضباط الخلقي، ويهدد بمحاكمته إذا استمر على هذه

الطريقة. وكان يقول له: إنك تكذب عليّ، وحين أكلفك بمهمة خاصة تذهب لملذاتك وتعود في الصباح لتقول إنك كنت منشغلاً في تلك المهمة. وقد اكتشف الزعيم عدة مرات أن خالد كان يرفع له تقريراً حول مهمة ما أو حديث مع أحد المواطنين ويكون كاذباً. ومع ذلك كان الزعيم يطلب من خالد الاعتراف بأخطائه خطياً، فيعترف ويكتب ويبكي طالباً العفو والعودة عن أخطائه. ولكنه كان يعاود السير في الطريق نفسه ويزيد من مفاسده في أوساط الحزب.

وفي أول آذار 1940 أقيمت مأدبة عشاء على شرف الزعيم في قاعات الفندق الكبير جوستن Joustin Hotel في بوانس آيريس. وكان عدد المدعوين كبيراً وأظنه يقارب الأربعمائة مما جعله احتفالاً رائعاً. وكان من المظاهر البارزة فيه النظام، فالنظام الدقيق في احتفالات عامة ظاهرة لم يتعودها المواطنون في المهجر. وكانت صفوف الشباب القومي تستقبل الضيوف وترافقهم، كل واحد إلى مقعد خُصّص له. ولم يتجمهر أحد على الأبواب ولم يندفع الجمهور كله ساعة وصول الزعيم إلى القاعة، بل استقبله صفّ الشباب القومي المنتظر عند المدخل وأعلن وصول الزعيم إلى القاعة، فوقف الجمهور كله دفعة واحدة، وحيّا الزعيم بالتصفيق الحاد وهتف الشباب بحياة سورية والزعيم.

إن فرحي في تلك المناسبة كان مقترناً بنجاح الحفلة التي اشتركت في ترتيبها، وكان مقعدي على طاولة أمام طاولة الزعيم. وقد جلس قرب الزعيم سيدتان، يميناً والدتي والمنفّذة يساراً. كنت أراقب ما يقدّم للزعيم من مأكولات، فقد كان ولا يزال تحت الحماية في الطعام بسبب معاناته من سوء الهضم. وكان ينظر إليّ حين مجيء صحن من الصحون، وكنت أعرف إذا كان مناسباً له أم لا فأشير برأسي موافقة أو رفضاً. وسبق أن قمت بمهمة ترتيب برنامج طعام الزعيم في البنسيون الذي كان يسكن فيه، وقد عرّجت يوماً على البنسيون وتحدثت مع السيدة الألمانية وزوجها حول صحة الزعيم وطعامه. ومن جملة الأحاديث ونحن جالسون في الحديقة قالت لي هذه العائلة الألمانية إننا نهنئكم برجل مثل الزعيم، ونتمنى لو كان عندنا

مثله. ولم يكن الزعيم حاضراً ذاك اليوم، وفكرت كيف أن الشعوب الواعية تتعرف على الرجال الأحرار وتقدّر مواهبهم، وهم الذين كانوا يتمتعون عبر تاريخهم برجالات عظماء.

كم من المرات أفكر، وأنا أذكر هذا الحديث، أن الرجال العظماء يأتون ويذهبون دون التحسس بعظمتهم إذا كان الشعب لا يعي هذه المزايا. فهناك شعوب واعية تخلق أبطالاً، وشعوب غبية تقتل وتدفن الأبطال.

وكما أن الأبطال لا يأبهون بالموت ولا يفكرون إلا بعظمة رسالتهم، كان الزعيم لا يفكر إلا برسالته وأمته، وكان ينسى آلامه ولا يتألم إلا من أجل أمته التي أحبها أكثر من حياته.

وهكذا تمت الحفلة في جو من النظام والهيبة مما دفع بعض الصحف إلى الحضور لتأخذ حديثاً من المحتفى به، وقد قالوا إنهم شعروا أن المحتفى به رجل عظيم وهو محل تقدير للغاية. كان الشباب واقفين بصمت على كل زاوية من زوايا الموائد، وقرب الزعيم حارس من كل جانب، لا يأتون بحركة أو كلمة سوى مراقبة الجمهور. وبعد انتهاء العشاء شرب الجمهور الشمبانيا نخب الزعيم، وعلت الهتافات بحياة سورية وحياة الزعيم. ثم ألقى الخطباء كلماتهم وكانت من ضمن الخط العقائدي، وانتهى الزعيم بارتجال كلمته التي عبّر فيها عن إيمانه برسالته، وتفهّم الجالية حقيقة قضيته على رغم أنه لم يأتِ مواطن واحد لاستقباله حين وصوله، ومع ذلك لم يكن أقل ثقة بهم مما هو عليه الآن. وهذا التعارف وهذه الوجوه حوله كانت الدليل على أنه ملاق من أبناء أمته التأييد لرسالته، رسالة أمته.

ولكن هذا الإيمان وهذه الثقة بالشعب لم يمنعا المنحرفين عن الحق، فظلوا على حالهم ضاربين عرض الحائط بالمناقب والقيم الأخلاقية والعقائدية، فهم يتسترون بشتى الطرق حتى الوصول لمآربهم. ومن بين هؤلاء كثيرون حاولوا الاعتداء على مبادئ الزعيم والتشويه على شخصه وأخلاقه حتى أنهم اتهموه بجمع ثروات كانوا هم في الحقيقة يبتغونها على أكتاف الحزب وخاب أملهم.

والاحتكاك هو وسيلة للتعرف على الجوهر. وظهرت مزايا وطموحات لم يتخيلها العقل، كانت حقيرة في غايتها، مادياً ومعنوياً. فانزوى الخاطئ أمام خطئه عندما كان قومياً ودخل جهاز الحرب على الحزب والزعيم لأنه كشف أمرهم ولم يرضَ بتصرفاتهم. فكان هذا بالنسبة لي اختباراً وإن كان شنيعاً في صوره الخلقية، إنما تكشفت أمامي مخططات وأساليب كنت أجهلها في الجالية.. بل وكنت حتى أجهل الجالية في الأرجنتين.

وحين تعرّفت على هذه النفوس التي لم تزل منها الأدران القديمة الموروثة من عهود الاستبداد والاستعمار وفقدان الوعي القومي وتلاشي المزايا الخلقية، شعرت أن الزعيم يعمل لوحده في ذاك المحيط، جاهداً ليرفع البناء الجبار في وسط من لا يريد رفع هذا البناء إلاّ لنفسه، ومن الجهود التي يبذلها الزعيم يترقبون ثمارها شخصياً. لهذا ما إن أتت أول فرصة وفيها المنافع الشخصية حتى ظهرت نفوس بعض المنتمين الجدد ومنهم حسني عبد الملك وجبران سابا وإبراهيم نبكي وجبران مسّوح وخالد أديب، ولهذين الأخيرين قصة هي بدعة في التلاعب والخداع.

ومما كان يجعل القوميين المخلصين يتعلقون بالزعيم ويقتدون بحكمه عدم تسامحه مع من يحمّل القضية أخطاءه. وكانت محاكماته لهؤلاء دوماً علنية، وفي الاجتماعات أمام كل الرفقاء. وكنت أفهم من هذا أنه كان يريدنا أن نعي أن رحابة الصدر هي للتحمل في سبيل القضية، ولكن شرط أن لا يستمر الغش والخطأ وراء حجة القضية، لأن الحركة تلفظ الغش ولا يبقى في البناء غير البنائين المخلصين مهما كانت خبرتهم ضئيلة، فالوقت يكسبهم ما هم تواقون له حين يكونون صافيين ومجاهدين ومؤمنين.

وابتدأ تنظيم الصف القومي من الشخصيات الواعية النزيهة، وكانوا كثيرين، فانتظمت منفذيات ومديريات عدة في بوانس آيريس وضواحيها، وفي الولايات الكبيرة في كل أنحاء البلاد الأرجنتينية. ورغم أنه كان في كل ولاية حجر عثرة، فقد تخطاها الزعيم وتخطاها التلاميذ الواعون، وكان من سهرهم على القضية

أنهم استطاعوا نشر مبادئ العقيدة في كل أنحاء البلاد. كما استمر الصراع المعتاد وسط هذه الجالية المؤلفة من عصبيات عدة دون عصبية قومية. وهناك ما يذكّرني بمحاولة بعض الشخصيات التي عاشت عظمتها على أكتاف الجالية ولم ترد التنازل عن هذه المكانة، فخافت على وضعها أمام رجل ذي رسالة وعقيدة. ومن الأمثلة على ذلك موسى عزيزة، المهاجر من حماه، وكان كثير الحيل في التجارة، ولم يكن يقوم بصفقة رابحة حتى يخطط لنفسه في أوساط الجالية مكانة التصدّر والتحدّث باسمها. وأقام نادياً أسماه «النادي السوري اللبناني» فكانت أول صفة أُطلقت على الجالية في المهجر وانتشرت بسرعة بين الأجانب وكأنها هي قوميتها، فعرفونا بالجالية «السورية اللبنانية» مثلاً والتجارة «السورية اللبنانية» والصحافة «السورية اللبنانية» والبنك «السوري اللبناني» والمستشفى «السوري اللبناني» إلى ما هنالك من مؤسسات صغيرة وكبيرة (وقد عرفت سنة 1967 في بوانس آيريس أن عزيزة سلّم البنك إلى أيدٍ يهودية بغية الحصول على سعر أعلى).

هذا الرجل، عزيزة، أراد أيضاً أن يعرّف الزعيم ويظهر له بأنه يفوقه شخصية، فدعاه بواسطة المنفّذة، وهي من حماه كذلك (وظهر لاحقاً أنها مستعبدة له وقد أوقفت عن مسؤولياتها)، دعاه ليلقي محاضرة في النادي. وكان الزعيم يعرف من هو عزيزة، فكل الجالية تعرف عنه، خصوصاً أصحاب الفكر منهم، ولكنه قرر أن يلقي المحاضرة هناك على أن تكون الدعوة من قبل الحزب للمواطنين وجاءت ساعة إلقاء المحاضرة وتبين أن السيد عزيزة هيأ القاعة الصغيرة ولم يكن فيها المتسع ولا عدد الكراسي الكافي. وصدمنا كلنا من هذا التصرف، خصوصاً أن المنفّذة أخذت على عاتقها إرسال الدعوات للمواطنين، لكن لم يكن أحد منهم سوى القوميين. وقام عزيزة ليعرّف على الزعيم (أمام القوميين) والقى كلمة طويلة عن الجالية وحسناتها وتفوّقها في العقل والفن والثقافة وكل الميادين الاجتماعية على الأجانب، والدليل على ذلك كثرة نواديها وصحفها ومؤسساتها التجارية والبنكية (ولكن هذه هي أساليب عزيزة الذي استغل الجالية بكلام من هذا النوع وهو يلعب

في مقدراتها المالية والاجتماعية). ان كثرة النوادي في جالية مثل جاليتنا كانت دليل التفكك، والمؤسسات المتعددة تبعد طائفة عن طائفة وإقليماً عن إقليم. وكانت غالبية الصحف أداة تخريب وحرب فئة على فئة، ولم تزل قائمة في مهاجرنا تلك الأساليب التي تفضح بعدنا عن المفاهيم القومية ووحدة الصف. ووصف عزيزة التفوق في الحقل الفني والثقافي والاقتصادي والمالي للجالية، وكان «البنك السوري اللبناني» ملكه وهو يستنزف إمكانيات المواطنين عندما تضيق بهم أوضاعهم التجارية. ومن جراء هذه المعاملات فشل وأفلس كثير من التجار، ولكن السيد موسى عزيزة كان يزيد ثروته بين ليلة وضحاها ويزيد ضحاياه. ثم إن «النادي السوري اللبناني» الذي أسسه كان مركز تجارة له، وعندما فشل النادي بسبب أساليبه أراده أن يكون محط أنظار الجالية بحضور الزعيم وإلقاء محاضرات فيه، ولكن دون التعدي على شخصية موسى عزيزة.

ألقى الزعيم خطابه على ذاك المسرح البسيط، فكبر المسرح وكبرت القاعة. وشعرنا بكلام الزعيم المخلص الناقد، يصف الدواء لأمراض الجالية وتفككها. وكشف لنا فقدان الشخصية السورية في الأوساط الأجنبية خصوصاً بسبب ما نفتقده في المهاجر من مؤسسات سورية، سواء كانت ثقافية أم فنية أم اجتماعية أم في حقلنا التجاري والمالي، وقد دلّ على هذا الفراغ في صميم الجاليات النازلة في المغتربات وأرجع هذه الأسباب لفقداننا الميزة والاهتمام بالشؤون الفكرية والثقافية والاجتماعية والفنية وخصوصاً المالية. وذكر أنه ليس هنالك في الأوساط الأجنبية من يقرأ لكاتب أو مفكر سوري أو عربي، وهذا عائد لإهمالنا هذه الناحية من النشاط الأدبي، وأن لا شخصية لنا في وسط المجتمعات الوطنية إذ إن الجالية لا يمثلها في الشؤون الاجتماعية الوطنية شخصية من الجالية إلا نادراً وعن طريق صداقة خاصة، وأن لا مدارس لنا في المهجر كما لغيرنا من الجوالي الأجنبية النازلة هناك، وأننا لم نمثل أي فن من بلادنا ولم نعرّف المحيط على فنوننا وفولكلورنا، وحتى موسيقانا (عدا عن جوقة من السوريين اليهود بقيادة شخص

اسمه زيتوني). أما من ناحية التفوق التجاري والمالي، فقد انتقد الزعيم الطريقة الفاسدة التي تتبعها الجالية هناك وفي كل المغتربات، إذ إنها لا تقوم إلا عن طريقة فردية، فما تكاد تنهض وتنتعش حتى يصيبها انتكاس وانهيار نظراً إلى فقدان التعاون الجماعي والمالي، حيث أن الفرد يقوم لوحده، وإذا وجد في وجهه مقاومة خارجية انهار في وقت قصير. وبما أنه ليس لنا مؤسسات مالية بالمعنى الصحيح، فلا إنقاذ له ولا مساعدة. ولذلك تنشأ البنوك في الجاليات حيث تكون مهمتها تحقيق الخير للجالية وإنعاش الاقتصاد والتجارة في صفوفها، وليس انتظار إفلاسها حتى تستولي على الفوائد الباهظة التي تلاحقها بها (وهذه كانت أساليب موسى عزيزة وشقيقه، فحين يرفض البنك تسليفه مبلغاً ما يأخذ الشقيق على عاتقه إنقاذ هذا المواطن لكن من خلال تكبيده من الفائدة ما لا يطاق).

انتهى خطاب الزعيم القيّم وعلا التصفيق. وكان موسى عزيزة يشعر بمصلحته تنهار، فيمرّ من على المسرح جيئة وذهاباً حتى يلفت النظر ويخفف من متابعة الإصغاء. وكان يمر بي وأنا بانتظار تقديم سلة من الزهور للزعيم من قبل منفّذية السيدات خارج المسرح ويقول لي: هل أنت مهتمة كثيراً لهذه الحركة؟ وكان جوابي فقط إشارة من إصبعي على شفتي كي يصمت لأنني كنت أصغي.

ثاني حركة قام بها عزيزة كانت عندما أردنا أن نقيم مأدبة للزعيم ندعو إليها الكثير من أبناء الجالية والأجانب في «النادي السوري اللبناني». وقد قررنا موعد الحفلة وحجزنا القاعة الكبيرة، ووزعت الدعوات على الجالية. وقبل يومين من الموعد المحدد يعلن موسى عزيزة في الجريدة لنفس النهار وفي الساعة ذاتها عن مأدبة عشاء تكريماً لأعضاء لجنة النادي. وهكذا يصبح الاجتماع خلطاً بخلط عنده، فيتصور الجمهور أن الاحتفال له. وقد قرر الزعيم إلغاء الحفلة، ومحاسبة المنفذة السيدة نجيبة عبود وإبعادها عن مسؤولياتها التي لم تخدمها بإخلاص.

ومنذ ذلك الوقت وموسى عزيزة يحارب الحركة وخصوصاً الزعيم. وفي ظل هذه القواعد الفاسدة التي نشأت في المهاجر كان العمل الحزبي يقوم بمهمتين:

تهديم الفاسد وبناء الصالح. ولا أحد يدري، ولا أحد يتصور الهجوم الدنيء الذي حدث في هذا الصراع.

خلال تلك الأشهر القليلة بين أيلول 1939 وآذار 1940 شاهدت هذه الفصول من الصراع من أجل الحق، الصراع لخير الشعب الذي كان يجهل الخير بعد أن أصابه مرض اللامبالاة. ولكن خلال هذا الصراع تمكنت الحركة من إيقاظ الضمير السوري في الكثيرين، وتركت في نفوسهم آثاراً طيبة بناءة فاتحة طريقاً جديدة في صميم المجتمع السوري في المهجر.

صحة الزعيم في ذلك الوقت كانت منحرفة، وضعف الهضم يرافقه بسبب فترات السجن في الوطن، وإضرابه عن الطعام حين لم يسمح له بطعام من الخارج وكان مهدداً بالتسميم عن طريق الطعام في السجن. وقد تكون الانفعالات النفسية ومواقف بعض المسؤولين من الزعيم في ساعات الشدة، والتعرض للتعب والسهر والملاحقات حين كان الحزب سرّياً، من الأسباب التي زادت في الاضطراب الهضمي. وقد امتنع الزعيم مدة طويلة عن القهوة والشاي وجميع المنبهات والمأكولات التي تتطلب وقتاً طويلاً لهضمها، وقد أشار عليه الأطباء بالراحة التامة خصوصاً بعد تناول الطعام. وقد مرض مرات عدة وكانت إحدى العائلات القومية تهتم به. وكنت أعطيت الرفيقة مريانا فاخوري وزوجها الياس، اللذين مكث عندهما الزعيم بضعة أيام، لائحة الطعام الخفيف، وكنت في بعض الأحيان أذهب لتهيئته له، فألتقي بالزعيم هناك ونتحدث عن الأمور الحزبية. وفي كل لقاء معه كان يشدد عليّ بضرورة متابعة درس اللغة العربية.

الفصل الرابع

ما كادت حفلة أول آذار 1940 تنتهي، ويتحقق الانشراح الكامل من نجاحها، حتى قررت وأهلي الصعود إلى الجبال، جبال كوردوبا، لأخذ القسط المعتاد من الراحة في كل صيف.

بقي الزعيم في بوانس آيريس لمراجعة الأطباء ودخول المستشفى لإجراء فحوص شاملة من صور أشعة وتحاليل مخبرية. كنت أشعر بتعبه، وكنت أتأثر لتعبه، وأتمنى أن أكون بخدمته الصحية. كنت أرافقه في صراعه وأشعر بثقل العبء الضخم الملقى على عاتقه، وهو وحيد في غرفته، لا أحد يدري بآلامه ولا أحد يخفف عنه هذه الآلام. وكنت ممتنة للرفيقة إميليا يونس لما تقدمه من خدمات نحو الزعيم بتفقدها إياه ومن ثم دعوته للإقامة في بيتها.

وبقيت هذه الرفيقة مخلصة للزعيم وللقضيّة وقد انتقل هذا الشعور إلى كل أفراد عائلتها خصوصاً إلى السيد عبود سعادة حمي ابنتها الذي هاجر في أول شبابه وحقق ثروة وعلّم نفسه القراءة والكتابة وأصبح يلقي كلماته ارتجالاً، وأنشأ بناءً فخماً في المدينة على طراز وأسلوب خاص، رغم أنه لم يتعلم الهندسة، واستطاع اختراع وبناء البيت المتحرك الذي عرض في أحد معارض الأرجنتين وحاز على إعجاب الجمهور. هذا الرجل الذي صنع نفسه بنفسه لم يفقد الطيبة والتواضع والسلوك السليم، وكان الزعيم معجباً به ويضرب به المثل على عبقريّة العقل السوري.

صعدنا الجبال، وهي جبال للمصايف فيها الطبيعة خيّرة وتشبه جبال بلادنا إلى حد ما. القرى الصغيرة هنا وهناك والجداول المنسابة بين الجبال والوديان

تضفي على بعض القرى جمالاً طبيعياً خلاباً، خصوصاً في المنطقة التي قصدناها واسمها الماء الذهبي Agua de Oro وفيها فندق لأحد الأصدقاء الإفرنسيين المهاجرين يتعامل معنا في المحل. واخترنا الذهاب في أواخر الفصل إذ إن المكان يصبح شبه خالٍ من النزلاء ويتفق آذار مع بدء المدارس والعودة من المصايف. هذا الشيء أراحنا جميعاً لأننا كنا نقصد الراحة. وكانت بركة السباحة متسعة وخالية إلا من ضيوف عشرة. والنهر الذي يقع على سفح الجبل بين ضفتين اسمه نهر الماء الذهبي. كنّا نسبح فيه ونلعب ونجلس على ضفته للتمتع بالشمس. ولكني كنت أتمتع بهذه المناظر وأفكر بالزعيم الذي لم تتح له فرصة الاستجمام. أذكر ما قاله لنا عن العرزال الذي بناه في ضهور الشوير وكأنني أختار مكاناً له هناك على قمة التلّة قرب الفندق. وكنت أود لو أنني في المدينة وهو في الجبال يتمتع ويرتاح من عناء ذاك الصراع الذي شاهدته خلال تلك الأشهر القليلة.

كنت متأكدة أنّ أفراد عائلتي لم يتحسّسوا هذه القضايا رغم احترامهم للزعيم وتقديرهم له.

ولكن كل شيء يحدث في الحركة كانوا يعالجونه ويمضي دون تأمل عميق في أبعاد تلك الأحداث ومعانيها. هذا ما كنت أتخيله، لذلك لم أقدم مرّة على التحدث معهم حول شخص الزعيم. وكان للزعيم نظرة ثاقبة في الأشخاص ونفسياتهم وكنت أشعر أنه كان يميّز بين نفس ونفس، ويتحدث كثيراً عن النفوس ويعيرها الاهتمام الكبير، لأنها هي التي تدفع المرء لتخطّي الصعوبات أو السقوط أمامها، وهي التي تدفع الإنسان للعمل الصالح، الكبير البطولي.

أول رسالة استلمناها من شقيقي جورج يقول فيها إنه على استعداد للمجيء إلينا في الجبال، وقد قابل الزعيم وهو يرغب بالصعود أيضاً إذا كان المكان بعيداً عن الضجيج والفندق هادئاً. وكتبتُ إلى الزعيم أول رسالة أخبره فيها عن المكان وجمال الطبيعة وهدوء المنطقة والفندق شبه الخالي من النزلاء. فردّ الزعيم عليّ برسالة، فيها توضيح حول وضعه في المصحّ ومتابعة الفحوصات وإمكانية إنهائها

في الأيام القريبة، وقد يقرّر الصعود إلى الجبال ويحتمل أن يكون هذا بعد ثلاثة أو أربعة أيام إذا سُمِح له. وصلت الرسالة على اسمي في الفندق، ولم يطب هذا لشقيقاتي إذ رأين فيها قلة احترام لهن إذ كان على الزعيم أن يكتب لنا جميعاً إن لم يكن لأكبرنا سنّاً. لم أوافق على هذا الرأي فدخلنا في جدل دام ساعات، وانصرفت عنهن منكمشة على نفسي حيث شعرت أن السنين التي ابتعدتها عن البيت ومنحتني خبرة عن أجواء خارجة عن جوّنا والانفتاح الذي عشته في أجواء غريبة قد تصطدم ثانية وثالثة دون جدوى للوصول إلى القواعد الشخصية. وقد افترقنا في مفاهيمنا للأمور الأساسية في الحياة والنظرة إلى الحياة والمجتمع والإنسان. ورافقني الصمت، فانعزلت في الحديقة الكبيرة مرّات أقرأ تحت الأشجار ومرات أخرى أتمشى لوحدي. وبعد يوم من وصول الرسالة، ذهبوا كلهم في الصباح إلى ضفة النهر، شقيقتاي كتالينا وديانا وأمي مع رامز ابن اختي كتالينا وبقيت أنا في الحديقة أتأمل معنى الارتباط العائلي وتفككه، ومعنى الاحترام للفرد وروحه، ومعنى شخصيته.

وبينما أنا جالسة هناك إذ بسيارة تقف أمام الفندق ويطل الزعيم، حاملاً معه حقيبتين. كنت أترقب مجيئه ولكن ليس بهذه السرعة، خصوصاً بعد رسالته التي يُعلمني فيها إمكانية مجيئه بعد أيام. ركضت إليه وأخذت أساعده في الحقائب وأنا أسأل كيف أتى بهذه السرعة، وهو يضحك وفي ضحكه فرح الطفل. دخلنا قاعة الضيوف وطلبنا المسؤولة لحجز غرفة للزعيم، وصعدت معه إلى الطابق العلوي، في حين كانت غرفنا في الطابق الأرضي. وبعد أن وضع حقائبه سأل عن والدتي وشقيقتي، فقلت إنهم على شاطئ النهر، قال حسناً إذاً سأتهيأ للسباحة. وانتظرته في الحديقة حتى نزل وهو في روب الحمام، وكان من صنع سورية، له قبعة، فذهبت وإياه حتى الضفة، وقبل أن نصل إليهم أخفى رأسه بالقبعة فلم يعرفه أحد. وأخذت أمي وشقيقتاي يسألن عنه وقلت عليكن أن تحزرن! فما كان من ابن أختي رامز إلاّ أن ركض وراءه يقول له سأكشف عن وجهك وأعرفك! وراح

الإثنان يركضان الزعيم في الأمام ورامز، وكان في التاسعة من عمره، وراءه وابتعدا عن المكان وعاد رامز يقول إنه ذهب تحت الماء. وبعد برهة رفع الزعيم رأسه من الماء وهو قريب منا، فصرخ الجميع «حضرة الزعيم». وظنوا كلهم أنني كنت أترقب مجيئه ولهذا بقيت في الفندق.

وعدنا من تلك النزهة إلى الفندق صعوداً على التلول. وكان الزعيم يحدّثنا مرّات عن أشياء جديّة ومرّات عن فكاهات، وعلامات الارتياح على وجهه. وبعض المرّات كان يسرق لحظات مني وكأنه يقول لي إنني معك. لتلك البقعة من الأرض ذكرياتي المقدّسة.

لاشك أنّ الزعيم كان يُحبّ الطبيعة حبّاً كبيراً، وأعود وأذكر كم كان يحدثني عن الطبيعة وقوّة تأثيرها على نفسه. عندما كنت أذهب لأعدّ له الطعام في بيت الرفيقة مريانا وأبقى بعض المرّات على الغداء معهم، كان الزعيم يطلب مني الخروج إلى الحدائق في بوانس آيريس. وكان يتأمل الطبيعة بشغف وحب، فما كان يمرّ أمام الورود حتى يقف ليتأمل الأزرار الشامخة التي ابتدأت تتفتح للحياة تحمل الشموخ في ارتفاعها، ويذكر لي تواضع بعض الزهرات الصغيرات التي تختبئ بين الخضار كيف أنها تلفت النظر وتضفي على المروج الخضراء ألوان البهجة وكأنها نقشت على بساط من العشب. كنت أنظر إلى عينيه وأرى فيهما رضا الفنّان عندما ينظر إلى قطعة فنيّة صنعتها يده. والحقيقة أنّ نفسه كانت تشابه في جمالها وصدقها وانفتاحها تلك الطبيعة. وكان يحدّثني عن هذا الجمال وعن جمال النفس، وعن كل شيء ونحن نسير بين المساكب المليئة بالأزهار المختلفة. وكان يسألني رأيي في كل ما يحدثني عنه وكنت أجيبه بصراحة وانفتاح نفسي صادق: حول الموسيقى، حول الحياة والنظرة إليها ومعناها، حول الحبّ وتعبيره في الحياة. كنت أحدثه وأشعر أنني أستيقظ بلذّة إلى وجود هذه الحقائق التي أستطيع التعبير عنها، وأرى من يفهمني ويفهم نفسي، وأشعر أنني أنا نفسي قد التقيت بنفسي بعد أن تعرّفت على الزعيم ورسالته، فأصبح لكل شيء معنى وغاية وسبب ووجود، وذاك الاستقرار

في الأفكار والشعور الذي لولاه لكانت الأشياء مجرّد أشياء تتخبّط في أمواج دون هدف ودون مصير. كنت أدرك أن الزعيم بحديثه في كل هذه الأمور كان يرغب في التعرّف عليّ وعلى حقيقة تفكيري ونفسي. كانت هذه المناسبة وكل المناسبات الأخرى فرصاً له ليكشف عمّا في أعماقي. وكنت أشعر أن ما يجذبه في الحياة ويحبّه كان له في نفسي عين التقدير وكنت ألتقي وإياه في الاختيار، وفي الأشخاص، والاهتمام في المواضيع الأخرى ذات الحساسية في الحياة: الضمير، الواجب، الأخلاق والمقاييس الأخلاقية ومفاهيمها الصحيحة، المسؤولية وإلى ما هنالك من شعور شامل في الحياة. لهذا كنت أفهمه عندما كان ينظر إليّ وكأنه يقول: «إنني معك وأنت معي».

كانت مائدتنا في الفندق مستديرة، وكنا نجلس حولها حلقة. وبعد الطعام، يذهب كل واحد منّا وشأنه: البعض يتمشى، والبعض ينام قيلولة، والبعض يقرأ في الحديقة، أمّا الزعيم فكان عليه الراحة بعد الطعام لمساعدة عملية الهضم. ولكن عند الساعة الرابعة أو الخامسة كنّا نلتقي كلّنا في حديقة الفندق، وهي كبيرة في وسطها شجرة تمتدّ غصونها إلى مسافات وتظلل أكثر أرض الحديقة، تحتها طاولات ومقاعد، وعند الحاجة كنّا نتناول الشاي هناك. وكنا ننظم رحلات ركوب خيل مع شقيقتي وبعض الضيوف في الفندق، وكان الخيل الذي نستأجره من أحد الفلاحين مختصاً بهذا الأمر فقط، أي أنه ليس شرساً إنما اعتاد على هذا العمل. وكنت أنا أركب الخيل ولكن ليس بمهارة، وعندما نخرج لرحلة طويلة كان الضيوف الآخرون يحسدونني لأن الزعيم كان يدرّبني على عدة خطوات يسيرها الخيل فتعلمت كيف أمرّ بين أغصان الشجر وأحفظ رأسي، وكيف يربع الخيل ويشب. وكان لتلك الرحلات وقعها اللذيذ في نفسي حيث الانشراح يدخل النفس بعد هذه الرياضة المتعة.

وذات مرة ذهبنا مجموعة من سبعة أشخاص في رحلة بعيدة إلى بلدة أخرى ركوباً على الخيل، وكان الزعيم دوماً بقربي يدرّبني في طريقة جلوسي على ظهر

الخيل ومسك اللجام والتهيؤ للهبوط عند القفز وأنا مسرورة بالدروس وبرفقته. وعبرنا الوديان والأحراج وسفوح الجبال حتى وصلنا من بلدة إلى أخرى وقد ابتدأ المساء ونحن لم نزل بعيدين، فقالوا لنا في آخر بلدة إنه إذا أردنا الوصول بسرعة علينا أخذ طريق قطع وهي تقع عند منحدر ذاك السفح. وبعد مدة قصيرة وصلنا إلى بلدة غريبة، لم يكن فيها من الأنوار سوى بيت وهو فندق وبار، استخبرنا فيه عن طريقنا إلى أكوا دي أورو فقالوا «أنتم في طريق مخالف، عليكم العودة إلى الوراء». وابتدأت النجوم تظهر في السماء والعتمة تخيم على الجبال وراح الجميع يتذمرون إلا أنا والزعيم، فكنا ننظر إلى بعضنا ونضحك من جراء قلقهم وسرورنا الخفي. وزادت العتمة وحل السكون وكانت أعداد النجوم تتكاثر وكأنها تحشد بعضها بعضاً. لم أر مثلها في حياتي ولم أر لون السماء بهذا العمق من الزرقة وكأن اليد تريد لمسها للتأكد من مخمليتها. وسط هذا الجو الساحر، يصعد صوت الزعيم في قطعة موسيقى أوبرالية ليملأ صدى صوته الوديان. وسرنا طويلاً حتى اهتدينا ووصلنا الفندق وكان جميع النازلين في الفندق بانتظارنا قلقين، وهم يحسبون ألف حساب لتأخرنا.

في النزهات التي كنا نقوم بها جميعنا كان الحديث دوماً للزعيم، وكنت أسير قربه وأصغي إليه كل الوقت، وأتعرّف أكثر فأكثر عليه وعلى أفكاره وصدق قوله في كل شيء. وبعد مدّة لم نعد نرتبط ببرنامج النزهات مع العائلة، وكنا نخطط لنزهاتنا المقبلة، فالسباحة في الصباح عندما يكون الطقس حسناً، والسير على التلال واكتشاف مناظر جديدة. ولكن أكثر الأحيان يبقى الزعيم منكباً على الكتابة صباحاً، ويكتب بسهولة رائعة، ولا يشعر أنه متعب وتبقى الابتسامة على وجهه وكأنه مسرور من معالجة القضايا العامّة. وكان يصرّ عليّ في هذه الساعات وهو يكتب أن أجلس بقربه وأن أقرأ، أقرأ كتبه بالعربية. ولا أحدثه ولا يحدّثني، فقط يرفع نظره من حين لآخر ويبتسم لي ويعود للكتابة، وأعود أنا للقراءة.

الطبيعة كانت لوحات أمامنا، لوحات رائعة. كان الزعيم يدلّني على أبرز تلك الصور وأنا أقف بقربه وكأنها أصبحت لوحة منقولة إلى عقلي، أذكرها الآن كما

أذكرها دوماً. غروب الشمس من وراء التلال، رويداً رويداً، وألوان الطبيعة من ورائنا تتبدّل مع غروب الشمس، وكأن موكباً من الجبال ينام أمام هذا الغروب، ونقف أمام هذا المشهد الجميل نودع الشمس ونودع ذكريات المشاوير في ذاك النهار.

كنا نعود وتأثير ذاك المشهد على وجهينا، وكان الزعيم ينظر إلى وجهي ليرى مدى تأثير الطبيعة عليّ، فكنّا والطبيعة متماثلين. هناك حيث الزعيم في علوه كنت أشعر أنه يرفعني معه.

لا شك أنّ تطور شعوري نحو الزعيم قد أقلق والدتي، فبدأت تعطيني من نصائحها وملاحظاتها حول الموجودين الذين كانوا يقصدون الزعيم للرقص أو التحدث فكان يعتذر ليجلس معي أو ليتنزه، ولم تدرِ والدتي ذاك الشعور النبيل بيني وبين الزعيم، ذاك الشعور الصادق السامي.

كنت أبرّر حديثي باللغة الإسبانية أو الإنكليزية كوني أخطئ كثيراً في تعبيري باللغة العربية، ولكن الزعيم لم يرض بهذه المبررات وكان يصرّ عليّ بالعودة إلى دراسة اللغة والقواعد العربية، وكان يقول لي اجتهدي في لغتك الأصليّة كما تجتهدين في اللغات الأخرى، لأن هذه ستكون أساس لغتك في المستقبل. ويجلس في الحديقة ليكتب ويعطيني كتاب **نشوء الأمم** ويطلب مني مطالعة أول فصل والتحدث عنه باللغة العربية، وكنت أستفهم منه بعض المرات عن معنى بعض الكلمات في قصدها الحقيقي. وكان يُسرّ بهذا الاجتهاد وكأنني تلميذة تحقق الفوز بعد جهوده فيبتسم لي تشجيعاً.

ولما قرب موعد مغادرتي وأهلي ذاك المكان الجميل في مناظره، العظيم في ذكرياته، شعرت بحزن، ولم يخفَ الزعيم هذا الشعور، فقررنا الخروج إلى البرية والسير في جوّ الطبيعة بهدوء وتأمل، ونحن نحمل في نفوسنا شعوراً واحداً، وهو عمق لقائنا الروحي في تلك الأيام الجميلة، وحزن فراقنا وبُعدنا عن هذا المكان.

وكنا ننظر إلى كل بقعة من تلك الجبال، إلى الهضاب والأودية، إلى النهر الصغير وخريره الناعم. ولكي نخفي ذاك الألم الداخلي، كنا نرمي بحجر إلى النهر أو نقطف أزهاراً برية ذات لون نهدي ليلكي، وتلتقي أيادينا على زهرة واحدة اخترناها في آن واحد لأننا نعلم نحن الإثنان جاذبيّة هذا اللون إلى الزعيم. وكل ذلك بصمت ورأى الزعيم أن يكون هذا الوداع للطبيعة مفرحاً وليس قاتماً فأخذ يروي بعض الطرائف ليبدّل الجوّ بالنسبة لي. وعند العودة، وعلى الطريق نزولاً إلى الفندق، حرّك الزعيم بقدمه حجراً من أحجار الجبل ذات اللون الجميل ثم رفعه بيده وضربه ضربة شديدة على صخرة، فانفلق الحجر قطعتين، وقد رفعهما الزعيم بين يديه وضمهما إلى بعضهما لتكوين جسم واحد. فأخذ قطعة وأعطاني الأخرى. وقد حفظت القطعتين في بيتنا بعد زواجنا ووضعتهما ملتصقتين على رف المكتبة وبقيتا دوماً في صدر مكتب الزعيم في رأس بيروت، وبعد أيام افتقدتها ولم أعثر عليها، وحزنت على فقدانها إذ إنها كانت تحمل ذكريات سعيدة، ولم أستطع معرفة سرّ اختفائها.

في ذاك المشوار ونحن نصعد الجبال، كانت يد الزعيم تمتدّ إليّ لتساعدني على الصعود، ونقف أمام مشهد رائع للطبيعة. وكان الزعيم يقف ويدلّني على هذا المشهد أو ذاك وعلى الألوان المختلفة في الهضاب والمنحدرات وهو منشرح الخاطر، ينظر إلى وجهي ودلائل الانطباع الطيب على ملامحي أمام تلك المشاهد. وقبل العودة إلى الفندق جمعنا باقة من أزهار البرية، وكنا دوماً نسرع لقطف الزهور الليلكية ويريد كل واحد منّا الحصول عليها قبل الآخر، فننظر إلى بعضنا بلقائنا وأيدينا حول الوردة ونحن نضحك، وصدى ضحكنا يملأ البراري. في ذاك المشوار هبط المطر ونحن عائدان إلى الفندق ساعة الطعام، فما كان من الزعيم إلاّ أن خلع عباءته العربيّة (وهي سترة حتى الفخذ، مزخرفة بالحرير الأسود ومشغولة على اليد) ووضعها على كتفي فشعرت بحنوّ ذاك العمل وبقربه إليّ. وصمت صمتاً طويلاً حتى وصلنا الفندق.

في اليوم التالي، كان المطر يهطل والجو مكفهراً، وجمعنا أغراضنا وحزمنا حقائبنا ورافقت الزعيم إلى الفندق الذي انتقل إليه فوضع أغراضه هناك وعاد ليمضي معنا آخر ساعات باقية في المصيف. وأتت السيارة لتنقلنا حتى المحطة، وكان وداعي صعباً، إذ إن المدينة لم تعد تجذبني طالما أن الزعيم لن يكون فيها، فودعناه وآخر ما رأيت يده تومئ لي وعيناه ترافقاني، فحفظت تلك الصورة معي وكانت ترافقني خلال سفري في القطار.

حين وصولي إلى بوانس آيريس، كتبت رسالة إلى الزعيم وأرفقتها بعلبة فاكهة وقد تسلمها في نفس النهار، وأجابني برسالة كان لها الوقع العميق في نفسي.

لم يكن هذا الترافق والتفاهم بين نفسي ونفس الزعيم خافياً على أفراد عائلتي، وإن لم يكونوا على إدراك لسموّ ذاك التفاهم، وكانت المظاهر رغم بساطتها تزعجهم وتقلقهم بالنسبة لما سيقوله الحاضرون. فمثلاً جلوسي معه في الحديقة وتحدثه إليّ لوحدي كان لهم عليه مآخذ، وأنا أصبحت في سن فوق العشرين بكثير. ولكن طبيعة مزاج الماما وشقيقتي، خصوصاً ديانا، كانت من النوع المستبدّ الذي لم يعِ حقوق الآخرين وشخصيتهم، بل عصبيتهم هم، فكانت ديانا تلاحقني من مكان إلى مكان لتنبهني أن لا أفعل هذا وأن لا أسير أمامهم لوحدي مع الزعيم وأن لا لزوم لهذا وذاك، وأصبحت كالطفلة بينهُم ونسوا أنني عشت خلال سنوات طويلة بعيدة عن البيت وتصرّفت حسب رأيي واختبرت من الحياة أكثر من سنواتهم الطويلة ولم أعد أرى الحياة أحلاماً ولا الروح ألعوبة، ولا المقاييس السطحية، إنما مفاهيم حقيقية واقعيّة، بنظرة واسعة وانفتاح إلى العالم، دون كبرياء جاهل ولا نظرة سطحيّة عمياء. خرجت من خبرتي أواجه العالم بالمنطق والحقّ، بالصراحة والقيم النفسية، وأن أعترف بأخطائي قبل أن أحمّل الآخرين، وأتعلّم من هذه الأخطاء دروساً تنير طريقي. ولما لم ألاقِ في جو العائلة ما يشجّعني، انعزلت.. وفي انعزالي كان الزعيم وكلامه وشعوره يرافقني، فلم أشعر بوحدتي.

وبعد وقت قصير عاد الزعيم من الجبال إلى بوانس آيريس، وخابرني تلفونياً حين وصوله فسررت بعودته وتابعت ملاقاته في الاجتماعات وكان بعض الأحيان يرافقني حتى البيت.

خلال هذه الأيام كان سلوك خالد أديب يزداد سوءاً وكنت أرى الزعيم في انزعاج دائم، وقد قال لي ذات يوم إنه قد يضطرّ إلى محاكمة أديب وإسقاط المسؤولية عنه، فقد أصبح يدّعي الادّعاءات الكاذبة عن الزعيم. فأبعده الزعيم عن مسكنه وأعطاه مسكناً في بيت الرفيق جوزيف بهنا، ومع ذلك تراكمت الشكاوى من قبل القوميين على خالد وأنه يأخذ منهم المال دون علم الزعيم ويدّعي أنه مضطر لهذه القروض بسبب تكبّده مسؤوليات الزعيم ومصاريفه البيتيّة والخاصة. وطبعاً لم يُعِدْ خالد هذه القروض لأصحابها ولا مرّة، ولم يكن يصرف على الزعيم ولا سنتيم. وانصرف إلى حياة اللهو دون حساب وعلى أكتاف القوميين، وكان يخترع لكل واحد منهم طريقة للحصول على مبالغ طائلة من المال وتحقيق الأرباح إذا ما قاموا وعملوا بموجب مخططاته. وكان بعض الرفقاء ومنهم جوزيف بهنا قد أصيبوا بالأضرار المالية حتى الإفلاس. وكان خالد يغتنم كل المناسبات ليجتمع بأفراد يحاربون الحركة والزعيم، فيستمع إليهم ويشترك معهم بالأكاذيب عن الزعيم. وضاق ذرع القوميين، والشباب منهم خاصة. فكل يوم تزداد تصرفاته سوءاً فيستدعيه الزعيم ويناقشه ويهدّده بالطرد إذا لم يقوّم هذا الاعوجاج. وكان أول ما أعلنه بحق خالد إسقاط المسؤولية عنه كناموس حتى لا يبقى له المجال لاستغلال اسم الزعيم والحزب فلا يتحمل الزعيم مسؤولية أعماله السيئة والطعن بالحزب، خصوصاً أن اسمه لم يعد لائقاً بأن يكون ناموساً للزعامة.

وفي يوم 5 نيسان دعانا الزعيم، والدتي وشقيقتيّ وأنا، لتناول فنجان شاي في بيته، وقبلنا الدعوة. وكان قد بلّغني دعوته قبل ثلاثة أيام، ولكن يوم الموعد جاء في خاطر أهلي أن لا يذهبوا لسبب لم يكن هاماً وطلبوا مني مخابرة الزعيم وإعلامه بالعدول عن الذهاب. فصعُب عليَّ هذا السلوك، خصوصاً أنهنّ وعدن

إيجاباً وعدلن في آخر يوم. فلم أجد مبرّراً ولم أرد الاعتذار. وفي الموعد المحدد ذهبت لوحدي، وحملت معي باقة من الأزهار. ولم يكن أهلي قد عرفوا بالرسالة التي تسلمتها من الزعيم بعد عودتنا من كوردوبا، وفيها من المشاعر الطيبة النبيلة. وعندما وصلت إلى البيت حيث يسكن وجدته جالساً قرب النافذة في غرفته، أمام الحديقة، يقرأ كتاباً. وفي زاوية أخرى وعلى طاولة صغيرة وضع الشاي والفناجين، وكعكاً من صنع البيت. دخلت وحييته وإذا به ينهض بفرح كبير ويضع يده على كتفي كما لو كان بانتظاري وقتاً طويلاً. جلسنا قرب النافذة، وأخذت أعتذر عن عدم حضور أهلي وقلت إنه كان لسبب هامّ. فأجابني لا بأس سنشرب الشاي ونتحدث. وكان السرور ظاهراً على وجهه وعيناه تنظران إليّ بعمق وفيهما دنيا من المفاجآت.

وكلّمني الزعيم بعباراته الواضحة العميقة عمق تفكيره، كلّمني عما في قلبه من شعور وحب لي، وقد طلب مني أن أكون رفيقة حياته. لم أُجِب رغم أنني كنت أتمناه.. ولكن أمام الواقع شعرت بأهمية الموقف وخطورة مسؤوليته، فأنا أعرف أن الزعيم ليس لنفسه، وقد نذر حياته لأمته. فهل أكون أنا المؤهلة لهذا المكان قربه؟ فكرت برفقائي وما عساهم قائلين، فكرت بأسباب ذاك الموقف لعلّه نتيجة التقارب وتبادل الشعور في المصيف، لعلّ الزعيم يعود ذات يوم عن هذا القرار، لعلّ المسؤوليات تجاه العائلة تؤثر على حياته ومهمّاته.. وأفصحت للزعيم عما في نفسي وأفكاري بصدق وصراحة، بحرارة محبتي له وتقديري الكبير له ولرسالته، وأجاب الزعيم أمام ارتباكي بهدوئه المعتاد: «إنّ ما يختاره الزعيم لنفسه قد يختاره الرفقاء جميعهم، لأن الزعيم لم يختر شيئاً لنفسه إلا وهو في مصلحة القضيّة. وأنا قد أحببتك كثيراً وأحببت أكثر شيء فيك نفسك العظيمة، إن نفسك يا ضياء جميلة جداً فحافظي على جمال نفسك أبداً وأنت تفهمينني وتفهمين نفسيتي فلا أحد غيرك قادر أن يرافقني ويخفّف عني عبء المسؤوليات الكثيرة».

على المائدة الصغيرة اللطيفة ذات الرمز الجميل وضعت باقة من الأزهار، ألوانها بيضاء وحمراء، وضعتها بيدي في مزهريّة من الزجاج، وقلت له إنّ هذه

الأزهار بألوانها تمثل المحبة والوفاء. وكانت تلك الظهيرة فترة تعاهد مع نفسي على السير مع هذا الرجل العظيم، فودّعته على أن يعود كل واحد منّا لتفكيره ويعرض الجواب النهائي في ما بعد، وليكن تعهدي وفاء له على كل حال والسير في قضيته حتى النهاية.

عدت إلى البيت وأنا أشعر بأنني مؤتمنة على شيء كبير. لم أشارك أهلي به، بل احتفظت به أفكر وأتأمل في ما جرى من تقارب بيني وبين الزعيم خلال الأيام الأخيرة. وتابعنا لقاءاتنا، مرّات في الحدائق الواسعة ومرّات في المقاهي حيث الموسيقى الكلاسيكيّة، ومرة اصطحبني إلى السينما كي أرى فيلماً كانت موسيقاه التصويرية لكريغ Crieg وهو بيرجينت Peer Gynt. وكان يشرح لي في مراحل الموسيقى مغزى الفيلم. ومرات كان يرافقني حتى طبيب الأسنان حيث نتحدث وقت الانتظار. ورغم تعلّقي بشخص الزعيم كنت أضع نصب عينيّ الموضوع الخطير وهو الزواج. كنت أعود لأكرّر نفس الخوف من الأعباء وما إذا كنت أستطيع أن أحمل معه هذه المسؤولية الضخمة، وأضيف قائلة له: «إنني مقتنعة بأنك تستطيع الزواج من امرأة أجمل وأغنى وقد تكون من الجو السوري لها إمكانياتها في اللغة والعمل معك في ذاك الوسط»، وكان جوابه دوماً «أنا بحاجة لمن يحبني من أجل نفسي لا من أجل اسمي وأنا وجدتك مؤهلة كي ترافقيني. ليس بالمال ولا بالجمال نخدم القضية».

الفصل الخامس

العطاء فيه سرّ السعادة، وكل ما في الطبيعة هو عطاء سخيّ، جبّار، متواضع، ولكنّ فيه جمالاً وفيه قوّة، لأنه يعطي ويعطي.. من لا يملك شيئاً يملك روح العطاء ومن يملك روح العطاء يملك كل شيء.

هنالك رؤية في حياتي، منذ طفولتي، مثل الحلم وكأنه واقع، يرافقني طيلة أيامي، ويكبر. كنت أرى نفسي في سن الشيخوخة وفي أحد مستشفيات العجزة، مريضة، جداً مريضة. ولا أحد حولي يعرفني أو يعرف من أنا، وكان الأطباء والممرضات يسألون عن اسمي فلا يعلم أحد، وأنا في حالة إعياء لا أقول شيئاً، وأرى نفسي في فراش الموت وهو يقترب مني، لا أخاف ولا أقلق وكأني بانتظاره، وأعرف أنهم بعد موتي سيكشفون عن حقيقة هويتي، وفي حال كنت قد قمت بعمل وطني بطولي، فستحتشد الجماهير لتسير وراء نعشي وتشترك الحكومة في الحفل.

وهذا سببه من دون شك المشاهد التي حييتها في طفولتي أثناء الحرب العالميّة الأولى. لم يكن الاشتراك مع جمهور كبير في حفل فرح أم حزن اشتراكاً فاعلاً، ولم أشعر ضمن هذا الجمهور بقرب أحد مني، وكنت أبحث عمن يفهمني ويكون قربي فلم أجد في أجوائي روابط روحيّة عميقة، لهذا اتجهت نحو عمل أستطيع فيه التعبير عن نفسي، وعطائي نحو آلام بشريّة تحتاج إلى قربي منها، وهو عمل التمريض. من هنا أستطيع أن أحلل تلك الرؤية، وحبّ العطاء.

قرّر الزعيم القيام برحلة إلى الولايات الأرجنتينية ليتفقّد الفروع الحزبية هناك. وكما كان يحدث في بوانس آيريس كان في بعض المنفذيّات والمديريّات

أمراض اعتادها المواطنون دون وعي لأخطائهم، وقد تغلّبت عليهم عادات اللامبالاة والاستهتار عدا عن فقدان الشعور بالمسؤولية. كان البعض متقيّداً ومنتظماً بشكل مدهش، والبعض الآخر - على رغم طيبتهم - لم يعوا معنى المسؤولية بعد لأنهم لم يمارسوها كمجتمع في هجرتهم، فأخذ هذا العمل الأساسي معظم أوقات الزعيم. وتوجيههم بهذا الصدد والتشديد على النظام كانا من الدروس الدائمة التي يلقيها عليهم.

ذهب أولاً إلى توكومان ومن ثم إلى سنتياغو ديل أستيرو، وقد أوكلني بالبريد الذي يصل إلى بيته، وكان يبعث لي برسائل على عنوان بيته ليبلّغني سير الرحلة وصحته وتوجيه المراسلات، فكنت أذهب يومياً إلى البنسيون وأستلم البريد وأوزعه حسب طلبه. وكان في رسائله إليّ من توكومان (في أيار سنة 1940) الكثير من التألم جراء تصرّفات غريبة فيها الاستبداد الشخصي وكأن المدير هو رئيس العمل والأعضاء هم العمّال والفوضى المعتادة. وكان عند بعض الرفقاء الوعي والإدراك لهذه التصرّفات فكانوا هم يطالبون الزعيم بزيارتهم والنظر في قضيّة منفذيتهم. وكان مصمماً على أخذ وقت طويل للنظر في قضايا توكومان وسنتياغو ديل أستيرو، لكن خالد أديب والمفسدين معه استغلوا غياب الزعيم وشنّوا حملة كذب ونفاق ضد الزعيم والحركة مما اضطرّه للعودة سريعاً والنظر بقضيّة خالد أديب والآخرين بعد أن أنهى أعماله هناك.

وعند عودته إلى بوانس آيريس رأى وسمع الكثير مما يدور في حلقة المفسدين على الحركة والزعيم. وكان خالد أديب قد كشف عن وجهه وظهر بمظهر المستهزئ في محاولاته لطعن الزعيم في الظهر (ولم يكن هذا خافياً عني منذ البدء). ولم يكتشف أحد نوايا خالد أديب. وعندما كان الزعيم يحدّثني عنه وكيف نال هذه الثقة منه، كان يوضّح مجيء خالد أديب مع أسد الأشقر فعندما عرف أسد الأشقر أنّ الزعيم أصبح في البرازيل وينوي التجول في المهاجر، أخبره عن رغبته بالحضور ومرافقته في هذه الرحلة. ولم يعرف باستعداد خالد للحضور إلا عند حضوره،

فالزعيم قال لي إنه لم يكن يعرف خالد معرفة جيدة. وبقيا معه. فأعطاهما صلاحيّة الناموسيّة حتى يفسح لهما المجال للعمل والاتصالات رسميّاً. ثم قرّر أسد العودة إلى أفريقيا، لكن خالد بقي. وعلمت لاحقاً أنه لم يكن على وفاق مع اخوته في أفريقيا فوجد السبيل بمغادرة أفريقيا والمجيء بصحبة أسد الأشقر.

رغم الصعوبات الكبيرة والكثيرة التي كانت موجودة في وسط المجتمع السوري المهاجر، فقد كان بالإمكان العمل وشق طريق للمبادئ بما أنها تحمل لهم الحقيقة التي كانوا يفتقدونها. وكان بالإمكان متابعة هذا العمل حتى يعطي ثماره، العمل بصدق وإخلاص وصبر طويل، وهذا ما كان يفتقد إليه المواطنون في المهجر، تفهّمهم الحقيقة والقدوة في المثل العليا. ولم يكن عند خالد أديب تجاه الجالية والشبيبة الناشئة أي اجتهاد لإفهامهم القضيّة ولا باستطاعته إعطاءهم القدوة في المثل العليا، بل العكس. وكان ما ظهر منه أنّ جهله أوصله إلى أن يقتنع بأنه قادر على إزاحة الزعيم وتزعّم الجالية، وإذا لم يكن هذا فلتخرب جهود الزعيم ويفسد عمله. «الجهل هو أشنع من العماء، وقد يفقد المرء بصره، وتبقى له البصيرة، أما الجاهل فلا بصر ولا بصيرة».

وجرت محاكمة خالد أديب في اجتماع علني وعرضت وثائق وشهادات تدينه بما كان يعمل في الخفاء مع رفقائنا الذين ذهبوا ضحيّة مآربه، والأموال التي كان يحصل عليها باسم الزعيم، وعلى كل شيء قام به ويعدّ خيانة بالنسبة لمسؤولياته. وطرد خالد أديب، وأدى ذلك إلى ارتياح في الصف الحزبي، وإلى استغلال من قبل كل الحاملين على الزعيم ورسالته، فبدأت الصحف المعارضة له ولمبادئه تنشر لخالد أديب. صحف أكثرها طائفيّة أو مرتزقة، وكلها تحت إشراف مواطنين عديمي العلم والفكر. وكانت صحفهم تعيش على التعصب وبعض الاشتراكات التي يقدمها متعصبون، أو الحصول على تمويل لصحفهم من فئات ضدّ فئات. كم رأيت من هذا اللون في صحف المهجر، وكم من الفرص ضاعت لتعريف الجالية على الحقيقة التي فاتتهم وهم يلهون بالأقاويل بين هذا وذاك، وهكذا في فراغ يهوي فيه المواطن دون معرفة بقضاياه التي هي من واجبه وحقّه والتي تمسه في شخصيته كمواطن.

في هذه المعركة الحقيرة كان الزعيم يقف مثل العملاق لا يأبه بمناورات الغش، وكان الحقّ هو سلاحه الأول والأخير. كم تعلّمت منه دروساً في هذه المراحل وكم بذلت من جهدي لأكون قربه في تلك المعارك أعبّر له عن تقديري واستعدادي لأكون بجانبه. كانت رسائله إليَّ تحمل دوماً التشجيع للسير والصراع من أجل إظهار الحقّ، وكانت ثقته بي أكبر وديعة في حياتي.

ثم قرّر الزعيم إنشاء جريدة تنطق بلسان الحزب السوري القومي الاجتماعي، لتكون المعبّرة للجالية عن حقيقة الحركة ولتنويرها في ما يتعلّق بقضاياها العامّة القوميّة والاجتماعية والاقتصاديّة والسياسيّة.

وكان على صفحات **الزوبعة** مقالات قيّمة للزعيم لم يعتَدْها إلاّ أصحاب الفكر، تحمل المواقف النقدية ضد كل المفاسد والقواعد المنحطة التي سارت عليها الجالية في المهاجر. وحملت صفحاتها أيضاً ردّاً عنيفاً على كل الهجوم الذي تتعرض له الحركة. فالبناء الصحيح كي يتمّ يجب أن يكون على أساس صالح، وإذا كانت الأساسات فاسدة علينا أن نقلعها ونزيلها حتى نبني أسساً صالحة ضماناً للبناء الجديد. فلم يتعامل الزعيم مع فئة إلاّ على هذه القواعد السليمة. والذي يختار هذا البناء يشمّر عن ساعديه ويضع يده في العمل الجبّار بإخلاص وعزيمة صادقة دون التساؤل متى ينتهي هذا البناء، لنا أم لأولادنا أم لأولاد أولادنا أم للأجيال الصاعدة. علينا الابتداء حتى يستمر العمل ويصعد البناء ويشمخ ويصمد.

من البعيد أيضاً وصلت شرارات الحرب على الزعيم والحركة، وفي هذه الشرارات لعبت المآرب الشخصيّة دورها. فتارة الهجوم على شخص الزعيم وتارة على المبادئ، وفي الحالتين كان النقد بعيداً عن الحجّة الصحيحة، ومن خلالها ظهرت الغايات الشخصيّة. وقد تصدّى للحركة وللزعيم رجل شعر بأنه عملاق، وهو يعزف على العود، وينظم الأشعار ويفكر بمصالحه. هو رشيد الخوري من ساو باولو، البرازيل. وظنّ بأن الغربة قد محت تاريخ هذه الحركة التي أحاطها المستعمر ليقضي على جذورها في الوطن، خوفاً من انتشارها وعظمة مبادئها، وكان اعتراف

الأجنبي المحتل بعظمة هذا الرجل ورسالته وملاحقة أعضاء حزبه وسجنهم من الأمور التي أنكرها رشيد الخوري على صفحات جريدته في ساو باولو.

تابع رشيد التخبّط في الفكر والحجّة مما دفع الزعيم إلى الردّ عليه ونقد عقليته، وكشف استغلاله لأوضاع الجالية، ومزاعمه في أوساط كان يرتجي منها المكاسب، فيغالط في المفاهيم وينشرها دعاية ضدّ الزعيم. فانتقد الزعيم شعره وأساليبه الخاطئة المطروحة لمناسبات معيّنة في ما يتعلق بالدين وتحليله الخاطئ. واستمر الزعيم في متابعة هذه المقالات لإظهار المفاهيم الحقّة للرأي السوري في العالم وانتهازية الوصوليين على حساب هذه المغالطة، وكانت سلسلة من المقالات كتبها الزعيم تحت عنوان «جنون الخلود». (وكم من هذا الجنون ظهر بعده وحتى في صفوفنا).

كانت تطل علينا أيّام ضاحكة حيناً وعابسة حيناً آخر، وهنالك أيام شبيهة بالربيع، فيها البهجة والحياة، فيها أغاريد الطيور وصور الزهور والآمال البعيدة، فيها الحبّ. هذه الأيام تبقى حيّة في قلوبنا فلا يبعدها عنّا الزمن ولا الألم، لأنّ نورها يشعّ فينا. أطلّ علينا يوم 30 أيلول حاملاً معه تباشير الربيع في الطبيعة وفي قلبي. في 30 أيلول (1940)، شهر الربيع في الأرجنتين، الشمس دافئة والنسيم عليل، رافقني الزعيم حتى عيادة طبيب الأسنان، ونحن في طريق العودة إلى البيت مروراً على أسواق المدينة، وقفنا أمام محلات الصياغة، وفيها من الصنعة فنون من الذهب والماس وغيرها. لم نتعود الوقوف أمام المحلات سابقاً، وقد لفت نظري هذا الوقوف من قبل الزعيم وهو يسألني ما الذي أختاره من بين تلك المجوهرات؟ ونظرت إليها وعلى كثرتها قلت لا أدري إنها كثيرة ولا أستطيع أن أقول عنها شيئاً.

قال لي: ألا تعجبك هذه المحابس البسيطة في تلك العلبة؟ قلت بلى ولهذه رمز بعيد وكبير. قال لندخل ونسأل البائع. فضحكت ولم أشعر بجديّة الموضوع. فأخذني بيدي ودخلنا المحلّ الكبير الذي كان اسمه El Trust Joyero Relojero وأنا أضحك لغرابة المفاجأة. واستقبلنا البائع، فطلب الزعيم منه علبة المحابس، وكنت أضحك

وهو يُخرج الخواتم منها ويطلب مني تجريتها، وقد فعلت ذلك وأدخل هو الخاتم في إصبعه، وكان الخاتمان مناسبين لنا، فوضعهما في العلبة وطلب من البائع شراءهما، وقد اقترح البائع علينا أن نبقيهما حتى يحفر عليهما الأحرف والتاريخ، لكن الزعيم أخذهما ووعده بالمجيء في اليوم الثاني للحفر عليهما.

خرجنا من المحل وأنا أنظر إليه وأضحك إذ إنه لم يعلمني بتلك الفكرة وذلك القرار، وكان يسألني: هل أنت سعيدة مثلي أم لا؟ وكنت أؤكد له فرحي وأضحك، وهو يضحك أيضاً وكأننا أطفال ذاهبون في مغامرة ما. قال لي سنذهب إلى البيت ونطلب من الوالدة أن تلبسنا الخواتم. وهكذا كان. عند وصولنا إلى البيت لم تكن هناك سوى والدتي، وكانت نائمة. أيقظتها وقلت لها تعالي وتعرّفي على خطيبي، بالأمس زعيمي واليوم هو زعيمي وخطيبي، فدهشت أمي من هذا الخبر. كنت أعرف أنهم لم يتوقعوا هذا الأمر ولا يريدونه إذ كانوا يفكرون دوماً بالمشاكل والمسؤوليات التي يتعرض لها الزعيم في تلك المهمّة الخطرة، ولم يفكروا أبعد من هذا، وهو شرف الرسالة. وبعد أن أعلمت شقيقتي كتالينا بهذه المفاجأة، اتصلت هاتفياً بشقيقي جورج وكان في محلّه. فجاء فوراً لتجتمع العائلة كلها في عصريّة ذاك اليوم اجتماعاً فجائياً بصدد هذا الحادث. وأخذني شقيقي جورج على انفراد وسألني عما إذا كنت أرى في هذه المجازفة قلقاً على راحتي وحياتي؟ قلت له: لقد أصبحت في هذه السنّ وأنا أسير لوحدي في الحياة، أليس من دواعي الغبطة لكم بأن أكون مرافقة لرجل مثل الزعيم، عدا عن أنني لم أسر معه لهذه الغاية، بل لغاية أبعد وأنبل وهي تتخطّى موضوعي كشخص. فأجابني أن أفعل كما أرى مريحاً لي. وبعد ذلك جرى الوفاق في كل أموري معهم، في ما يتعلق بالزعيم. وقد أحاطوني بعنايتهم واهتمامهم. وأول شيء صنعته والدتي هو أن تضع في إطار (برواز) من النحاس صورتين واحدة لي والأخرى للزعيم كانت قد رفعتها من تداول الأيدي لأنها لم ترد أن يكون بين صورنا صور للزعيم وفي نفس المكان (وكانت الصور التقطت لجميع الرفيقات ومع أمي في نزهة في جزيرة تيغري في بوانس آيريس)، فوضعت هذا الإطار على طاولة في غرفتي وكأنها تقول «الآن مسموح».

وفي هذا الجوّ الهادئ في البيت قرّر الزعيم مغادرة بوانس آيريس والذهاب إلى الجبال لأخذ قسط من الراحة التي كان بأمسّ الحاجة إليها. وقد انتهت المعركة والكلمة الفاصلة في قضية خالد أديب وغيره. ولا شك في أنّ هذه القضايا كانت تأخذ من راحته جسدياً ونفسيّاً لأن الزعيم، رغم تمسّكه بالنظام والحقّ وتحمّله الأخطاء على أنواعها، لم تكن تسهل عليه خسارة أي رفيق من رفقائه ولم يكن يتساهل في أن يعرف كيف خسر نفسه ذاك الرفيق. وتكون المعركة بينه وبين نفسه عنيفة قبل أن يقرّر فصل عضو من أعضاء الحزب، وهو الذي كان يسهر على تربيتهم العقائديّة لأيام وسنين، فلم يكن سهلاً أن يرى تلاميذه ينهارون إلى تلك الهاوية. وكان يدرك أيضاً معنى خطورة ترسّخ الفساد في بعض النفوس، وخطر التفشّي على الآخرين، فيفسد البناء الصالح.

وكم من المرّات كنت أسمع عن مواقف مشابهة اضطرّ الزعيم لعلاجها في الوطن في مطلع عهد الحركة، حين كان الحزب سرياً وبعده. وكنت أسمع منه أيضاً كيف كان صدره رحباً أمام ضعف البعض وتردد البعض الآخر، وحتى التذمّر من لقاء أول صدمة في الصراع العقائدي. ولكن بين هذه الأخطاء التي يصلح الزعيم التواءها وضعفها، والحركة هي مدرسة يتهيأ فيها المواطن، وبين الفساد وأمراض النفس، هناك مسافة شاسعة لا يقرّبها إلى الطريق القويم لا التساهل ولا التسامح.

وكنّا في بوانس آيريس نسكن طابقاً في وسط المدينة، وكان بيتنا قريباً من محطة للسكك الحديد، وكنت أمرّ بها ذهاباً وإياباً كل يوم وأنا في طريقي إلى المدرسة الثانوية خارج المدينة. ومعرفتي بها طويلة وكأنها تشكّل جزءاً من بيتنا. إن خطوط السكك الحديد في الأرجنتين كثيرة متشابكة وهي تصل العاصمة مع السبع عشرة ولاية في الجمهورية الأرجنتينية، وقد سافرت مرّات على خطوطها إلى مختلف الولايات والمناطق، وكنت أستأنس بسفري فيها.

لهذا عندما قرّر الزعيم مغادرة بوانس آيريس إلى جبال كوردوبا ذهبت وحجزت له مقعداً في القطار، وبقيت هذه التذكرة معي. وكان عليّ تسليمه إياها حين

الوصول إلى المحطة. وقد بدّلت حقيبتي في آخر لحظة ونسيت التذكرة في الحقيبة الأخرى الشيء الذي عكّر عليّ وعلى الزعيم ساعة وصولنا إلى المحطة. فعدنا إلى البيت وقد سبقنا القطار، فأجّل السفر إلى اليوم التالي. فبقيت متكدّرة لهذا الخطأ ولم أسترجع سروري حتى وصلني منه كتاب رفع عني الكآبة.

غاب الزعيم ثلاثة أشهر قضاها في الجبال، وكانت رسائله تردني دوماً وفيها حرارة نفسه. وهناك في فترة استجمامه كان يكتب مقالاته المتسلسلة في **الزوبعة** عن رشيد الخوري، وكان يحرّر الجريدة من مقرّه ويرسل إليّ ما يجب تسليمه وتوزيعه.

وكانت خطوبة الزعيم موضوع اهتمام الجميع، القوميين وغير القوميين. هل يجوز للزعيم أن يتزوّج، ومن يتحمّل نفقات عائلته؟ وإلى ما هنالك من تدخّل في أمور الزعيم. وكنت قد حصلت على وظيفة ممرضة في أحد المستشفيات الحكومية، وكان يبعد عن العاصمة مسافة بعيدة، ولكنه بناء جديد مخصّص للأمراض الصدرية. كان عليّ القبول بهذه الشروط إذ كنت تعيّنت حديثاً، وقد ارتحت لهذه الوظيفة لأقوم بواجباتي نحو البيت الذي تعاهدت على أن أسهر على هنائه وسعادته ومسؤولياته. وابتدأت عملي، وما تبقّى من الوقت لديّ كنت أستفيد منه لتهيئة أجهزة البيت الجديد، وأقوم ببعض المساعي التي كان الزعيم يكلّفني بها، وأستلم رسائله وأجيب عليها. وهنا يجب أن أذكر أن رسائلي إليه كانت في بعض الأحيان باللغة الإسبانية ومرّات باللغة الإنكليزية وقليلاً باللغة العربية. ولم يرض الزعيم برسائلي باللغات الأجنبية، وكان يرفض أن أتابع بهاتين اللغتين، فأرى نفسي أمام أمر لا مفرّ منه، وتصعب عليّ الكتابة باللغة العربية التي كنت قد أهملتها منذ زمن، وأعود إلى الكتابة بلغتي العربية المكسّرة، فيأتيني من الزعيم جواب استحسان وتشجيع لأن أتابع إذ ليس فيها من الأخطاء الكثير وأن تعبيري جيّد، وأن الأخطاء نحويّة، وهذا ما أستطيع إصلاحه إذا ما تابعت بإصرار واهتمام بعض الدروس في قواعد اللغة العربية. ويقول لي: ليس عزيزاً على قلبي أن تكون اللغة الأجنبية هي الواسطة للتفاهم بيننا، خصوصاً أن العربية هي لغتنا، وإذا كنت تصرّين على

الكتابة إليّ بهذه اللغات فسأجد فيها أيضاً أخطاء كثيرة حتى تعدلي عن الكتابة بها. وما زلت محتفظة برسائل الزعيم كلها وبينها صفحات التصحيح في اللغة.

عاد الزعيم من الجبال وفي نفسي دنيا من الحبّ والآمال، ولم نخف حبّنا لبعضنا ورغبتنا بإنشاء البيت الجديد الذي ساعد أفراد عائلتي جميعهم بتجهيزه، خصوصاً شقيقي جورج الذي أراده أن يكون كما نرغب، كل شيء فيه كان يختلف عن سواه، يختلف في أسبابه وفي الروح التي تهيأ له. وكان هذا البيت لنا وحدنا وكما أردناه، كل شيء وضعته فيه كان يحمل عنايتي وذوقي، وكان له جمال خاص بنظر الزعيم الحبيب. ستائر النوافذ كانت ناعمة نعومة عواطفنا، وعلى كراسيها كم من الساعات كنّا نجلس ونتحدث بقلوبنا، بعيوننا، ونحن ندري أنّ كل شيء وُضع في هذا البيت كان فيه القصد الأقصى للبهجة والراحة. تلك الأشياء الجامدة التي رافقتنا لم تعد جامدة بنظري بل كانت أشياء اشتركت معنا في ساعات هناء وأصبح لها رمز حياة.

هذا البيت الصغير الجميل كان لي فيه قدسيّة،

كان فيه قلبان يخفقان معاً،

كان فيه حبّ يتدفق على الأمة،

كان فيه صفاء الربيع وأنشودته،

هذا البيت الصغير الجميل كان فيه قضية عظيمة.

في أوائل سنة 1941 تمّ عقد الزواج وأنهينا ترتيب بيتنا الذي كان طابقاً مؤلّفاً من ثلاث غرف وغرفة صغيرة للخادمة، وله شرفة جميلة، موقعه في إحدى ضواحي المدينة ويطلّ على أكبر حديقة عامة في بوانس آيريس واسمها بارك تشكا بوكو Chacabuco، الشارع كان اسمه شارع مونتيس Montes. هناك بدأت حياتنا سوياً، العمل طيلة النهار. وكنت أنا قد انتقلت إلى مستشفى قريب من البيت اسمه

مستشفى بينييرو Pineiro، وكان العمل فيه ثماني ساعات متواصلة، ومن ثم وقت الذهاب والإياب في الباص. وكنت أعمل في فرع الإسعاف أي قاعة الإسعاف التي لا تقفل أبوابها لا ليلاً ولا نهاراً. وكان ذلك الفرع جديداً في بنائه وترتيبه وقد أُدخل على ما تبقى من المستشفى الذي كان بناؤه عتيقاً. وكانت الأجهزة فيه كلّها حديثة، من آلات جراحية وقاعات للعظام والأشعة والتعقيم، أي كان فيها توابع تحتاج إلى الكثير من العمل وخصوصاً أن الحركة تبدأ فيها بعد أن تقفل قاعات العيادات أي عند الظهر. فكل الحوادث التي تقع في الشوارع والمعامل والنوادي وإلى ما هنالك من إصابات مفاجئة كحريق ونزيف وغيرها كانت تأتي إلى فرعنا في الإسعاف، وما إن يدخل قاعة العمليات مصابٌ حتى يكون وصل إليها آخر وآخر، هذا من صدمة سيارة وذاك من آلة كسرت يده، وآخر من الزائدة المنفجرة، وأحداث تحتاج إلى صور شعاعية وتجبير عظام. كل هذا عدا عن الاهتمام بالتعقيم الذي يحتاج إلى تدقيق في علب المعدات ومراقبة آلات التعقيم. وهذا كان يعني بالنسبة للعمل حركة دائمة سريعة ومضنية.

كان دوامي يمتد من الساعة الثانية بعد الظهر حتى العاشرة مساء. وكنت نشطة وأعمل بكل عقلي وقوّتي. وكنت قليلة التحدث كثيرة الحركة، فلم أهمل ناحية من نواحي عملي، وكان علي أن أخترع بعض الأحيان ما يوفّر على الأطباء صرف اهتمامهم أثناء العمل مثل قطع من الأنابيب الكاوتشوك لوضعها في مغلفات استثنائية خلال العملية. وكان هذا العمل الصغير وغيره ما يُشعر الأطباء بالاتكال عليّ أكثر وأكثر. وكان عليّ أن أعطي البنج وأراقب المريض خلال هذا العمل، وكان البنج في ذاك الحين من «الأثير» و«الكلوروفورم»، وفي حال حاجة المريض إلى حقنة أو الطبيب إلى آلة جراحيّة كنت أسلّم البنج لأحد الأطباء التلامذة. وهكذا حتى تنتهي عمليّة وتبدأ أخرى، أو إعداد جفصين للكسور أو أخذ صور شعاعية.

كنت أعود إلى البيت بعد العاشرة وأنا تعبة ولكن أملي بلقاء الزعيم والوصول إلى بيتنا الجميل يدفعني إلى السرعة والشعور براحة نفسيّة، وكم من المرّات كنت

ألاقيه عند موقف الباص وهو بانتظاري، وكان يغمرني بين ذراعيه فيدخل في قلبي دفئاً جميلاً. كم كان هذا العمل والشعور باللقاء يعني لي التقدير من قبل الزعيم. وهناك في البيت كنّا نتابع العمل أنا في أشغال بيتيّة وهو منكبّ دوماً على الكتابة، كان النهار مليئاً بالأعمال مع الأعضاء والجريدة ومتابعة شراء الورق وتصحيح المقالات في **الزوبعة** وكثير من الاجتماعات الخاصة مع بعض المواطنين، فيعود في المساء ليبدأ الكتابة التي كانت تأخذ من وقته ساعات، وكنت أخشى على صحته وتعبه من جرّاء السهر الطويل. وكنت أجلس بعد إنهاء أعمالي قربه في المكتب من دون التحدث إليه، وهو منصبّ على الكتابة، لا يشعر أحياناً بقربي منه فالنور الوحيد موجود على مكتبه يضيء البقعة حيث يعمل، ولكن حركة ما كانت تلفت نظره ويرفع عينيه لتلتقيا بنظري فيبتسم لي ويعود إلى عمله، وتمضي الساعات حتى بعد منتصف الليل.

أكبر متعة روحية بالنسبة للزعيم كانت الموسيقى، الموسيقى الكلاسيكية، وكان بيتهوفن موسيقاره المفضل، ولكنه كان يحبّ أيضاً كل الموسيقيين. وكان يفضّل تشيكوفسكي وكريغ وليست وشوبرت وشوبان وغيرهم. وكان يحبّ Smetane في نهر ملدافا Meldawa وقد تعرّفت على أعمالهم من الزعيم وأحببتها ولا أزال أسعى إلى الاستماع إلى تلك القطع أي نهر ملدافا لِسمتان وبيرغينت Peer Gynt لكريغ. وكانت الأنغام ترافق الصمت الذي كنّا نعيشه في ساعات السكون في الليل وهو يعمل بهدوء وكأنها تعوّض علينا ما نريد قوله الواحد للآخر.

وكان شعور الزعيم نحوي في نفس الدرجة من القلق على صحتي وكان يطلب مني تكراراً الذهاب إلى النوم والراحة، فكنت أضمّه إلى صدري وأقول إنني لست تعبة ولا أريد الراحة لنفسي بينما هو منصبّ على العمل. وكنت أعلم كم كان مهمّاً ذاك العمل، وكل عمل كان يقوم به الزعيم. وكنا نأخذ قليلاً من الوقت للراحة، فنذهب في نزهة بين الأشجار والحدائق ومرّات نكون مدعوين إلى بيت أهلي أو بيت بعض الرفقاء.

وبعد زواجنا بثلاثة أشهر حملت بصفية. كان لنا من هذا الحدث سرور وغبطة. وبدأنا نفكّر بالطفل الجديد الذي سيملأ بيتنا فرحاً وبهجة. وكان الزعيم يحبّ الأولاد، وكنت أنا أنتظر هذا الطفل بفارغ الصبر. ومرّت عليّ أيام صعبة خصوصاً أنني لم أكن أستطيع ترك العمل ولا أن يكون عندي خادمة لأن الحالة الماديّة لا تسمح لنا. وكانت أيام الحرب العالميّة الثانية، وانقطاع المراسلات والاتصال بالخارج لم يسمح بوصول أية مساعدة للزعيم، وكان عليه تغطية نفقات الزوبعة التي قلّما كانت تجمع اشتراكات، وهذه لم تغطِّ مصاريفها. على كل حال لم أكن أفكر بالاتكال سوى على نفسي، وفي آخر أشهر حملي، تسلّمت بعض المساعدات من أهلي واستمرّيت بعملي واستعنت بخادمة بعض الساعات حتى كان لي ثلاثة أشهر استراحة أخذتها بسبب وضعي وعكفت على تهيئة ما يلزم في البيت للطفل القادم.

أول فرحة وتشوّق كان يمثّلها السرير الصغير الذي اشتريناه ووضعناه في زاوية الغرفة، كان فارغاً ولكنّ أحلاماً وصوراً كانت تملأه.

تمّت الولادة في 17 كانون الأول وهو فصل الصيف في الأرجنتين. وكان لابنتنا البكر اسم «صفيّة»، اختاره الزعيم لمعناه من «المصطفى» ولأنه شبيه باسم صوفيّا. وبما أنه كان علينا أن نسميها باسم أرجنتيني حسب القوانين السائدة والمشدّدة في ذلك الحين من دون اختيار اسم ثان معه، وجدنا أن نسجّلها باسم صوفيّا ويكون لنا اسمها الحقيقي صفيّة. ولهذه القوانين قصّة في الأرجنتين سبّبت هذا القرار الذي تحوّل إلى قانون، وأعتقد أنه ألغي لاحقاً.

فقد وُلدت لرجل أميركي ابنة أسماها جون، Joan، وهذا في الإسبانية يُلفظ «خوان» وقد ذكر الموظف خطأ في السجل العدلي أنه «ذكر»، وفي عامه العشرين طُلب للعسكرية وما كان من الأب إلاّ أن اعترض إذ ليس عنده ولد صبي بل ابنة، وأرادت الحكومة بعد الأخذ والرد وضع الاسم في الإسبانية أي «خوانه» فلم يقبل الأب ووصلت الدعوى إلى المحاكم ثم إلى المحكمة العليا، وربح الأميركي الدعوى، ولكن صدر بسببه ذلك القانون بحيث يمنع كل مواليد الأرجنتين من حمل أسماء غريبة.

مررنا بصعوبات كثيرة منها المادية ومنها الحزبية، وكان لي في الزعيم المثل والقدوة. وبالنسبة له لم تكن هذه الأمور إلاّ صعوبات طبيعيّة وصراعاً طبيعيّاً، وكنت من خلال هذه الامتحانات أتقرّب يوماً بعد يوم أكثر وأكثر إلى نفس الزعيم وتفهّمه القضايا الهامّة، وكأن الدنيا كتاب مفتوح أمامه ينظر إليه بمعرفة تامة.

وكانت رحلات الزعيم في الداخل لتفقّد الفروع تأخذ قسماً كبيراً من وقته. فكان يتغيّب لمدة شهر أو أكثر، وفي هذه الغيبات كنت أشعر بفراغ في البيت وفي حياتي كلها رغم انشغالي الدائم بين الوظيفة والعمل البيتي والشؤون الحزبيّة التي كان الزعيم يكلّفني بها، كإرسال الزوبعة إلى المشتركين وجمع مجموعات منها واتصالات، إلى ما هنالك من أمور ملحّة. ولم يكن الفراغ في بيتنا فقط إنما كان القوميون والأصدقاء جميعهم يستخبرون تلفونياً عن عودة الزعيم ومتى تكون.

كنت أحرص على أن يكون في البيت عند عودته مفاجأة ما، مخصصة لراحته أو مناسبة لذوقه، كأن تكون قطعة موبيليا يحتاجها، أو قنديل لمكتبه، وغير ذلك. هذه اللذّة لا يعرفها إلاّ كل من كان مثلنا يوفّر القليل حتى يفوز برغبته.

بعد هذه الأشهر المليئة بالعمل والسهر على كل شؤوننا، في الوظيفة، في البيت، تجاه طفلتنا، تجاه الحزب، ابتدأت صحّتي تتأخر، وكان الزعيم يحزن لوضعي، ويأخذني مرّات من يدي ليضعني في الفراش رغم رفضي، ويغلق الباب ويذهب للاهتمام بابنتنا صفيّة. ولم يكن عندنا مساعدة منزلية دوماً، فيصعب التوفيق بين العمل المستمر لمدة ثماني ساعات والاهتمام بصفية التي كانت رضيعة. لكننا تغلبنا على تلك الأيام وكان هنائي، كل هنائي، عندما أراهما هما الاثنين وعلامات الصحة والراحة تحيط بهما. كان فرحي بهما حتى الدموع. ما ألذّ هذه السعادة، وتلك الدموع.

كنت أعلم كم هي صعبة شؤون الحزب والتنظيم في جوّ تحكّمت فيه الفوضى خلال عهود، وكنت أحاول مساعدته بإخلاصي ووفائي والتحسّس بما يعود من جراء هذا الإخلاص. وكان الزعيم يشعرني بأنه يتقصد إشراكي في القضايا

الخطيرة وكان يعود دوماً ليحدّثني عنها. ويقول لي إن المرأة تملك حاسّة سادسة وهي تحسّ بقلبها مالا يدركه الرجل بعقله.

وقد أتيحت لي فرصة نقلي من ذاك المستشفى وتبديل وظيفتي مع رفيقة ممرضة كانت تعمل في المختبر. ولهذا دوام مريح، أي ساعات عمل أقلّ ومرتبط فقط برئيس القسم، وقرّرنا نقل بيتنا أيضاً. ومع أن البيت الجديد كان مستقلاً وله دار واسعة في آخره، وقنّ للدجاج وشجر في وسط الدار، فإنه لم يكن مبهجاً مثل الأول. أما من ناحية المجال لصغيرتنا صفية فكان فيه متسع وكانت الدجاجات والديوك والدار الواسعة وكل شيء فيه يفسح لها المجال للعب، وقد أصبح عمرها سنة، وفي تمام سنتها الأولى بدأت تسير لوحدها. كانت متقيّدة تمام التقيّد بما نعلّمها إياه، وبالنظام، وهي محافظة على نظافتها لدرجة الإعجاب. كانت بهجتنا. وقد مرّت هي أيضاً بصعوبات صحيّة في شهرها الثالث من حيث التغذية لأن الرضاعة لم تكن كافية لها ولم يرض الطبيب بإعطائها ما يعوضها فقدان حليب الأم، فبدأت تظهر علامات الاضطراب الهضمي وحتى الهبوط السريع في حيويتها ولم ينقذها الأطباء الاختصاصيون فعولّت على تجربة وجبة طعام اصطناعي. فتناولتها كلها وكأنها جائعة جوعاً قديماً. مسكينة صفيّة. ثم تابعت إعطاءها وجبة تكميلية وكانت ترضع كل الكميّة، وسرعان ما توقف معها الإسهال الطويل الخطر، وتحسّنت وعادت لحيويتها وهي تدخل شهرها الرابع وتزغرد وتفرحنا بحركاتها وزغاريدها وهناء حياتها.

ولكن هذا التأخّر أثّر على جهازها الهضمي، ومن حين لآخر كانت علامات الاضطراب الهضمي تظهر معها إلى أن اهتدينا إلى طبيب أطفال كشف سرّ مرضها وعالجه بمنعها عن السكر والخضار وكل شيء فيه سلولوز Cellulose، واستمريت في هذه الحماية الدقيقة لمدّة خمسة أشهر فكان شفاؤها واستمرار تحسّنها. كانت في سنّها الخامسة حينذاك وأليسار في سنّها الثانية والزعيم كان قد عاد إلى الوطن سنة 1947.

الفصل السادس

كان الصراع في الأرجنتين غير الصراع في الوطن، فهناك عقيدة تشقّ طريقها، والصراع قائم مع الفئات الاستعمارية والفئات الطائفية ومع كل مبدأ وعقيدة رجعيّة. كان الصراع صراع رسالة يحملها رجال فكر وضمير ضدّ كل ما يعرقل سير الأمة إلى الأمام وإلى النهوض بها. أمّا هنا في الأرجنتين فكان الصراع بين فئات أفسدتها عادات وجهالات حتى لم تعد تفرّق بين النور والظلمة. فكان صراعها صراعاً حقيراً يأبى النور ويحاربه.

ولكنّ الزعيم لم يبنِ أمله على هذه الفئة من الرجعيين وقد أتى بقواعد سليمة متحررة من قيود الموت والاستنفاع، وربّى جيلاً من الشباب ومن المخلصين، نفوسهم طيبة وعقولهم نيّرة، وسار بهم يقتحم حواجز لم تعد صعبة عليه، فخرج بالجالية من الأوهام التي كانت تعيشها مما ورثته من عهود قديمة. وفي مقالاته وخطاباته انبثق نور فكر جديد وحياة جديدة في مبادئ كان يشرحها للجالية في اجتماعات خاصة أو عامة، فانقلبت عندها المفاهيم الضيقة وتغيّرت نظرات، وبدأ المهاجرون يفكرون في القضايا التي لم يعتادوا معالجتها بل كانوا يتلقونها وكأنها صيغت لهم على أيدي صاغة يوهمونهم بما يريدون. فانفتح أفق واسع من الأخذ والردّ، ومعالجة أمور الجالية وأوضاعها، وبدأت قراءة وتوضيح الأمور القومية وما تعالجه القضية السورية القومية الاجتماعية في الوطن والوضع الراهن هناك وأسبابه وأسباب الأمراض وعلاجها.

وفي كل اجتماع وكل حفلة كان ينظّمها الزعيم أو الحزب كان المتشوقون لمعرفة الحركة وزعيمها يتكاثرون. وكان الزعيم يرغب في أن يكون للحزب مركز يعمل

تحت إشراف الحزب، ولهذا نشأت «الجمعية السورية الثقافية» في بوانس آيريس. وكانت تنبثق عنها برامج واسعة، من محاضرات واتصالات مع شخصيات وصحافيين أرجنتينيين ومع أبناء الجالية الذين كانوا يشكّلون إمكانيات ماديّة وفكريّة حسّاسة، إذ إنهم أوعى من آبائهم فلا ينقصهم سوى التعرّف على تاريخ وطن آبائهم وعظمة أمتهم في التاريخ، والأسباب التي أقعدتها عن السير إلى المستوى اللائق بها. وكان الزعيم قد بدأ التحدث باللغة الإسبانية بطلاقة فكان يجمع في اجتماعات خاصة الكثير من الشباب أبناء السوريين ويلقي عليهم دروساً، ثم يجيبهم على كل أسئلتهم، فكانوا يتركون الاجتماع وهم يترقبون بفارغ الصبر الاجتماع المقبل. وهذا التعرّف على حقيقة وطنهم حفّز بعضهم على التوجه إلى دراسة اللغة العربية ليتعرّف على ما فاته معرفته من آبائه، وشعوراً بالاعتزاز بلغته. وكانت الفروع في أنحاء كثيرة من بوانس آيريس تزداد نشاطاً وحماساً، وقد شاهدت عائلات كلّها منضوية في الحركة وتعمل بنظام وتفهّم بديع. وقد نزلنا ضيوفاً في بعض هذه المناطق، مثل خونين. وكان الكثير من الضواحي يعمل بنشاط وحماس.

نعم، على جوانب الصفوف البديعة كان أشخاص يسيرون وقد هالهم منظر الصفّ العظيم، ولكن ليس ليلتحقوا به وينسجموا مع مسيرته، وإنما ليخادعوا بمهارة أكبر. غير أن الصفّ كان أقوى من هذا الاعتداء، ولم يجرّوا معهم إلا الذي لم يكن عنده المناعة وكانت نفسه ضعيفة.

هذا النشاط، هذا الانتصار وهذا النظام البديع والإيمان الواحد بقضية واحدة، كاد يطحن بعض ذوي المآرب. أشخاص انتشرت أسماؤهم على شفاه الجالية بفعل الحركة فظنوا بأنهم أبطال صنعوا هم الحركة. وتحمّلوا مسؤوليات وقدّم لهم الحزب مجالات احترام وتقدير فظنّوا أن لا حياة للحركة دونهم. ولكن كان عليهم أن يخفوا مخططاتهم حتى يتمّ لهم ما يريدون. كم من هذه الأسماء سمعنا عنها في الحزب؟ ليس العدد كثيراً، بل هو قليل جداً، وأقلّ مما حدث في صفوف أكبر الحركات في أنحاء العالم. ونحن لنا الحقّ أن نقول إننا لسنا شعباً مهيئاً خلقياً

ومعنوياً وثقافياً مثلهم. لنا الحق أن نقول إن انتصار الحركة في وسط مثل وسطنا البعيد كل البعد عن مفاهيم القوميّة التي ابتدأ يعيها قبل سنوات قليلة، كان انتصاراً غريباً لم ننتظره لو لم تكن هذه الرسالة وواضع هذه الرسالة ذاك الرجل العبقري، خالق الجيل الجديد في الأمة لحياة جديدة.

وكان بعد الحملة التي شنتها بعض الصحف وبعض الأشخاص أن مطبعة السلام لم تعد تريد طباعة **الزوبعة** فاضطرّ الزعيم إلى طلب أحرف عربية صغيرة من رفقائنا في البرازيل والتعاقد مع مطبعة بولونية شرط أن يكون العمل في المطبعة بعد منتصف الليل، لأنهم في النهار يعملون لطباعة صحفهم. وكانت هذه الماكينات من اللينوتيب أي أنه كان على الزعيم أن يتعلم الطباعة على تلك الآلات لصف الجريدة، ولم يكن يعرف هذه المهنة من قبل.

وكان بيتنا في ضواحي المدينة والمطبعة تقع في وسط العاصمة قرب بناية الكونغرس. وبعد منتصف الليل يصبح التنقّل صعباً بسبب قلّة عدد السيارات والباصات. وكان على الزعيم أن ينتقل من الباص إلى الترام حتى يصل إلى المطبعة، وهذا المشوار يأخذ لا أقل من ساعة ونصف بعد الانتظار في المحطات. ولكن عزيمة الزعيم لم تتراجع أمام أي صعوبة، وكأنه موظّف يحضر حسب الواجب المعتاد. كان يحدث في بعض الأيام أن يهطل المطر بغزارة وتطوف المياه في شوارع بوانس آيريس من غزارة الأمطار ويصبح السير في الطرقات صعباً إلا في وسط الماء حتى يتمكن الزعيم من الانتقال من سيارة إلى سيارة. وهذا أيضاً لم يعطّل من عزيمته، فكان يخرج والمطر على أشده، ويصل إلى المطبعة. وفي بعض الأحيان كان رفقاء ينتظرونه هناك لمساعدته في صب الرصاص وما هنالك من تصليح في الآلات التي لم تكن جديدة وتتعطّل بسهولة. وكان يأخذ من الوقت الكثير حتى يطبع القليل. ومع الوقت أصبح هو وحده الذي يستعمل اللينوتيب ورفقاؤه يتعاونون بالأمور الأخرى التابعة للجريدة، ثم يعود الزعيم إلى البيت في ساعات الفجر.

وعادت **الزوبعة** إلى الصدور، وكان من الضروري إصدار هذه الجريدة التي تنطق بلسان الحزب وتوصل الحقائق إلى المواطنين والرفقاء، إذ كانت الحملة المضادّة قوية في حين أن الحركة كبرت وامتدّت فروعها إلى كل أنحاء البلاد. وتضخّم عدد الأعضاء وازدادت المديريّات، وصار الكلام عن الحركة والمبادئ الحديث الدائم لدى المغتربين، و**الزوبعة** تطلّ عليهم دوماً لتوضح القضايا الهامة الخطرة والحساسة، فيستيقظون على أمور لم يعتادوا معرفتها سابقاً. وبواسطة **الزوبعة** كان القوميون يتفهّمون القواعد ويستوعبون الحجج لاستعمالها في أحاديثهم مع أبناء الجالية.

آخر رحلة قام بها الزعيم إلى ولاية توكومان تمّت في أواخر سنة 1943، وكانت صفيّة في سنّها الثالثة. وبعد غياب دام أكثر من شهر كتب إليّ الزعيم أنه يفكّر في أن ننتقل إلى توكومان، وقد يكون أمامه عمل يقوم به يؤمّن معيشتنا حتى يخفف عنّي العبء الذي تحمّلته في العمل المستمرّ. وبعد ذلك فهمت من رسائله اللاحقة أن هناك موضوع اختراع وضعه رفيق، فإذا صحّ الاختراع يمكن أن يشاركه، وأن جبران مسّوح يصرّ على الزعيم بالصعود والسكن مع عائلته في توكومان، وأنّ هنالك أسباباً كثيرة لتأمين البيت والتخلّي عن المستشفى. وإذا لم يكن هذا الاختراع فهناك مكتبة ينوي جبران افتتاحها وقد نتعاون معه فهو يتمنى لو يكون «خادماً عند الزعيم» ويعبّر عن احترامه وشكره له ولزوجته التي كانت سبب خلاصه من مرضه.

وكان موضوع مرض جبران أنه نزل إلى بوانس آيريس مع زوجته وهو في حالة إعياء. وعرفنا أنّ نوبات متكرّرة تنتابه وأصبح نحيل الجسم لا يقاوم الألم. وبعد الفحوصات الطبية في توكومان لم يصلوا إلى معرفة ما به. وقد قرّر النزول إلى بوانس آيريس ووضع نفسه تحت إشراف الزعيم وإشرافي. وأول عمل قمت به، أنني رافقته إلى مستشفى الدكتور بوش وأخذت له صوراً شعاعيّة كاملة. وقد ظهر لأول مرة أن المرارة مليئة بالحصى ومعدته مصابة بالقرحة. ثم أخذته إلى عيادة أكبر جرّاحي أميركا الجنوبية كلّها وكان اسمه الدكتور فينو كيتّو Finochietto وهو

المشهور بجراحته عبر حدود الأرجنتين، ولكن لم أعرفه شخصياً. وذهبت بصحبة جبران للوقوف على قرار هذا الطبيب. وأخبرت الطبيب أنني ممرّضة في البينييرو وأن الأطباء هناك وجّهوني لعنده. وبعد أن فحصه قال له: «وماذا تفعل حتى الآن، وانت في حالة يرثى لها، عليك إجراء عملية بسرعة» فأجبته أنا أن تكون هذه عن يده وفي المستشفى الوطني، بما أن جبران لا يملك مالاً لدفع أتعاب جرّاح مشهور مثله. فأجاب: «هذا ليس مضموناً وفي المستشفى الحكومي جرّاحون كثر ولا أحد يدري من هو الذي يقوم بهذه العملية إذ إن النهار الذي يعيّن له من المحتمل أن لا يكون هو هناك». وقال: «خذيه إلى المصحّ حيث أعمل وهناك تتفقين مع المدير». قلت له: «وماذا عن أجورك وأنت أشهر جرّاحي أميركا الجنوبيّة؟» قال: «لا أريد شيئاً لي، وقد يتفق مع المدير ويسهّل له بالتي هي أحسن وأنا سأخابر المدير». وسأله: «ماذا تعمل لمعيشتك؟» قال جبران: «أنا كاتب». فسأله الطبيب: «وأين الحبر على أصابعك؟» فردّ جبران: «أكتب بدم قلبي». فضحك الطبيب ونصحني بأن أذهب إلى المصحّ حيث يعمل، وأنني سأكون مسرورة.

وبعدها عاد جبران إلى الفندق حيث كان يقيم مع زوجته التي كانت تنصحه بألاّ يدخل هذا المصحّ لأنه سيكلفه كثيراً. وكانت النوبات تعود عليه ولم يبق من قوته شيء، فأدخلته زوجته إلى مصحّ خصوصي آخر وكان فيه بعض الأطباء الذين أرادوا التدّخل في تلك العملية وإبقاء جبران في نفس المصحّ، وكانت زوجته تارة تقبل معهم وتارة تبدّل أفكارها. وما كان من جبران إلا أن استدعانا وطلب منّا الرجوع للمصحّ حيث الدكتور فينوكيتّو. وذهبت وزوجته واتفقنا مع المدير على بدل الأتعاب، وكان التهاون من قبل المدير لدرجة لم أتوقّعها وكأن الدكتور فينوكيتّو لم يكن ذاك الجرّاح المشهور، واختصرت المصاريف على قسط بسيط له، والغرفة مع سرير إضافي لزوجته خلال عشرة أيام، وكأنه في أحد المصحات العادية.

ودخل جبران المصحّ، واستعد للعملية، وطلبت من الطبيب أن يدعني أحضر العملية، قلتها وأنا أترقّب جواباً غير لائق وقد عُرف عن هذا الجرّاح المشهور

فظاظة خلقه ولسانه السليط ولكن شيئاً معاكساً جرى، وقال لي إذا كنت تحبين الحضور فاطلبي من الريّسة وقولي لها أن لا مانع عندي. وهكذا كان وحضرت العملية، وشاهدت فصول ذاك الطبيب مع الأطباء الآخرين والجوّ في غرفة العمليات وكأن الجمع كلّه، من أطباء أكبر منه سنّاً وأصغر، ليسوا إلا تلاميذه الجاهلين، فينتقد هذا لعدم فهمه، ويشتم ذاك لبطئه، ويضحك على الممرضة البلهاء التي ترافقه في الأدوات الجراحية، وهكذا. ولم أتفوه بكلمة ولم أر شيئاً مماثلاً لهذا في حياتي في المستشفيات. وبعد أن أنهى عملية القرحة مدّ يده إلى المرارة وقال: يظهر أن لاشيء فيها وقد نتركها. ترددّت في لفت نظره إلى الصور الشعاعيّة ولكني قلت له بصوت هادئ: يا دكتور أظنّ أن الصور أظهرت الحصى في المرارة وقد تكون تلك الصور خاطئة. ونظر إليّ من بعيد، وكنت أنا وراء حاجز موضوع للتلامذة الأطباء ووقف بعضهم معي وراء هذا الحاجز إذ كان لعمليات هذا الجرّاح صدى بينهم واهتمام لمشاهدة طريقته في الجراحة. وقال الجرّاح المشهور: «صحّ، لقد شاهدت في الصور الشعاعيّة حصى في المرارة». وطلب من المساعدة المخرز الكهربائي وشق المرارة وسمعت كيف كانت الحصى تسقط بعد مرورها في الأنبوب إلى الوعاء الزجاجي، وكانت كثيرة. وعاد الطبيب ينظر إليّ ويهزّ برأسه، فسررت وارتاح بالي لأن الأمور سارت بهدوء لي ولصالح جبران مسّوح الذي بقي في المستشفى عشرة أيام. وكان عمر ابنتنا صفية آنذاك أربعة أشهر، فوضعتها بعهدة والدتي وذهبت أسهر على جبران في المصحّ ثلاثة أيام ولياليها. وتحسنت حالته بسرعة وكان لي من جرّاء هذه النتيجة الناجحة سرور كبير، وقد تعرّفت على طبيب مثل الدكتور فينوكيتّو وكان سلوكه معي محترماً، فكان يسأل عني دوماً عندما أكون غائبة عن المريض. ولم يشعر جبران مسّوح بتحسّن وارتياح أكثر من ذلك الوقت. فعاد وزوجته إلى توكومان وهو يردّد «لولا الزعيم والرفيقة جولييت لكنت متُّ». ومن هنا قوله أنا مديون لكم بحياتي.

وقد قرر الزعيم الانتقال إلى توكومان والسكن هناك وتجربة العمل في ذاك الاختراع لإبراهيم الكردي الذي كان جبران مسّوح يقول عنه أن لا قومي مثله وهو

«يعبد» الزعيم. ولكن الزعيم لم يأخذ الموضوع بهذه السهولة، وقد رجع إلى بعض المهندسين في توكومان وعرض عليهم لوحات الإسمنت للسقوف التي كانت، حسب إبراهيم، مؤلفة من مواد كيماوية لم يسبق لأحد معرفتها. وقال هؤلاء المهندسون إنهم رأوا أنه صلب أكثر من غيره وهو على كل حال مادة رائجة للبيع خصوصاً في توكومان التي لا توجد فيها معامل لهذا الإنتاج. فقرّر الزعيم بعد إلحاح جبران الذي كان حتى ذاك الحين وكأنه الأب الحنون للزعيم، وكان عمره فوق الثانية والستين، أن يعرض هذه المواد على هيئة حكومية ويُسجّلها. ولكن إبراهيم الكردي لم يرد الانتظار وكان يؤكد نجاح العمل، خصوصاً أن جبران قال إن ذلك على مسؤوليته. وقام الزعيم بتعاقد مع إبراهيم الكردي على أساس مواد اختراع، وفي نصّ التعاقد وضع الزعيم بوضوح هذا الشرط، وهو أنه في حال عدم حيازة الاختراع على رخصة يفقد العقد مفعوله ولا يلتزم الزعيم بوضع أي مبلغ من المال ولا يقوم المشروع بالتعاقد. ونزل الزعيم إلى بوانس آيريس ليعرض اللوحات. وقرّرنا الانتقال كلنا إلى توكومان بحيث من الممكن إيجاد عمل في محل مشترك مع جبران إذا لم يتم عمل الصناعة، حسب ما قاله جبران.

وكان الزعيم يفتقر للمال وليس بيده شيء، وقد بحث مع شقيقي جورج في بوانس آيريس إمكانية اقتراض مبلغ للانطلاق ورأى شقيقي أن يقرض الزعيم هذا المبلغ لأن المشروع لا بأس به إذا كان اختراعاً فعلاً. وبعدها وصلت رسائل من جبران يصرّ فيها على الزعيم أخذ محل كان فارغاً وهو بيت كبير ودار متّسعة لأجل الصناعة. وأضاف أن المحل حسن لدرجة ورخيص لدرجة، فإذا كان لا يناسب للصناعة يبقى محلاً يأخذه هو لنفسه. وكان جبران في ذلك الوقت منقسماً عن ابنه أمين في العمل بالمكتبة وبيع الورق والأكياس. وقد فتح لنفسه محلاً صغيراً بدأ بشيء لا يذكر. فوافق الزعيم. وفي هذه الأثناء تابع المراجعة في السجل الحكومي للاختراعات، وقيل له إن الجواب لا يأتي قبل ستة أشهر. وخلال ذلك قام الزعيم بدراسة الآلات التي يجب شراؤها إذا تمّ العمل. وعاد الزعيم إلى توكومان حيث حجز بيتاً في ضواحي البلد، وهو قديم البناء ولكنه كبير جداً وأروقته واسعة وله

حديقة أمام البيت ودار فلاء في الخلف، وحديقة طويلة تطلّ على الشارع المعاكس، فيها أشجار الليمون والمندرين. هناك نصبنا أرجوحة لصفية وعملنا لها حوضاً من الرمال، كانت تمضي وقتها فيه والبهجة بها تغمرنا.

وبعدها وصل أثاث البيت وابتدأنا ترتيبه. ومناخ توكومان حارّ، إذ إنّ هذه الولاية تقع في شمال الأرجنتين وتبعد عن بوانس آيريس ما يقارب العشرين ساعة في القطار. وأشجار ليمون النارنج تملأ شوارعها، وفي فصل الربيع تعبق رائحة الزهر وتملأ الجو انتعاشاً. والرطوبة فيها خفيفة لهذا كنا نتحمّل حرارتها التي كانت تصل أيام الصيف إلى 44 درجة.

وبينما نحن في هذا الترتيب يغادر جبران مسّوح توكومان ذاهباً إلى بوانس آيريس لشراء بضاعة لمحلّه. بعد أيام تصل الشحنة باسم الزعيم والفواتير للدفع، فاستغرب الزعيم هذا التصرّف من جبران، خصوصاً وهو يعرف أنّ ما لديه من المال هو قرض من شقيقي، وقد ذهب قسم منه للإيجار ودفع التأمينات للماكينات. وعندما عاد جبران إلى توكومان فاتحه الزعيم بهذا التصرّف دون مشاورته. فأجابه جبران مسّوح «الأب الحنون»: «لا تخف، لا تخف فمحلي ليس لي بل لكم وإذا نجح هو لكم وأنا لا أريد لنفسي شيئاً سوى راحتكم». فقال الزعيم له: «ولكن ليس بهذه الفوضى ودون علمي ووضعي أمام الأمر الواقع، ولماذا ترسل البضاعة باسمي والفاتورة للدفع طالما أنك زبون هذه المصانع ولك معهم حساب جارٍ قديم»؟ فما كان من جبران إلاّ أن ضحك وقال: «هذا ما أفعله أيضاً شغل مفيد وسيكون لكم، وأنا مديون لكم بحياتي».

وبعد أيام جاء وإبراهيم الكردي يسأل الزعيم إذا كان أحضر معه تسجيل الاختراع. فأجابه الزعيم ليس بهذه السرعة تتم المعاملات الحكومية، ولا التسجيل، وإن شقيقي جورج سيلاحق الموضوع عن طريق مدير السجلّ الذي يسكن قرب محل جورج. فراح الكردي يسير ذهاباً وإياباً وهو يقول غير معقول هذا التأخير، وإنه سينزل بنفسه إلى بوانس آيريس ويستخبر. (وكان بعض أفراد الجالية

المتحمسين ضد الزعيم يضحكون على إبراهيم ويقولون لقد حصل الزعيم على الامتياز وأبقاه لنفسه).

وكان لجبران مسّوح موقف غير واضح، ومع أنه فهم من الزعيم أنه لا يريد متابعة الترتيبات قبل وصول الجواب، وأنه ليس سهلاً الحصول على الجواب بسرعة، فقد كان يلتقي بإبراهيم ويحمّسه ويقول له لو كان الزعيم يريد لَبَدأ العمل وسار التوزيع، ولو كان غير الزعيم لمشي المعمل. وإبراهيم الكردي رجل أُمّي إنما كان يعمل في البناء وقد حصل على تركيبات، ظهر بعد ذلك في سجل الامتيازات أنها ليست مواد غريبة ولا تسمّى اختراعاً إذا أضيف للإسمنت مواد جديدة، وقد يسجل كل يوم طلب اختراع بعد إضافة مواد فوق مواد مع الإسمنت. وبينما الزعيم بانتظار الجواب وهو يدفع لإبراهيم الكردي مساعدة شهرية حتى يأتي البتّ، ويدعه يسكن المحل المحجوز للعمل، كان جبران يعرض على الزعيم توسيع المكتبة والاشتراك معي في المحل. وفي آخر مرة ذهب فيها الزعيم إلى بوانس آيريس عرف بطريقة خاصة من نفس المدير وبواسطة شقيقي جورج أن هذه المواد لا تعتبر اختراعاً إذا أضيف للإسمنت مواد جديدة. وعاد الزعيم إلى توكومان ليُعلم إبراهيم أن لا اختراع، وبالتالي فإنه لن يتابع العمل، وحسب التعاقد يصبح الزعيم متحرّراً من الشركة فيعيد الآلة التي أتت أولاً ويسلّم المحل حيث كان من المقرر إقامة المصنع ويدع إبراهيم حرّاً وشأنه.

وكنت في ذلك الوقت ابتدأت العمل في المكتبة مع جبران، ولم يكن فيها من البضاعة أكثر مما دفعناه عندما أرسل للزعيم تلك الفاتورة وكان هذا على أساس أن يكون الإنتاج لنا وله متساوياً، وبالتفاهم على هذا المبدأ مع جبران بدأت عملي يومياً منذ الصباح حتى المساء.

وكان في توكومان من يحرّض الكردي على إقامة دعوى ضدّ الزعيم ويقولون له إنه إذا عرف أنك سترفع عليه دعوى فسيدفع لك مبلغاً من المال بسبب خوفه من الدعوى.

عندما عاد جبران من بوانس آيريس وبعد أن أرسل الشحنة ومعها فاتورة الدفع باسم الزعيم، قال إن العمل سينجح وإنه سيُري ابنه وعائلته من هو جبران بالفعل، وأنه مستعدّ لأن يضع كل المحل تحت تصرّف الزعيم. فقال له الزعيم إذا كان من الممكن أن يتم العمل في المكتبة سوياً فلنعقد شركة ونحن نضع الرأسمال وتعمل زوجتي معك وتكون الأرباح بالتساوي. وحوّل الزعيم كل ما بقي معه لشراء لوازم لتجهيز المكتبة، وخصصت كل وقتي للعمل معه، وكنت يومها حاملاً بالحبيبة أليسار. وكان جبران يسكن في غرفة داخلية في المحل ولم يدعني أستلم الصندوق، وكان يتصرّف هو بكل شيء، القبض والدفع والمبيع والمشترى. وبعد مرور مدة من دون أن يذكر جبران العقد الذي عليه توقيعه، واستمرّ العمل باسمه وحده، دعاه الزعيم للإسراع بإعلان الشركة وتوقيع التعاقد حتى لا يذهب تعبنا أدراج الرياح، وكان جوابه دوماً دعنا نفكّر. ولكن الزعيم وضع أمامه صكّ العقد وطلب منه قراءته والعودة إلى الزعيم، فضاق صدر جبران من ملاحقة ما يريد التهرّب منه وأجاب بغضب: «تريد أن تكون شريكاً وعليك دعوى في المحكمة ألا تعرف أنها نقطة سوداء في سجلّ المصانع؟» فقال له الزعيم ستكون باسم زوجتي، وأجاب جبران كالعادة: سنرى، سنرى لا تسرع، لماذا أنت خائف وأنا لا أريد غير خدمة زعيمي وأن أكون عند قدميه. فاشمأزّت نفس الزعيم من هذا القول وأجاب لا يا جبران أنا لا أريد رفيقي أن يكون عند قدميّ بل أن يكون على رجليه بقربي مرفوع الرأس لأنني أريده شريفاً فخوراً. ومع كل هذا لم يتمّ ما قاله الزعيم له ولم يوقع على العقد. وأخيراً اضطر الزعيم إلى استدعاء كاتب قانوني فوقع جبران بالإكراه وأخذ الزعيم نسخة لتسجيلها.

هنا بدأت تصرّفات جبران السيئة تجاه الزعيم وزوجته، وبعد مرور أشهر وجبران واضع يده على الدخل والصرف، يبيع ما يريد مثلما يريد دون الرجوع لأحدنا، ودون معرفة ماذا قبض وماذا دخل إلى الصندوق، ورغم أننا لم نأخذ من المحل أي مصروف وكان قد تمّ الاتفاق على هذا حتى يصبح العمل أوسع، فما كان علينا أمام هذا التصرّف إلا الشعور بأن المحل بات تحت عجز. وبعد أشهر أخرى

طلب الزعيم من جبران أن يتم الإحصاء لمعرفة ماذا يجري في المحل، وهذا بعد أن حدثت مشادّات كثيرة بين الزعيم وجبران الذي كان قد أخذ مبلغاً من الزعيم لفتح حساب في البنك باسم الشركة فوضعه باسمه الشخصي وعاد إلى المحل وكأن المال خاصّ به، وطلب الزعيم منه حينذاك دفتر الوصولات أو الشيكات وكان اسم جبران وحده مسجلاً عليها.

وعندما طلب الزعيم تقييم المحل جنّ جنون جبران وبدأ يقول بعصبية: أنا لم أر في حياتي مثل هذا، هذه ليست تجارة، وهل توضع موازنة بعد ستة أشهر؟ فردّ عليه الزعيم، وقد كان متألماً جداً لشكوكه بهذا الرجل الذي وضع ثقته به ورفعه باحترام وتقدير وقدّم له ما لديه للسير معه، فإذا به أمام رجل يريد خرابه. ولم أر الزعيم منفعلاً مثل ذاك الانفعال حين صرخ بجبران «إقعد وسجّل في الدفاتر ما أقرأ عليك من موجودات، أو اصعد واحص البضاعة كي أكتب أنا». وأقفل الزعيم أبواب المحل. وقمت أنا بالمساعدة، مرات أسجّل ومرّات أحصي. لكن جبران لم يتابع هذا العمل وقفز من مكانه وأراد الخروج من المحل، لكن الزعيم أمسك به وشدّه إلى موضعه وقال له: «بل سجّل بيدك ما يوجد في هذا المحل حتى لا تهرب من الواقع وتنكر هذه النتيجة». وعاد جبران إلى الدفاتر وهو يتمتم وأنا والزعيم صامتان نعدّ ونقرأ عليه. وبعد أن حلّ المساء خرج جبران، وعند وصوله إلى الباب قال أنا ذاهب ولن أعود لأنني لا أجد حاجة لهذا العمل الجنوني. وهكذا بقي قسم صغير من البضاعة تابعنا تسجيلها نحن وقمنا بجمع البضاعة والأسعار، ووضعنا الفواتير الكثيرة أمامنا، وقضينا وقتاً طويلاً في مقارنة الداخل والخارج. وكانت النتيجة أفظع مما توقعتها أنا. ففهمت سرّ تهرّب جبران من الواقع وأدركت معنى حركاته الخفيفة والفرديّة. وشعرت بطعنة خنجر أتلقاها في ظهري. هذا الإنسان الذي كنا له لهفة وحناناً وصدقاً ومحبة، يشوّه هذه الصورة لقاء دراهم؟ وهو في عقده السابع؟ نعم، لم يرد التعرّف على هذه الخسارة وهو الوحيد الذي كان يدير سياسة المحل، عدا عن القبض والدفع. لم يرد أن تبقى عليه هذه التهمة وهذا الإفلاس، فذهب يقول إن الخسارة وقعت بسبب جهلنا التجارة، وكان يضيف متهجماً

«أزعيم هو أم تاجر؟» وقال هذه العبارة لي مرة وأنه سمعها من أحد المواطنين. وأذكر أنني أجبته والغيظ يمزقني من جراء الموقف الذي هو سببه: لا ليس الزعيم تاجراً لكنه يستطيع أن يكون أكبر تاجر، ولكن هذا الرجل حمل أمّته في صدره منذ أن وعى، وهو في صراع مستمر مع الحياة ومع الفئات، واليوم إذا قام الزعيم بهذا العمل أو غيره فليس إلاّ بسبب أمّته ليستطيع خدمتها أكثر فأكثر، فليس لنفسه ولا لراحته يدخل الزعيم هذا المعترك مع فئات مهدورة كرامتها وأراد إنقاذها وأبت إلاّ أن تشدّه إلى حيث هي ويأبى إلاّ أن يشدّها إلى حيث هو. وقلت لجبران: قل لهؤلاء إنهم الآن مسيحيون ومحمديون، بعد أن صلب المسيح وتحمّل النبي محمد العذاب الشديد على رغم ما كانا يحملان في قلبيهما من محبة وأنوار.

وانتهت المعركة داخل المحل مع جبران الذي تابع المعركة خارج المحل. وكان علينا أن نعوّض ما فقدناه لردّه لشقيقي، ولم يرد الزعيم متابعة عمل تجاري هناك وهو بأشد الشوق للعودة إلى الوطن وكنا نترقّب من حين لآخر نهاية الحرب العالمية الثانية وقد بدأت بوادر الانكسار الهتلري، تلك الحرب التي كانت سبب بقائه في الغربة. ولكن نشاطنا في العمل وشعورنا بالمسؤولية التي وقعت علينا جعلانا نعمل بكل قوتنا لنصارع ذاك الجوّ المشحون ونخرج منه ظافرين.

تلك الأيام المشؤومة، تلك الذكريات المؤلمة، هي صفحات في تاريخ حياة الزعيم وما عاناه من صراع مرير مع جماعة أراد لهم العزّ والكرامة وأرادوا له الذل والعار. وفي كل صراع كان الزعيم يخرج وهالة الانتصار على جبينه، وهذه المرة مثل غيرها. وكانت هذه الأحداث المؤلمة في الصراع والانتصار تجمعنا وتقرّبنا إلى بعضنا ولم أعد أعرف نفسي إلاّ من خلال نفسه، فوقفت إلى جانبه أحارب الباطل بعزيمة وإيمان حتى تغلّبت إلى حد بعيد على أنانيتي ومطالبي الخاصة وشعرت بسعادة التخطّي إلى عتبة الجهاد أستمدّ بقربه كل قدوة لتمكنني من الانتصار على الصعوبات، وعملت ليلاً ونهاراً غير مبالية بشيء سوى الانتصار على تلك المرحلة الصعبة.

وأتت والدتي من بوانس آيريس لترافقني في آخر مراحل الحمل وفي 16 تشرين الثاني 1944 ولـ دت أليسار في توكومان. وثالث يوم ولادتها خرجت وإياها من المستشفى وذهبت إلى المحل لأنه كان على الزعيم حضور جلسة فاصلة في دعوى الكردي، ولم يكن له معين غيري. وتابعت وأنا أحمل طفلتي وأسير من البيت إلى المحل ذهاباً وإياباً كي أعاونه في العمل ولكي أرضع ابنتي وأنا في العمل.

واضطرّ الزعيم للسفر إلى بوانس آيريس لزيارة المعامل التي فتحت لنا حساباً جارياً غير محدود بسبب حسن معاملتنا معها ورواج كميات تزداد يوماً بعد يوم. وهكذا نقلت من البيت بعض الأثاث إلى المحل، أي غرفة النوم، ووضعنا حاجزاً من الخشب في دار المحل للمطبخ، وبقيت مع ابنتيّ أشرف عليهما وأنا منصبّة على العمل في المكتبة. أقفلنا ذاك البيت الجميل البهيج وتركنا حديقته وألعاب صفيّة وأكثر الأثاث والأمتعة فيه. وكي يتبين مدى الصبر والتحمّل في تلك الظروف، فقد فاجأني موظف المحل الذي كان ينقل الطلبيات بأنه ترك ولم يعد، والخادمة في البيت فعلت كذلك، ومرضت صفية ثم أليسار، وأصبت أنا بالديزنتيريا وحالة الإعياء والحرارة المرتفعة ترافقني. لكنني لا أستطيع التوقف عن العمل وأنا وحدي، ولا أستطيع النوم والراحة وكثرت المطاليب للعناية بأطفالي وكنت أسير وكأنني في حلم لا أدري ماذا أنا فاعلة، والحرّ في توكومان على أشدّه. وكنت أكتب للزعيم ولا أُعلِمه بشيء حتى يستطيع إنهاء أعماله. هذا ومرارة الخيانة تأتي إلى ذاكرتي! وما أكره الخيانة وما أجبن الخائن لأن رصيده لا يدوم.

وبعد كل هذا ولمعرفة مدى الصبر، يأتيني تلفون من سمّان جارنا في الحيّ الآخر ليقول لي: إن البيت سُرق والشرطة فيه. فأقفلت المحل واصطحبت طفلتيّ وكان الوقت مساء ودخلت البيت ولم يكن فيه أحد لا شرطة ولا جيران. وفحصت الأبواب فوجدت بعضها مفتوحاً ولكنها تعود للغرف الخارجية أي غرفة التموين والمطبخ، ولم ينجح اللصوص في محاولتهم فتح الأبواب الأخرى حيث الثياب والبياض والفضيات وكل شيء خفيف وثمين. وعلمت أن أحد أولاد الجيران صعد على سلم في داره ورأى مجهولين يقفزون فوق الحائط الآخر إلى البيت فأوعز لأمه وهذه

اتصلت بالبوليس الذي ما إن جاء حتى كان هؤلاء قد فرّوا حاملين بعض الأشياء البسيطة. أقفلت وعدت إلى المحل الذي أصبح بيتنا، وكلّفت الجيران بالمراقبة وجلبت معي ما استطعت من أمتعة خفيفة. وعاد الزعيم إلى توكومان، فشعرت بارتياح وسرور، إذ لم أعد أستطيع البقاء وهو بعيد عني، ونفسي قلقة على المصير.

كان من الضروري وجود بيت قرب المحل. بحثنا عنه كثيراً ولم نجد سوى بناء شبيه ببيت، شبيه بمحل. أكل الدهر عليه وشرب. أرضه من حجارة القرميد، سقفه من عوارض الخشب وفوقها خام مكلّس وفوق هذه عشعشت الخفافيش والجرذان. حمّامه ومطبخه دون باب ولا نوافذ. كل شيء فيه كان يدل على العدم والفناء، مهجور من زمن. ولكنه يبعد عن المكتبة خطوات، فقررنا أخذه وتصليح ما أمكن والسكن فيه. دخلناه وفي أنفسنا عزيمة الصراع من أجل الحقّ، بهذا المقياس كنا نرى كل شيء حولنا مريحاً وجيّداً، حتى تغلّبنا على الخفافيش والجرذان التي كانت تساكننا في البيت. وبعد فترة استطعنا طردها نهائياً. وكان الصراع مع هذه الخفافيش والجرذان يؤدي إلى سهر الليالي نقوم بالحملة عليها حين يعتم البيت ونأوي إلى فراشنا. فتدخل الخفافيش أفواجاً أفواجاً وتطوف في الغرفة تارة عالياً وتارة قرب رؤوسنا. فننهض بسرعة ونقفل الأبواب ونضيء الأنوار. فتتخبط الخفافيش في طيرانها فأرمي بها بالوسادة حتى تهبط إلى قربنا والزعيم يبادرها بضربة من عصاه وكأنه يلعب لعبة الكريكت فتموت الواحدة تلو الأخرى.. ونعود للنوم، لكن الحرّ لا يسمح بإقفال الأبواب، فيدخل فوج جديد وهكذا نكرّر العملية في كل ليلة حتى الفجر. وتبقى عملية الجرذان، فنصطادها بالأفخاخ.. وبين طقطقة الفخ وقتل الخفافيش كان الليل يمضي ورصيد العمل تخفيف هذه البلوة المزعجة المضرّة.. وما أكره الخفافيش، رائحتها تفح وتملأ الدار بكراهية. وما أشبهها ببعض الناس، إنها حيوان مشوّه بأجنحة، وطير مشوّه بجسم حيوان. وعندما تتكاثر وتعيش مع الجرذان ويحتل الطرفان سقف البيت، ويكون السقف من قماش الخام المدهون بالكلس.. فهناك العراك في الليل بين جرذان منتصبة بأجنحة وجرذان متمدّدة بأذيال طويلة. وقد يكون الصراع بينها على فريسة جلبها أحدها وأراد

الآخر اغتصابها. فكان الصراع يستمر فوق السقف المصنوع من الخام، وكأنها تتساقط على رؤوسنا.

هذه الحالة دامت اشهراً. ولم يكن عملنا في المكتبة أخفّ من هذا وكان علينا أن نسرع في الليل إلى المكتبة، التي أسماها الزعيم مكتبة «صور» فهي مبنى عتيق، وفي توكومان بيوت كثيرة قديمة جدّاً، وقد كان لهذه المدينة تاريخ بتقرير مصير الأرجنتين برجالاتها العظماء، وبقي هذا البناء خلال مئات السنين، فكانت سقوفها المشققة ووضعها الهزيل تؤدي إلى دلف الماء إلى الداخل حين تمطر. والمطر يعطّل علينا كميّات كبيرة من الورق. ولم يكن سهلاً الاستغناء عن هذه المحلات لأنها تقع في أهم شوارع توكومان ولأنها رخيصة.. فكنا ننهض في الليالي الممطرة لتفقّد الورق واحتمال هبوط الماء إلى الداخل، وكنا ننقل أنا والزعيم الورق والكرتون والأكياس وما شابه من بضاعة معرّضة للتلف. ونعود وقوانا مهدودة من هذا العمل الشاقّ.

وقد رأى الزعيم أن يتولّى هو قسطاً من نقل البضاعة إلى الزبائن وذلك عندما يترك العامل عمله. وكان العمال في تلك المنطقة، نساء ورجالاً، لا يبالون بعملهم لا بنشاط ولا باستمرار، وكنا نحسب دوماً حساباً لهذه الطوارئ فنعتمد على أنفسنا. وكان يضع البضاعة على الدراجة ويذهب إلى توزيعها حسب الطلب، وكأنه موظّف عادي، ولم يكن يلاقي في طلعته وفي عمله هذا إلاّ التقدير والاحترام من هؤلاء الذين كانوا يحتكّون به بهذه الطريقة أو من خلال معاملاتهم معنا مباشرة في المكتبة. ونجح العمل أكثر مما كنّا نترقّبه، وأصبح للمكتبة زبائن يأمّونها من كل الضواحي، وكثرت الطلبيات وزاد العمل لدرجة أننا أخذنا موظفين للبيع وعاملات للأكياس. وتكدّست البضاعة وتعددت أصنافها، وأصبح جميع ممثلي شركات الورق يزوروننا ليعرضوا علينا إنتاجهم بكل التسهيلات للدفع، حتى قرّرنا الانتقال إلى محل أوسع ما دامت الحرب قائمة ولا مجال للعودة إلى الوطن في تلك الظروف. وكنا نبحث عن محل جديد عندما أُعلنت بوادر وقف النار في الجبهات. ولم تتدخل أميركا الجنوبية في تلك الحرب وخصوصاً الأرجنتين لذلك لم تتزعزع

اقتصاديات البلاد بل كانت لحومات الأرجنتين المشهورة مرغوبة في بلاد كثيرة وكان القسم الأكبر من هذا الإنتاج يذهب إلى إنكلترا.

ومن حين لآخر كان على الزعيم أن يقصد المعامل في بوانس آيريس ويرى الإمكانيات الأبعد للتوسع في العمل. وقد قرر الزعيم طلب كميات كبيرة رأساً من أسوج لأن وضع العمل في المكتبة كان يشجّع على هذه الخطوة.

وبين البيت والأطفال والعمل قرب الزعيم كانت لي سلوة كبيرة بمشاركتي إياه كل أموره. ورغم تراكم العمل والصراع في أوساط توكومان وخارج البلاد، كان على الزعيم الاستمرار في التنظيم الحزبي والعقائدي والفكري وتحرير **الزوبعة**. كنا نرى في انتصارنا وتغلبنا على المفاسد مهمّة كانت تأتينا بالنتائج المرغوبة. وكانت صغيرتانا صفية وأليسار تكبران وهما محاطتان بحناننا وحبّنا. وحدث في المرحلة الأخيرة بعد أن انتصرنا على الأوضاع المادية في المكتبة أننا بدأنا نفكّر أن هناك في توكومان طبيعة وكنا قد نسينا ألوانها وبهجتها، وأن هناك مؤسسات للموسيقى وحفلات كونسرت. وكنا نحن الاثنان نرغب ونحب الموسيقى وكان للزعيم تعمّق بمتابعتها، والتمتع بها إلى أقصى الدرجات. فحضرنا حفلات عديدة وقد اشتركنا في تلك المؤسسة لحضور حفلات تحييها كل أسبوعين وكنا نصطحب معنا صفية وكان عمرها بين الأربع أو الخمس سنوات وكانت تجلس قرب الزعيم تتابع بلذّة الاستماع للموسيقى الكلاسيكية. وما كان يدهشني هو تحمّلها الجلوس طويلاً دون الضجر أو التحرك.

وهكذا ابتدأنا نقطف من ثمار أتعابنا ماديّاً في المكتبة وسعادة في جو العائلة. أما أيام العطلة فكانت أكثرها للعمل في التحرير والكتابة والمراسلات الحزبيّة والعقائديّة خصوصاً في الليل بعد أن ينتهي العمل في المكتبة ونعود إلى بيتنا وأطفالنا والموسيقى المحببة لقلب الزعيم على الراديو. كنا نجلس لساعات في هدوء الليل، أنا منصبّة على ترتيب ما لدي من ثياب للأطفال ولنا، وهو يكتب وأنغام الموسيقى تزيل عنّا عناء التعب في النهار.

الفصل السابع

قرّر الزعيم العودة إلى الوطن وكنا لا نزال في ولاية توكومان. فكتب إلى المسؤولين في لبنان عن رغبته الملحّة في العودة سريعاً قبل بدء الانتخابات النيابية، ولكن لم يأته جواب على هذه الرسالة فقرّر أن يتخذ الإجراءات اللازمة بنفسه. وبعد أن رفضت السفارة اللبنانية طلبه في بوانس آيريس، سافر الزعيم إلى البرازيل وهناك استطاع مع رفقائه أن يحصل على التأشيرة. ومن البرازيل سافر إلى الوطن مارّاً بطريقه على القاهرة حيث مكث فيها أياماً قليلة. وقد استقبله هناك نعمة ثابت ومأمون أياس وأسد الأشقر، وربما كان يوجد غيرهم من القوميين مع الوفد الذي استقبل الزعيم، وهذا ما علمته عند التحاقي بالزعيم في لبنان بعد سبعة أشهر.

في سنة 1946 أخذ الزعيم يفكّر بأنه آن الأوان للعودة إلى الوطن بعد أن انتهت الحرب ورواسبها الظالمة، فبدأ يكتب إلى المسؤولين في «عبر الحدود» علماً بأن الاتصال مع الوطن لم يكن كما أراده الزعيم، في حين استمر الاتصال مع فروع الحزب في المهاجر مثل أميركا الشمالية وأفريقيا. وكانت تصل إلى الزعيم في توكومان نسخ من الكتب والمطبوعات الحزبية، وكان يفاجأ بما تحتويه من أخطاء في صميم العقيدة، ومغالطات في الصلاحيات والمفاهيم الإدارية والتوجيهية. وهذا ما سبّب للزعيم قلقاً على مصير الحركة، وأصبحت العودة بأسرع وقت من الأمور الملحّة جداً بالنسبة له.

ومضت أشهر من المراسلات حتى عُيِّن أخيراً موعد السفر إلى الوطن. خلال هذا الوقت كان علينا بيع المحل وتسليمه كما هو لمن يرغب. ووجدنا من يشتريه،

وكان شخصاً أرجنتينيّاً متقدماً في السن أراد أن لا يقضي بقية حياته متقاعداً دون عمل. وأخذنا نحصي الموجودات معه، وحسب أسعار الفواتير نسجّل ما في المحل. وقد بقي الزعيم بعد الموازنة يرافقه ساعات حتى يدرّبه على العمل والزبائن والطلبات، وكان رجلاً نزيهاً طيب الأخلاق فلم يعترض بل كان ممتناً لما نعمل لمساعدته. وعليّ أن أقول بفخر واعتزاز أننا انتصرنا في تلك المعركة التجارية لا بل الأخلاقية، وبرهن الزعيم عن مقدرته حتى في هذا الحقل الغريب عنه. وخرجنا بعد سنوات ثلاث بأن استعدنا الرأسمال وربحنا فوق هذا مبلغاً صغيراً بعد مصاريفنا كلها.

ولكن حادثاً مشؤوماً كان ينتظر خاتمة إقامتنا في تلك الديار، ديار توكومان. فبينما نحن نوضب الأثاث لنقله إلى بوانس آيريس محفوظاً في صناديق خشبية، وبينما العمال يقومون بنقل عوارض الخشب من الشاحنة إلى البيت والأبواب كلها مفتوحة على الشارع، كنت أنا في غرفة النوم أضع البياضات في الصناديق والخادمة تعتني بأليسار وكان عمرها سنتين، وصفية تلعب مع أولاد الجيران أمام بيتنا.. إذ بصراخ يصل إليّ من الشارع ظننته في بادئ الأمر هياص الأطفال. وما كدت أقف في باب الشارع حتى رأيت صفية راكضة نحوي والرعب في عينيها وهي تبكي وتصرخ: ماما ماما السيارة قتلت أليسار! وأنظر إلى وسط الشارع فإذ بأليسار منطوية ورأسها على ركبتيها والجميع بعيد عنها لا أحد يجرؤ على الاقتراب منها.

من يستطيع أن يصوّر الآلام في تلك الساعة؟ صرخت ولم أعِ إلاّ أنني أحمل ابنتي وهي فاقدة الوعي، وجهها وثيابها ملطّخة بالدماء وعيناها متورمتان.. وأنا أحملها وكأنني أحمل جثة ابنتي، قطعة من قلبي إلى مدفن الحياة. فستانها كان جديداً تلبسه لأول مرة، ظهرت فيه وكأنها لعبة تملأ نظرنا بهجة وفرحاً والآن أصبح عليها وكأنه ثوب الموت الملطخ بالدماء. ولم أستطع السير أكثر من الباب فقعدت على الأرض وهي في حضني. وكان الزعيم عند زاوية الشارع مع بعض الرفقاء في المكتبة يُعدّ بعض الصناديق لحفظ الكتب ونقلها إلى بوانس آيريس. وكان ضيفنا في ذاك الوقت نعمان ضو من ولاية سان خوان. وما كادوا يرون ما

جرى حتى ركضوا جميعهم لعندي، وأخذ بعضهم الهاتف ليستدعي الإسعاف، والآخر ليطلب طبيب الأطفال. وفي هذه الأثناء عاد إلينا سائق السيارة التي دهستها، وكان رجلاً مسناً بصحبة ابنته فنقلناها بسيارته حتى الإسعاف.

على الطريق، وحتى وصولنا إلى الإسعاف، لم تبدر من أليسار أية علامة حياة. وبعد الفحص في الإسعاف قالوا خذوها إلى مستشفى الأطفال تحت المراقبة فربما كان هناك كسر في الجمجمة. وخلال نقلها صدر عنها صوت صغير، صوت ألم كان كافياً ليعود إليّ أمل الحياة. وضعوها في السيارة لنقلها بسرعة ولكنني لم أستطع السير. وعرفت كيف يصاب الإنسان بالشلل من جراء حادث عاطفي كهذا. ولم تقوَ رجلاي على الوقوف ولا السير، وأصبحتا دون أعصاب تُسيّرهما. ولم يشعر أحد بي وسبقوني، فنهضت وبدأت الإيعاز لرجليّ أن تتحركا من الخصر دون أن تتحرك ركبتاي فأزحف يميناً ويساراً حتى وصلت الدرج، وأتى البواب يساعدني للنزول إلى الشارع وكانوا كلهم في السيارات للذهاب إلى مستشفى الأطفال.

عندما وصلنا مستشفى الأطفال فحصتها الطبيبة وقالت: فقط الهدوء والمراقبة، أبقوها حتى الغد. سألتها إذا كنت أستطيع البقاء معها، فقالت كلاّ. رفضتُ إبقاءها هناك وذهبنا بها إلى البيت كي أراقبها أنا. ثم دعونا طبيبها الذي كان قد عاد من الضواحي، وبعد أن فحصها شكّ بأن يكون حدث من جرّاء الصدمة كسر في الجمجمة، ونصحنا بنقلها بكل دقة إلى مصحّ خصوصي عائد لطبيب اختصاصي في الكسور والأمراض العظمية. ونقلناها على فراشها الصغير حتى لا نحرّكها كثيراً. وعند الساعة العاشرة مساء دخلت المستشفى تحت المراقبة وبقيت والزعيم قربها نتحسس نبضها وأنفاسها، وهي لا تعي أي شيء. لا نسمع تنفّسها إلاّ قليلاً ولكن نبضها كان بين أصابعنا نتحسسه ليكون الدليل الوحيد على وجود حياة في ذلك الجسد الصغير. نبضها السريع طمأنني من ناحية احتمال وجود كسر في جمجمة الرأس، فقد شاهدت في الأحداث المشابهة وعندما يكون هناك كسر في الجمجمة أن النبض غالباً ما يكون بطيئاً لأن الدماء في الدماغ تُحدث ضغطاً على الجهاز العصبي فيصبح النبض بطيئاً. كنت أعلل نفسي بهذه الفكرة،

وأضع وجهي قرب فمها لأشعر بأنفاسها من حين لآخر فكنت أحسّ مرات بنَفَسها ومرات بانقطاع هذا النَّفَس، وفي فجر اليوم التالي نادت بصوت خافت بابا ، واقترب الزعيم منها ولدهشتي حدّثته، فسألها أبوها ما بها، قالت عندي واوا وقال لها من أين هذا الواوا، قالت من السيارة الرديئة. وكان اغتباطي بهذا الوعي لأنه أزال قلقي من احتمال حدوث تحطّم في جمجمتها. وبعد ساعات وصل الطبيب ونقلها إلى الأشعة وهناك سحب صوراً للراس والجسم كله، ولم يعد هناك شك في أنها خالية من أي إصابة، ولكن وجهها كان متورّماً لدرجة كبيرة، والازرقاق تحت العينين اللتين اختفتا بسبب الورم مخيفاً، وذلك يعود إلى الصدمة التي تلقّتها من ضربة رفراف السيارة التي كانت تسير ببطء مما سبب طرحها على الأرض والمرور فوقها وهي بين الدولاب والدولاب. أما الحادث فقد وقع على الشكل التالي: عندما تسلّمت الخادمة أليسار تركتها في الدار تلعب وذهبت لتعد لها الحليب، فمشت أليسار حتى الباب الأمامي حيث كان العمال يُدخلون الخشب لصنع الصناديق لحفظ الأثاث، ولأول مرة ترى نفسها في الشارع لا تدري من مخاطره شيئاً ، ومشت لتصل إلى الرصيف الأمامي حيث كانت صفية تلعب مع صديقاتها. وفي تلك اللحظة كانت السيارة المذكورة تمر، وقد قال السائق إنه لصغرها لم يرها وتابع سيره إلى الأمام دون أن يدري بأنه صدم طفلة إلى أن صرخ به صاحب كراج قريب من الحادث كان شاهدها تقع تحت السيارة.

وبعد أيام خرجنا بها من المصحّ وكأننا، هي ونحن، نعود من الموت إلى الحياة، وأخذت تسترجع حالتها الطبيعية تدريجياً. وكان هذا آخر سجل كريه عشناه في توكومان، ثم نزلنا إلى بوانس آيريس في شهر كانون الأول 1946.

بعد أن قرر الزعيم العودة إلى الوطن، تقرر أن أسافر أنا بعده بصحبة صفية وأليسار لأنه كان مصرّاً على أن يصل لبنان قبل بدء الانتخابات النيابية، ولم يبق حتى ذلك التاريخ وقت كاف نستطيع خلاله تصفية الأعمال في الأرجنتين وكذلك الأمور المتعلقة بأثاث البيت والمعاملات الحكومية اللازمة لسفرنا كلنا، وشراء المستلزمات، وغير ذلك من أمور مطلوبة قبل السفر.

أذكر هذا الحادث في هذه المذكرات لأنه مرتبط بمأساة حوادث توكومان وجبران مسّوح الذي كان سبب شقائنا هناك، ولأننا استطعنا التغلّب على حيله وفضح خيانته. وقد تمكنّا من إعادة رأس المال المسروق بعد العمل المرير في المحلّ وردّه لشقيقي جورج. وكدنا نترك وراءنا ذلك الجو المشحون بالأوحال لنفاجأ بأن المأساة كادت تتكلل بمأساة أكبر لو أن الحادث مع أليسار أسفر عن خسارتنا إياها. وأضيف أن ضمير جبران في ذلك الحين كان جهنمياً لدرجة أنه لم يتحرك إلا ليقول إن هذا الحادث دليل على استهتار من قبل أمها.

الرجوع إلى بوانس آيريس والتفكير بالعودة إلى الوطن كانا بالنسبة لنا العودة للصراع، ولكنه صراع شريف، صراع مثالي، صراع قضية أمة وحياة أمة. وتركنا الصراع مع الأوحال وراءنا، وكانت خاتمته إنقاذ أليسار من حادث مميت.

سافر الزعيم إلى البرازيل للحصول على التأشيرة من هناك إلى لبنان، وبالفعل حصل عليها ولكن بجهود كثيرة لأن السفارات اللبنانية كلها كانت قد تلقّت تعليمات بأن لا تعطيه تأشيرة على جواز سفره. ولكن الرفقاء بصحبة الزعيم استطاعوا الحصول عليها من القنصل السيد فؤاد لطف الله حينذاك، وبطريقتهم الخاصة التي قد تكون على أساس اسم مجاعص وليس سعاده حسب الاسم الذي كان يحمله حين خروجه من لبنان إلى المهجر.

وكتب لي الزعيم عن موعد سفره من البرازيل إلى الوطن، وأكّد لي أنه فور وصوله سيكتب بسرعة لأطمئن على أوضاعه. ولكن الوقت طال، ومرّ حوالى عشرين يوماً ولم يأت منه أي كتاب. وكنت أنا في حالة قلق شديد لدرجة أنني لم أستطع التكلم مع أحد أو الارتياح لشيء. وبالإضافة إلى قلقي، قرأت في جريدة تصدر من قبل الإرسالية المارونية في بوانس آيريس أن الزعيم «محمد أنطون سعاده» قد اعتقل، ويقال إنه معتصم في الجبال والملاحقة مستمرة حتى وقوعه في يد العدالة، وإنه يعدّ جيشاً ضد لبنان واستقلاله.. وإلى ما هنالك من أوهام لاستغلال الظروف.

بعد العشرين يوماً استلمت منه كتاباً يخبرني فيه أنه كلّف مسؤولين في الحزب كي يكتبوا لي ويطمئنوني وأعطاهم عنواني لهذه الغاية لأن الوقت والملاحقة الشديدة ألزماه الاعتصام في الجبال وإقامة الحراسة الشديدة. لكن أحداً لم يكتب لي، وحين سأل الزعيم ثانية عما إذا كانوا قد كاتبوني وجد أن أحداً لم يهتم بالأمر فقرر الكتابة بنفسه، وكان ذلك الكتاب الذي يشرح فيه الوضع مع الحكومة اللبنانية والانتخابات والملاحقة العنيفة لاعتقاله وتقديره للصف القومي الاجتماعي ووعيه قضيته والدفاع عنها. وفي آخر سطور من الرسالة ذكر لي أن نعمة ثابت ومأمون أياس لم يعودا مخلصين للحركة. وفي نفس الرسالة يطلب مني أن أهيّئ نفسي مع ابنتينا للسفر إليه بسرعة، وإذا أمكن أن أسافر بالطائرة كونها أكثر راحة وتختصر من الوقت ما قد يتعبني مع الأطفال في سفر الباخرة.

كتبت إليه أسأله عما إذا كان يريدني أن أترك أثاث البيت للبيع أم آخذه معي، لأنني لم أكن أعلم شيئاً عن موضوع السكن وفي أي مكان هو، وما إذا كان مؤقتاً. أم هل من الأفضل أن أصحب معي كل الأثاث، وهو غال عليّ من حيث أنه قطع اخترناها سويّاً وكانت ترمز لنا أشياء في بداية حياتنا البيتية. أجابني على هذه الرسالة وهو يلحّ عليّ بأن أسرع بالمجيء وأن أسافر بالطائرة لاختصار الوقت وللراحة، يخبرني عن الأوضاع الحزبية وعن الحكومة وموقفها وعن الانتخابات وتزويرها، ولكن لم يأت على ذكر الأثاث. لهذا قررت بيعه. خصوصاً أن أهلي لم يرضوا بأن أثقل نفسي بكل هذه الأغراض ومعي طفلتان وثلاثة عشر صندوقاً من الكتب وأربعة صناديق من الأواني الصينية والقناديل والثياب والبياضات.

وعندما وصلت إلى لبنان في وقت لاحق وجدت أنه لا فراش ولا كرسيّ ولا شيء لدينا ولم يكن أحد قادر على تأمين شيء لنا، وكل الأسعار نار بسبب الغلاء من جرّاء الحرب العالمية الثانية التي ابتدأت سنة 1939 وانتهت سنة 1945. ولهذا أسفت على ضياع أغراضنا ونحن بأمسّ الحاجة إليها، وعبّرت للزعيم عن أسفي إذ لو كان أجابني على سؤالي من حيث اصطحاب الأثاث لكنت قد علمت ماذا

أفعل. فقال لي الزعيم لقد كلّفت أحد المسؤولين بأن يستخبر إذا كان يصلح جلب الأثاث، وإذا كان في لبنان إمكانية تعويضه لأنه كامل ومريح ومن نوع جيد. وطلب من هذا المسؤول بأن يجيبه في اليوم التالي، ولكن لم يأته بجواب لا في اليوم التالي ولا بعده، لهذا لم يعلّق على سؤالي بشيء بانتظار الجواب من المسؤول والردّ عليّ في رسالة تالية. لكنّ الوقت كان ملحاً ورحلات البواخر قليلة، فقررت البيع بإلحاح من أهلي ولجهلي أوضاع لبنان.

بعد سنوات من ذلك، وأنا أذكر في حديث عابر أسفي لفقدان الأثاث الذي كان في بيتنا في الأرجنتين وأنّه يشكّل بالنسبة لي جزءاً من ذكرياتي وحياتي مع الزعيم، وكان بالإمكان جلب القطع معي فقد كانت جاهزة للشحن، وكان يمكن أن تبقى في بيتنا عزيزة عليّ أنظر إليها كقطع من حياتي معه بعد أن غاب هو عنّا.. إذ بجورج عبد المسيح يقول: نعم لقد كلّفني الزعيم بذلك، ولكنني لم أجد سبباً للجواب لأنني اعتقدت بأنه أثاث خفيف لا يستحقّ نقله! الآن أفكّر، بعد كل تلك السنوات، كم من الأشخاص كانوا يترقّبون القضاء على الزعيم في ذلك الحين، وكم منهم يترقبون اعتقاله. أليس هذا دليلاً على الاستهتار باستقرار الزعيم مع عائلته في بيت في لبنان؟ ألم يعلن نعمة ثابت للزعيم عن عدم رغبته بأخذ بيت للسكن مع العائلة قائلاً إنه من الأفضل أن لا تأتي العائلة إلى هنا؟ ألم يكلّف نعمة ثابت بإرسال كتاب لنا في الأرجنتين بوصول الزعيم.. فلم يفعل؟ وكذلك عدم جواب جورج عبد المسيح من ناحية الأثاث ظنّاً منه بأن الزعيم محاط بمؤامرات قد لا ينجو منها؟ هل الأحداث التي أعقبت استشهاد الزعيم هي التي أدخلت في نفسي هذا الشك الذي قد يكون صحيحاً أو خاطئاً؟

تهيّأنا للسفر وعدنا في الباخرة. ولدى وصولنا إلى جنوى ذهبتُ إلى شخص إيطالي كنت أحمل له هدية من أقربائه في بوانس آيريس، وطلبتُ منه أن يحجز لنا غرفة في فندق نظيف بعد أن يعلمني عن أسعاره. فاهتمّ بالأمر.

في جنوى حجزت بعد مرور عشرة أيام غرفة في باخرة يونانية درجة أولى، وكان سفرنا من أغرب ما يكون: باخرة صغيرة، شروطها غير الشروط المعطاة لنا، الماء والحمامات نادرة، والكل احتجّ على كذبهم. وعند وصولنا إلى بيروت قامت الشكاوى فغرّموهم مبلغاً من المال. ووصلت الباخرة بيروت مساء، ولم يكن المرفأ يستطيع إنزال الركّاب في تلك الساعة المتأخرة فرفض قبطان الباخرة الدخول كي لا يدفع إيجار ليلة في ميناء بيروت. وهكذا قضينا في الباخرة ليلة فوق الحساب ونحن ننظر إلى بيروت وأنوارها تتلألأ في الليل من بعيد، والأضواء منتشرة على جبالها ونحن نحاول معرفة الأماكن والمناطق.. حتى أطل الفجر ووقفت أنا وصفية وأليسار ننتظر بفارغ الصبر تحرك الباخرة. وبعد الثامنة دخلت الباخرة المرفأ، وكنت أنظر إلى المستقبلين دون أن أعرف أحداً منهم. كان هناك جمهور من سيدات ورجال ينظرون إليّ، وإحدى السيدات تحمل باقة من الزهور أنظر إليها وتنظر إليّ دون أن يصدر عنّا أيّ كلام، فأنا فوق، على سطح الباخرة، وهم على رصيف المرفأ.

إنّ في صمتي ألماً وحذراً. غياب الزعيم كان معروف السبب، ولكن ماذا حلّ بالزعيم وأين هو الآن؟

أُجريت المعاملات الأصولية تمهيداً للنزول من الباخرة، وقبل أن نغادرها وبينما صفية وأليسار واقفتان قرب الشريط الذي يطلّ على البحر إذ بحذاء أليسار يقع في الماء فركض أحد الحمّالين في المرفأ وانتشله بواسطة عصاه.

نزلنا الدرج واصطف القوميون وأدّوا التحية، حينئذ عرفتهم وتصافحنا جميعاً. وأذكر أنه كان من بينهم فايز صايغ وجورج عبد المسيح ومارسيل نصّار ونجلاء عجمي. وحمل فايز أليسار بين يديه حتى خرجنا من المرفأ بعد تصريف أغراضنا.

بعد وصولنا إلى بيروت والاستراحة، صعدنا إلى السيارات التي كانت بانتظارنا وانطلقنا نحو الجبال وكانت الدرّاجات أمامنا ووراءنا، فعرفت أن الاستقبال كان رسمياً. ورافقنا في السيارات كل الرفقاء الذين حضروا إلى المرفأ. وصعدنا الجبال نحو ضهور الشوير حيث كان الزعيم معتصماً وتحت الحراسة.

وصلت ضهور الشوير مع صفية وأليسار. وحين توقفت السيارة وقالوا لي هنا مقرّ الزعيم فقد وصلنا، لم أستطع أن أكبت شعوري الذي أخفيته طيلة الوقت منذ نزولنا بيروت وحتى وصولنا الجبل. تركت ورائي حقيبتي وكل ما كان بيدي، خلعت قبّعتي ورميتها في السيارة.. وركضت لأراه، لأراه كما هو، وكيف هو، وماذا ترك فيه من أثر هذا الجهاد والملاحقات الطويلة. ركضت لأقول له في عناق الخائف لا تتركني بعد هذا ولن أتركك. ركضت إليه وكأنني أحسّ أن ما عرفته عن هذا الرجل العظيم صانع التاريخ قد عرفه أعدائي، أعداء أمتي، أعداء أنفسهم، فضاعفوا الجهود ليقضوا عليه. ركضت لأقول له معك حتى النهاية. عناقي له كان شهادة الإخلاص والوفاء.

كان سروره بلقائنا ظاهراً على وجهه، وكان عناقه للأطفال وكأنه عاد إلى الطمأنينة. وبعد إلحاحه علينا للمجيء بسرعة إلى لبنان قبل انقضاء فصل الصيف، تأسّف لأننا تأخّرنا، وكان ذلك من جرّاء انتظار باخرة والعثور على مكان فيها. دخلنا البيت الذي كان مقرّه، وهو بيت جميل يعقوب مجاعص على ما أذكر، استأجره الحزب ليكون مقرّاً للزعيم ويقع في آخر الطريق التي تؤدّي إلى المطلّ، أي الطريق الموصلة إلى العرزال والدير.

بعد إنزال أغراضنا ووضعها في البيت والجلوس معاً في الدار، ابتدأت الوفود تتوالى على المقرّ لتهنئة الزعيم بوصول عائلته. كانت السيارات تنقل الوفود من مختلف أنحاء لبنان، من الجبال المجاورة ومن المناطق البعيدة، ومن كل ناحية وكل صوب. باصات كبيرة ترفع الأعلام الحزبية، والهتافات القومية تنطلق بحماس، والأناشيد تعلو بصوت واحد تاركة وراءها صدى عزيمة القوميين وقوّتهم. كنت أسمع هذا كله وقلبي يهتف معهم. شعرت وفهمت ما حرّكته رسالة سعاده في وجدان الشعب من إيمان في نفوسهم وقوة في عزيمتهم. ومضت أسابيع على هذا البرنامج. وكان الزعيم في بعض الليالي يتوارى عن البيت، لكن المراقبة والحراسة كانتا دائمتين. كنا في بعض الأحيان نخرج سويّاً إلى سهرات راكبين الجيب وبصحبة الحرس. وفي بعض الأمسيات نتمشى في طريق العرزال على ضوء القمر.

وكنت أصادف بين وقت وآخر زيارات لبعض الشخصيات السياسية لم أعد أذكر أسماءها، وكان محور الحديث دوماً مذكرة التوقيف وسحبها. وكنت أفهم من الزعيم أن الحكومة مستعدّة للتفاوض معه وسحب المذكّرة، ولكن يبقى هذا الموضوع رهن الخطوات التي يتخذها كل جانب. فكانت السلطات تطلب من الزعيم الذهاب إلى دوائر الأمن ومقابلة المسؤولين هناك، في حين كان الزعيم يصرّ على البروتوكول اللازم ويرفض أن تكون الخطوة من جهته بينما الحكومة هي التي عرضت موضوع الصلح. وبعد أخذ وردّ أتى أحد الوزراء يزور الزعيم ويطلب منه بصفة رسمية زيارة الحكومة والتحدث معه على أساس سحب المذكّرة والشروط التي يجب وضعها. فتمّ هذا الأمر، وسافر الزعيم إلى بيروت واتفق مع الحكومة على الصلح والشروط وسُحبت المذكّرة. وبعد بضعة أيام عدنا إلى بيروت، وكان الرفقاء قد استأجروا بيتاً في رأس بيروت يقع قرب الجامعة الأميركية، ثاني طلعة شارع جان دارك قرب عيادة الدكتور مصطفى الخالدي، في بناية شقير.

الفصل الثامن

نزلنا بيروت في أواخر شهر تشرين الأول، وفي 2 تشرين الثاني أصدر الزعيم منشوراً عن وعد بلفور المشؤوم ودعا إلى مظاهرة بهذه المناسبة ولكن الحكومة منعتها فوزعت المناشير على الشعب. في ذلك الوقت كانت قضية فايز صايغ قيد المعالجة والزعيم يفنّد أخطاءه الدستورية والعقائدية. ثم انتقل الموضوع إلى الرفقاء خريجي الجامعة الأميركية الذين كانوا يناقشون الزعيم بأفكار من خارج العقيدة القومية الاجتماعية. وكان هذا الانحراف في الفكر يشكّل بالنسبة للزعيم أخطر قضية يواجهها الصف القومي الاجتماعي، لهذا قرر معالجة الأمور من جذورها ووضع حدّ لأفكار فايز صايغ وإظهار انحرافاته العقائدية والفكرية واكتسابه أفكاراً غريبة عن الحركة وإدخالها على الفكر القومي الاجتماعي من دون الاهتمام بالدستور والصلاحيات العليا.

وكان قد حدث عند وصول الزعيم إلى القاهرة جدل ونقاش مع نعمة ثابت ومأمون أياس حول التصريحات والكتابات التي كانت تصدر عن ثابت كرئيس للمجلس الأعلى، وكانت تناقض عقيدة الحزب وسياسته. وقد لمس الزعيم أثناء وجوده في توكومان وبعد قراءة ودراسة مقالات لنعمة ثابت وفايز صايغ الانحراف الخطير الذي يُدخله الاثنان على الفكر السوري القومي الاجتماعي.

أوّل مرة استلم الزعيم كرّاس عمدة الثقافة في الحزب وجد فيه آراء خاصة لفايز صايغ خارجة عن المفاهيم السورية القومية الاجتماعية. وكانت تصريحاته تنمّ عن تفرد تام بالتصرف والصلاحيات وكأنه على رأس مؤسسة خاصة لا تخضع لأي سلطة في الحركة. وتألم الزعيم لما لمسه من تهديد الانحرافات الأساسية في

العقيدة وفي الصلاحيات، فلم ينتظر ثانية واحدة وكان في المخزن يقرأ هذا الكرّاس، بل أخذ ورق الكتابة وجلس يكتب ليدلّ على الأخطاء الفاضحة التي حملتها أفكار فايز صايغ. وشعر الزعيم أن وجوده في الوطن أصبح ملحّاً وضرورياً للغاية، فالمفاهيم لا تزال خاطئة عند فايز ولا يريدها أن تتسرّب إلى الصفوف على رغم قناعة الزعيم أن وعي القوميين سيضع حدّاً لهذا التفرّد والتخبّط في الأفكار. كتب الزعيم رسالة طويلة أعقبتها رسائل عدّة يُفنّد فيها الأخطاء كلها، ووجّه هذه الرسائل إلى الرفقاء في الوطن وعبر الحدود. وقد كلّف الزعيم الأمين السابق نعمة ثابت بنشر هذه الرسالة، ولكن نعمة لم يفعل كما علم الزعيم بعد مجيئه إلى الوطن.

وبقي نعمة ثابت ومأمون أياس على موقفهما لا يأبهان لملاحظات الزعيم ولا يرغبان بالتراجع عن أخطائهما في فهم المبادئ السورية القومية الاجتماعية وأصرّا على أن تكون القضية لبنانية قومية اجتماعية.. فما كان من الزعيم إلا أن فصلهما من الحركة.

عندما كان الزعيم يستعدّ للسفر عائداً إلى الوطن كانت المراسلات بينه وبين المسؤولين في الوطن بطيئة للغاية، وكثيراً ما حدّثني عن هذه الأمور في ساعات فراغه. والذي أقلقه أكثر وأكثر، فوق قلقه على الحركة، وجود مسؤولين يقدّمون في نشرات رسمية توجيهات خاطئة. لهذا عمد فور وصوله القاهرة إلى مجابهة نعمة ومأمون بهذه الأخطاء والإهمال الذي حدث في صدد العقيدة وبطء المراسلات والسياسة المنحرفة، فما كان منهما إلاّ أن نصحا الزعيم بعدم دخول لبنان والبقاء بعيداً عن الوطن.

عندما وصلتُ إلى الوطن لم أرَ نعمة ولا مأمون ولم أتعرّف عليهما قط لأن قضيتهما كانت قد أصبحت على وشك النهاية فلم يعد أي منهما يتردد على الزعيم وانتهى البحث معهما بعد أن اتخذا موقفاً خاصّاً ولم يتراجعا عنه، ففُصلا من الصفوف.

لابد أن أذكر خلال هذه الأحداث جانباً من حياة الزعيم ضمن العائلة. لم نكد نجتمع في الوطن حتى عاد الزعيم إلى الاهتمام بعائلته الصغيرة والكبيرة، فكان رغم الأحداث والانشغالات بالأمور الملحة يأخذ من وقته مايلزم ليرافق ابنتيه في ألعابهما ونزهاتهما والتحدّث إليهما ممازحاً ومداعباً في بعض المرات. يصرف من وقته بهدوء بحيث لا يشعر أحد أن مشاكل خطيرة كانت تدور حوله. كان يُجلس أليسار على ركبتيه ويستمع إليها تغنّي قصيدة أو تعيد سرد حكاية حتى النهاية، فيعود لصفية ويسمع لها قصة قد قرأها لها أحدهم في كتاب قصص للأطفال، وكانت لغتهما هي الفصحى منذ أن ابتدأتا التكلم بالعربية، فكانت تعيد القصة بكاملها ولا تخطئ بحرف أو بكلمة، وعندما أستبق أنا القصة لأساعدها كانت تقول لي: هذا الكلام ليس في الكتاب كما أنا قرأته، وتأتي بالكتاب وتفتح صفحاته وتدل الزعيم على كل كلمة، وكانت لا تعرف القراءة بعد، وتقرأ ما سمعته وحفظته.

وأحياناً عندما كان يراني أسرّح لهما شعرهما كان يأخذ المشط منّي ويتولّى هو المهمة بكل عناية وحنان، ويقول لهما أن تطلبا من الماما أن تصنع لهما الضفائر فتأتيان لعندي. ولم يكن شعر أليسار قد نما بما يكفي وكان مجعّداً ولا ترضى بأن أسرّحه بشدة، لهذا كانت تفرح بالذهاب لوالدها كي يعاملها بلطف ويسرّح شعرها. السرور كان متبادلاً بينهم، وكنت أقف لأرى في عينيه العاطفة واللذة اللتين يُحدثهما هذا العمل في نفسه، وتلتقي أعيننا ونفهم معنى أطفالنا لنا.

وكان يخصّص لي أيضاً ساعات عندما يسنح له الوقت، فنزهة صغيرة نحو العرزال أو الجلوس معاً قرب الوادي في الليل الهادئ. وكان يعلم ما تعنيه لي هذه المشاوير الخاطفة ضمن ساعات القلق التي كانت تجتاحني في ذلك الوقت.

لم يكن يحدّثني أثناء هذه المشاوير عن شيء آخر سوى الطبيعة التي كانت تحيط بنا، ولم أكن أسمع منه أي تعليق على الأحداث عندما نكون بصدد القيام بنزهة صغيرة، إلاّ إذا اقترب منه أحد الرفقاء ليبلغه شيئاً هامّاً. ومع هذا لم يترك الزعيم الفرص عندما نخلو لوحدنا في البيت ليسرد الأمور التي كانت تدور في النهار.

وفي ذلك الوقت، عندما كانت مذكّرة التوقيف لا تزال قائمة، كنت أراه يذهب في بعض الأمسيات ليقضي الليل في مكان ما، فيعلمني بذلك ويذهب.. وأبقى أنا في انتظاره لا أستطيع النوم حتى عودته. حدّثني عن المكان الذي كان يتخفّى فيه في الليل وأراد أن يريني الخيمة المصنوعة من الأشجار والتي كانت تظلّله فاصطحبني ذات يوم باكراً ومشينا مسافة طويلة في الوادي حتى وصلنا ذلك البيت الذي كان شاهداً على حياة مليئة بالأخطار والإقدام والبطولة. هذا البيت كانت أغصانه من الصنوبر البري ذي الأكباش الصغيرة، قطفت منه غصناً مع صنوبراته وعدت به إلى بيتنا في الضهور لأزيّن الجدار.

بعد أن مُنعت المظاهرة التي قرّر القوميون القيام بها في 2 تشرين الثاني 1947، أي في ذكرى وعد بلفور المشؤوم، زادت الحكومة ملاحقاتها ومضايقة الحزب خفية مرّات وعلناً مرّات أخرى، فلا حفلة تقام إلا والعسكر يطوّق البيت دون تدخّل في بادئ الأمر، ثم زاد التدخّل قبل حوادث سنة 1949.

بعد أن أنهى الزعيم قضية نعمة ثابت ومأمون أياس وفصلهما وانتهى من قضية فايز صايغ، عاد لتنظيم الحلقة الفكرية وابتدأ يلقي محاضراته على القوميين في البيت أولاً، ثم تابعها في ندوة نظراً لرغبة المواطنين في الاستماع إلى محاضراته، وكان قد شكّل ندوة ثقافية من رفقاء أدباء ومثقفين. وكانت هذه المحاضرات تُلقى في قاعة في رأس بيروت، وزاد عدد المستمعين حتى أن القاعة لم تعد تتسع للجمهور الذي كان يصطفّ في أروقة المدخل وخارج البناية. وبات من الضروري تركيب مكبّرات الصوت لإفساح المجال للمواطنين الراغبين بالاستماع والذين فاق عددهم الخمسمائة، ولم يكن لهم متسع في البيت حيث يلقي الزعيم محاضراته.

الاجتماعات كانت متوالية في مكتب الزعيم. وانطلق التنظيم الجديد في المسؤوليات العديدة، فالتدريب العسكري والتنظيم الإداري بكامله والهيئات الإذاعية والحلقات الفكرية والسياسية. وكل جلسة كانت تزيد المسؤولين نشاطاً، خصوصاً بين الجامعيين وأصحاب الفكر، فقد أحدثت مقالات الزعيم التوجيهية والنقدية

في الصحف والمناشير والمحاضرات جواً في البلاد لم يشهده الشعب من قبل. هذا الجوّ الذي أخذ يظهر بوضوح لكل مواطن واعٍ؛ ظهر أيضاً لكل أناني صاحب أهداف خاصة وللرجعيين والإقطاعيين، فكان نشاط الحزب يتوسع ونشاط الحكومة يزداد تشدداً في مراقبة الحركة فموّلت الصحف بالمبالغ الطائلة وشنّت حرباً إذاعية على الزعيم والحزب. وقد انكشفت في سنة 1949 القوة التي جهّزتها الحكومة لتحارب الزعيم.

أما نشاط أعضاء المجالس العليا فلم يكن على مستوى المسؤوليات الملقاة على عاتقهم، وكانت الاجتماعات الملحّة لدرس الوضع الراهن بين الحكومة والحزب تتطلّب جهوداً مكثّفة ولكن أكثر المسؤولين في المجالس كانوا منشغلين في أعمالهم الخاصة مما دفع الزعيم إلى تحميلهم مسؤولية التباطؤ في العمل الجدي.

هنالك أشياء كانت تدور في المجالس العليا لم أتدخل فيها قط، لهذا أترك هذا الموضوع الذي لم يكن عندي اطلاع كافٍ عليه وأختصر بالقول إن الزعيم قرر بعد مدة من مراقبة الوضع السيّئ في الصف المسؤول أن يحل مجلس العمد والمجلس الأعلى. وقد حدث هذا قبل فترة من حوادث سنة 1949.

عليّ أن أذكر هنا كيف كان يعيش الزعيم وعائلته. عندما تركت الأرجنتين كنت أحمل معي مبلغاً من المال هو ثمن بيع الأثاث وما قدّمه لي شقيقي، وقد دفعت ثمن بطاقات السفر في الباخرة وأبقيت معي ما يكفي مصاريفنا مؤقتاً. ولأن المال المتوافر معي كان يمكن أن ينفد لو سافرت درجة ثانية فقد قررت المجيء حتى جنوى في درجة ثالثة كي يبقى معي مبلغ احتياطي حين وصولي إلى لبنان. وأثناء مروري بالبرازيل نزلت في سانتوس حيث كان رفقاؤنا بانتظارنا وقد قضينا معهم يوماً في التنزّه وحفلة غداء في فندق فخم حيث قدّموا هدايا لي ولبناتي وهدية للزعيم شيك قدره ألف وخمسمائة دولار. هذا المبلغ أوصلته للزعيم، وعندما قررنا النزول إلى بيروت طلب الزعيم من المسؤولين البحث عن بيت في رأس بيروت وأعطاهم الشيك فدفعوا إيجار البيت والباقي صُرف لعمّال المطبعة، وقد تسلم

الشيك الرفيق المسؤول وديع الأشقر. وما بقي معي كنت أصرفه على البيت وكان الزعيم يطلب مني في بعض الأحيان أن أعطي ما أستطيع للعمال في المطبعة، وهكذا وجدت بعد حين أن المال نفد كله ولم يبق معي سوى مخمّسات ذهبية هدية شقيقي جورج فصرفتها ونفدت هي أيضاً. وعرضت للبيع ساعتي وخاتمي الذهبي الذي كان هدية رفقائي في ساو باولو، وكانت مدام روضة ترغب في شرائهما. ولكن الرفيق فاضل أنتيبا الذي كان حاضراً اعترض قائلاً: بالأمس صرفت لك مخمّسات ذهبية واليوم الساعة والخاتم وبعد هذا ماذا تفعلين؟ عليك أن تحلّي هذه المشكلة نهائياً، فهذا المبلغ لن يكفيك أكثر من شهرين وأنا أرى أن على القوميين بحث موضوع معيشة بيت الزعيم طالما أن الزعيم لم يخصص شيئاً لبيته من صندوق الحزب. وهكذا اجتمع بالأعضاء وبحث معهم هذا الموضوع وأعلمني أنه تقرر دفع اشتراكات قيمتها 150 ليرة شهرياً يقدمها بعض الرفقاء، وهكذا كان. وسألني من أريد أن يكون الجابي فقلت له بأن تكون إحدى رفيقاتي ويصلح أن تكون فايزة أنتيبا فهي على اتصال دائم ببيت الزعيم.

واستمر الوضع المادي على هذه الحال ولكن مهما بذلت من جهود واقتصاد وسهر على المصروف فقد كنت أقع تحت عجز ودين عند السمّان واللحّام إذ كان عليّ أن أطعم أيضاً الحرس الذي كان يحرس بيت الزعيم وهم ثلاثة أشخاص. فعدت إلى الزعيم أخبره أن مبلغ 150 ليرة شهرياً لم يكف وقد وقعت في عجز فطلب مني أن أراجع الرفيق زكي ناصيف في هذه القضية، وهكذا كان فوعدني الرفيق زكي بالإسراع في حلّ هذا المشكل لأن الحرس وحده يحتاج إلى أكثر من ذلك.

بعد نزولنا من ضهور الشوير والسكن في بيروت وجدت نفسي حاملاً، ولم يكن هذا الحدث ما يرغّبني بالاستمرار إذ كنت أدرك الوضع السياسي والمتاعب التي تنتظرنا في ذلك الحين. وأكثر ما كان يزعجني في الأمر عدم وجود أي أثاث في البيت، فقد استعرنا من المصيف الفرش واللحف حتى يتسنّى لنا شراء غيرها،

ولكن بعد أشهر طلب أصحابها استعادتها فبقينا بلا شيء. وكانت صاحبة البيت الذي استأجرناه قد تركت لنا سريرين عتيقين عليهما فراشان فاستعملناهما حتى أتوا لنا بسريرين جديدين مع فراشين.

وأنا أذكر هذه الأشياء، أسترجع كلمات الزعيم وتسامي أخلاقه في تلك الأيام العنيفة. كان سريره العتيق منحرفاً على جهة واحدة ويهتزّ كلّما تنفّس الزعيم، وكان الفراش مهلهلاً ولأنه غير صالح تركه أصحابه في البيت. وكنت أنظر إلى الزعيم والألم يحزّ في نفسي، فبعد السهر الطويل والعمل الشاق يأوي إلى فراش هو بالاسم سرير وفراش، وكان يدرك أن الحرامات هي الوحيدة للغطاء في البرد وأن فراشي لم يكن سوى فراش المخيّمات وممدوداً على الأرض، وكان علينا أن نعطي الحرس أيضاً فنتغطّى بالباقي ونضع ما عندنا من معاطف. وكان في هذا الاشتراك معه في الحرمان من الراحة ما يريح ضميري ويعلّمني إلى أيّ مدًى قاسى الزعيم في سبيل قضيته حتى أصبح لا يأبه لكل هذا الحرمان، بل ولم يعد يشعر به. وكان يقول لي إن من يحمل قضية كبرى كقضيتنا ألا يستطيع أن يحمل هذا الحرمان؟ وهل يشعر به الإنسان؟ لكن الرفيق يوسف تاج لم يقتنع بهذا الكلام عندما رأى الزعيم نائماً على هذا السرير، وخرج من البيت يخبر رفقاءه الذين قاموا بشراء سريرين وفراشين وقد اشتريت أنا فراشين للأولاد من بيت أحد المسافرين. وتمّ بالتدريج إيجاد كراس وطاولة خشبية ليكتب عليها الزعيم، ثم استلمنا من طرابلس مكتب الزعيم القديم ووجبة كراسي صالون. وتحسّن وضع البيت من ناحية الأثاث وصرنا نستقبل الضيوف جالسين.

استلم الزعيم مبلغاً خاصاً له أثناء وجوده في ضهور الشوير سنة 1947 فقرر إعطاءه للرفقاء بوجود الأمين وديع الياس مجاعص ابن عمّته الذي لم يتركه يسلّم المبلغ لأحد وقال له اسمح لي فأنا بحاجة للمال، وأخذ المبلغ ووضعه في جيبه. وبعد ذلك ذهب معه إلى الدير وقال له: الدير ينوي بيع قطعة أرض من أرضه، وأنا رأيت من الضروري شراء قطعة بهذا المبلغ لأنه يجب أن تبني بيتاً لك وللأولاد

تأوون إليه، فإمّا أن تشتري قطعة أرض أو أستلم أنا هذا المبلغ وأشتري. وكان الأمين وديع من الأشخاص الذين لم يوفّروا حياتهم مرة في سبيل فداء الزعيم، فرضخ الزعيم لرأيه وتمّ شراء قطعة الأرض في الضهور والتي أُقيم البناء عليها. وتمّ الشراء بشروط حسنة من قبل رهبان الديرين الروم والموارنة. وبعد استشهاد الزعيم كنت أرى راهباً جليلاً جالساً على حافة الوادي أمام البيت في الصباح الباكر أو عند غروب الشمس، فكنت أجيئه وأحدّثه فتدمع عيناه وهو يذكّرني بالمكان الذي كان يجلس فيه الزعيم حين كان يحدّثه عن حياته وعن الحركة، ويقول: كانت أسعد ساعات حياتي.

المقابلات في ضهور الشوير والاجتماعات مع المسؤولين كانت تأخذ من وقت الزعيم الكثير، فكنا نراه فقط لوحده في آخر المساء حين يكون أطفالنا نائمين فيذهب حتى فراشهم ويراقبهم ويغطي الواحدة ويقبّل يد الثانية وينظر إلى طريقة نومهم ويتأكد ما إذا كانت النوافذ مفتوحة قليلاً. وبعد تفقّدهم كنا نجلس لنتحدث قليلاً، فكنت أرجوه أن يذهب إلى فراشه لأن الساعة أصبحت بعد منتصف الليل وهو ينهض باكراً فلا تكفيه الساعات القليلة للراحة. وكان من الضروري له أن يجلس هذه الدقائق معي لوحدي نستأنس ببعضنا، ويخبرني عن الأحداث الهامّة أو عن تصرّف أحد الرفقاء سواء كان عملاً كبيراً أو عملاً خاطئاً فأعطيه رأيي. وقد كانت الأحداث تأخذ معظم أوقاتنا، وأمور كثيرة تدور على مسرح البلاد حينذاك، ولكني أخشى أن أكون قد نسيت الكثير منها ولا أذكرها إلاّ عند التحدث عنها فقط وصدفة.

مضت أيام طويلة والحركة الدائمة في الصفوف تقوى وتزداد، والمسؤوليات على الزعيم تتضاعف والوقت يضيق، فمن الاجتماعات إلى التنظيم الحزبي إلى المقالات وإلى سهرات إذاعية وعائلية في الأوساط الاجتماعية عند مختلف الطوائف. وكانت ثمار هذه الاجتماعات تظهر بوضوح حتى أصبح رياض الصلح قلقاً على جماعته التي كانت تحضر هذه الاجتماعات العائلية حيث يدور النقاش والحوار مع الزعيم.

أذكر أن كمال جنبلاط زار الزعيم في مكتبه ودخل معه في بحث طويل يستفهم منه عن كل صغيرة وكبيرة في العقيدة والحزب والتنظيم، وما كاد يزوره ثانية حتى أعرب عن إعجابه بالمبادئ وقرر أن تكون الزيارة المقبلة للقسم. هكذا علمت، إلاّ أن الصحف طالعتنا في اليومين التاليين لآخر مقابلة بينه وبين الزعيم عن إنشائه الحزب التقدمي الاشتراكي وإعلانه لائحة بأسماء عدد من الأعضاء والمسؤولين.

كان الزعيم يريد أن يبني داره في مسقط رأسه في الضهور، وقرّر أن يكون البناء على قطعة الأرض التي اشتراها من الدير. وابتدأ العمل بوضع الأساسات، وأراد الزعيم الإشراف عليها فكان يقضي جزءاً من وقته في مراقبة وضع الأساسات خصوصاً بعد إعادة حفر الأساس في مكان آخر بسبب رجرجة الأرض. وكنت أنا في بيروت أشرف على أعمال البيت والأطفال ولا أستطيع مرافقته لأنني أصبحت على وشك الولادة، وكان يغيب أحياناً مدة يومين حتى يتابع العمل ويبقى في بيت ابن عمته الأمين وديع الياس في عين القسّيس ثم يعود إلى بيروت ليتابع التنظيم الحزبي.

وخلال إحدى فترات الغياب تلك ولدت راغدة في مساء 15 تموز 1948، وتمت الولادة في البيت على يد الدكتور مصطفى الخالدي الذي كان جارنا في الحارة وصديقنا العائلي. ولم تكد تتمّ الولادة حتى انقلب وجه الدكتور الخالدي، وكان شارط أحد أصدقائه أن الزعيم سيكون له ولد ذكر لأنه متأكد من ذلك وهو مستعدّ أن يشارط.. وشارط وخسر. أمّا زعله فكان أنه أراد أن يذهب بنفسه إلى الزعيم في الجبل ليبشّره بالمولود، وكانت خيبته كبيرة من ولادة ابنة، وبعد أن جمع حقيبته هنّأني قائلاً: «عروس حلوة، الحمد لله على سلامتك». وعلمت بعدها أنه عندما أدار ظهره قال: «يلعن دينها»، فضحك الجميع وجاؤوا يخبرونني عن أسفه. وبينما هو في طريق العودة إلى بيته، كان الحراس المسلحون بانتظار أخبار المولود ليطلقوا الرصاص في الهواء، فتقدموا منه وسألوه، فقال لهم «لا أدري، أنا لم

أولّدها اسألوا القابلة». ورويت هذه القصة للزعيم عندما عاد فضحك كثيراً وقال هذه الابنة هدية غالية فلا فرق بين هذا وذاك إذا اهتممنا بتربيتهم فهم سواء. طبعاً القوميين من حقهم أن يرغبوا ولداً ذكراً للزعيم ونحن سنحبها مثلما نحب الولد.

ذهب الرفقاء إلى الجبل وبلّغوه، فاحتفل الزعيم بالحادث ونزل إلى بيروت ليشاهدني وابنته، وكان قد أتى خصّيصاً من طرابلس الأمين الجزيل الاحترام الدكتور عبد الله سعادة وزوجته بعد أن علما بالخبر تلفونياً في المساء وظنّا بأنهما إذا أسرعا سيصلان إلى بيروت قبل الولادة، ولكن لم تتعثر الأمور وكانت أسرع من المتوقع، فوصلا بيروت عند الفجر وكانت الولادة قد حدثت عند الساعة العاشرة من مساء 15 تموز 1948.

بدأ الصيف يضايقنا في بيروت من شدة الحر والرطوبة، فاقترح الزعيم أن نصعد إلى عين القسّيس في الجبل، فالبيت هناك منعزل وعند منتصف الطريق بين الساحة والعرزال. ولما شعرت أنني أستطيع الانتقال صعدت وأولادي إلى الجبل وكان عمر راغدة سبعة أيام. قضينا الصيف في عين القسّيس، وكانت بعض الشخصيات تتردّد على الزعيم فتدور الأحاديث حول مقالات الزعيم وتعليقات بعض السياسيين عليها. وكانت الصحف الموالية لرياض الصلح في هجوم مستمرّ على الحركة وعلى الزعيم، أذكر منها جريدة «بيروت المساء» وكان عبد الله المشنوق ومحيي الدين النصولي يتابعان الحملات على صفحاتها ويعلّقان على مقالات الزعيم التي كانت تنشرها جريدة **كل شيء** وتترك الصدى القويّ في أنحاء البلاد.

كانت قضية فلسطين على بساط البحث في هيئة الأمم، وكان الزعيم يراقب بألم شديد سير الترتيبات الصهيونية من حيث كسب الدعوى في هيئة الأمم. وقد كتب مراراً محذّراً الدويلات السورية مما يقوم به الصهاينة في العالم من التآمر في مثل هذه الهيئات، وكيف أنهم سيربحون القضية في هيئة الأمم. ونشرت **كل**

شيء سلسلة مقالات للزعيم تصدّى لها محيي الدين النصولي وعبد الله المشنوق اللذان اتّهما الزعيم بأنه من أعداء العروبة ولا يؤمن بالسبعين مليون عربي إذ لو كان يؤمن بهم لما قال إن فلسطين ضاعت على العرب كما جاء في البيان الذي أعلن فيه الزعيم إن كارثة فلسطين واقعة. وردّ الزعيم على المدّعين في مقال نشرته أيضاً جريدة **كل شيء** قال فيه: لقد حاربنا العروبة الوهمية لنقيم العروبة الحقيقية. وكان لهذا المقال وقع عميق في نفوس الشخصيات السياسية وقد رأيت الأمين محمد البعلبكي يتردّد على الزعيم أكثر من أي وقت بعد أن نُشرت تلك المقالات ولم يكن في ذلك الحين قومياً بل كان معجباً بالزعيم ومقالاته.

أعود بالذاكرة لأقول، والألم يعاودني مع هذا التذكر، إن البيان الذي أصدره الزعيم في ذلك الوقت كان يتوقع أن كارثة فلسطين واقعة قبل أن تقع فعلاً! كانت تلك مرحلة جديدة من الآلام التي مرت على الزعيم ولم تتركه لحظة. كانت قضية فلسطين، خسارة فلسطين، كارثة عاشها الزعيم منذ زمن بعيد وحذّر منها منذ أن بدأ بنشر مقالات عنها وهو في السابعة عشرة من عمره، ومنذ أن وعى مخططات اليهود وجهل السياسيين السوريين الذين لعبوا بمصير فلسطين فحاربوا بالأوهام، وما قالوا إلا أوهاماً وما عاشوا إلا أوهاماً. وقبل مرور سنة على هذا البيان كانت كارثة فلسطين واقعة فعلاً. ولم أرَ الزعيم يوماً يغمره الحزن والألم مثلما رأيته عندما أذيع من هيئة الأمم قرار تقسيم فلسطين. لم يعد يتكلم ذلك النهار، انفرد في مكتبه منصبّاً على الكتابة لا يريد تناول طعام ولا يرغب برؤية أحد. وكان في حالة حزن عميق. وقد أتيت عدة مرات أستفقده وأترك له على المكتب كأساً من العصير دون أن أكلّمه إذ كنت أدرك ما حلّ به في تشرين الثاني من سنة 1948.

أذكر أيضاً الانقلاب الأول الذي وقع في الشام وقام به حسني الزعيم ضد شكري القوتلي. وكانت الصحف الشامية تنشر صور حسني الزعيم وتشرح أسباب الانقلاب. وطلع حسني الزعيم بمبادئ إصلاحية نُشرت في الصحف آنذاك كادت تكون طبق الأصل عن المبادئ الإصلاحية في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

الانقلاب الذي وقع سنة 1948 لم يكن معروف الاتجاه، وأظن أنه كان مجرد قضية داخلية لم تأتِ بأي ثمار ولم يكن لها أي مخطط. ولكن لهجة الحكومة الجديدة لم تكن مريحة بالنسبة لحكومة لبنان لأسباب لا أعرف تفاصيلها.

في ذلك الحين كان الزعيم يُعرب لي عن استيائه من استهتار المسؤولين بواجباتهم وتقاعسهم عن حمل أي عبء في الحركة، في وقت كانت الأحداث تلحّ على الزعيم بمضاعفة العمل والاتصالات والتصريحات والتنظيم. ولم يكن في الصف المسؤول شعور بهذا الخطر المحدق بالحزب وبحياة الزعيم، ومهما بذل من جهود فقد كان هناك دائماً فراغ في الاتصالات السياسية والشعبية. وأذكر أن الزعيم لم يرد أن يعلّق في ذلك الوقت بشيء على الانقلاب في الشام حتى يحتفظ لنفسه وللحزب بموقف حيادي. ولكن عندما نظّمت منفّذية السيدات حفلة أسبوعية في بيت الرفيقين رجا وهيام نصر الله في الحدث وشارك فيها جمهور كبير، وكان الخطباء يلقون كلماتهم في باحة الحديقة، قام الأمين عبد الله قبرصي وطلب من الزعيم بلهجة حماسية أن يعطي رأيه بصدد الانقلاب في الشام. وكانت كلمة الزعيم واضحة وأطلق على العهد اسم «المماليك»، لكنها كلمة كان عليه أن يقولها من دون أن يريدها في ذلك الوقت. وقد غضب على الأمين عبد الله لأنه وضع الزعيم أمام الأمر الواقع وأمام الجمهور قبل أن يستشيره في موضوع سياسي خطير كهذا. وكنت جالسة قربه وسمعته يقول: هذا استهتار وعدم شعور بالمسؤولية، أيتحدى هذا الجمهور أم ماذا؟

كانت الأيام وكأنها على حافة بركان، فالحزب يحسّ بوجود التآمر عليه وعلى حياة الزعيم الذي كان يبلّغ المسؤولين بتحركات الحكومة ووقوفها في وجه الحزب كلما أراد أن يعقد مهرجاناً سواء كان حفلة عشاء أو في بيوت القوميين فكانت تلغي الرخصة في آخر لحظة أو ترسل الدرك ليحولوا دون عقد الحفلة. وهذا ما حدث يوم اجتماع حفلة السيدات في بيت الرفيقة جانين بلطجي، وكان الجمهور كبيراً. وفي المساء بعد أن احتفل الرفقاء وقدّموا البرامج من غناء وموسيقى ودبكة وقصائد،

رأينا الدرك يطوّقون البيت ويتقدم أحدهم ليقول إن الاجتماع ممنوع. وكان الزعيم أعطى أوامره للحرس القومي بأن يحيط بالدرك ويعزله عن بعضه بحيث أن رئيس الدرك وجد نفسه منعزلاً عن عناصره، وكل واحد منهم منعزل عن الآخر. فدخل يرجو الزعيم أن يقبل أوامر الحكومة التي أوفدته. ولكن الزعيم وقف وخطب في الجمهور ذاك الخطاب الحماسي الذي قال فيه إن الحفل سيستمرّ وإن مرجل القوميين يغلي ويتحدّى الأساليب السيئة التي لا تعترف بالمنطق ولا بالحق. وما كان بعد ذلك الخطاب الطويل إلا الردّ الحماسي في صفوف القوميين، فعلت الهتافات بأصوات كالصاعقة، وخرس الدرك ورئيسهم ولم يبق أمامهم سوى الجلوس مع الضيوف لتناول الحلويات التي قُدّمت بعد الحفلة.

وأذكر أيضاً أن الاحتفال بعيد ميلاد الزعيم في أول آذار 1949 كان مقرراً أن يقام في «أوتيل نورماندي»، وكان من المعروف أن شخصيات كبيرة ستشارك في ذلك الحفل. وقد حصل الحزب على رخصة للقيام بالحفلة، ووزعت الدعوات وأُعدت كافة الترتيبات، والحفلة تبشّر بالنجاح. وفي الموعد المحدد أول آذار، وفي آخر ساعة، أتت الأوامر من الحكومة بمنع الاحتفال وأرسلت الدرك للإحاطة بالفندق. فما كان من القوميين إلا أن نقلوا مكان الحفل إلى بيت اسكندر شاوي في الأشرفية، ووقف الحرس القومي حول البيت يحرسه بينما كانت فرق من القوميين تبلّغ المدعوّين بنقل الحفلة إلى مكان آخر وتصطحب بعضهم إلى هناك. وعند العاشرة مساء كان الجمهور المدعوّ كله تقريباً قد نُقل وحضر الاحتفال. وكان من بينهم على ما أذكر السيد سامي الصلح. والتقط أحد الأصدقاء فيلماً للحفلة كلها، وهو أرمني اسمه أغوبيان كان أستاذاً في الجامعة الأميركية تعرّف على الزعيم وأصبح يزورنا في بيتنا مع زوجته، وكان يحضر كل حفلاتنا. هذا الأستاذ أتى لزيارتي مع زوجته عندما كنت سجينة في صيدنايا، وكانت حالتي النفسية في أدق الظروف، فما كدت أراهما حتى تذكّرت يوم حفلة الزعيم وهما بيننا فغمرتني تلك السيدة وبقينا نبكي معاً في عناق طويل، هذه السيدة وزوجها لم يكونا يتكلمان

سوى الإنكليزية فهما موفدان من أميركا للتعليم في الجامعة ولغتهما الأم هي الأرمنية، ولهذا عندما استقبلتهما في غرفة البطريرك (وكان في ذلك الوقت الكسندرس طحان) بعد أن كانت رئيسة الدير ماريا حسونة طلبت مني أن أستقبل ضيوفي أمام الحاجات وبحضور البطريرك، دخلنا وجلسنا نتحدث بالإنكليزية فطلبت الحاجة التي كانت تراقبنا أن نتكلم العربية لأنها تريد أن تفهم ماذا نقول، ووافق البطريرك على ذلك، فأجبته بأنهما لايتكلمان سوى الأرمنية والإنكليزية وأنا لا أفهم عليهما غير اللغة الثانية. وقد أخبرتني السيدة أغوبيان عندما رأت هذا التحدي أنهما عندما طلبا مقابلتي أخذت الرئيسة منهما هويتيهما وسجّلت اسميهما على ورقة. حينئذ قلت للرئيسة وللبطريرك أنني لست بحاجة لأن أستقبل أحداً ولا أريد أن أهين أصدقائي، والأحسن أن تمنعوا عني المقابلات طالما أنكم تفرضون عليّ هذه المراقبة، وبهذه الطريقة تخففون عنكم المسؤولية وعنّي تحمّل هذه التصرفات. لكن الموقف لم يتحسن بل زاد سواءاً وتكثفت المراقبة من قبل خدم الرئيسة حتى وصلت إلى غرفتي الخاصة.

عندما صعدنا إلى الجبل بعد ولادة راغدة بسبعة أيام، كان الزعيم منهمكاً بالإشراف على وضع الأساس للبناء الجديد. وأعرف أنه كان هناك خلاف بين وجهتي نظر المهندسين الرفيق إدغار عبود و الرفيق وليم سابا من حيث هندسة البيت، وزاد الخلاف بحيث لم يعد أحدهما يقدم على العمل إلا عندما يترك الآخر. ولم يكن بإمكاني الذهاب إلى موقع البناء أبداً عندما كنا في عين القسّيس، أولاً لأنّ راغدة كانت صغيرة جداً، وثانياً لأنه لم يكن عندنا خادمة كبيرة فالبنت التي تساعدني كانت في الثانية عشرة ومن المستحيل تركها في البيت لوحدها مع ثلاث بنات أكبرهن عمرها ست سنوات وأصغرهن عمرها أيام قليلة، لهذا لم أعرف بالضبط موضوع الخلاف. وكان المكان الذي بدأوا فيه الأساسات غير صالح، وبعد أن حفروا إلى عمق معيّن عادوا وغيّروا المكان. وهذا كل ما عرفت عن الموضوع. ولكن الزعيم كان يشرف على البناء بعد أن وُضعت الأساسات. وفي كثير

من الأحيان كان ينقص العمّال موادّ للبناء علماً بأن جورج عبد المسيح كان مكلفاً بنقل المواد لأنه يملك سيارة شحن، وقد أدى ذلك إلى تأخر البناء. وطيلة ذلك الوقت، كان الأمين وديع الياس يرافق الزعيم في السعي وراء ما يلزم، فكان يعرف كل العمال ومن هو الماهر والمواد التي يتسلّمها وأسعارها والوقت المناسب للعمل وغير ذلك، وهو الذي تابع البناء عندما كلّفته أنا بعد استشهاد الزعيم وكان محظوراً عليّ دخول لبنان، فقام بهذه المهمة خير قيام وسهر على العمل حتى مجيئي إلى لبنان بعد إسقاط بشارة الخوري من الرئاسة.

الفصل التاسع

كان الزعيم في ساعات القلق والانشغال يضع الكتابة جانباً ويأخذ كلبه «ديك» إلى مشوار.

وعادة ما يتجه نحو البحر، فيسير لوحده ويمشي الحرس على بعد منه. وكان يدعوني للذهاب معه فإذا وجدت الوقت مناسباً والأولاد نائمين أذهب وإياه وإلا فكنت أكتفي بأن أرغّبه بالذاهب لوحده، خصوصاً أن طلفتنا راغدة كانت لاتزال صغيرة تحتاج إلى عنايتي الدائمة. وعندما يعود الزعيم إلى مكتبه يتفقدني والأولاد ويدعوني للجلوس معه في المكتب، فأقرأ أنا بينما هو يكتب. وكانت سهراتنا صامتة حين يكتب، وأنا أقرأ كتاباً ما بهدوء حتى لا يلتفت إليّ ويضيع الوقت في التحدث. وكان يدرك اهتمامي بتوفير الراحة له، فلا يبخل عليّ من حين إلى آخر بأن يرفع نظره ليلتقي بنظري ويبتسم لي.. وهكذا حتى ينتهي من الكتابة بعد منتصف الليل. وأحياناً يرجوني الذهاب للنوم فأطيعه في مرّات قليلة لكن دون أن أستطيع النوم قبل التأكّد من أنه هو أيضاً ذهب إلى النوم.

كم كانت تلك الساعات تجمعنا بصمت نعرفه نحن لوحدنا، وكم من المرات كان يعود إلى البيت بعد الاجتماعات الطويلة والساعة تقارب الثالثة صباحاً، فأكون مستيقظة والخوف يتملّكني لا أستطيع النوم قبل عودته. فكنت أسمع خطواته بعد أن يفتح الباب، فينزاح عنّي كابوس ثقيل لأن المؤامرات كانت تحاك حوله والقلق يلازمني. وكنت أنام مع أطفالنا حتى يبقى له المجال للراحة في الساعات القليلة التي كانت تتوفر له بعد السهر الطويل والانهماك في العمل، ومع ذلك لم يعد مرة

إلى البيت ولم يأوِ إلى فراشه قبل أن يأتي إلينا ليتفقدنا جميعاً. وإذا رآني مستيقظة كان أول سؤال يطرحه عليّ هو لماذا بقيت ساهرة حتى تلك الساعة؟ فأحاول أن أطمئنه عن راحتي، وإذا كان يرغب في أن يخبرني عمّا جرى معه في ذلك النهار نذهب سوياً للتحدث في غرفته.

بعد أول آذار 1949 رأيت الزعيم وعلامات التعب با دية على وجهه، وكان يختلي دائماً في مكتبه وينكبّ أكثر فأكثر على الكتابة بعد أن قرّر الإسراع بجمع المواد لتأليف الكتاب الثاني من **نشوء الأمم**، فقد جمع بعض المستندات من كتب التاريخ وصنّف الملاحظات في بطاقات خصوصية كان سجّل عليها بعض العبارات وأسماء المؤرخين ومعلومات تاريخية أخرى. وكان يلّح بأن يكتب مذكراته، وقد أخبرني أنه يرغب في تسليم المسؤوليات إلى قيادة الحزب طالما أن بعض المسؤولين لا يريدون أن يعملوا أو يتقيدوا بمسؤولياتهم وبالتالي سيستفيد الحزب أكثر إذا ترك هو لهم مؤلفاته من مذكرات وتاريخ الأمة السورية. وكأنه كان يشعر بالخطر الذي يحدق به، فلم يفكّر إلاّ بأن يستبق الوقت والأحداث ليترك للحركة ما يستطيع من ثروة فكرية وتوجيهية.

بعد هذا التعب الذي ظهر عليه، أُصيب الزعيم بزكام حادّ والتهاب في الجيوب الأنفية على أثر سهرة قضاها في بيت أحد الرفقاء وكانت على سطح البيت وفي الفلاء وانتهت عند الفجر. وأظن أنه كان يقصد البقاء خارج البيت لسبب ما في تلك الليلة، ولازمه هذا الزكام الحادّ لمدة طويلة وأقعده في الفراش، وطال العلاج بسبب حدّته. وظهر في عينيه أثر هذه الحدّة وارتفعت حرارته بحيث أصبحنا قلقين عليه لأنه لم يتقدم بسرعة.

وكانت الصحف في ذلك الوقت تهاجم الحزب والحملة على أشدّها، وبقي الزعيم رغم مرضه ينشر المقالات الصحافية، وكان محمد يوسف حمّود يتردد عليه مع محمد البعلبكي ويطّلعان على مقالاته ويتحدثان إليه قبل نشرها. وكان الزعيم كعادته يقرأ لي مقالاته قبل أن يرسلها إلى المطبعة، فكنت أعلم ما يعالج في ذلك الوقت وأخشى الرد الذي سيأتي نتيجة لهذه المقالات.

عرفت الزعيم في كثير من المواقف، لكن في الوقت الذي كانت فيه الحرب ضد الحزب على أشدها كان من الضروري أن يعطي الزعيم الكلمة الفاصلة في ما يختص بالقضية القومية. لقد تحقق توقّع الزعيم بخسارة المعركة في فلسطين التي تم تقسيمها بعد مرور سنة على توزيع بيانه الذي يعلن فيه للعالم كله أن كارثة فلسطين واقعة. هذا الحادث ترك أثره الفظيع في حياة الزعيم الذي كان يرى منذ زمن بعيد أبعاد المخطط الصهيوني ويراقب تتابع المسرحيات على الساحة القومية.

بعد أن أنهى الزعيم قضية نعمة ثابت ومأمون أياس ثم فايز صايغ وغيره، بقي في الحزب أشخاص يتناولون القضايا الفكرية ويتساءلون عما إذا كان موضوع فايز صايغ من النواحي الفكرية يشكّل خروجاً عن المبادئ، وهل يجب إزالة هذا الفكر لأنه لا يقرّ بالمبدأ السوري القومي الاجتماعي، وهل لفايز صايغ أو غيره الحقّ في اعتناق أفكار غريبة عن العقيدة القومية الاجتماعية حتى وإن كانت هذه الأفكار موجودة في قناعة ذلك الشخص؟ فكانت تتم اجتماعات كثيرة مع الزعيم لمحاورة أولئك الأشخاص، وكان أكثرهم يقتنع بخطر دخول أفكار غريبة على الأفكار السورية القومية الاجتماعية كما كان يحاول فايز صايغ.

ودُعينا ذات يوم إلى حفل غداء في بيت الأمين أسد الأشقر الذي ألقى خطاباً في المناسبة. وقد سمعت تعليقاً عليه من قبل الرفقاء الحاضرين مفاده أن الأمين أسد ثبّت موقفه بعد التردد إثر قضية نعمة ثابت وفايز صايغ، أي أنه اتخذ الموقف الصحيح من جهة العقيدة السورية القومية الاجتماعية.

في أواخر شهر نيسان وضع الزعيم المسؤولين في المجلس الأعلى ومجلس العُمُد أمام الوضع الذي هم فيه والمسؤوليات الجسام الملقاة على عاتقهم بعد أن ظهرت علامات الفتور في أعمالهم الحزبية وفي تحمّل الأعباء التي كان من المفترض أن يتحمّلها في ذلك الوقت المسؤول في مراكز الحزب العليا. وبعد أن مضى على هذا التنبيه مدة لم يحصل الزعيم منهم خلالها على أي استعداد للقيام بالمهمات، قرر حلّ المجالس العليا وأخذ على عاتقه تصريف الأمور. كانت تلك المرحلة من

أدقّ المراحل الحزبية، فالمؤامرات الخارجية تحاك بسرعة وتتكاثر، وفي الداخل بقيت الأعباء على كتفي الزعيم فكان يدرّب بعض الطلاب الجامعيين على حمل مهمّات شتّى. وأنشأ في مكتبه فروعاً لكل قومي حسب اختصاصاته الفكرية والعقائدية والتدريبية والسياسية والاقتصادية إلخ... وكنت أرى الشباب منهمكين في العمل وكانوا يترددون على مكتب الزعيم باستمرار ويضعون الإضبارات والتصانيف لكل اختصاص. ومن بين الذين أذكر أسماءهم: هشام شرابي، جورج عطية، فؤاد نجار، إنعام رعد، إميل رعد وغيرهم ممن لا أذكر الآن أسماءهم. وكان إميل رعد وهشام شرابي وجورج عطية من الأشخاص الذين كنت أراهم كثيراً في مكتب الزعيم، ويعمل كل واحد منهم في اختصاصه.

كان إنشاء جريدة للحزب بالنسبة للزعيم من أهم المواضيع الإذاعية، وكان يقول لي: إن جريدة لنا تنطق بلساننا تستطيع أن تكون أقوى سلاح بيدنا لنحارب به أعداءنا وأعداء أمتنا. وهي الطريقة الوحيدة كي نوصل صوتنا المسؤول الصادق إلى كل بقعة من بلادنا، فنكون على اتصال بالمواطن لإيقاظه على حقيقته وإفهامه قضاياه المصيرية، عدا عن تعريفه بحركتنا ونهضتنا. والجريدة هي المنبر الحر للفكر السوري القومي الاجتماعي والنهضة الفكرية.

وكانت جريدة الحزب في ذلك الوقت **الجيل الجديد** تطبع في مطبعة يملكها السادة فضّول في الجمّيزة، وكانت افتتاحيات الزعيم من أهم المواضيع المطروحة على بساط البحث، سواء كانت توجيهية أم سياسية. وكان السياسيون والصحافيون والمثقفون ينتظرون دوماً مقالات الزعيم إمّا للرد عليها إن كانوا أعداءنا أو للاطلاع والإعجاب بها إن كانوا من غير هذا الصفّ. لهذا كانت **الجيل الجديد** تحمل روح الحركة القومية الاجتماعية إلى جميع المواطنين.

كان الزعيم يكتب الافتتاحيات ويشرف على تنقيح المقالات في الصحيفة كلها. ويذهب كل يوم إلى المطبعة ليكتب الافتتاحية وينقّح العدد، وعادة ما يكون ذلك بعد الظهر ويستمر حتى المساء. ويكون هناك رفقاء يحرر كل واحد منهم

الزاوية الخاصة به. ويعود الزعيم بعد انتهاء العمل إلى البيت ليتناول العشاء، هذا إذا لم يكن بانتظاره أحد المواطنين أو المسؤولين. وهذه الساعات كانت بالنسبة له ساعات ترفيه رغم أن الطعام لم يكن بحد ذاته مرفهاً، لكن الراحة تكمن في ساعة العشاء واللجوء إلى الوسط العائلي. ويتألف عشاء الزعيم عادة من بطاطا مسلوقة أو بندورة ولبنة أو جمبون وجبنة أو الشورباء مع الخضار. وكان تفقّد بناته يُحدث في نفسه الارتياح والتغيير من جوّ إلى جوّ.

كانت راغدة آنذاك قد تجاوزت الستة أشهر، وكانت تعي أباها وتحبّه بتعلّق شديد، فما تكاد تسمع خطواته حتى تعرف أن أباها أتى فتبدأ الرقص في سريرها قبل أن تراه. وعندما يطل عليها الزعيم كان يفعل ذلك بفتح شقّ صغير في الباب بحيث يراها قبل أن تراه.. ومع ذلك كانت تعرفه وتصرخ له بصوتها الناعم، وحين يقترب منها ترمي بنفسها عليه وتتشبّث بعنقه خوفاً من أن يفلتها أو آخذها أنا منه. فما كان يترك راغدة حتى يحمل الواحدة ثم الأخرى ويلاعبهن، وتحدثه أليسار عن ألعابها وعن الأطفال الذين صادفتهم في المدرسة، وكانت تقول له: ليسوا أصدقائي، إنهم يلعبون في التراب وهم وسخون، أنا لاأحبهم! ويسألها الزعيم هل تحبين مدرستك يا أليسار؟ فتقول: نعم أحبها، وأحبّ أن ألعب لوحدي ولا أريد أن ألعب مع الأولاد. وبالفعل كنا نراها من وراء جدران مدرسة الحضانة في رأس بيروت، حضانة السيدات اللبنانيات، وهي تلعب لوحدها دوماً، وإذا اقترب منها أحد تنظر إليه وتقف أمامه غير راضية لأنه ملوّث بالتراب. كنا نراها ولا نحدّثها كي لا ترانا ونحن نتأمّلها.

صفية كانت في ذلك الوقت قد بدأت صفها الثاني في المدرسة في السادسة من عمرها، وكانت مجتهدة جداً وتتميّز بذاكرتها القوية، ولذلك كانوا يعطونها قصائد وخطباً لتحفظها فتفعل ذلك بسهولة تامة. واللغة التي يتكلّمنها دائماً كانت الفصحى، لهذا اعتادت صفية الفصحى منذ حداثة سنها. وكانت هادئة وتتقيد بالنظام وتعرف واجباتها سواء في تصرّفها العائلي أم تجاه نفسها أم مع الآخرين.

ولهذا السبب كانت تظهر أكبر من سنّها في الفهم. والرابطة بين الزعيم وصفيّة عندما كنا في الأرجنتين كانت على مستوى الصديقين، ترافقه إلى كل مكان للتنزه وتتصرّف وكأنها كبيرة، تصبر ولا تلحّ إذا كان الزعيم مشغولاً لمدة طويلة مع أحد أو في حديث ما، ولا تتضايق، وإذا ذهب إلى الصالون لتناول الشاي كانت ترافقه وكأنها آنسة يافعة، لذلك كان يصحبها معه ويسعد بمرافقتها إياه.

ودوماً كان يعدها بأن نذهب معاً في نزهة، ونتناول الشاي سويّاً أو نترافق على شاطئ البحر. وكانت صفية تنتظر تلك الفرصة، في حين كان وقت الزعيم مزدحماً بالعمل فكان يتألم لانتظارها، ولم يستطع مرة أن يرافقنا في موعد كنا وإياه نترقبه كفرصة للانعزال معه. وهذا ما حدث عندما ذهب ذات يوم صدفة إلى الشاطئ وتعرّف على صالون شاي صغير خاص بإحدى العائلات السويسرية على ما أظن، وهو بيت على الشاطئ يقدم الشاي والحلوى، وعنده أسطوانات موسيقى كلاسيكية، والمكان منعزل أحبَّه الزعيم جداً فوعد نفسه بأن يصحبني إلى هناك وحدي لنجلس في جو هادئ ونستمع إلى المقطوعات الموسيقية التي نحبها ونتأمل البحر بهدوء.

واليوم أذكر بألم كيف أننا لم نستطع أن نأخذ لنفسنا هذه الساعات القليلة لنكون مع بعضنا في هدوء الطبيعة، كم كنا نحب الطبيعة ونحب بعضنا في جو الطبيعة وكأنها تربطنا بقوتها وجمالها وتجرّدها.. ولكن لم يكن الوقت لنا، فالزعيم لم يكن لعائلته بل ملك أمته وكان لزاماً علينا أن نعاونه في هذا العطاء.

وكان التاسع من حزيران 1949 يوم قرّ رت الحكومة اللبنانية أن تقضي على الزعيم فجنّدت في صفوف الكتائبيين بعض عناصر الأمن حين كان الكتائبيون يقيمون حفلة في مقهى بالجمّيزة قرب المطبعة التي كان الزعيم يقصدها يوميّاً لتحرير مقالاته فيذهب إليها في آخر ساعات النهار ويعود منها بين الثامنة والتاسعة مساء. وخلال الحفل الكتائبي عمدت عناصر عسكرية إلى إطلاق النار على المطبعة فخرج الزعيم منها ومعه القوميون يحيطونه حتى السيارة التي كانت بانتظاره

ونقلته خارج المنطقة، ومع ذلك ظلّ إطلاق الرصاص مستمراً على المطبعة، وقيل لي فيما بعد إنهم أطلقوا النار أيضاً على سيارة الزعيم ولكنها تابعت سيرها.

وصل الزعيم إلى البيت في رأس بيروت حوالى الساعة التاسعة مساءً وكنّا ما نزال في بناية شقير، وكان بصحبته عدد من القوميين. وشعرت عند وصولهم بأن شيئاً ما قد حصل لأن الاضطراب كان واضحاً على وجوههم. ولم أعتد سؤال الزعيم أمام القوميين عن أي شيء حتى لا أُحرج موقفه ويجيبني بما لا يريد أن يقوله، فأنتظر حتى أختلي به وأسأله أو يطلعني هو على ما يحدث. ولكن في هذه المرّة كانت التحركات في المكتب غير طبيعية، والاتصالات التلفونية كثيرة، والحركة في الدار عصبية، وعدد القوميين المتواجدين في ازدياد، كل ذلك كان كافياً ليعلن أن حادثاً ما غير عادي قد وقع. دخلت المكتب وسمعت الزعيم يتحدث مع الرفقاء عن الترتيبات الواجب اتخاذها. ويسأل عن رفقائه الموجودين في المطبعة أو الذين كانوا خارجها يراقبون ويحاولون الدخول إليها. وإذا بالخبر يأتي تلفونيّاً أن النيران تشتعل في المطبعة وأن رفقاءنا عُزّل ولعلهم جرحى. وبعد ساعات امتلأت الدار بالقوميين والمسؤولين. البعض يستفسر عن الحادث والبعض الآخر يريد أن يكون قرب الزعيم. حينئذ فهمت ولكني لم أحدّث الزعيم بل اكتفيت بأني فهمت وسألته فقط ماذا عليّ أن أفعل، فطلب مني أن أجمع بعض الأوراق الخاصة وساعدني هو بهذا العمل تاركاً جمع بعض الأوراق الحزبية للرفقاء الذين كانوا في المكتب، وانصرف هو معي لجمع الأوراق الخاصة بهدوئه المعتاد وكأن هذا من الأشياء الطبيعية في حياته. وعند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل جاءنا اتصال تلفوني من شخص لا يدري أحد اسمه، ولكنه يعرف الزعيم، ليحذّره من محاولة الحكومة القبض عليه مؤكّداً أن قوات الأمن في طريقها لاعتقاله.

أعلم الزعيم المسؤولين الحاضرين بالخبر وقرر نقل أوراقه الخاصة في حقيبة صغيرة، ثم دخل إلى غرفته وناداني فودّعني وأوصاني بأن أساعدهم على جمع الأسلحة التي كان يتدرب عليها القوميون وكانت في ذلك الوقت في البيت وعددها

لا بأس به، وكلّف الرفقاء بنقلها إلى مكان آخر ولكن أحد الرفقاء من بين الحاضرين اعترض على نقلها وأراد الاحتفاظ بها في البيت فردّ الزعيم بأننا سنخسرها في حال وجودها في البيت، ولا أذكر الآن من هو هذا الرفيق إذ لم أكن أعرفهم كلهم جيداً.

كان ذاك الوداع بالنسبة لي غير ما اعتدت عليه حتى في أدق الأوقات. كان وداعاً بعد محاولات عديدة من قبل الحكومة وبعد إرهاق العمل والصراع ضد الجبهات الخارجية الكثيرة من طائفيين وحزبيين واستعماريين وسياسيين استعبدتهم المصالح الشخصية، إضافة إلى القضايا الداخلية في الحزب آنذاك والتي حمل أعباءها الزعيم لوحده في الأشهر الأخيرة التي سبقت حوادث 1949. كنت أحسّ تلك الأيام بانكماش أليم في نفسي، واضطراب دائم. كنت أخشى ساعات غيابه وأتخوّف من أحاديث الناس. وكنت أراقب الزعيم بهدوئه المعتاد ولكني كنت أرى حاجبيه مقطّبين دائماً، يفكر ويكتب دون انقطاع، ويردد والألم يحزّ في نفسه أن المسؤولين لم يقوموا بأعباء المسؤولية الملقاة على عاتقهم ولعل ذلك كان أحد الأسباب التي أقلقتني وأزعجتني طيلة الأيام الأخيرة.

ترك الزعيم البيت بعد الساعة الواحدة، وجمعنا السلاح بأسرع وقت ووضعناه في حرامات نقلها رفقاؤنا عبر الحديقة من فوق الجدار الذي يطلّ على الشارع الخلفي للبيت لتجنّب وقوعها في أيدي رجال الأمن. وما كادوا يُخرجون السلاح من البيت حتى سمعت على الدرج الخارجي الخطوات الثقيلة لقوات الدرك. في تلك الساعة كان يتواجد في البيت حوالى الستين قومياً بينهم بعض المسؤولين، أذكر منهم الأمين جبران جريج. دخلت الشرطة واحتلت الدار وكان عدد عناصرها كبيراً. السؤال الأول الذي وجهوه لنا كان ماذا تفعلون هنا جميعكم؟ وكان الجواب: نحن كلنا قوميون وهذا بيت الزعيم، أتينا لنعرف ما الذي حدث في المطبعة. وردّ قائد قوة الدرك: أفي مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ أنا معي أمر بأخذكم للاستجواب في المخفر، كلكم موقوفون فاعملوا معروف إمشوا معي. قال الأمين

جبران: لن نذهب معكم ما لم نعلم ماذا لكم علينا. قال قائد الدرك: هذا ما ستعرفونه عند وصولكم، أما في حال عدم الإطاعة فمعي أوامر بأخذكم بالقوة وإذا كان هذا سيسبّب معركة معكم فأنا لست مسؤولاً وقد أضطرّ إلى استعمال السلاح فهذا أيضاً أمر تلقّيته. قال الأمين جبران: لن نذهب بالتهديد وإنما علينا أن نتشاور مع بعضنا لنقرر. وأخذ الأمين جبران وغيره يبحثون ما إذا كان بالإمكان المقاومة وهل المعركة خاسرة، خصوصاً أن عدد عناصر الدرك كبير وهم مدججون بالسلاح، كما أن المعلومات الواردة من الحرس القومي تقول إن الشارع مليء بالسيارات العسكرية والرشاشات والحارة كلها مطوقة بالجيش والأسلحة الثقيلة. فلم يبق أمام المسؤولين إلا أن يتجنبوا مواجهة خاسرة فوجئوا بها وهم في البيت غير قادرين على مقاومة الشرطة، فقرروا الرضوخ وقال الأمين جبران: نحن سنذهب وسنرى ما معنى هذا كله.

ونُقل القوميون بالعشرات إلى السيارات التي كانت تنتظر لنقلهم إلى السجون، ومعنى وجود هذا العدد من السيارات الجاهزة أنهم كانوا على علم بأن عدداً كبيراً من القوميين متواجدون في بيت الزعيم. آخر من نُقل من البيت هم الحرس، وبقيت وحدي وبناتي الثلاث نائمات والخادمة. وحين علم الحرس الخاص في بيت الزعيم بأنهم أصبحوا معتقلين جاؤوا إليّ وسلّموني سلاحهم الخاص وهو عبارة عن مسدسين، وضعت بسرعة واحداً في صدري والآخر خبّأته في مضخّة الحمام.

وبعد نقل الجميع إلى السجون ووضعهم رهن الاعتقال، عاد العسكر إلى البيت وابتدأ التفتيش. قلت لهم إنني امرأة لوحدي في البيت مع أطفالي فكيف يدخل العسكر و نحن عزّل. لماذا لا تأتون بالمختار حسب النظام عندكم؟ ووقفت في وجههم أصرخ بهم: إنكم تنتهكون حرمة القانون. فقال لي رئيسهم الذي عرفت بعدئذ أن اسمه محمد جواد. المختار ليس في بيته ونحن لا نريد إلا أنطون سعاده لأنه مطلوب. قلت إنه غير موجود في البيت ولست أدري أين هو. ومع ذلك دخلوا كلهم يفتشون البيت وتوزعوا فرقاً فرقاً كل أربعة أو ستة إلى غرفة. طلبت أن أكون

وإياهم في التفتيش وأن يمشوا معي ليس لوحدهم كما يفعلون فقد يضع أحدهم شيئاً في البيت وأنا لن أكون مسؤولة إلا إذا كنت حاضرة. ولم يأبه أحد لكلامي ودخلوا إلى البيت أفواجاً أفواجاً وكلهم متعطشون للقتل.

كان من الواضح أنهم يبحثون عن شخص وليس عن أشياء، فقد كانت الخزانات وتحت الأسرّة والموبيليا هي الأماكن التي يفتشونها مرة ثانية وثالثة، يذهبون ويعودون إلى نفس التفتيش في نفس الأمكنة. وعندما لم يجدوا شيئاً جلسوا على كراسي البيت في الشرفة حتى طلع الصباح، ثم عادوا إلى البيت ودخلوا إلى المكتب وجلس محمد جواد يفتّش أوراق الزعيم التي بقيت هناك، فصرخت فيه: لقد قلت إن الأوامر هي بالتفتيش عن الزعيم وقد فتّشتم البيت، والآن ماذا تريدون من الأوراق؟ لن أسمح لكم بمسّ ورقة واحدة. قلت هذا وأنا على يقين من أنني أحدّث رجال نظام وقانون يعرفون ما أقول، فما كان منهم إلا أن قالوا لبعضهم: اتركوا هذه الأوراق وشأنها. وخرجوا من المكتب وجلسوا في الخارج وبقي بعضهم يطوّق الحارة والبعض الآخر على درج البيت.

دخلت المكتب لأتفقده فإذا ببعض الأغراض مفقودة مثل جهاز أحرف صغيرة للمطبعة كنّا أحضرناه معنا من بوانس آيريس حيث كان الزعيم يستعمله على آلة لينوتيب لطبع جريدة **الزوبعة** . وهذه الأحرف كانت كل جهاز **الزوبعة** الذي يملكه الزعيم، فكان يستأجر ليلاً من مطبعة أجنبية آلة لينوتيب وبعد منتصف الليل يصفّ هو بنفسه الجريدة كلها، وبقيت هذه الأحرف معنا وهي كاملة. و أيضاً أخذ الدرك آلة تسجيل جاءت هدية إلى الزعيم من رفقائه في البرازيل. وفي الصباح سمعت أحد رجال الشرطة يقول لرفيقه: أنظر هذه الثريا في الدار إنها جميلة سآخذها لي.

وتواصل التفتيش بعد التفتيش في بيت الزعيم وفي بيوت كل القوميين، في المدينة وفي الجبل، في القرى و في كل مكان والاعتقالات على نطاق عام. ومن المضحك المبكي أنهم بعد حادث الجمّيزة والاعتداء على القوميين في المطبعة

وإصابتهم بالرصاص ونقلهم جرحى إلى السجن، وبعد حرق المطبعة، في نفس الوقت كانت الاعتقالات قائمة على قدم وساق وكأن رصاصة الجمّيزة الأولى من قبل الحكومة كانت علامة البدء بعملية التنكيل بالقوميين. ثم بدأت أسمع إشاعات وأخباراً، ومع أن البيت كان لا يزال مطوّقاً فإن الرفيقات استطعن الوصول إليّ ليخبرنني عن التحركات الحكومية، وعن الإنذارات التي كانت تطلقها في كل اتجاه ومنها أن الأوامر أعطيت لرجال الدرك بأن يطلقوا الرصاص على الزعيم أينما وجدوه ويقدموا المبرّر بأنه لم يخضع لأوامر الوقوف فأطلقت عليه النار أثناء هربه. هذه الإشاعات وغيرها كانت تؤكد أن محور اهتمام الحكومة كان القضاء على الزعيم.

تواري الزعيم، وكان مكان تواريه مجهولاً إلا من أفراد قليلين في الحزب، وكانت الاتصالات بينه و بيني عن طريق رفيق اسمه جوزف حداد من عين عنوب كان من حرس الزعيم الخاص، وكان هذا الرفيق بدوره يتّصل بأحد المسؤولين وأعتقد أنه الأمين الياس جرجي قنيزح كي يكون هو صلة الوصل بينه و بين الزعيم.

وصلتني أول أخبار عن الزعيم بعد ثلاثة أيام من حادثة الجمّيزة، ولم يكن أحد يعرف مقرّه سوى أشخاص معينين. وعلمت بعدها أنه كان يتنقّل من بيت إلى آخر حسب معلوماته عن تحركات الجيش والدرك. وكان أول مرة في بيت متاخم للقصر، ثم تنقّل إلى بيوت كثيرة، وآخر بيت تواجد فيه في بيروت هو بيت في الصنائع، وكان يراسلني حسب الأسباب الموجبة ويعلمني عن بعض الأمور في موقفه.

في البيت لم يكن أحد سواي مع الأطفال والخادمة، وكان محمد جواد يأتي بعد منتصف الليل مع الفرقة لتفتيش المنزل. وهذه العملية تتم بطريقة غير قانونية رغم علمهم بأنه لا يوجد في البيت سوى النساء، فكان جواد يأتي دون جلب المختار. وكنت الاقيهم وأنا مستيقظة، لأنه منذ 9 حزيران 1949 لم أعد أعرف طعم

النوم في الليل وكنت في حالة قلق مستمرّة، ولم يعد النوم ولا الطعام يعنيان لي أي شيء. وذات يوم سمعت حركة قوية في البيت عندما عمدوا إلى خلع باب غرفة أمامية. نهضت من فراشي ووضعت ثوباً عليّ وأنا في حالة من الضعف وأكاد لا تحملني رجلاي.

فتحت الباب لأستطلع الأمر فإذا بمسدّس مشهور في وجهي، وكانت يد حامله ترتجف. كنت أنظر إليه ولا أحسّ معنى الخطر من هذا السلاح ولم أفكّر أنه قاتل، وبكل هدوء سألته: ماذا تريد؟ فخفض محمد جواد مسدسه وقال: تفتيش. فتحت الباب على مصراعيه وقلت بصوت خافت: الأولاد نائمون، الرجاء أن تعملوا بهدوء. فتشوا واذهبوا. وكانت هذه آخر مرة أرى فيها محمد جواد.

هذا التفتيش المستمر كان يعطيني نوعاً من الاطمئنان على حياة الزعيم فطالما أن التفتيش متواصل فهذا يعني أنه حر. وكنت في قرارة نفسي أتمنى للزعيم أن يغادر البلاد إلى مكان بعيد ومجهول. ولم أكن أستطيع الاتصال به لأن ذلك قد يشكّل دليلاً بيد الحكومة. وأكثر الأمناء أصبحوا فارّين من وجه السلطة متوارين في مختلف المناطق.

وكان لرياض الصلح رغبة ملحّة في العثور على مقر الزعيم، وكلّف أشخاصاً للتفتيش عنه. وكانت أديل سري الدين، القومية الحديثة الانتماء في الحزب، قد أخذت على عاتقها هذا البحث، فحاولت أن تغري فايزة أنتيبا في بادئ الأمر بأن مجيد أرسلان عرض عليها الاتصال بالزعيم والاتفاق معه على رفع الملاحقة تحت شروط. وأتت فايزة تقول لي إنها بحاجة لأن تعرف أين هو الزعيم لأمر ضروري وسريع، فقلت لها لا أعلم أين هو ولا أحد يجوز أن يسأل عن الزعيم في هذه الحالة. قالت: ضروري وفيه خلاص الزعيم. قلت: سأبلغه عن طريق صلة الوصل. قالت: لا بل أريد تبليغه أنا بنفسي فأصرّيت على أن تقول لي ما الجديد لديها، فقالت: إنها فرصة يعرضها مجيد أرسلان بواسطة أديل سريّ الدين ووفق شروط

أعرفها أنا وهي تلحّ لأن أوصلها للزعيم. قلت لها: سأبلغه بواسطة القومي الذي يأتي لعندي من قبله، لكني لست أدري من سيكون هذا القومي، وعادت فايزة إلى بيتها حيث كانت أديل في انتظارها لأخذ الجواب، لكن أديل خرجت من البيت مودّعة قبل أن تتفوه فائزة بكلمة. وألقى رجال الأمن القبض على فايزة وساقوها إلى السجن حيث قضت ما يقارب الثلاثة أشهر قام خلالها أشخاص كثيرون منهم شقيقها رشدي بمحاولات للإفراج عنها.

كتبت للزعيم في نفس اليوم أخبره عن حديث أديل سري الدين مع فايزة وانتظار جواب منه، وبلّغته عن اعتقال فايزة في نفس الساعة. أيضاً أتاني خبر عن طريق أحد القوميين أن خليل بشارة الخوري يطلب مقابلة الزعيم فرفعت الطلب إليه في حينه.

لمّا رأيت الاعتقالات تتّسع يوميّاً اعتقدت أنها ستتناولني سريعاً فقمت بتهيئة نفسي إذ قلت للسيدة طبّارة، وكانت جارتنا في الحارة وصديقة لنا وشاهدت الأحداث بأم عينها وأتت لعندي لتقول إنها مستعدة لمساعدتي بأي شيء عائليّ أحتاجه، إني أوصيك بابنتي راغدة - وكانت في شهرها العاشر آنذاك - إذا ما اعُتقلتُ أنا فقد أعددت لها حقيبة فيها ثيابها وأغراضها، تأخذينها لعندك وتهتمين بها. وأخبرتها عن نوع غذائها وسجّلت لها لائحة بذلك. وكلّفت نايفة الياس مجاعص بالاهتمام بصفية و أليسار إذا ما اعُتقلتُ، وكنت قد هيأت لنفسي حقيبة للسجن أيضاً.

الفصل العاشر

كانت يسرى حكيم وشقيقها أحمد يتردّدان عليّ، وكانت يسرى تُظهر استعدادها للعمل وتخبرني بما يجري في الجو. أما شقيقها، وهو أصغر منها سنّاً، فكان متحمّساً ولكن ليس على مستوى تفهّم يسرى فكنت أتحاشاه لأن الأخبار منه غير موثوقة، وكان يُبدي لي رغبته في القيام ببعض الأعمال التي كنت أشكّ في صحتها. ولكن أقوال يسرى كانت أقرب إلى الحقيقة التي كنت أسمعها من رفقاء آخرين.

وكانت الرفيقات اللواتي يترددن عليّ ينقلن مني رسائل فيها أخبار موجهة لرفيق معين أو مقابلة رفيق مع رفيق يجب أن يلتقيا في مكان محدد. وكنت أتلقّى بعض التوجيهات من الزعيم أنفّذها بدقة.

وسارت الأمور على هذا المنوال مدة كان الاتصال خلالها يحدث بين الرفقاء بعيداً عن البيت، فقط جوزف حداد كان مكلّفاً من قبل الزعيم بالاتصال بي وكان يأتي ليطلب مني بعض الأوراق أو الحاجات الشخصية للزعيم. ولهذا كان عليه أن يجتاز بعض الجدران المجاورة حتّى يتجنّب رجال الأمن. وكنت أنتظر قدومه بفارغ الصبر لأعلم منه عن الزعيم، وعلى الأقل كنت أعرف أن الزعيم لايزال بأمان والدليل على هذا أنه يطلب منّي أغراضاً ويرسل لي تعليمات. لم تعرف أيٌّ من رفيقاتي عن مجيء يوسف والاتصالات مع الزعيم، لهذا دامت هذه العملية حتى انتقل الزعيم إلى الجبل، ولم أدرِ في أي منطقة من الجبل. لكني علمت في ما بعد أنه التقى جورج عبد المسيح وترتّبت بعض الأمور، وقد يكون قراره بالذهاب إلى الشام أحد هذه الترتيبات. غير أني لم أستفهم من الزعيم عندما لاقيته لبضع ساعات في الشام قبل إعلان الثورة بيوم واحد (أي في 2 تموز 1949 وكانت

الحركة قائمة في تلك الدار لإعداد الترتيبات العسكرية التي كانت تنظّم للقيام بالثورة) عن الأمور التي أعقبت حادثة الجميّزة لأنه كانت هناك أشياء أهم عليّ استفهامها منه.

ثم علمت من جوزف أن الزعيم ذهب إلى الشام، كما أتى لعندي الرفيق فؤاد زحلان ليخبرني أنه رافق الزعيم إلى الشام وأنه بخير. وبعد أيام جاءت إلى البيت وداد شوّاف وشقيقها قاسم يطلبان مني الذهاب إلى اللاذقية حيث يجب أن ألتقي الزعيم، فرفضت قبول الطلب دون رسالة من الزعيم، وكنت في ذلك الوقت لا أعرف أحداً من بيت الشواف فلم أطمئن لذلك. فغادرا ليرجعا في اليوم التالي ومعهما ورقة صغيرة بخط الزعيم يطلب مني فيها أن أنتقل والأطفال معهما حتى اللاذقية وأبقى في بيتهما لمدة حتى يلتقي بي. أخذت البنات و المساعِدة المنزلية معي ونقلت بعض الثياب، أما الكتب والسجاد والبياضات وأغراض المطبخ فقد وضعتها عند الجيران، ووزّعت الكتب على الدار التي كانت تحتنا وأظن أنها كانت لعائلة فلسطينية من بيت صبّاغ وعلى بيت صاحبة المبنى السيدة شقير التي تسكن الدار العُلّوية.

وكي أعبر الحدود دون الكشف عن هويتي، أخذت هوية يسرى الحكيم وارتديت مثلهاالبونة أي الغطاء على الوجه والرأس من الحرير الأسود، وتقصدت أن يكون الحرير غير شفّاف ليخفي ملامحي. وكان معي في السيارة التي نقلتني من بيت الدكتور مصطفى الخالدي (قصدت الخروج من عنده كي لا ألفت النظر و كان بيته قرب بيتنا) زوجة خال وداد وأمها وقاسم، وذهبنا كلنا عن طريق الشاطئ حتى اللاذقية.

نزلنا ضيوفاً في بيت الشواف. واليوم لم أعد أذكر كم بقينا هناك قبل اعتقالنا، ولا أظن أنه كان أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام. التقيت بالأمين الياس جرجي قنيزح وكان ماراً باللاذقية في طريقه إلى مهمة لا أعرف طبيعتها، وأخبرني أن الزعيم

في الشام وصحته جيدة. لكني لم أحدّثه عن لقائي المفترض بالزعيم فلعل الزعيم لا يريد الكشف عن ذلك. كما وأن الأمين الياس لم يخبرني شيئاً عن مجيء الزعيم.

في تلك الليلة بالذات، تاريخ 1 تموز 1949، بعد الساعة الثالثة صباحاً سمعت طرقاً على الباب الأمامي. وبعد أن فتحت السيدة مريم شوّاف أمّ فؤاد الباب، دخل رجال الأمن البيت وطرقوا باب غرفتي وقالوا إنهم يريدون التفتيش. وضعت «روبي» عليّ وفتحت الباب، وكانت بناتي في الغرفة نائمات مع المساعِدة المنزلية، فدخلوا وفتّشوا الغرفة وحقيبة اليد وكل الحقائب وأوقفوا الأمين فؤاد وفتّشوا غرفته واصطحبوه معهم . في تلك الساعة أدركت أن الحكومة الشامية لم تعد معنا، والطريقة التي فتّشوا بها دليل على أنهم كانوا يترقبون وجود أحد لعله الزعيم نفسه، لأنني لاحظت أثناء التفتيش أن أحدهم كان ينظر إلى الخزانة وكان بابها مفتوحاً ليرى ما إذا كان أحدٌ مختبئاً فيها.

بعد التفتيش تمركز في البيت وأمام الباب الخارجي رجال الأمن يمنعون دخول أو خروج أي شخص، كما بقي الرفيق قاسم شقيق فؤاد. وعند الساعة السادسة صباحاً دخل رئيسهم وقال لي: إنك ذاهبة معنا فهيّئي أغراضك، والأولاد والمساعِدة المنزلية يذهبون معك أيضاً. وكانت سيارة بيك آب عسكرية تنتظر أمام الباب، فوضعوا حقائبنا فيها وصعدنا كلنا. وانطلقت السيارة إلى مكان مجهول إذ رفض رجال الأمن إخباري إلى أين نحن ذاهبون، حتى قطعنا بعد ساعات حدود الجمارك بين حمص و لبنان (الدبوسية) فقال لي قائد المجموعة: لن نسلمك للسلطات اللبنانية، فماذا تقولين؟ هل تفضّلين الذهاب إلى لبنان؟ قلت له: إنك مكلف بمهمة وعليك أن تنفّذها فإذا كنت مكلّفاً بتسليمي فأنا لست خائفة إذ ليس عليّ أي شيء في لبنان، وإذا كان الأمر عكس ذلك فقل لي إلى أين نحن ذاهبون؟ قال إن الحكومة كلّفته بنقلي إلى الشام، وسألني: هل تعرفين الشام؟ قلت: لا، قال: ستحبّينها وهي لن تلاحقك.

وهكذا سارت السيارة ما يقارب الثماني ساعات على طريق طرطوس ـ صافيتا ـ حمص، ولم تتوقّف إلاّ في حمص حين سألنا رجال الأمن إذا كنا نريد الشرب أو الأكل، فرفضت وكان معي بعض الطعام والماء للأولاد فأعطيتهم إياها ونحن في السيارة الواقفة على حافة الطريق. وتابعنا سيرنا حتى دمشق وأنزلونا في أوتيل بردى في الطابق الخامس، وكانت غرفة بسريرين والمساعدة المنزلية في غرفة مجاورة.

لم أفهم معنى هذا كله، فلماذا أتيت مخفورة، ولماذا نزلت في الفندق؟ ولكن بعد مرور ساعات وجدت أن رجال الأمن متمركزون أمام الباب.

طلبت العشاء للأطفال وأعددت لراغدة رضّاعتها وجهّزتهن للنوم، وأويت إلى الفراش دون أن أستطيع النوم. كانت حوادث النهار تدور في عقلي، علّني أتنوّر من خلالها بما يوضح مجريات الأمور.. ولكن كانت كلها مقلقة. بعد الساعة العاشرة سمعت طرقاً على الباب ففتحته لأرى أمامي رجلاً بديناً مربوع القامة قال لي: أنا مدير الشرطة جئت لأخبرك بأنني مكلّف بإبلاغك أنك حرة ولست موقوفة، وتستطعين الخروج والدخول إلى الفندق كما تشائين، ونحن ليس لنا عليك شيء، فشكرته.

بعد خروج مدير الشرطة بساعة أتى الرفيق نجيب الشويري وأخبرني أنه علم بمجيئي وقد يأتي في اليوم التالي ليصطحبني مع بناتنا إلى حيث الزعيم. وقد أعطاني الموعد في الساعة الخامسة من مساء السبت 2 تموز 1949 . وفي اليوم التالي جاء الرفيق نجيب وأخذنا بسيارته ودار بنا في أنحاء المدينة حتى لا يلاحظ أحد أننا متجهون إلى مقرّ الزعيم. وكانت الساعة حوالى الثامنة عندما وصلنا إلى بيته وكان قرب حديقة العائلات في بناية قبّاني.

عندما وصلنا البيت قلت للرفيق نجيب إن المساعِدة المنزلية الموجودة معي جديدة وقد دخلت بيتنا قبل سبعة أيام من حوادث 9 حزيران ولست واثقة من أنها

ستحفظ سرّ لقائنا بالزعيم، خصوصاً وأنها تتحدث مع رجال الأمن في الفندق، فقال لا بأس، ودخلنا الصالون حيث كان الزعيم جالساً مع مجموعة من الرفقاء، وكان في قاعة الطعام المفتوحة على الصالون رفقاء آخرون وعلى الطاولة أمامهم أوراق كبيرة وخرائط وكلهم منهمكون في البحث والحديث. نهض الزعيم ليعانقنا واحدة واحدة وحمل راغدة بين يديه وقبّلها وهي نائمة، وقال لي كم أنا آسف لأنها نائمة، كنت أتوقّع أن أراها مستيقظة تفرح لرؤيتي وألاعبها وأحدثها. ولكن لم تمض دقائق حتى استيقظت فكان أول شيء فعلته العناق الطويل لوالدها وهي تناديه: بابا، بابا. وكانت فرحة الزعيم بها كبيرة، وبعد أن أعطاني إياها وضع على ركبتيه صفية وأليسار وحدّثهما وسألهما عن أمورهما وما إذاكانتا متعبتين. وخلال حديثهم كنت أنا أراقب الزعيم فلاحظت علامات التعب الشديد على وجهه. حزنت حزناً عميقاً لأنني شعرت أن إعياء الزعيم كان فكرياً أكثر منه جسدياً، وقد اعتدت أن أراه في انهماك طويل لكن علامات التعب لم تصل إلى هذا الحد.

تركنا وعاد إلى الطاولة لأن الرفقاء يريدون استشارته في أمور مهمة، وملامح القلق والسهر ظاهرة على وجوههم جميعاً. كانت الأوراق مكّدسة على الطاولة، ومن الواضح أن أمراً خطيراً يدور البحث حوله. وعند الساعة العاشرة طلب الزعيم مني البقاء معه على أن تذهب البنات برفقة المساعِدة المنزلية إلى الفندق، فأخذهن الرفيق نجيب وبقيت أنا معه.

ذهبنا إلى غرفته وجلسنا على سريره نتحدث في كل الأمور التي جرت حتى تلك الساعة، وعلمت منه كيف انتقل من لبنان إلى الشام، وكيف مرّ بهوية مزورة مع بعض رفقائه. وأخبرني عن اجتماعاته بحسني الزعيم وحُسن مقابلته للزعيم في البداية، وعن استقباله الثاني وتقديم مسدّسه الخاص هدية للزعيم. وبعد التفاهم معه على أمور سياسية كثيرة تتعلق بلبنان وحوادث لبنان، ومساعدته الثورة في لبنان، تراجع الرئيس في كثير من الأمور المتفق عليها وقد أصبح من الضروري أن

يحسبوا الحساب لحكومة الشام، ولكن القيام بالثورة في لبنان سيكون على عاتق القوميين وحدهم، وأنهم سيتهيأون لها، فسألته: هل أنت متأكّد من نجاح الثورة مئة بالمئة؟ قال: ولاخمسين بالمئة. قلت: لماذا هذه المجازفة؟ قال: لابد أن نرد على الحكومة اللبنانية بعد أن صفعتنا بكرامتنا وانتهكت حرمة القانون وحقوق المواطنين. لقد رأيت أن تؤجّل هذه العملية وكتبت لرفقائي في لبنان أخبرهم عن الوعود التي أعطيت والحنث بهذه الوعود فأجابوا: إنهم ليسوا مستعدين للتراجع عن الثورة، وإذا أردتُ تأجيلها فهم سيمشون لوحدهم، وقال لي: كيف أترك رفقائي يتحمّلون هذه المسؤولية، لابد أن أتحمّلها أنا.

بعد مرور سنوات على ذلك، وقبل حوادث سنة 1955 بأشهر، ذكرت هذا الحديث أمام جورج عبد المسيح فأجابني: نعم أنا الذي قلت هذا الكلام لأن الثورة قد أُعلنت وكان علينا أن نقوم بها وقد تهيأنا لها. فقلت: كيف تقول للزعيم إنك لست مستعداً للتراجع وأنت الذي أخبرتني أن القوميين لم يكونوا على استعداد للمعركة، وأكّدتَ له أن العدد الذي سيسير وراءك كان أكثر من سبعين، بينما وجدت صعوبة في جمع أكثر من سبعة عشر رجلاً وكان معك في الحقيقة اثنا عشر، وبهذا العدد أردت من الزعيم أن يتابع وأن يتحمل الفشل؟ فصرخ عبد المسيح: وهل كان من الممكن الهرب منها؟

بعد التحدّث مع الزعيم والاستماع إليه في تلك الليلة وكانت الساعة تقارب الثانية صباحاً، قلت له: هل وضعت خطة لسلامتك في حال فشلت الثورة، فقال: ومتى كان الزعيم يفكّر بنفسه؟ قلت: ولكن أنت لست لنفسك، كلنا أشخاص نعوّض بغيرنا ولكن أنت شيء آخر. ولم يجبني. خرجنا من الغرفة سويّاً بعد أن سلّمني مبلغ ستة آلاف ليرة سورية قال لي إنها أتت من أحد الرفقاء في المهجر خصوصاً لوضعها في مصرف البناء في ضهور الشوير.

في الخارج وجدت الأمين عصام المحايري والرفيق نجيب الشويري والرفيقة أديل صعب جالسين في الصالون، أما الزعيم فتوجه نحو الطاولة للعمل. اقتربت

من الأمين عصام ونجيب الشويري وقلت لهما إن عليهما أن يرسما خطة لإخراج الزعيم من البلاد إذا فشلت الثورة وتوجّهت إلى أديل صعب أطلب منها أن تبلغ زوجها الأمين معروف أنه في حال فشل الثورة يجب أن تكون هناك خطة مرسومة لإخراج الزعيم من البلاد. فأجابتني: وهل هذا مايريده الزعيم؟ قلت: لم يرد الزعيم مرة في حياته أن ينجو بنفسه، ولكن هل نريد نحن أن نخسره؟ كل واحد منا يعوّض بغيره أما الزعيم فلن يعوَّض بغيره. وعلى كلٍّ أنا اضطررت للكلام معها بسبب غياب معروف.

وعدت إلى الفندق الساعة الثالثة صباحاً، لكنني كنت مضطربة ووددت أن أكون بقرب الزعيم وما المانع؟ فإذا ذهبت إلى بيت أحد القوميين لأبقي بناتي عندهم مع المساعدة المنزلية التي تهتم بهن استطعت البقاء مع الزعيم. وفي اليوم التالي، الأحد 3 تموز، أتى لزيارتي رفقاء ومعهم أديل صعب، فقلت لها: إنني بحاجة لأن أكون قرب الزعيم وليس أحوج إلى بقائي قربه من هذا الوقت. ورجوتها أن تعطيني غرفة عندها لمدة أيام أُبقي فيها بناتي والخادمة تهتم بهن حتى يتيسّر لي الوقت لأكون مع الزعيم، وأخبرتها أنني لا أستطيع مغادرة الفندق إلا ورجال الأمن ورائي على درج الفندق وعلى بابه، وحين أذهب إلى المطعم يذهبون ورائي ويحيطون بطاولتي. ولذلك من المستحيل أن أتمكّن من التوجه إلى البيت حيث الزعيم. لكنها قالت: أنا آسفة لا أستطيع، إذ يوجد في إحدى غرف البيت مستأجرون. فقلت: أبقى في غرفة الطعام فهذه حالة طارئة. فعادت لتقول: مستحيل، آسفة.

ثم أتى الرفيق نجيب وقلت له نفس الكلام وطلبت منه أن يؤمّن لي غرفة في مكان ما، بعيدة عن أعين رجال الأمن حتى أستطيع الخروج من البيت متخفّية دون مراقبة. فقال لي: قد بحثنا الموضوع وسنأخذ بيتاً مع أثاثه لتكونوا مع الزعيم. قلت له: وماذا عن الآن. كيف أنتظر وكل هذه الأحداث الخطرة تدور حول الزعيم وأنا لا أستطيع أن أكون معه؟ قال: سنرى إمكان تأمين غرفة لك.. وذهب.

وفي اليوم التالي جاء معروف صعب، ودار الحديث حول حماية الزعيم من ردود الفعل على الثورة. وطالبت مرة أخرى بإيجاد مكان عنده أو عند أحد الرفقاء أو المواطنين. وكان الجواب أن من المستحيل البقاء عنده، وقد علم أن بعض القوميين مهتمون بالأمر.

يوم الثلاثاء كانت أخبار الثورة وفشلها تملأ الصفحات الأولى في الصحف. كنت أشعر نفس الشعور الذي لازمني يوم اجتمعت بالزعيم آخر مرّة وهو أن حياته في خطر، وأن أحداً لم يشعر شعوري ولم يحتط للوضع. وكان في الجو غمامة تلّفني وتخنقني، فما كدت أرى أحد الرفقاء وأظنه الأمين عجاج المهتار الذي جاء يزورني في الفندق حتى انفجرتُ بصوت مليء بالألم واليأس: خذوني عند الزعيم، أريد أن أراه، أن أكون معه. ضعوني في أي مكان ولكن أخرجوني من هنا. أنا أستطيع أن أخرج لوحدي ولكن أين أذهب وما أدراني ما هو البيت الذي سأدخله لأسكن في غرفة منه ومن هم أصحابه؟ ودائماً كان يأتيني جواب واحد: «طوّلي بالك حضرة الأمينة، في هذين اليومين سنجد لك بيتاً» وهذا ما قاله لي أيضاً الرفيق نجيب الشويري. وأحسست أن أحداً منهم لا يشعر شعوري ولا يدرك القلق الذي ينتابني.

وما كاد يوم الأربعاء يطلّ حتّى قررت أن أعمل شيئاً قد يكون مخالفاً لضميري لأنني لم أعد أصدّق أن هناك أناساً حول الزعيم وهم على بعد خطوات من الفندق يأتون ويذهبون وليس باستطاعتهم نقلي مؤقتاً إلى أي بيت في أي مكان! أحسست أن أحداً لا يأبه لقلقي. وكانت الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما أطلّ عليّ معروف صعب وبرفقته بشير موصللي، فقال لي معروف إنه أتى ليخبرني أن الزعيم على موعد مع الرئيس حسني الزعيم عند الساعة العاشرة مساء في القصر الجمهوري. ونزل هذا الخبر كالصاعقة على رأسي، إذ كنت أفكّر طيلة الأيام الماضية في الثمن الباهظ الذي دفعناه من جراء الاتصال بهذا المتقلّب، وما كدت أسمع هذا الكلام حتى صرخت: أيّ تفاهم مع هذا الرجل الذي حنث بوعده

مرّات؟ كيف نأمن له؟ لا أرى منه إلا التقلّب فكيف الاتكال عليه بعد كل ماحدث في هذه الثورة؟ صرخت بألم ورجوت الرفيق بشير قائلة: لا أستطيع البقاء هنا ولا دقيقة، أريد أن أذهب إلى حيث الزعيم، أريد أن أكلّمه. فأنا لا أرتاح لهذا الرجل الذي هو حسني الزعيم، أريد أن أقولها للزعيم. فما بالكم تذهبون وتأتون كلكم إلى الزعيم بينما أنا زوجته لا أستطيع أن أراه لحظة؟

ردّ عليّ الرفيق معروف قائلاً: ليس عندنا وقت، والزعيم أصبح الآن في مكان بعيد وغير معروف إلاّ مني. قلت: ليس لديكم وقت؟ وإذا رميت بنفسي من هذا الطابق إلى الشارع ألستم مكلّفين بنقلي إلى المقبرة؟ أليس هذا العمل أصعب من نقلي في عشر دقائق إلى حيث الزعيم؟ إني أكاد أجنّ من استهتاركم بي. فعاد معروف يقول: ليس عندي مكان لكم، ولكن الرفيق بشير سيأخذك إلى بيته. وأضاف يقول قبل أن يذهب إنه ينتظر كل الخير من هذه المقابلة. فأجبته أنني لا أنتظر أي خير من هذه المقابلة، فالمقابلات السابقة قبل فشل الثورة كانت كلها غير مُرضية فكيف الآن بعد الفشل؟

أخذت بناتي والمساعدة المنزلية وانتقلنا إلى بيت الرفيق بشير، وقد قررنا ترك الحقائب كي لا نلفت النظر إلى مكان ذهابنا، وطلبنا من الأمين جورج بلدي الذي كان يعمل في وزارة الاقتصاد قرب فندق بردى أن يدفع الحساب وينقل الحقائب بعد الظهر إلى بيت الرفيق بشير.. وهكذا كان.

كانت الرفيقة أسيمة شقيقة الرفيق بشير وأمل قريبته موجودتين في البيت مع أخوته منذر وزياد و وليد، وكنت مرتاحة في جوّهم، لكن في اليوم التالي، يوم الخميس 7 تموز، وبعد انتهاء الغداء حضر إلى البيت رجال الأمن والشرطة يطلبون مني الذهاب معهم إلى دير صيدنايا، فما كدت أراهم حتى شعرت أن الجو ليس سليماً ولكن لم يكن في ذهني أي فكرة عن تسليم الزعيم أو عن وجوده بين أياديهم. وظننت أن معروف صعب، الذي جاء ليخبرني عن المقابلة في القصر، كان سيأتي ليخبرني لو علم أن الزعيم في خطر. لذلك سألت رجال الأمن: لماذا تأخذوني إلى

صيدنايا؟ أجابوا: إنه للأمن عليك وعلى بناتك، قلت: أستطيع أن أحمي نفسي وبناتي فلا تهتمّوا بأمري. فما كان منهم إلا أن قالوا: هذه أوامريجب ان ننفّذها. وكان معهم الرفيق الأمين جورج بلدي فهو الذي اصطحبهم إلى البيت ذلك أن صاحب الفندق يعرفه ويعرف مكان عمله، وهو الذي أبلغ رجال الأمن عندما طلبوني من الفندق أننا ذهبنا قبل الظهر وأن جورج بلدي هو الذي جاء بعد الظهر وسدّد الحساب ونقل الحقائب، وهكذا أجبر الأمين جورج على مرافقتهم. وقد طلبت منه أن يذهب إلى أديب الشيشكلي ليسأله عن رأيه في الانتقال إلى صيدنايا، وهل هذا إجباري ولماذا؟ ولكي أنتظر الجواب قلت لرجل الأمن أن ينتظروا حتى أُطعم الأطفال. وعاد الأمين جورج ليخبرني أن أديب يقول إنه من الأفضل أن تذهبي. فأعطيته الدراهم الموجودة معي التي سلّمني إياها الزعيم للبناء وقلت له أعطها للزعيم وقل له أن يغادر البلاد ولا يبقى هنا ولو دقيقة. وقل له أيضاً أن يدعهم يتلهّون بي ولايتحرّك من أجلي مهما حدث. وكنت قد ظننت أن الزعيم متوارٍ وهم يوقفونني حتى يحضر. ولكن الأمور كانت عكس ذلك، فمؤامرة قتل الزعيم تمّت وأنا بعيدة عنه.

ذهبنا إلى صيدنايا واستقبلتنا رئيسة الدير وأنزلتنا في غرفة ليس فيها سوى سرير عتيق وكنبة خشبية، فبقينا فيها يومين نتدبّر أمرنا. ثم طلبت المساعدة المنزلية منهم فراشاً تضعه على الأرض وكان هناك فرشتان ننام عليهما مع الأولاد. وكنت أرى في الخارج رجل أمن جالساً على المقعد، وعلمت من هذا أننا معتقلون اعتقالاً غير رسمي. وعدنا نطلب نقلنا من الغرفة إلى غرفة أخرى تقع أمام غرفتنا فيها سريران وهي فارغة، فنقلونا إليها وبقينا فيها حتى خروجنا من صيدنايا.

الفصل الحادي عشر

يوم الأحد في 10 تموز جاءت خادمة الرئيسة في الدير بينما كنت واقفة أغسل يديّ وخاطبتني مباشرة ودون أي تحفّظ قائلة: أنت سيدة عاقلة، وإذا أخبرتك أنهم قتلوا زوجك فأنت لن تُقدمِي على أي عمل غير عاقل! لم أعد أعي ما إذا كان هذا الكلام في اليقظة أو في المنام. لم أعد أدرك ماذا أفعل وماذا أقول. فإذا كان هذا الخبر صحيحاً فالدنيا كلها هُدمت أمامي والبلاد خربت بوجهي. أظنّ أنني أخذت أركض من الطابق الأول إلى الطابق الأرضي أصرخ وأستنجد لعلّي أجد أحداً من رفقائي فلم أرَ في وجهي سوى الحاجّات، هذه تحكي كلمة وأخرى تنطق بعبارة.. وكلها أقوال هراء لأنهن لا يدركن حجم المصيبة وكم هي كبيرة. وفقدت أعصابي ووجدت الجمع حولي من الحاجّات وكأن الدنيا بلباس أسود قاتم، وكأن الدنيا كلها في عزاء حزناً على شخص غريب عنها، وهي لا تدري أن أبا الأمة كلها قد ذهب، غاب وترك أبناء الأمة يبكونه ويبكون الخسارة.

مضت أيام وأنا طريحة الفراش. أتت رئيسة الدير لتتفقدني عدة مرات وأحضرت لي معها جرابات وتنّورة سوداء وضعتها على حافة السرير قائلة: هذه أشياء تحتاجينها الآن. وسألتني إذا كنت أريد تناول الطعام معها في القاعة، فرفضت، وكانت في ذلك الوقت لطيفة جداً معي تواسيني وترجوني أن لا أبقى على هذه الحالة بعد أن ظهرت عليّ علامات الضعف.

زارني في الدير بعد أسبوع الدكتور الرفيق فؤاد الخوري، وكان عميد المالية أثناء حوادث الثورة القومية في لبنان، وهو في الأصل من صيدنايا لكنه مولود في الأرجنتين، وكان حينذاك طبيب الدير. وبهذه الصفة كان يتردد على الدير ويزورني.

وكان يعطيني بعض الوصفات الطبية و يوصي بي الحاجّات اللواتي يعرفهن. وقد علمت منه أن معظم الأمناء والمسؤولين فرّوا كلهم إلى عمان في اليوم التالي لتسليم الزعيم. وكانت زيارات الدكتور الخوري أسبوعية تقريباً.

علمت بعد أيام أن السيدة عبلة خوري أتت إلى الدير يوم العاشر من تموز لزيارتي، لكن لم يُسمح لها بمقابلتي لأنهم لم يكونوا قد أعلموني بالفاجعة وكانت صفية وأليسار موجودتين في الطابق الأسفل حيث قاعة الاستقبال فشاهدتهما عبلة وأخذت تقبّلهما وهي تبكي. وقد أخبرتني صفية في ذلك اليوم أن سيدة أتت إلى الدير، و لم تكن تعرف عبلة آنذاك، وقبّلتهما وهي تبكي وكانت تخاطب الحاجّات بلهجة عنيفة. ولم أعرف في ذلك الوقت أن تلك السيدة كانت عبلة.

في الأسبوع الثاني جاء لزيارتي يوم الأحد المطران صليبا على ما أذكر، ومعه كاهن لم أكن قد رأيته من قبل، فجلسا معي في غرفة البطريرك وراحا يواسياني. وكان الكاهن يسكب الدموع بغزارة وهو يقول لي: ياللمصيبة، ياللمصيبة. وكنت أتأمّل وجهه ودموعي تنهمر والصمت يخيّم علينا. لم أعرف عن هذا الكاهن شيئاً وظننته رفيقاً لنا. وبعد دقائق طويلة أخرج من جيبه ورقة وقال: أنا الكاهن الذي عرّفته، نطق والعبارة تكاد تختنق في حلقه. فما إن سمعت هذه الكلمات حتى تصوّرت الزعيم أمام جلاديه، أمام من هم أبناؤه يتنكرون له، أمام الأمّة التي حملها على كتفيه وغاب الآن عنها تاركاً التيتّم الكبير. ياللجريمة النكراء! تخيلت الزعيم وحيداً ينادينا إليه وليس من يسمع، ينادينا ونحن نجهل مصيره وموته. ولم يمر في حياتي وحياة رفقائي ألم أكبر من هذا. وقرأ لي الكاهن ورقة لا أذكر الآن محتواها، ولكني أذكر أن نفس الزعيم كانت هي ذاتها في بعض العبارات التي قرأها الكاهن وهو يبكي وأنا أستمع وأبكي. ثم قال المطران صليبا بعض الكلمات المواسية ودعاه إلى الذهاب.

وفي نفس اليوم جاءت أديل صعب وعبلة خوري بعد أن سمحوا لهما بالزيارة فأخبرتاني عن الفاجعة. وكانت عبلة في ثورة أما أديل فكانت تقول باكية: ماذا فعلوا؟ ولماذا؟ ولم أشعر بصدق أديل كما شعرت بصدق عبلة لأن نفسي كانت حاقدة على ما قالته لي يوم اجتماعي بالزعيم، ورأيها بأن الزعيم لم يُرد التواري في حال فشل الثورة. وكنت غاضبة عليها لأنها وقفت بوجهي وبخلت عليّ بدخول بيتها حتى لمدة يومين فقط. ولعل هذا هو السبب العاطفي الذي جعلني أشعر هذا الشعور بعدم صدقها. ثم غادرتا بعد نصف ساعة، ووعدت عبلة بأنها ستأتي دوماً إلى الدير في حين ذكرت أديل أنها عائدة إلى عمّان ولعلّها لن ترجع إلى الشام.

وجرى نقاش بيني و بين أديل يتعلّق بكيفية ذهاب الزعيم، ولماذا لم يخبروني في اليوم التالي، وكيف ذهبوا كلهم إلى عمان وتركوني لا أعرف التفاصيل ولا أحتاط ولاحتى أن أقوم بأي مسعى؟ فكان جوابها: عندك ثلاثة أطفال فكيف نُعلمك؟ قلت لها: أوليس لأطفالي الحق بأن يكونوا في مكان أمين بدلاً من هذا السجن؟ ألم يكن بالإمكان الانتقال إلى بلد غريب وتوجيه البرقيات إلى العالم كله احتجاجاً على التسليم؟ وهل كان يضير أن نعلن للعالم قبل أن تقرر الحكومة اللبنانية مصير الزعيم ماذا فعلت به فعلاً؟ ألم تكن هذه جريمة جديدة ارتكبتها الحكومة قبل تنفيذ جريمة القتل؟ اكتفت أديل بالقول: من كان يدري ما الذي سيحدث؟ ولم أعد أحدّثها وتركتها تذهب ونفسي تزداد ألماً وابتعاداً عنها.

وفي نفس اليوم أتى لزيارتي الرفقاء نجيب الشويري ويوسف يازجي واسكندر شاوي، و لم يقل أحدهم شيئاً سوى أنهم شاركوني ذرف الدموع. لكنّ اسكندر شاوي نصحني بأن أغادر البلاد إذا عرضوا عليّ ذلك، فسألته: لماذا؟ قال: لأنه يحسن أن تكوني بعيدة عن هذا الجو وأن تنجي وأولادك من الجحيم. لم أجبه، بل رحت أستنتج بنفسي ما الذي يتوجب عليّ فعله. وروحي ثائرة على كل رجالات البلاد من حكوميين و موظفين وعسكريين.

ومرت أيام كانت خلالها زيارات الرفقاء قليلة. فقد أتى بشير موصللي بضعة أيام، وكان الدكتور فؤاد الخوري والأمين جورج بلدي والأمين عمر أبو زلام من الأشخاص الذين يتردّدون عليّ بين الحين و الآخر. وكان الرفيق جان فرح يزورني بصحبة شقيقته ماري التي قررت أن تبقى في الدير ثلاثة أيام متوالية حسب قانون الضيافة، فكانت تغيب فترة ثم تعود.

وحدث في أحد الأيام أن الدير كان يمسك بصيام السيدة، ولم يكن الطبخ مسموحاً آنذاك والطعام الوحيد المتوافر هو الخضار والزيتون والبرغل. ولم تكن بناتي الصغيرات معتادات على هذه النوعية من الأكل فنحلت أجسامهن، لذلك قررت إرسال صفية وأليسار إلى مكان بعيد عن الدير وإبقاء راغدة معي. وكان السيد خليل خير الله، وقد عرفت لاحقاً أنه شقيق الرفيق شوقي خير الله، يزورني مع شقيقته وعندما علم أنني أنوي إبعاد الطفلات عن الدير وإرسالهن إلى ضهور الشوير عند نايفة و وديع الياس مجاعص عرض أن ينقلهن إلى لبنان وطلب مني السماح لهن بالذهاب إلى بيته أولاً حيث تقوم والدته وشقيقته بالاهتمام بهن ثم ينتقلن إلى الضهور. هيّأت حقائب صفية و أليسار و أرسلتهما إلى لبنان بعد أن اطمأنّ فكري على صحتهما، ورحت أعتني براغدة، تساعدني في ذلك المساعِدة المنزلية التي بقيت معي.

نسيت أن أذكر حادثاً مهمّاً جدّاً يتعلق بالحكومتين السورية و اللبنانية، فبعد أسبوع من احتجازي في الدير ابتدأت الرئيسة محاولة لإقناعي بالذهاب إلى الأرجنتين مع بناتي، كما حدّثني البطريرك ألكسندر طحّان عن رغبته في أن أغادر البلاد، فأجبته بأني لا أريد ترك الوطن وإذا كان للحكومة اللبنانية أي مأخذ عليّ فلتتقدّم وتحاكمني. قال لاشيء عليك سوى أنها تريد منك أن تغادري البلاد. قلت: عندي شروط وهي أن يُسمح لي بدخول لبنان وأجمع كل أغراضي وأثاث بيتي، وأن تسلّمني الحكومة رفات الزعيم وعندها فقط أقرر إذا ماكنت سأغادر البلاد. فقال لي: سأبحث هذا الموضوع مع الحكومة عندما أذهب إلى لبنان. وبعد ثلاثة أيام عاد

إلى الدير وقال لي إنّ رياض الصلح لم يقبل بدخولك لبنان، وهو يقول إنه مستعد لإعطائك المال الذي تريدينه شرط أن تغادري البلاد، والحكومة تتكفل بإرسال كلّ ما يخصك إلى الأرجنتين ولكن الدخول إلى لبنان مستحيل، فأنت تعلمين أسرار زوجك الكثيرة، والحكومة ترى أن دخولك البلاد مستحيل. فأجبته: ومغادرة البلاد مستحيلة، فإذا كان رياض الصلح يظن بأنه يشتري دماء الزعيم بالمال فأنا لست الذي يبيعه. إن يديه ما تزالان ملطختين بالدماء البريئة.

فقال البطريرك: أنتِ وعدت بمغادرة البلاد إذا ما أعطوك أغراضك، فلماذا تتراجعين الآن؟ قلت: كانت لي شروط عندما تحدثت إليك، ولكني الآن لم أعد أرضى بأي شروط ولا أريد مغادرة البلاد، وأنا حرة في أن أتراجع إذا وجدت نفسي أمام هاوية أكاد أقع فيها. فردّ عليّ قائلاً: أنا أرى أن كلام الرئيسة في محلّه فهي تفهم ما تقول وتنصحك خيراً. فقلت له: إن للرئيسة رأيها ولي أنا رأيي.

وغادر البطريرك الدير دون نتيجة. وفي الأيام التالية أتاني قنصل الأرجنتين سموديو سيلفا وزوجته يطلبان مني أن أجهّز نفسي للسفر مع بناتي، فقد علموا أن الحكومة الشامية تريد من القنصلية الأرجنتينية أن تسهّل لي معاملات السفر، وبما أنني أحمل الجنسية الأرجنتينية فعليهم تقديم خدماتهم الرسمية. فأوضحت له بالإسبانية إن الحكومتين الشامية و اللبنانية طلبتا مني مغادرة البلاد وأنا لا أريد مغادرتها وأعلم أنهما تدّعيان بأنني أرجنتينية وعلى السفارة الأرجنتينية أن تسعى بسفري، والحقيقة أن ابنتيّ صفية وأليسار أرجنتينيتان أما أنا فلبنانية وليس للحكومة الأرجنتينية أية سلطة عليّ فاستغرب القنصل هذا الأمر وقال: على العكس، وزارة الداخلية الأرجنتينية طلبت مني رسمياً أن أحضر إلى الدير بوصفك أرجنتينية، ولوعلمت الحقيقة لما كنت أتيت. وعلى كل حال إذا كانت ابنتاك أرجنتينيتين، وأنت تعرفين ما فعلت الحكومة بزوجك، فلماذا لا تأخذينهما وتغادرين هذا الجو الأسود؟ قلت له: أنا جندي في الصفوف الأمامية وقد سقط زعيمها في المعركة، فماذا يُتوقَّع من جندي الصف الأمامي في هذه الحال، هل ينهزم والصفوف

كلها وراءه؟ وماذا يفعل الآخرون إذا اقتدوا به؟ فما كان من القنصل إلا أن نهض من كرسيه وقال لي: أنا أهنئك يا سيّدتي، وليس لي عليك شيء. وطالما أن ابنتيك أرجنتينيتان فما عليك إلا أن تبلغي السفارة عند الحاجة كوننا معنيين بحمايتهما. وغادرني وهو يقول: لأول مرة أسمع الزوجة تنادي زوجها بلقب زعيمي.

لكن ما إن مضت بضعة أيام حتى شاهدت في الدير جمعاً من الرجال، أحدهم يحمل آلة كاتبة والآخر أوراقاً والثالث حقيبة وآخرون يتحدثون مع الرئيسة كنت في ذلك الوقت مع بناتي في الطابق الأسفل أمام القاعة الرئيسية. عندما دخل هذا الحشد، فاقتربت الرئيسة مني وقالت لي: أدخلي إلى القاعة فهناك رجال من السلك الوزاري يريدون التحدث إليك. دخلت، وتقدم مني شخص لم أكن قد رأيته من قبل وقال: أنا القنصل الأرجنتيني في بيروت أتيت لأنهي معاملات إصدار جوازات سفركم الأرجنتينية. أجبته بالإسبانية: ولكني لا أريد السفر، وأنا لست أرجنتينية فاستغرب هذا الخبر وقال: دعينا نذهب إلى غرفة خاصة وحدثيني عن كل التفاصيل. دخلنا غرفة البطريرك وجلسنا. قلت له: لقد حاولت الحكومات إقناعي بالسفر رغماً عن مشيئتي، ولذلك أرسلت القنصل الأرجنتيني في الشام وأقنعتُه بأنني أرجنتينية الجنسية. وعندما زارني القنصل عرف أنني لست أرجنتينية وأن اثنتين فقط من بناتي هما من مواليد الأرجنتين، فاعتذر مني واستغرب موقف الحكومة. والآن أرى أنهم كرروا نفس العملية معك، فأجابني: لو لم يكن هذا ماحدث بالفعل لما جئت من بيروت إلى هذا الدير. وعلى كل حال، فأنا لم أعرف زوجك ولكني سمعت عنه بعد الحوادث التي جرت وعرفت خبر اغتياله. فكيف تأمنين لهم بعد إقدامهم على هذه الأعمال ضدكم. خذي أولادك واهربي منهم. قلت له نفس الكلام الذي قلته لزميله في الشام، فما كان منه إلاّ أن أعطاني عنوانه في بيروت وطلب مني أن أكتب إليه في حال أحسست بأنني وبناتي في خطر لأن السفارة تتمتع بصفة الوصاية عليهن كونهن أرجنتينيات وسوف يحضرون بسرعة لتفقّد أحوالهن.

شكرت القنصل وخرجنا إلى القاعة، وكان الباقون مجتمعين في الخارج وعلى وجوههم علامات الكراهية، فخفت أن يُقدِموا على نقلي بالقوة. فقلت له: لا تذهب أمامهم بل دعهم يتقدمونك. لأنني لا أرتاح لهم. وهكذا قرر القيام بجولة في الدير بينما انتهزوا هم هذه الفرصة والتقطوا لي ولبناتي صوراً أظن أنه كان مقرراً استخدامها لإصدار جوازات للسفر. وبعد أن ذهب الجميع عاد القنصل ليقول لي: لم يبق أحد منهم فقد أخبرتهم أننا لا نستطيع إجبارك على السفر طالما أنك لست أرجنتينية، ولا علاقة لنا بك إلا إذا أردت أنت ذلك بصفتك أمّاً لمواطنات أرجنتينيات وعندها نستطيع بسهولة إعطاءك ما تريدين. ولا أظن بأنهم سيأتون مرة أخرى، وإذا فعلوا قولي لهم أنني لن أخرج من هنا قبل أن أسلّم بناتي للسفارة الأرجنتينية، وبهذه الطريقة نستطيع أن نصل إليك ونقف على أوضاعك. فشكرته، وقفل عائداً إلى بيروت. وبعد هذا الحادث بالذات قررت إرسال بناتي إلى لبنان.

وابتدأت رئيسة الدير تحاربني وتتهمني بأنني مجنونة لأني رفضت الذهاب إلى الأرجنتين، فطلبت منها أن لا تتدخل في أموري وإذا وقع عليّ أي لوم فهي غير مسؤولة عن ذلك. فردّت قائلة: لا وأنا مسؤولة عنك وعن تصرفاتك. وأنا أعلم أن أشخاصاً يأتون لزيارتك وتتحدثون في أمور سياسية وهذا ما لا أرضى به لأن الدير ليس مكاناً للسياسة، ومن الآن فصاعداً سأطلب من كل شخص يأتي لزيارتك تقديم هويته. قلت: إذا كنت مكلّفة رسمياً بهذا الأمر فيحسن بك أن تقولي إنه ممنوع عليّ المقابلات، وأنت تعرفين أن عدداً قليلاً من الناس يأتون لزيارتي والأمن سمح لي باستقبال من أريد، فإذا كنتُ سجينة عندك فيصلح أن أعلم. وكان البطريرك حاضراً أثناء هذا النقاش فقال لي: ما تقوله الرئيسة صحيح، فكيف تعرفين من هم الأشخاص الذين يأتون لعندك لعلّهم أعداؤك ويريدون الضرر بك، لهذا يجب أن نطلب أسماءهم. وعلمت أن أسماء ضيوفي كانت تسجّل عند باب المدخل وتُرسل إلى المكتب الثاني.

وفي مناسبة أخرى قالت لي الرئيسة: خذي بناتك واذهبي وإلا ستخسرينهن! قلت لسن هنّ فقط أولادي، إن الأمة كلها أولادي. ولا أريد الذهاب مهما جرى لي، فعطشي كبير لأن أبقى قرب زوجي. فهذه التربة لا يملكها أحد سواي وأريد أن أبقى فيها. وبعد هذا الحديث لم أعد أرغب في الاجتماع بها ولا تناول الطعام معها. أمّا البطريرك فقلت له: ياسيادة البطريرك، انت ليس لك عليّ أي حق، فأنا لم آتِ لاجئة إليك، ولم توجّه أنت دعوة إليّ لحمايتي. كل ما هنالك أن السلطات فرضت عليّ هذه الإقامة، فإذا كنت منزعجاً من وجودي هنا فأنا أيضاً لا أريد البقاء في الدير. وإذا كان موضوع إطعامي هو الذي يحمّلني هذه الإهانات فلك طعامك لأني لم أرده في الأساس. وخرجت من القاعة.

أتى لزيارتي الأمين فؤاد شوّاف منتحلاً اسماً آخر. وبعد أن تجوّل في الدير وصل إلى غرفتي فدخلت وراءه خادمة الرئيسة التي كانت تتجسّس عليّ وعلى الحاجّات. وبعد أن اطمأنّ الأمين شوّاف عليَّ أدركت الخادمة أنه متنكر فذهبت لتخبر الرئيسة التي جاءت غاضبة لتقول: ها أنت تستقبلين أناساً يخدعوننا بهويتهم، وأنا متأكدة أن هذا الشخص الذي زارك ليس اسمه الحقيقي سليمان، فإذا كان الأمر وصل إلى هذا الحدّ فسأطلب من كل زائر هويته. قلت لها: إذا صحّ هذا الأمر فما الذي يضرّك أنت، وإذا أقدم أحدهم على ذلك فإنما يفعل هذا فقط ليستطيع مقابلتي والاطمئنان عني وليس لأي شيء آخر. فماذا يوجد هنا في الدير حتى تخافي عليه، أم أنك ترغبين فقط في اعتقالهم؟ فقالت: انا سأتخذ احتياطاتي منهم ولن أدعها تتكرر. كل هذه الأمور جعلتني أقتنع بأن نقلي إلى الدير على يد الأمن الشامي لم يكن إلا لأن الرئيسة تتعاون معهم ولأن المكان مضمون بالنسبة لهم.

وكثيراً ما حدثتني الرئيسة عن روسيا قائلة: لو كان الروس مسؤولين لما فعلوا بزوجك ما فعلوا. وعندما أقامت جنّازاً في كنسية الدير عن روح الزعيم و دعت الحاجّات كلهن إلى القاعة الكبيرة وكنت حاضرة، خاطبت الجميع بالقول: إن هذا

الذي جرى ما كان ليجري مع الحكومة المسكوبية، وردد الكثير من الحاجّات: معاذ الله. وأقيم الجنّاز في فترة ما قبل وقوع الخلاف بيني و بينها، وكان المطران صليبا هو القائم بالصلاة. ويجب أن لا يفوتني في هذه المناسبة الثناء على جميع الحاجّات في الدير فقد كنّ من المنعزلات أو القائمات بالخدمة وكلّهن لهفة وحنان نحوي، وكانت هناك حاجّة لا أستطيع أن أنساها ولا أنسى اسمها هي الحاجّة كاترين حيدر التي تجسّد الطيبة والمحبة والوداعة وكانت خير عزاء ورحمة لي في الدير، وكانت للجميع حباً و عطاء. وكم تمنيت لها طول العمر كي يتسنّى لأناس كثيرين أن يلجأوا تحت جناحيها.. ولها مني أقدس التحيات. وذات يوم نزلت إلى الشاغورة وكنت مع بناتي الثلاث والحاجّة كاترين التي قالت لي: هذا هو المكان الذي ظهرت فيه السيدة، قفي أمامها واطلبي منها ما تتمنّين. فوقفت وطلبت، وكان طلباً لم أطلب مثله من قبل.

ومرت أيام، وعلمت أن الحكومة قررت أن تسفّرني بالقوة ولهذا ستدّعي أنها تريد نقلي من دير إلى دير، وخلال عملية الانتقال يعرّجون على المطار ليضعوني في الطائرة بالقوة، وقد يحدث هذا بين الخامس عشر والسادس عشر من آب 1949 . وأخبرت خليل خير الله بالأمر، وسألته إذا كان بالإمكان الهرب من الدير فقال لي إن ذلك ممكن وإنه سيجهّز لي سبل الهرب. وبعد أيام أتى ليقول إن كمال جنبلاط مستعد لأن يحميني في بيته إذا استطعت الوصول إلى لبنان. تردّدت؛ ولكن كان عليّ أن أترك الدير قبل نجاح الحكومة في تنفيذ مخططها، فقبلت منه. وكانت خطته أن يأتي مع شقيقته ليلة العيد حيث يكون في الدير أناس كثيرون، فأرتدي أنا ثياب شقيقته وأخرج معه في حين تبقى شقيقته مكاني في الدير حتى الصباح فتخرج لوحدها، وتكون الخادمة في هذا الوقت قد أوصلت راغدة إلى خليل بعد خروجي من باب الدير.

وأثناء وجودي في الدير زارني خالي الياس خالو وكان يسكن في طرابلس، وبعد الحوادث أراد أن يتفقّد أوضاعي في الدير وهناك التقى البطريرك الذي كان

يعرفه جيداً وهو الذي أجرى مراسم الإكليل لخالي عندما كان مطراناً في طرابلس على ما أظن. دعا البطريرك خالي للبقاء في الدير بضعة أيام كان خلالها يعمل لحمله على إقناعي بالذهاب إلى الأرجنتين، وكان على اتصال مع شقيقي جورج في بوانس آيرس حول هذه المسألة. وعلمت أن شقيقي يرغب في أن نذهب كلنا إليه. وقال لي خالي ذات يوم إن جورج سيأتي إلى دمشق وإنه تسلّم منه مؤخّراً رسالة يقول فيها إنه سيكون هنا بعد أيام. والحقيقة أنني قلقت عليه، ولكن ما العمل وأنا في الدير لاأستطيع لقاءه وهو في الطريق إلى أوروبا.

وكانت معي في الدير خلال الأيام الأخيرة نايفة الياس مجاعص ابنة عمّة الزعيم ترافقني وتواسيني. وذات مرّة جاءت إلى الدير إحدى قريبات جورج عبد المسيح لتعمّد ابنها، وأخبرتني أن عبد المسيح فرّ وهو مختبئ في أحد الجبال. سألتها: هل علم أنك آتية لعندي، وهل يعرف أنني في الدير؟ فأجابت: كيف لا؟ ولم تقل شيئاً آخر.. لا من قبل عبد المسيح ولا من أحد غيره.

الفصل الثاني عشر

في ليلة الرابع عشر من آب 1949، أي بعد 36 يوماً على استشهاد الزعيم، ابتدأت وفود كثيرة تتوافد إلى الدير للاحتفال بعيد السيدة. وامتلأ الدير ضجيجاً وأهازيج وغناء ودبكات. والكل أتى ليقدّم إلى السيدة نذوره وهداياه وطلباته.

كان عيد السيدة بالنسبة إلى الدير ليلة لا ينام فيها أحد، فالكل ساهر، والرئيسة والحاجّات يشاركن الزوّار في نشاطاتهم، أمّا أنا فقد كنت في غرفتي أسمع هذا الضجيج والضحك وقلبي يتحطّم حزناً، فكم من مرّة قال لي الزعيم: سأذهب وإياك لأعرّفك على دير صيدنايا وسنزوره يوم العيد لأن فيه صورة خاصة عن صور بلادنا في أيام الأعياد الدينية، فالكل يرتدي الثياب الملونة و المزخرفة، وأجواء الفرح والرقص تظهر مع سرورهم بالعيد. وسبق للزعيم أن ألّف قصة عن عيد سيدة صيدنايا. فكنت أفكّر بين فرح المجيء معه وبين هذا الحزن الذي سيلفّنا إلى الأبد بعد غيابه، خصوصاً أنني تلقّيت خبر وقوع المصيبة في هذا الدير بالذات.

وسهرت أبكي وأشقى على عتابا أسمعها وكأنها خصّيصاً للزعيم، ودبكة تذكّرني بزياراتنا إلى الجبال ومشاهدة رفقائنا يدبكون في صفّ مرصوص. فكل ما أسمعه خارج غرفتي يسبّب لي حزناً عميقاً. فما كان من قريبتي الموجودة معي إلا أن فتحت النافذة وقالت: الرجاء أن تخففوا الغناء فهنا امرأة حزينة تبكي على غنائكم.. فسكت الجميع ولم يسكت ألمي حتى الصباح.

وفي الصباح الباكر، أخذت الوفود تتحرك للصلاة في الكنيسة استعداداً لمغادرة الدير لاحقاً. وبينما أنا واقفة في الخارج شاهدت الأستاذ مرهج وزوجته وكانا قد حضرا للمشاركة في العيد فسلّما عليّ وجلسنا نبكي معاً الشخص العزيز الذي كان بيننا وراح. ولم يمض على جلوسنا ساعة حتى حضر الرفيق جان فرح ومعه شخص آخر، وبعد أن جلس معنا نظر إليّ وقال: ألم تدري بالذي جرى؟ قال: لقد قُتل حسني الزعيم والبرازي هذه الليلة بعد نجاح الانقلاب عليهما. فدخلت إلى غرفتي وكأن حادث اغتيال الزعيم يتجدّد مرة أخرى، وبكيت بمرارة وأنا أفكّر أنه من أجل أن يعيش هؤلاء الخونة أياماً معدودة فقط، 36 يوماً، كان علينا أن نخسر زعيمنا. واستغرب الجميع بكائي ولم يفهم أحد منهم شعوري وقالوا: افرحي لقد انتقموا لك منهم!

وسرعان ما انتشر الخبر في الدير، وجاء الكثيرون لرؤيتي غير أني فضّلت أن آوي لغرفتي. وكان خالي قد نزل إلى دمشق لملاقاة شقيقي جورج. وبعد ساعات فرغ الدير من الزوار، وبقيت مع نايفة وراغدة لوحدنا. لم تكن رئيسة الدير ماريا حسونة (أظنها من بكفيّا) موجودة في ذلك الوقت وكانت متغيّبة منذ يومين.

ولا شك في أن هذا الانقلاب، وهو الثاني في دمشق، سيكون له صدى بعيد. ولاشك أيضاً في أنني عائدة إلى حريتي مهما كانت طبيعة الانقلاب وهوية القائمين به. وفكرت بأن الجو بعد الانقلاب سيكون مؤاتياً لنا. لكن كان عليّ أن أنتظر لحين عودتي إلى الشام حرة طليقة.

كم وددت لو أنّ بناتي كلّهن كنّ معي في ذلك اليوم. كنت أفكّر فيهن وكأنني سأجمع كل ثروتي في حضني، كم شاركتني هاتان الطفلتان صفية وأليسار مشاعر الألم والقلق والحرمان والحزن في الأيام الأخيرة! كانت صفية في السابعة من عمرها لكنها تتمتع بوعي أكبر من عمرها بكثير، فكانت تذهب مع أليسار إلى الطابق الأسفل في الدير لتتحدث مع الحاجّات، وكانت تجد عندهن الصحف فتقرأ وتعرف ما جرى لوالدها. وقد أخبرتني إحدى الحاجّات في ما بعد أنها كانت

تأخذ الجريدة وتذهب إلى مكان بعيد وتقرأ لوحدها ثم ترمي الجريدة وتبقى وحيدة صامتة وعلامات الحزن تتملّكها، وكانت تقول للحاجات إنها عرفت كل شيء عن والدها من الصحف، ولكن عندما كانت تلاقيني لم تخبرني ولا مرّة بأنها كانت تعلم عن أخبار والدها بل كانت تتجنب التحدث عنه. وفي بعض الأحيان كنت أفتح حقيبتي لأُخرج منها شيئاً ما فأرى مفكّرة الحزب الأخيرة وعليها صورة الزعيم فأحملها وأجلس أبكي، وكانت راغدة قد أكملت السنة، فتنظر إليّ أبكي وبيدي صورته. وهكذا تكوّنت بالنسبة إلى راغدة علاقة بين الصورة وبكائي فكلّما رأتني أبكي كانت تذهب إلى حقيبتي لتُخرج منها المفكّرة وعليها صورة الزعيم. ولكن صفية كانت تستدرك الأمر فتركض لتسحب من يدها المفكّرة وتأخذها إلى الخارج تلاعبها كي تنسى المفكّرة.

أليسار، وكانت في الرابعة من عمرها، لم تحدّثني عن أبيها في تلك الأيام لأنها كانت تلازم أختها صفية وإن كانت تعلم منها أن حادثاً خطيراً قد وقع لوالدها. وقد كانت هادئة ومطالبها قليلة تسلّي نفسها بألعاب تخترعها بهدوء وصمت.

عند الساعة الحادية عشرة صباحاً وصل أخي جورج، وكان لقاء وعناق وبكاء. فهذا لقاؤنا الأول بعد فراغ مكان الزعيم. كان البكاء يحكي آلامنا في هذا اللقاء الحزين. وبقيت مع شقيقي نستعيد تلك الكارثة الكبيرة حتى الظهر حينما ابتدأ بعض القوميين بالوصول إلى الدير يستخبرون عني أو يعلنون فرحتهم بالجزاء العادل الذي لحق بالخائن. وظل الوضع هكذا حتى الساعة السادسة مساء عندما حضر أديب الشيشكلي ومعه ضباط من الأركان ترافقهم عبلة خوري لاصطحابي إلى دمشق حرة طليقة.

عدت إلى بيت الرفيق بشير موصللي وعائلته. وفي صباح اليوم التالي ذهبت لشراء ملابس سوداء، وأثناء غيابنا جاءت أديل صعب لتقول لبشير وأخوته إن بيتها حاضر لاستقبال الأمينة الأولى وأنها لا تريد أن تنزل الأمينة الأولى في أي مكان

آخر. عدت إلى البيت وعلمت بالدعوة، لكنني حزنت عندما تذكّرت يوم رُفض طلبي وكانت الحاجة ماسّة.. فما الذي يفيدني الآن، ولماذا أكون عندهم؟

في ذلك اليوم بالذات ذهبت إلى مقرّ قيادة الأركان لأشكر قائد الانقلاب رئيس الأركان الزعيم سامي الحناوي، والتقينا هناك صلاح الشيشكلي فأدخلنا مكتب الحناوي ووجدنا بصحبته أديب الشيشكلي. وبعد تهنئته بنجاح الانقلاب وتقديم الشكر لإطلاق حريتي، عدنا إلى بيت موصللي وكانت برفقتي أسيمة شقيقة الرفيق بشير.

وتقرر أن نقيم في بيت الرفيق نجيب الشويري مع عائلته، وكان يسكن نفس البيت الذي التقيت فيه مع الزعيم لآخر مرة أمام جنينة العائلات في بناية القباني.

نزلنا في إحدى غرف هذا البيت، وما كدت أستقر فيه حتى أحضروا صفية وأليسار من لبنان، وكان للرفيق نجيب ابنة من عمر صفية أو أكبر قليلاً فكانت ترافق بناتي وتلاعبهن في حديقة كبيرة مرتّبة تقع أمام البيت. فكانت سلوتي أن أراقبهن في حرية حركتهن لا رعب يلاحقهن ولا ابتعاد عن أمهن. في تلك الأثناء كانت صحة راغدة تتأخر ولم يعرف الأطباء سبب ضعفها رغم أننا عرضناها على عدد من الأطباء لكنها كانت تزداد نحولاً وضعفاً وترفض الطعام، ولم ينفع معها أي دواء.

خرج جميع رفقائي من مخابئهم وحضروا إلى الشام، فكان البيت مزدحماً بالحاضرين سواء الذين يقيمون في دمشق أو الذين يمرّون بها، فكانوا يزورون البيت صباحاً ومساء. ولم يكن البيت يفرغ من الرفقاء والضيوف المهنّئين حتى الساعة الثانية بعد منتصف الليل. وهكذا دامت الحركة في هذا البيت، واستقبلت أثناءها ضباطاً كباراً من الجيش السوري ورجال سياسة من لبنان والشام جاؤوا لتهنئتي بإطلاق سراحي، من بينهم كميل شمعون وكمال جنبلاط وزوجته. وأدركت أن هناك مجالات واسعة تنفتح أمام الحركة القومية الاجتماعية لتتقدم إلى العمل

في صفوف الشعب. وكان قد زارني بعض الضباط في أوائل أيام عودتي إلى الشام وأحضروا معهم معطفاً عسكرياً وقالوا لي: هذا هو معطف حسني الزعيم نقدمه لك! فاقشعرّ جسمي عندما رأيته وقلت لهم: أنا أقدّر شعوركم وأشكركم، لكن لماذا أريده؟ كنت أتمنى لو أن هذا الرجل عاش وأبقى على حياة الزعيم، فمثله يوجد كثيرون ولكن ليس مثل الزعيم أحد.

وبعد مرور وقت قصير عاود الأمناء الاتصال من بينهم معروف صعب. أما الأمين عصام المحايري فكان يتواجد في البيت دائماً وكذلك الأمينان الياس جرجي قنيزح وعبد الله محسن اللذان كانا يترددان طيلة النهار ويستقبلان الضيوف من قوميين و ضباط وشخصيات سياسية. وكان أديب الشيشكلي يزورني بين حين و آخر ويسألني عما أريد أو أحتاج. وكان لقائي الأول به عندما ذهبت إلى الدير لنقلي إلى دمشق فطلبت منه أن يسمح لرفقائنا الملاحقين في لبنان باللجوء إلى الشام فقال: لا مانع، فأنا أرحب وكل الحكومة ترحّب بهم أيضاً. وهذا ما كان بالفعل. وعندما شعر القوميون بأن الشيشكلي وغيره من الضباط يرحبون بهم عادوا ومعهم كل من أراد اللجوء إلى الشام.

وكان بعض الصحافيين يترددون عليّ بغية أخذ أحاديث مني، غير أنني كنت أشترط لمقابلتهم ألا ينقلوا أي تصريح عن لساني وينشروه في صحفهم. والحق أنني رأيت أن معظم الصحف في بلادي لم تكن مرة لتقف في صف الشعب أو مع الحق، فلكل صحيفة مموّلوها من السياسيين الذين يريدونها لتخدم مصالحهم الخاصة. وكل ماصدر في صحفهم أثناء وجودي مع الزعيم في بيروت كان يكفي لإدراك معنى الصحافة. وذات يوم أتى لزيارتي الصحافيان عبد الله المشنوق ومحيي الدين النصولي بصحبة عبلة خوري، وكانان يرجوانها أن ترافقهما في زيارتي. وبعد أن قدّما التعازي قالا: نحن كنا من أخصام سعاده، ولكننا نؤكد لك أننا نحترم هذا الرجل الذي مات في سبيل عقيدته. فقلت: وأنا أريد أن أشدّد أمامكما أنني لا أرغب في الإدلاء بأي حديث في صحفكم. فوعدني النصولي بأنه لن يكتب أي شيء.

وخلال جلوسنا في الصالون، دار الحديث حول رجال العقيدة وكيف يذهبون جميعهم فداء فكرتهم أو قضيتهم، فذكرت لهم حينذاك قصة عن مجتمعات الطيور وكيف أن الفرد يضحّي بحياته في سبيل حياة المجموع. وحدّثتهم عن طائر البطريق الذي يعيش في الأقاليم الباردة ضمن جماعة متراصة حول بعضها وعندما تترمّل الأنثى تعطف على فراخها ولا تعود إلى معايشة أي ذكر آخر فيقدّم لها احتياجاتها أخوتها من الطيور. وفي كل سنة يأتي على هذه الجماعة طير غريب ينقض عليها حاملاً معه وباء ينشره بين طيور البطريق فيفتك بالكثير منها. لكن هذه الطيور تعرف موعد مجيء الطير الغريب لأنها تراه من بعيد محلقاً فوق البحار فتستعدّ للدفاع بالطريقة التالية: يصطفّ الذكور في الصفوف الأمامية والإناث وراءها والفراخ في الخلف، وقبل أن يصل الطير الغريب ينبري بطريقه ذكر ويقفز إلى البحر فينقض عليه الطير الغريب ويتعاركان، وفي حال انتصار الطير الغريب ينبري بطريقه ثان وثالث.. وهكذا حتى يتم قتل الطير حامل الوباء، ولكن البطريق المنتصر في النهاية لا يعود إلى جماعته حتى لا يحمل إليها العدوى، فيخفض جناحيه ويغرق في المياه فتصفّق الجماعات له حماساً واعترافاً بجميله. فهذا هو الطير الذي وعى حياة مجتمعه وفضّل حفظها على حفظ حياته.. فكيف بالإنسان المثالي الذي يدرك مصالح مجتمعه؟.

في اليوم التالي نشرت جريدة عبدالله المشنوق كل تفاصيل المقابلة والقصة بكاملها، وكتب المشنوق تمهيداً للمقال قال فيه: «لقد طلبت منّا ألاّ ننشر شيئاً عن لسانها فوعدها زميلي الأستاذ محيي الدين النصولي ولم أعدها أنا.. لهذا أنشر الحديث». ولم يكن في حديثي أي مس بالقضية أو بشخص الزعيم، بل على العكس كان فيها الكثير من العاطفة فحسب.

كان المسؤولون يتردّدون طيلة النهار على البيت، فيجري بينهم وبين القوميين حوارات ساخنة، وأحياناً كانت الحوارات بين المسؤولين أنفسهم، وكلها متعلقة بالأحداث الأخيرة وكيف تصرّف هذا الشخص أو ذاك، وكيف كان عليه أن يعمل

ولماذا لم يفعل؟ وكان معروف صعب أحد الأشخاص الذين تناولهم القوميون وبعض الأمناء، فبعضهم يقول: لماذا كان الموعد مع حسني الزعيم، ولماذا لم يخبر الأمناء بذلك؟ ولماذا أنكر معروف صعب على الأمين عبدالله محسن موعد المقابلة في القصر رغم أن الأمين عبد الله أتى ليقول له إن هناك خبراً هاماً يخص الزعيم من الضروري أن يصله قبل المقابلة. فكان جواب معروف أن المقابلة ألغيت ومكان الزعيم لا يعرفه أو هو بعيد ولا يستطيع أن يعلن عنه لأحد. فذهب الأمين عبدالله مطمئنّاً عندما عرف أن المقابلة ألغيت.

ولم ينجُ معروف صعب وزوجته من لسان السيدة عبلة خوري التي كانت قد حضرت إلى بيت معروف فوجدت أديل وأخبرتها بأنها آتية من قبل عمها رئيس الوزراء سابقاً فارس الخوري لتنقل إلى الزعيم حديثاً هاماً جدّاً. فقالت لها: الزعيم ليس هنا. فأجابت عبلة: ولكني أقول لك إن الأمر هام جداً وخاصّ من عمّي فارس، لذلك يجب أن أتصل به سريعاً. فردّت أديل قائلة: لا أستطيع، فهي أوامر من الزعيم. قالت عبلة: إسأليه وردّي عليّ خبراً وقولي له إنه هام وخطر وهو من عمّي. قالت أديل: لاتضيعي الوقت فمن المستحيل إبلاغه. فذهبت عبلة غاضبة تشتم استبداد بيت صعب. وفي صباح اليوم التالي قصدت عبلة أديب الشيشكلي في دائرة الشرطة لتسأله عن الزعيم وما إذا كانوا قد عرفوا شيئاً عن المقابلة، فوجدته يبكي ويشتم كل من تدخّل في هذه المقابلة خصوصاً بعض الجهات التي كان يظنّها تعمل لحساب المكتب الثاني. وسألته عبلة عمّا به، فقال: لقد سُلّم الزعيم في القصر أمس إلى الحكومة اللبنانية، وكانت المقابلة عبارة عن مؤامرة وُضعت من قبل رياض الصلح بالاتفاق مع حسني الزعيم. ألم أحذرهم منه خصوصاً معروف صعب؟ وأخذ يكيل الشتائم لمعروف. فجنّ جنون عبلة وقامت تتهم معروف بشتى أنواع الخيانات.

وطُرحت تساؤلات عديدة من قبل الأمين عبد الله محسن وعبلة خوري حول موقف معروف في ليلة المقابلة، فقد جاء لزيارتي في نفس اليوم حين كنت لا أزال في الفندق وأخبرني أمام بشير موصللي عن المقابلة، فكيف ولماذا قال للأمين عبد

الله إنها أُلغيت؟ وشعر معروف بأجواء التساؤل حوله، فغضب على عبلة لأنها شيّعت عنه الأخبار والتكهّنات. وكان من بين الناقمين أيضاً صبحي فرحات الذي كان مع الزعيم حتى آخر ساعة قبل المقابلة ونزل معه من بيت معروف حيث كان ليرافقه في السيارة التي ستقلّه إلى القصر، لكن إبراهيم الحسيني منعه قائلاً إنها مقابلة سرية. فعاد صبحي أدراجه ليصعد إلى بيت معروف ففوجئ برجال الأمن مختبئين تحت الدرج فقبضوا عليه وساقوه إلى السجن، ولم يدر أحد بمكانه إلا بعد مرور أكثر من أسبوعين وبعد بذل جهود كبيرة.

وكان عمر أبو زلام من الأشخاص الذين اصطدموا بمعروف أثناء وجوده في عمّان، وعلمت أن عمر طلب من معروف مبلغاً من المال طالما أن أديل كانت الخازنة أثناء الحوادث وتهيئة السلاح للثوار في الشام وبقي المال معها بعد انتقالها إلى عمّان، وقال عمر إن الأمينة الأولى في الدير تحتاج إلى المال ويجب أن نأخذ لها مبلغ 500 ليرة من الخزينة لتصرف على أولادها. فرفض معروف، لكنّ عمر ألحّ على حاجتي الماسّة، فأجابه معروف: مثلها مثل غيرها وقد نقل لي عمر هذا الخبر بعد عودتي من صيدنايا، فقلت: «يا ليت مثلي مثل غيري وخلص الزعيم بحياته وبقي لي كما بقي لهن أزواجهن».. مع العلم أنني رفضت تسلّم أي مبلغ من المال من القوميين حينما كنت في الدير. لكن عمر بادر في هذا الأمر تقديراً منه لحاجتي، والحقيقة أنه لم يكن بقي بيدي سوى 11 ليرة من أصل الستّين التي كنت أحملها عندما نُقلت إلى صيدنايا.

بعد أيام من مجيئي إلى دمشق من صيدنايا سلّمني الأمين الياس جرجي قنيزح كتاباً من الزعيم كان قد أرسله إليّ حينما كنت في اللاذقية ونسي الأمين الياس أن يسلّمني إياه عندما مرّ بي، وفيه يطلب مني الزعيم الحضور إلى دمشق لأنه لم يعد قادراً على مغادرتها نظراً إلى أن الأمين الياس أخّر موعد عودته من المناطق رغم إلحاح الزعيم عليه بالعودة، ويرجوني المجيء في نفس النهار. وفتحت تلك الرسالة جرحاً جديداً في أعماقي فلو أني تسلّمتها ذلك المساء لكنت تركت

اللاذقية وحدي وذهبت إليه قبل أن يأتي الأمن ويعتقلنا، وكنت بقيت مع الزعيم مدركة بأن الأولاد في مكان آمن في بيت السيدة شوّاف في اللاذقية. وجاءت هذه الرسالة لتذكّرني بالمآسي العديدة التي مررت بها في الأيام الأخيرة للفاجعة. وهذه الرسالة آخر ما كتبه الزعيم لي، وهي باقية مع مجموعة رسائل الزعيم.

في هذه الأثناء أرسل جورج عبد المسيح ابنة أخته نورا سرور لزيارتي في دمشق، فرأت أن الحركة في الشام مستمرة وأن الأشخاص الذين يزورون البيت هم من الوجوه المعروفة سياسياً وعسكرياً وفكرياً. لذلك قالت لي بعد يومين إنها راجعة إلى خالها لتخبره بالأمر، فقلت لها إن أديب الشيشكلي يرحّب بالقوميين وهو مستعد لأن يسهّل لهم الدخول إلى الشام. ويومها لم يكن المسؤولون الحزبيون قد خرجوا من مخابئهم في لبنان.

وذات يوم أتاني أمين النجار ومعه شخص آخر لم أعد أذكر اسمه، وقال لي إن جورج عبد المسيح يريد اللجوء إلى الشام. فقلت إن هذا أمر بسيط، قولوا له أين سيكون في اليوم المحدد حتى أُعلم أديب الشيشكلي ليرسل من يُسهل دخوله إلى الشام. فأعطاني اسم المكان على الحدود والساعة المتفق عليها. وفي الموعد المقرر أرسل الشيشكلي من قبله رجالاً في سيارة عسكرية لاستقباله على الحدود، لكنهم عادوا بعد انتظار دام ساعات من دون أن يجدوا جورج في المكان المتوقع. وفي نفس الليلة سمعت قرعاً على الباب بعد منتصف الليل، فنهضت من فراشي أسأل مَن القادم، فقيل لي إنه أمين النجار ففتحت الباب ليخبرني أن عبد المسيح في الخارج وقد وصلوا به الآن. وكان الرفيق نجيب وزوجته نائمين في الغرفة المجاورة فأيقظته وطلبت منه أن يدبّر بيتاً يأخذه إليه. وبينما الرفيق نجيب يرتدي ملابسه وأمين ورفيقه ينتظران، إذ بالباب يقرع ففتحته لأرى عبد المسيح والغيظ يتقطر من وجهه وهو يصرخ: أين هم، هل تظنون أني كلب حتى أنتظر في صندوقة صغيرة؟ قلت له إنه لا بد من الانتظار قليلاً حتى يرتدي نجيب ثيابه، فعاد إلى مكانه، ثم ذهبوا جميعهم إلى بيت الرفيق جورج بلدي حيث بقي عبد المسيح عندهم فترة.

بعد مجيئي من الدير بأسبوع أتى لزيارتي رئيس المكتب الثاني في ذلك الوقت صلاح بزري ورحب بي باسم الحكومة وسألني ما إذا كنت بحاجة إلى مال أو أي شيء آخر مؤكداً استعداد الحكومة لتنفيذ كل الطلبات. فشكرته وقلت إنني لست بحاجة إلى شيء، وذهب. بعد أسبوع جاء مرة أخرى ليقول لي إنه بعد معرفته بي وعلمه بإخلاصي لبلادي ووطني سيطرح عليّ موضوعاً لمصلحة البلاد، وهو أن علاقات الشام مع لبنان ليست على ما يرام وهم يريدون تحسينها خصوصاً أن رياض الصلح يطلب منهم أن أغادر الشام لأنه قلق من جهتي. ولذلك فهم يطلبون مني مغادرة البلاد وهم على استعداد لإعطائي أي مبلغ من المال. وقال: مئة ألف ليرة لك وتعودين بعد وقت قصير، وأنا أقسم لك بأنني في طليعة الأشخاص الذين سيكونون في استقبالك. أما الآن فمن الضروري أن تغادري البلاد وتكونين بذلك قد فعلت حسناً.

كان الأمين عصام المحايري حاضراً، فقلت لصلاح بزري: هل تحمل مذكّرة بإبعادي؟ أجاب: لا ضرورة للمذكّرة. قلت: ولكنها بالنسبة لي ضرورية جداً، فكيف أغادر البلاد و لا يوجد أمر رسمي من الحكومة؟ فإذا علمت أنا أن الحكومة لا تريدني ولا ترحب بإقامتي في هذه البلاد فإني شخصياً لا أعود أحب البقاء فيها. ولكن أستغرب من الحكومة هذا الموقف الجديد وقد كنت أنت بالأمس تسألني ما إذا كنت بحاجة لأي شيء وتؤكّد أن الحكومة ترحّب بي! فردّ قائلاً: والآن هي تطلب منك مغادرتها. قلت: حسناً أحضر لي الأمر الرسمي وفي الحال سأغادر. قال: لا لزوم لشيء رسمي فأنا موظف رسمي وأطلب منك هذا. حينئذ تدخّل الأمين عصام وأجابه: هي ليست حرة في تقرير مصيرها بل الحزب هو الذي يقرّر. فرفع بزري نبرة صوته وقال بحدّة: أنا أحدّثكم الآن بلطف، وإذا كان الموضوع غير واضح عندكم فنحن لنا تدابير أخرى. وخرج غاضباً.

ودُهشت لهذا الأمر، علماً أن رفقاءنا كانوا على اتصال دائم مع أكرم الحوراني وأديب الشيشكلي وغيرهما من الوزراء الجدد في المجلس، وكان الجميع يُظهرون

التقرّب والتشجيع للعمل الحزبي. فذهب الأمين عصام إلى رفقائنا يخبرهم بالأمر ليتصلوا بالوزراء، وهكذا علم أكرم وأديب بالموضوع وأبديا دهشتهما واستغرابهما. وفي نفس الليلة وجّها الدعوة إلى الوزراء وعقدوا اجتماعاً كاملاً لمعرفة هويّة الذي كلّف صلاح بزري بإبلاغي ضرورة مغادرة البلاد. وقد نفى الجميع علمهم بالموضوع، فما كان منهم إلا أن استدعوا صلاح وحققوا معه وسرّحوه من وظيفته في اليوم التالي بعد أن تبيّن أنه تصرّف من تلقاء نفسه (لعل أحد الوزراء حرّضه على ذلك وأظن أنه ناظم القدسي ولكنه أخفى معرفته بالموضوع). وفي اليوم التالي لزيارة صلاح، أتى عقيد في الجيش في ساعة مبكّرة من الصباح وحقّق معي عن كل كلمة قالها صلاح لي. وأكّد العقيد أنه موفد من قبل الجيش الذي يحترم سعاده و يقدّره ويريد بقائي في أرضه وله الفخر في أن أكون مقيمة في الشام. وطمأنني إلى أن ما قام به صلاح بزري لم يكن إلا تدبيراً من عنده ولا علم للحكومة أو للجيش به، وأنه قد يعاقب على هذا العمل. الآن لم أعد أذكر اسم الضابط لكني عرفت لاحقاً أنه من أصل طرابلسي.

بعد استشهاد الزعيم راحت الصحف تنشر الكثير عن الحزب وعن حياة الزعيم وتجري مقابلات مع أعضاء الحزب ومسؤوليه، كما أخذت المجلات تنشر قصائد قومية وتفاصيل عن تاريخ سعاده والحركة القومية الاجتماعية في شتى العهود. وكانت أقوال سعاده تتصدّر ترويسات بعض الصحف بحيث لم يعد اسم سعاده غريباً على أي مواطن في بلادنا، وحتى في القرى والأرياف كان المواطنون يتلّهفون بشوق للاستماع والقراءة عنه وعن شخصه وأقواله وحياته واستشهاده. وأخذت المبادئ تنتشر في صفوف الشعب وخصوصاً المثقفين في الشام الذين ما كانوا قد تعرّفوا بعد على مبادئنا فكان الإقبال عليها مدهشاً من كل حدب و صوب.

بقينا في بيت الرفيق نجيب الشويري ما يقارب الشهرين قضيت خلالهما مدة في دير معلولا بسبب مرض راغدة التي لم يعرف أي من الأطباء سبب ضعفها وقلة

طعامها، وعدت من معلولا وهي لاتزال على نفس الوضع. وقد دلّني بعضهم على طبيب ماهر متخصص بطب الأطفال من ألمانيا اسمه الدكتور جميل سالم، فذهبت إليه بعد أن فحصها قال لي: افحصوا دمها اليوم وأحضروا لي النتيجة عند المساء. وهكذا كان، وأظهر فحص الدم وجود جراثيم التيفوئيد، لكنّ الدكتور سالم طمأنني قائلاً: لا تخافوا، إنها الآن في مرحلة النقاهة لأنها تجاوزت العشرين يوماً على بدايته. ووصف لها غذاء على نقيض الذي كانت تتناوله سابقاً. وسرعان ما ظهر التحسّن حتى شفيت تماماً. وأذكر الآن منظرها في ذلك الوقت وكيف كانت تضعف يوماً بعد آخر وكنت أنا أذوب معها حزناً وإشفاقاً. فقد كانت بالنسبة لي صغيرة الزعيم المحبّبة إلى قلبه مثلما كانت صغيرتي المحببة إلى قلبي. وما كدت أراها تتحسّن حتى انتعشت معها، وأمضت بعد ذلك فترة نقاهة ممتازة. وبقي الدكتور جميل سالم هو طبيب أطفالي، ولم يكن يقبل أن يتقاضى مني أجور معاينته على الإطلاق، وكان يقول لي: إنهم لا يعلمون بعد أي جريمة ارتكبوا بقتل الزعيم.

كان جورج عبد المسيح يلتقي الأمناء الموجودين في الشام في بيت الرفيق جورج بلدي إلى أن تمكّن الأمناء الموجودون في لبنان من التجوّل في دمشق فصاروا جميعهم على اتصال مع عبد المسيح.

وبالفعل، تركت حوادث تمّوز في صفوف المواطنين تساؤلات عن ممارسات الحكومتين الشامية واللبنانية ضد الزعيم وضد الحزب. وشهد الجو العام نقمة على حسني الزعيم والبرازي وخصوصاً على رياض الصلح الذي كان يعرف هذا. وكانت الحكومة الانقلابية على حسني الزعيم تعبّر عن رأيها علناً، وكل الأوساط الشعبية في الشام ساخطة على الصلح. ولذلك كانت الصحف تتناول بسخرية كل تحركات الحكومة اللبنانية تجاه القوميين.

وبدأت تردني من القوميين القادمين من لبنان تفاصيل عمّا جرى يوم الثامن من تموز، وماقيل في حينه، وكيف حُكم بالإعدام على رفقائنا الاثني عشر الذين

كانوا مع جورج عبد المسيح ووقعوا جميعهم في يد العسكر، وكيف تظاهرت أمّهاتهم أمام القصر احتجاجاً على أحكام الإعدام، وكيف أجرت الحكومة قرعة لتعفو عن نصفهم وتعدم الستة الباقين! وأخبرني الرفقاء القادمون من بيروت عن المواقف البطولية لهؤلاء الشهداء في مواجهة الموت. ونقل لي الرفقاء تعليقات الصحف على أحداث الثامن من تموز، وكيف أنها عبّرت عن نقمتها على الحكومة ووجّهت لها اللوم لإقدامها على إعدام الزعيم سعاده، وكيف أن رياض الصلح خائف من النقمة لكن بعد فوات الأوان.

وعلمت خلال وجودي في دير معلولا أن كمال جنبلاط قدّم سلسلة استجوابات متهماً الحكومة بأنها خرقت القانون في إجراءات محاكمة سعاده، وفنّد أخطاء الحكومة وأظهر استهتارها بحرمة القانون. وقرأت بعض مقالاته وأنا في معلولا، وكان الدكتور نفشي مع عائلته في الدير فسألني: هل جنبلاط قومي؟ فأجبته: لا، بل هو مؤسس حزب خاص به. قال: إن مقالاته تميل للدفاع عن سعاده، ويظهر أنه يحبكم! قلت: لعله يحبنا.

قيل لي إن معروف صعب صرّح، أثناء وجود الأمناء المتوارين في الأردن، وهو من بينهم، بأنه تلقّى معلومات تفيد بأن الكاهن قال إن الزعيم ترك وصية يعيّن فيها معروف خليفة له. فجرى نقاش بين الأمناء في ذلك الوقت لكنه توقّف عند هذا الحدّ. وعلمت أيضاً أن معروف كان يتهم الياس جرجي قنيزح بتناول الزعيم، وعندما أثيرت هذه القضايا مباشرة بينهما علّق كل واحد منهما على الآخر فتسرّبت هذه الأحاديث وغيرها إلى صفوف القوميين فبدأ بعضهم يبدي رأياً خاصّاً ويتخذ مواقف تجاه هؤلاء الأمناء.

أثناء إقامتي في بيت الرفيق نجيب الشويري جاءت لزيارتي إميلي حلبي التي كنت أظنها رفيقة قومية، وكانت تدرّس في العراق وتأتي إلى لبنان في عطلة الصيف. وقد التقيت بها لأول مرة في ضهور الشوير بعد مجيئي من الأرجنتين،

كما أنني كنت أسمع باسمها من الزعيم عندما يروي لي عن السيدات القوميات ونشاطهن في الحركة. وكانت إميلي تشارك في كثير من الأعمال الحزبية ولهذا السبب اعتُقلت أيام الفرنسيين في الميّة وميّة مع القوميين. لهذا كنت أرحّب بها كرفيقة عندما نزلنا من الشوير إلى بيروت سنة 1947. وذات يوم كنت في حفلة للسيدات في بيت الأمين جبران جريج، فجلس قربي جورج عبد المسيح وأعطاني رسالة مطوّلة مفتوحة موجّهة لإميلي، فقرأتها وعلمت منها أن له عليها عتاباً طويلاً وكأنها رد على رسالة سابقة منها. وفي رسالة عبد المسيح، وقد كانت عنيفة أيضاً، تأنيب ومحاسبة على تصرفاتها الخفيفة. لكني لم أستوعب لماذا سلّمني هذه الرسالة علماً بأنني لم أكن أتعاطى معها كثيراً! فسألني الزعيم ماذا أقرأ فقلت له رسالة من جورج إلى إميلي، وعندما عدنا إلى البيت سألت الزعيم عن سبب هذه الرسالة من عبد المسيح إلى إميلي فقال إنه كان يحبها وكانت بينهما مراسلات، ولكن لم يتحقق أي شيء. وكان الزعيم يرحّب بأن يتم الزواج بينهما، غير أن إميلي كانت تقول إنها لاتحبه. ولكن الرسالة التي قرأتها تضمّنت الكثير من الاتهامات السلوكية.

وفي الصيف الثاني لعودتي من الأرجنتين، وبعد ولادة راغدة، صعدنا إلى عين القسّيس لقضاء الصيفية. وعلمت أن إميلي في لبنان فدعوتها لتمضي معي أسبوعاً وكنت أحدثها في مواضيع مختلفة، من بينها موضوع عبد المسيح، فكانت تقول لي إنها لم تحبه أبداً رغم أنه يظن بأن تمنّعها هو نوع من الدلال. وتقول أيضاً: إن في شكله أشياء أكرهها، ولقد حاول الزعيم أن يوفّق بيننا في الأيام الأخيرة، لكن من المستحيل أن أقبل فأنا لا أستطيع أن أحبه. وعندما جاءت إلى الشام لزيارتي أخبرتني أنها تفكّر بترك العراق لأن المناخ ليس مناسباً لصحتها. فقلت:إذا كنت تستطيعين العمل في لبنان أو في الشام فتعالي إلى هنا. فأنا أبحث عن بيت للسكن وسأكون مع بناتي وأترك لك غرفة خاصة. وإذا أتت شقيقتك مارغو لتدرّس معك فعندها تكونان معاً وتتعاونان في المصروف، وأنا أسعف نفسي بتخفيف الإيجار

طالما أنكما تدفعان أجرة غرفتكما. لكنها لم تعطِ جواباً بل ذهبت إلى طرابلس ولم يبقَ من العطلة الصيفية سوى ثلاثة أيام. وقال لي شقيقها جورج بعد ذهابها إنها لا تريد العودة إلى العراق لأنها منقولة إلى خارج بغداد وهي مترددة في القبول. ثم أخبرني أنها قررت العودة وستمرّ عليّ بطريقها إلى بغداد.

بعد أيام علمت أنها في بيت السيدة عبلة خوري وقد طلبت منها معرفة مقر جورج عبد المسيح فأخذوا لها موعداً معه وأوصلوها إليه. ثم تابعت اتصالها به في بيت جورج بلدي، وكان واضحاً أنها راضية بأن تكون قربه. ورحّبت أنا بالفكرة طالما أنها كانت رغبة جورج والزعيم، فلتكن الآن رفيقته وتعاونه في حياته.

ولكن إميلي لم تعطني قرارها النهائي بشأن البقاء في الشام أو العودة إلى العراق، وكانت تقول لي دائماً إنها سترجع إلى بغداد، فأسألها: وكيف تبقين هنا وقد ابتدأ فصل الدراسة؟ وكنت أصرّ عليها بأن تدرس جدّيّاً في موضوع بقائها في دمشق. ولم تقل لي إميلي ولا مرّة واحدة إنها ترغب في التقرّب من عبد المسيح، وعلمتُ في وقت لاحق أنها أحضرت إلى عبلة خوري رسائل جورج القديمة لتؤكد لها أنه يحبها، وأنها مستعدة للزواج منه.

في هذه الأثناء ابتدأت البحث عن بيت بمساعدة شقيقي جورج والرفيق الدكتور فؤاد الخوري، وكنت لا أعرف شيئاً عن دمشق سوى الفندق وبيت الرفيق نجيب. وقام الدكتور الخوري بجولات معنا بحثاً عن بيت، ومع أننا عثرنا على عدة بيوت مناسبة إلا أن الخوري كان يجد علة فيها، فهذا منعزل وذاك لا يوجد فيه غير باب واحد.. وهكذا حتى وجدنا البيت الذي سكنّاه في شارع أبو ذر الغفاري، ملك ماجد الغزّي، وحين رأيناه قال فؤاد: هذا هو البيت المناسب لأن فيه غرفة منفردة وله مدخل من باب المطبخ وهو صالح لسكن عبد المسيح. فقلت له: وكيف يسكن هنا وهو مطلوب، وأنا عندي ثلاث طفلات صغيرات، والبيت سيكون مرجعاً حزبياً لي وله فيصبح مكتباً أكثر مما هو بيت عائلي؟ فقال: لقد قرر الحزب أن يسكن عبد المسيح هنا، فهذا هو المكان الوحيد الأمين له لأن أحداً لن يفكر بأن يفتش عنه

في هذا البيت. وأنت زوجة الزعيم فهل تبخلين عليه بغرفة عندك وهو محكوم بالإعدام وليس له ملجأ آخر؟ فقلت له: ولكن عندي أطفالاً عليّ أن أهتم بهم، وهم قد يخبرون عن وجود عبد المسيح فيصبح المكان غير مأمون له،فإذا استطاع الحزب تأمين بيت له مع حرس فسيكون مضموناً أكثر. فرفض فؤاد قائلاً: لا، لأن الحزب فكّر في هذا الأمر واتخذ قراره.

وهكذا كان، وجاء عبد المسيح إلى البيت واحتل غرفة تقع في آخر الدار قرب الحمّام والمطبخ ولها باب في داخل ممرّ يُوصل من جهة إلى المطبخ ومن جهة أخرى إلى الدار. وبقي في الغرفة مع شقيقي جورج الذي كان يصرف علينا طيلة الأشهر الثلاثة التي قضاها معنا.

وبعد مرور وقت قصير عاد الأمناء من بيروت ليجتمعوا في دمشق، وكانوا في البداية يأتون خفية ويعقدون اجتماعاتهم سراً. وكانت إميلي قررت المجيء إلى دمشق ونزلت في بيتي و في شهر تشرين الثاني سنة 1949، وهي لا تزال تقول إنها غير متأكدة من البقاء في دمشق. وقد بقيت في البيت عدة أشهر، وفي هذه الأثناء سافر شقيقي عائداً إلى بوانس آيرس.

الفصل الثالث عشر

بعد اجتماعات عديدة بين الأمناء، تقرر إعادة تنظيم الحزب، ولم يكن معروف صعب راضياً عن هذه العملية بحجّة أن القوميين كلهم ليسوا على اطلاع في مسألة إعادة تنظيم الصفوف على هذا الشكل. وكان رأيه الخاص أن يتم هذا بعد وقت محدد. لكن الأمناء أصروا على أن الضرورة تلح لإعادة التنظيم سريعاً لبدء العمل التنظيمي والدستوري. واجتماع الأمناء بالفعل وتقرر انتخاب مجلس أعلى ورئيس ومجلس عمد.

في تلك الجلسة كان لي رأي هو أن يجري انتخاب المجلسين دون انتخاب رئيس حتى نعطي المسؤولين القوميين فرصة للتفكير في ما إذا كان جورج عبد المسيح يصلح لأن يكون رئيساً في ذاك الوقت، خصوصاً أنه لبناني ومتخفّ. لكن تم التصويت بالإجماع على أن يكون للحزب رئيس وأن يكون عبد المسيح هو الرئيس.

وهكذا انطلقت الأعمال الحزبية إدارياً وسياسياً، وتشكّل مجلس العمد على الشكل التالي: عبد المسيح رئيساً للمجلس، عبد الله محسن للتدريب، معروف صعب للإذاعة، عصام المحايري للثقافة، الياس جرجي قنيزح للداخلية. وكان الأمين عصام من البارزين فكرياً في المجلس، فكانت مقالاته رزينة واعية مدركة مع الكثير من التحفّظ تجاه الأجواء السياسية، إضافة إلى أنه ذو مزاج حسابي.

بعد أيام من سفر شقيقي جورج عائداً إلى الأرجنتين، صرّح لي عبد المسيح بأنه ينوي الزواج من إميلي وأنه فاتحها في الموضوع لكنها لم تعطه جواباً نهائياً واكتفت بالقول إنها إذا ما تزوجته فسيكون موقفها هذا من أجل القضية فقط خصوصاً وأنها أعلمته مسبقاً أنها لا تحبه.

فحدّثت إميلي في الأمر راجية منها أن تفهم معنى هذا الزواج، وكان جوابها أنها مستعدة وعلى عبد المسيح أن يعرف هذا.

وبعد سنة من الزواج وقع الطلاق بينهما. وأُعيد مرّة أخرى طرح موضوع إقامة عبد المسيح في البيت، وقد سكن مع الرفيق فؤاد قطريب فترة قصيرة ليعود بعدها إلى بيتنا. ثم سكن في بيت الأمين الياس جرجي قنيزح مدة لكنه عاد ثانية إلى البيت. وخلال هذه التنقلات كان قد عرف أنني لا أريد البيت مكتباً مفتوحاً في الليل و النهار، وطلبت السكن في غرفة خاصة أنعزل فيها مع بناتي كي أضع حداً للفوضى المستشرية، وفي الوقت نفسه أربّي بناتي في جو عائلي صرف. وكان كلما عاد إلى البيت يقول لي: هذا البيت هو المكان الوحيد الذي أستطيع العمل فيه!

وأعود بذاكرتي إلى الأعمال الحزبية، فقد كانت النشاطات مدهشة وعمليات الإدخال في الحزب كثيفة. وكان قد اقترب موعد إجراء أول انتخابات نيابية بعد الانقلاب فقرر المسؤولون خوض المعركة بمرشح قومي هو الأمين عصام المحايري، وبذل القوميون نشاطاً كبيراً وسط تأييد شعبي ملحوظ. وأذكر أنه حين تقرر ترشيح الأمين عصام عارض معروف صعب هذه الخطوة قائلاً إننا جميعاً نجهل نتائج هذه المعركة الخاسرة، وإنه على يقين من أن مرشح الحزب سيفشل وقد أكد له الضابط محمد (لا أذكر اسمه الكامل الآن) فشل القوميين في هذه الانتخابات وبالتالي سيكون لهذا الفشل صدى سيء في المستقبل. ودعا إلى تجنّب المعارك اليوم حتى لا نظهر بأي مظهر ضعيف. وقال إنه يريد تسجيل اعتراضه على فكرة الترشيح. ولكن جميع المسؤولين وافقوا على ترشيح الأمين عصام. ولعبت التحركات الحزبية والحملات الإعلامية والمساعي والاتصالات السياسية دوراً مهمّاً، كما أظهر القوميون نشاطهم العظيم الذي تكلّل بنجاح الأمين عصام نجاحاً باهراً.

كانت زيارات معروف وأديل صعب إلى بيتنا قد فترت منذ مدة، ولم أعد أراهما. وعلمت أنهما غير مقتنعين بتوجّهات الحزب. وبدأ معروف يحمل على

أديب الشيشكلي لأن الثاني كان يهاجم الأول وينعته بأبشع الصفات غير اللائقة. واستمر الجدل بيننا وبين معروف حول علاقاتنا بالشيشكلي الذي كان يُسهّل لنا أشياء كثيرة بحكم موقعه المسؤول في الجيش. وكانت غاية الحزب أن يصل وإياه إلى مرحلة نشر التوجيه القومي الاجتماعي. وكان شقيقه صلاح يتردد عليّ أكثر منه، وكنت أشعر بأن كليهما يحترمان بيت الزعيم ويسرّان لي قبل غيري ببعض القضايا المطروحة على المسرح السياسي.

وكانت زوجة أديب زارتني مرة وقمت أنا برد الزيارة، وتابعنا تبادل الزيارات مرّات عديدة وكان يرافقها زوجها في معظم الأحيان. وخلال هذه الزيارات كان الأمناء يجتمعون به ويتحدّثون عن شتى الأمور السياسية. والحقيقة أن أديب كان وظلّ يحمل أرفع مشاعر التقدير والاحترام لشخص الزعيم، وعندما يذكر أحدهم اسم سعاده كان يطلب من الجميع أن يشربوا كأسه.

وزارني أديب مرّة وأنا في دير معلولا، وكان رئيس الدير آنذاك الإرشمندريت إسكاف. وصادف أن كانت برفقتي ماري فرح والطفلات، فقمنا مع أديب ورئيس الدير بنزهة في جوار الدير ورافقنا جورج عزام الذي كان خطيب ماري ثم زوجها لاحقاً. وبينا نحن نصعد الجبال نزعت معطفي لأحمله فما كان من أديب إلا أن أخذ المعطف مني وحمله قائلاً: لاتزعجي نفسك أبداً. وعندها قال لي رئيس الدير: إن الاحترام الذي يبديه هذا الضابط الكبير نحوك يشجعني على أن أطلب منه باسمك أن يتم لنا تعبيد طريق الدير التي تنتظر منذ زمن بعيد. وهذا ما حصل وتم تعبيد الطريق بعد وقت قصير.

كنت أشعر أنني إذا قلت شيئاً لأديب فهو يثق بي ويحترم كلامي، غير أني لم أرد أن يكون الاتصال بيني و بينه في ما لا يحدده الحزب، خصوصاً أن الوضع السياسي والعسكري كله كان بالنسبة لي في ذلك الوقت غير مألوف، فتركت للمسؤولين تحديد طبيعة تلك الاتصالات وبقيت صلة الوصل إذا ما طلبوا مني ذلك، ثم تابعوا هم الاتصال معه على صعيد حزبي.

وظهرت في تلك الأيام بعض الخلافات بين الشيشكلي والحوراني بعد أن علم أديب أن أكرم يخطط للانقلاب عليه. وكان من المعروف آنذاك أنه كلما وقع انقلاب كان الحوراني يدّعي أنه هو صاحب الانقلاب، وبالتالي يريد لنفسه حصة الأسد!. وأعتقد أن المشكلة بينه وبين أديب تدخل في هذا السياق، وكانت اتصالات أكرم بالجيش واسعة النطاق، بعضهم من أعضاء حزبه وبعضهم الآخر من أصدقائه ومؤيديه. وهذا ما شجّعه على التحريض ضد أديب من أجل إيجاد جو ملائم لعملية الانقلاب. لكن الشيشكلي علِم بتكتلات الحوراني في الجيش فحاربه ولاحقه وفي آخر المطاف اعتقله. غير أن أكرم لم يخلد إلى الهدوء في السجن بل واصل التآمر ضد نظام الحكم، وحتى عندما أخلي سبيله وانتقل إلى لبنان ظلّ يعمل على قدم وساق لإسقاط حكم الشيشكلي.

ومن الأسباب التي ساعدت على نجاح الانقلاب، حسب معرفتي الشخصية، إقدام الشيشكلي على تأسيس حزب أسماه «حركة التحرير» ضمّ عناصر مختلفة المشارب لا تجمعها مبادئ أو قيم فبات على أديب أن يتحمل أخطاء صفوف حزبه وممارساتها الجاهلة. كما أنه أحاط نفسه بطوق من الأصدقاء والمتزلفين والحزبيين في «حركة التحرير» وكان أكثرهم من العسكريين عديمي الاطلاع على شؤون الدولة والسياسة ومعظمهم من ذوي الأخلاق الفظة. ولعب هؤلاء دوراً أساسياً في خلق هوّة بينه وبين الشعب، فوجّهوه ذلك التوجيه الأعمى الذي جعله يضرب الأحزاب كلها. ومن أبرز موجّهي الشيشكلي في تلك المرحلة قدري قلعجي المعروف بميوله الشيوعية.

أعود إلى ذكريات الحزب، فبعد نجاح الأمين عصام في الانتخابات النيابية فكّر الحزب في إصدار جريدة تنطق بلسانه وتكون صوته إلى الشعب. وبعد نقاش وبحث قررت قيادة الحزب أن تصدر الصحيفة باسم **البناء** تشرف عليها عمدة الإذاعة ويقوم بتحريرها الرفقاء الصحافيون والكتّاب. وكانت تصدر في دمشق آنذاك مجلّة اسمها **الدنيا** وهي من أكثر المطبوعات التي كتبت عن الحركة والعقيدة،

وقد نشرت مجموعة من كتابات الزعيم ومقالات لرفقاء قوميين. وتابعت لمدة طويلة نشر سلسلة مقالات عن اتصالات الزعيم بحسني الزعيم تحت اسم مستعار (ا.س) وكان صاحب هذه المقالات هو الدكتور صبري القباني أحد الأشخاص الذين كانوا يرتّبون المقابلات بين الزعيم و حسني الزعيم عن طريق إبراهيم الحسيني. كما غطّت الدنيا احتفالات القوميين بأعيادهم في أول آذار و 8 تموز وغالباً ما تصدّرت صفحتها الأولى صورة الزعيم. وتعرفت شخصياً على صاحب هذه المجلة بعد أن زارني عدة مرات، وفي أول آذار سنة 1950 نشرت لي المجلة كلمة في ذكرى عيد ميلاد الزعيم.

عندما أصبح للحزب جريدة خاصة، انصبّت فيها كل جهود القوميين من رجال الفكر و الفن والطب والسياسة والاقتصاد. ثم توسّعت لتخصص قسماً للسيدات وأقساماً أخرى متنوعة بحيث أصبحت أكبر وأهم جريدة من نوعها.

في سنة 1950 اذ دلع حريق في محطة بنزين واقعة قرب مستودع بارود في مدينة حمص، وامتدت النار بسرعة إلى المستودع فوقع انفجار رهيب أصاب كل الموجودين قرب الحريق سواء كانوا من المتفرجين أو من رجالات الإطفاء أو من المارة حتى لو كانوا على بعد عشرات الأمتار. وقتل في تلك الكارثة أكثر من مئة شخص إضافة إلى وقوع مئات الجرحى. وبعد أيام توجّهتُ مع الرفيقتين سهام المحايري وأسيمة موصللي إلى مستشفى حمص لنقوم بواجباتنا في عمليات الإسعاف للجرحى الذين كان من بينهم الكثير من الأطفال المشوهي الوجوه والمكسّري العظام. كم كان ذلك المشهد حزيناً! وكنا بجانبهم نعمل لنخفف عنهم الآلام، فنطعمهم بأيادينا ونغسل جراحهم ونقرأ لهم القصص. أما الكبار فكنا نراقب أوضاعهم الصحية فنعطي المصل لهذا و نرفع شخصاً آخر في الجفصين حتى نغسل له جراحه، وفي أوقات الفراغ نلفّ الشاش المعقم والقطن. وكان المستشفى حديث البناء لم تكتمل تجهيزاته ولم يستقبل بعد إلاّ عدداً قليلاً من المرضى، كنا ننام في المستشفى ونعمل فيه طيلة النهار، وهناك تعرّفت إلى مدير المستشفى الدكتور أمين

سعادة (من اللاذقية على ما أظن) وقد دعانا جميعاً إلى الغداء في بيته. كما تعرّفت إلى الدكتورة إميليا بشور، كذلك زارني في المستشفى بعض العائلات من حمص وطرطوس واللاذقية. وهناك تعرفت لأول مرة إلى الأستاذ قسطنطين زريق.

بعد حوالى الأسبوع عدنا إلى دمشق عندما انتهى دور الإسعاف الأولي. ثم جاءتني دعوة من رفقائنا في المناطق الشامية المختلفة تطلب مني زيارتهم لأنهم يرغبون في التعرّف إلى عائلة الزعيم. وقرر الحزب أن أقوم بجولة على المناطق الشمالية في سنة 1951 وكان الحزب آنذاك آخذاً في الانتشار في كل بقعة من الأراضي السورية.

ذهبت في هذه الجولة مع بناتي الثلاث، ورافقنا الأمين عبد الله محسن والأمين عصام محايري حتى صافيتا، ومن هناك رافقنا الأمين الياس جرجي قنيزح إلى طرطوس وبانياس واللاذقية. وكان عبد المسيح قد اقترح أن تكون بصحبتي إميلي لكني لم أرغب في أن ترافقني أية سيدة من الشام طالما أن لنا رفيقات في كل المناطق. إضافة إلى أنني لم أرد أن تكون هذه الجولة محل استغلال من قبل إميلي التي كنت قد فهمت نفسيتها بعد إقامتها في بيتنا وبعد التصريحات السخيفة التي كانت تطلقها. وقررت الذهاب مع بناتي الثلاث فقط لأن القوميين كانوا يرغبون في التعرف إليهن.

كان خط سير الجولة: حمص، حماه، حلب، جسر الشغور، اللاذقية، بانياس، طرطوس، صافيتا، تلكلخ، دمشق. لكن في اليوم الأول لوصولنا إلى حمص مرضت راغدة مرضاً شديداً، والسبب في ذلك أن الخادمة أطعمتها بوظة فلم تستطع تحمّل تقلّب درجات الحرارة الشديدة وهي في تلك السن. واضطررنا لنقلها إلى مستشفى الرفيق شفق طعمة حيث بقيت ثلاثة أيام تحسنت صحتها خلالها لكن جسمها ظلّ نحيلاً، فكان من الضروري إراحتها من عناء السفر الطويل. لذلك عدّلنا خطة الجولة وتوجّهنا رأساً إلى مرمريتا حيث اجتمع بنا الأمين عصام.

وطالت إقامتنا في مرمريتا، بل كانت أطول إقامة في مكان واحد خلال هذه الرحلة التي كانت موفقة، ومحورها الاجتماعات والسهرات والتعارف والأحاديث الفكرية والسياسية وعمليات الإدخال في صفوف الحزب. وفي كل هذه الفعاليات، كانت شخصية القوميين ونظامهم من أبرز المظاهر التي تعكس صورتها على المجتمع. ومن مرمريتا قمنا برحلات قصيرة إلى القرى المجاورة: حب نمرة، عمار، قلعة الحصن، دير مار جرجس (الخضر)، وغيرها من منطقة وادي النصارى، وفي كل قرية كنا نعقد سلسلة من الاجتماعات تستغرق النهار كله وقسماً كبيراً من الليل. وأذكر خصوصاً رحلتنا إلى عمار، فبينما نحن نصعد الجبل في طريقنا إلى الضيعة أخذت الأجراس تقرع ترحيباً بنا، وقد شعرت آنذاك أن سعاده بيننا، في صفوف الشعب كله، وفي كل بلدة وفي كل ضيعة.. وحيث يوجد قلب ينبض فإن سعاده ينبض معه. هذه الاستقبالات هي لسعاده، لاسمه الذي يجمعني بهم ويجمع بيننا في كل قطر من أقطار المعمورة.

قضيت في هذه المنطقة 21 يوماً كانت مليئة بالنشاطات الاجتماعية،زيارات المواطنين لنا والتعرف إليهم ثم رد الزيارات. وكانت مدرسة الحزب في تلك الفترة تعمل بنشاط في مرمريتا، وخيرة شباب المنطقة في صف واحد يدرّسون فيها ويهيّئون نفوساً متينة بقيم مثالية ونظام قوي يشدّهم إلى مبادئ الحياة الجديدة، فكان التلميذ القومي واعياً لواجباته ومدركاً لمسؤولياته تجاه وطنه وقضيته القومية ويعمل بهذا الشعور الواعي مبرهناً على ذلك في انصبابه على الدراسة والمطالعة وإعطاء القدوة الخلقية والمسلكية. ولأنها مدرسة سورية قومية اجتماعية فقد أمّها طلبة العلم والنظام والأخلاق من جميع المناطق المجاورة. وأدى هذا بطبيعة الحال إلى تحرّك العناصر التي كانت تعمل على مستوى فردي وخلافاً لعقيدتنا، فلاقت المدرسة حملات معادية وعنيفة لكنها صمدت وتابعت رسالتها رغم الإمكانيات المادية الضعيفة التي كانت تعيشها مثل كل مؤسساتنا التي لم يكن نصيبها في عالمنا العربي سوى الحرب والملاحقة وتشريد أعضائها، فكنا نواجه الأحداث ونحن صفر اليدين من أي مال.

وانتقلنا من مرمريتا إلى صافيتا التي كانت من أعرق المناطق الحزبية ذات القاعدة الشعبية المتينة. وقد علم الرفقاء بالموعد المعين لحضورنا، وما إن وصلنا إلى بعد خمسة كيلومترات من البلدة حتى قابلتنا صفوف الشعب على جانبي الطريق وقد احتشدت لاستقبالنا بالتصفيق الحاد و الهتافات بحيث شعرت فعلاً أن الانتقام لسعاده يكمن في انتصار قضيته، وأدركت أن الشعب هو الذي يحقق هذا الانتصار. وعندما دخلنا الحارة المقرر أن ننزل فيها كان الحشد قد وصل إلى حد لم يكن أحد يتصوره، فلم تعد السيارة قادرة على اختراق الحشود الذين كانوا يحيطون بنا وهم يهتفون ترحيباً. ولم يعد باستطاعة القوميين المسؤولين عن الحراسة رد الجمهور لأنه كان أكبر من استعداداتهم، إذ لم يكن أحد يتوقع مثل هذا الاستقبال الحماسي والرغبة العارمة في الاقتراب منا رغم الحراسة. ولكن هذا هو شعبنا في صافيتا، حر، غير متقيد بالنظام، وسريع التعبير عن عاطفته. ومهما بذل القوميون من جهود فما كانوا قادرين على إرجاعهم عن باب السيارة فاضطررنا للبقاء فيها إلى أن ارتدّت الجماهير عنها قليلاً. ونزلنا نسير بصعوبة نحو البيت، وكان الناس متجمعين على نوافذ البيوت والشرفات يرشّون علينا ماء الزهر والورد، بينما النسوة يطلقن الزغاريد.. فكان مشهداً لا يُنسى. هذا ما فعله سعاده في صفوف الشعب، الشعب الذي لم يأبه للموت و لم يخشَ تهديداً ولا تشريداً ولا ملاحقات، وظلّ محافظاً على عقيدته.

أثناء هذه الإقامة في صافيتا قمنا برحلات إلى نبع كركر والكفرون ومشتى الحلو وبعمرة. وكانت زيارة نبع كركر من الأحداث التي كشفت أمامي عمق تأثير المبادئ في نفوس القوميين وإدراكهم معنى المسؤولية والبناء. فقد كان برنامجنا في تلك المنطقة زيارة بيت الرفقاء كوزاك في عين كركر، وكانت الطريق المؤدية إلى البيت وعرة وطويلة المسافة، حوالى كيلو مترين، لذلك قرر القوميون تعبيدها قبل وصولنا. وكان العمل شاقاً بالفعل، لكنهم اتخذوا قرار تعبيد الطريق بسواعدهم القوية الفتية. وشاهد أهالي المنطقة منظراً من أروع مناظر الحماسة، طلاّب

وشباب لم يُجرّح أيديهم الفضّة العمل في الأرض يحطمون الصخور ويقتلعون الأعشاب ويمهدون الأرض ويعبّدونها ويرصّونها بالرمال والحجارة رصّاً متيناً.. فإذا بالأهالي يفاجأون بأن الطريق التي مروا عليها سنوات طويلة وهي خربة قد أصبحت معبّدة ونظيفة وصالحة لمرور السيارات. وكان لهذا العمل صدى بعيد في المنطقة، وأظهر أن النهضة تحتاج إلى التضحيات والترفّع عن المصالح الشخصية وتأكيد المحبة للأرض والشعب، فالقوميون لم يسألوا لمن هذه الطريق بل قالوا نحن نشق الطريق لأنها طريق لكل الشعب.

مكثنا في عين كركر يومين أو ثلاثة، وكانت صفية وأليسار وراغدة على خير ما يرام من الصحة و السرور فقد كان رفقاؤنا يهتمون بهن ويسرّون لسماع حديثهن لأنهن لم يكنّ يتكلمن سوى الفصحى، وكانوا يأخذونهن إلى مشاوير ونزهات في البرية وبعضهم يأتيهن بعصافير أو أزهار وآخرون يصنعون لهن ألعاباً من الخشب، فكان لهن أصدقاء بين الرفقاء يلاعبونهن ويحدثونهن ويتبادلون معهن الآراء في الأذواق والألعاب. وكانت أسماء الرفقاء الذين يلازمونهن طيلة النهار تدور على ألسنتهن فيذكرنهم لي عند عودتهن من التنزّه ويسألن عنهم عندما يغيببون عنهن. وكان لصفية أصدقاء يُسرّون بحديثها فيقولون لي إنها تحدّثهم بطلاقة فكر وكأنها صبية يافعة بينما هي في الثامنة من عمرها فقط. وكانوا يرون أن أليسار، ابنة الخمس سنوات، ذات شخصية قوية لايستطيع أحد أن يبدّل فكرها أو يغيّر خطّتها. أما راغدة وهي في الثانية من عمرها، فكانت تشارك أختيها بهدوء وكأنه ليس لها مكان إلا معهما.

وخصّصنا يوماً لزيارة مشتى الحلو، وكان على الطريق الطويل الذي صعدناه مشياً ضيعة صغيرة اسمها مشتى سعاده مررنا بها وزرنا بيت عائلة لم أعد أذكر اسمها كان من بين أعضائها كاهن. وكان الشيوعيون يخططون لإفشال تلك المرحلة كي يصيبوني بخيبة الأمل، فهم من خلال المدرسة الشيوعية في المنطقة كانوا على

خصام مستمر مع القوميين. لذلك جهّزوا الأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة و الاثنتي عشرة سنة بكميّة من الحجارة ليرشقونا بها عند مرورنا، ووزعوهم على الطريق المؤدية إلى الجبل. وكان منظر هؤلاء الأطفال محزناً، فالكبار يحرّكون فيهم الكراهية ويستعبدونهم بالأفكار الغريبة عنا. لكن رفقاءنا أدركوا أن الشيوعيين لن يجرأوا على الاصطدام بهم نظراً إلى كثرة عدد القوميين فأرادوا استغلال وضع الأطفال غير الخاضعين للمحاسبة واستخدامهم في تحقيق غايتهم. فما كان من الرفقاء إلا أن لحقوا بهم وانتزعوا منهم الحجارة، وبعضهم كان يحمل العصي وقضبان الحديد، وساقوهم إلى بيوتهم. ولعل المحرّضين أرادوا أن تنشب مشكلة بين الرفقاء والأطفال كي يتهمونا بأننا عدوانيون حتى ضد الأطفال ويبقون هم بعيدين عن المعركة. وفي الليلة ذاتها حاول عدد من الشيوعيين المسلّحين الاقتراب من البيت لكنهم أُجبروا على إلقاء أسلحتهم وانتهت العملية بهدوء.

عقدنا الاجتماعات الشعبية داخل البيت وخارجه بحضور الحشد الذي استقبلنا عند وصولنا، واستمر إلقاء الخطابات حتى وقت متأخر من المساء. وفي اليوم الثاني زرنا ضيعة العيون القريبة من مشتى الحلو ولنا فيها رفقاء هم في عراك مستمر مع الشيوعيين، وعقدنا فيها أيضاً اجتماعات حاشدة. ثم غادرنا إلى صافيتا ترافقنا سيارات الجيب لأن الطريق منحدرة وصعبة، وكان أحد رفقائنا يقود سيارة جيب على رأس الموكب لكنّ عطلاً طرأ عليها فتوقّفت. أما نحن فتابعنا الطريق وابتعدنا عن السيارة المعطلة لكن بعد دقائق شاهدناها تنهب الحقول وكأنها حصان يقفز فوق التلال لتعود وتأخذ مكانها في طليعة الموكب.. فكان منظراً مدهشاً أعجبنا واضحكنا كثيراً.

بعد ذلك قمنا بزيارة إلى بلدة بعمرة حيث نزلنا ضيوفاً على الشيخ القومي عبد الرحيم، وكان في استقبالنا الرفقاء جميعاً وبعض الأهالي. وبعد الاستراحة وتناول المرطّبات ألقى بعض الرفقاء كلمات ترحيبية، وألقيتُ كلمة قلت فيها إنني

وددت طويلاً أن أتعرّف إليهم، وها أنا بينهم أنظر إلى وجوههم الصافية فأرى فيها كل ما أحبَّه سعاده، قوة الإيمان والعزيمة الصادقة.

وتركنا بعمرة في نفس النهار وعدنا إلى صافيتا حيث نزلت في بيت الرفيق الدكتور صادق الذي خصص لنا شقة قضيت فيها فترة إقامتي التي استغرقت أسبوعاً. وعقدنا في صافيتا سلسلة اجتماعات وزيارات ورحلات وانتسابات إلى الحزب، وكان هذا العمل يستغرق من وقتنا الكثير نهاراً و ليلاً. ومع أن رفقاءنا في صافيتا كانوا يعملون على نشر المبادئ في صفوف الشعب والكثير منهم مهيأ لدخول الحزب، فإن بعضهم اغتنم فرصة مروري في صافيتا ليقسم اليمين بحضوري.

من صافيتا توجّهنا إلى طرطوس حيث اصطفّت الجماهير القومية النظامية أمام الدار التي نزلنا فيها، إضافة إلى حشود شعبية جاءت ترحّب بنا وكان الجوّ في طرطوس مختلفاً عمّا هو في صافيتا، إذ كان بعض زعماء العشائر ورجال السياسة فيها مرتبطين برياض الصلح في لبنان وبعضهم الآخر مع زعماء طرابلس، إضافة إلى حساسيتها الدينية (السنية والعلوية). ومع ذلك فقد جاءت وفود من مختلف الأحزاب والمذاهب والعشائر للسلام علينا، ولم نجد بين هذه الفئات أي تحامل علينا.

كنا ضيوف الرفيق عبد الرزاق منصور في بيته الجديد الواسع والمنشرح. وأثناء وجودنا هناك قررنا القيام بزيارة رفقائنا في جزيرة أرواد، وكنا نترقب حالة الطقس بين يوم و آخر حتى نحظى بنهار مشمس وبحر هادئ. وأخيراً جاء ذلك النهار الجميل الذي حملنا على أمواج هادئة من شاطئ طرطوس حتى شاطئ أرواد، وكانت المراكب الثلاثة الكبيرة والصغيرة مزدحمة بالرفقاء من سيدات و آنسات ورجال، وقد غطّوا سطوح المراكب وجوانبها بحيث لم نعد نشاهد سوى أرجلهم المدلاّة فوق المياه. تركنا طرطوس بعد الظهر والشمس ساطعة والبحر

هادئ ذو لون أزرق جميل، وكانت المراكب تشق الأمواج وسط هتاف القوميين بحياة سوريا وحياة سعاده والأناشيد القومية تدوي في آفاق البحر وكأنها تساهم في شق طريق المراكب التي كانت أعلام الزوبعة ترفرف على صواريها. وكنا كلنا حماسة وشوقاً للقاء رفقائنا في الجزيرة.

وصلنا ساحل أرواد فإذا بالمدينة كلها، رجالاً ونساء، على الشاطئ. وحظينا باستقبال رائع في شوارعها الصغيرة الضيقة حيث الأبواب كلها مشرعة والنساء واقفات أمامها للترحيب بنا. ووصلنا إلى بيت أحد الرفقاء، فجاءت الوفود للتهنئة في استقبال استغرق أكثر من ساعة. وقد ألقى الأمين الياس جرجي قنيزح وعدد من الرفقاء الآخرين كلماتهم من على شرفة البيت الذي يطلّ على أرض واسعة احتشد فيها المواطنون. وغصّت سطوح المنازل بالنساء والمتجمهرات مع أولادهن لمتابعة سير حفل الاستقبال. كما ألقيت أنا بكلمة لم أعد أذكر منها الآن سوى قولي إن هذه البحار التي كانت في الماضي سبباً للانعزال عن بقية المدن لم تكن بالنسبة لسعاده سوى وسيلة للاتصال بينه و بينكم وليقول لكم: ها هنا أيضاً أبناء أمتي مقيمون في حصونها المنيعة.

قضينا في بصيرة، وهي ضيعة عائلة عرنوق، يوماً كاملاً. وكان اللقاء محصوراً بالقوميين فقط وكان برفقتنا عيسى سلامة. وقد علم رفقاؤنا في جزيرة أرواد بأننا موجودون في بصيرة فما كان منهم إلا أن حضروا في زوارق عديدة وهم ينشدون الأغاني الحزبية، وعند وصولهم إلى حديقة البيت عقدوا حلقات الدبكة والغناء بينما كنا كلنا مجتمعين في الطابق العلوي، فأطليت عليهم وحيّيتهم من على الدرج وعدت إلى القاعة، لكن أحد الرفقاء جاء بعد قليل يدعوني للنزول ومشاركة الرفقاء دبكتهم فقلت له: لا أستطيع أن أرى مشاهد الدبكة والفرح، فقد كنت أراها دوماً مع الزعيم وبات من الصعب عليّ الآن مشاهدة هذه الأفراح، عندها نهض عيسى سلامة وتوجّه إليهم دون أن يقول لي شيئاً، ووقف عند أعلى

الدرج و صرخ فيهم: ماذا تفعلون، هل أنتم هنا في قاعة رقص أم في حفلة عرس؟ اسكتوا واجلسوا! حين سمعت هذا الكلام استغربت تصرّفه وقلت له: لماذا تصدمهم بهذا الكلام، فأنا لم أقصد أنني لا أريدهم أن يفرحوا بل قلت إنني لا أستطيع مشاركتهم الفرح. فكيف تفسّر القول بشيء مناقض له؟

تركنا طرطوس في طريقنا إلى اللاذقية، وقد توقفنا في بانياس حيث كان رفقاؤنا مصطفّين على جانبي الطريق المؤدية إلى البيت الذي سننزل فيه. وكان الصفّان اللذان مررنا بينهما كبيرين ونظاميين ويمتدّان حتى مدخل البيت. وكان حشد كبير من المواطنين يراقب نظام القوميين ويستمع إلى هتافاتهم القومية. دخلنا إلى البيت (لم أعد أذكر اسم صاحبه) للاستراحة، ثم صعد بعض المسؤولين إلى سطح المنزل المطلّ على الشارع وخاطبوا الحضور، وألقيت بدوري كلمة قصيرة. وخلال الساعات القليلة التي قضيناها في بانياس كان الإدخال في الحزب كبيراً، واستغل بعضهم وجودي ليقسم اليمين. وغادرنا بانياس كما دخلناها في ظل الهتافات القومية والحشود الشعبية.

وصلنا اللاذقية وكان بعض الرفقاء بانتظارنا عند مدخل البلدة، فأدوا التحية في صفوف نظامية ثم سرنا كلنا باتجاه منزل الأمين فؤاد الشوّاف الذي نزلنا ضيوفاً عليه. وكان وجودنا في اللاذقية عبارة عن نشاط حزبي وزيارات للمواطنين ولقاءات لشرح المبادئ، وأسئلة تُلقى وأجوبة تُعطى، وإدخالات في صفوف الحزب، ونزهات وجولات في المناطق المجاورة.

وذات يوم ذهبنا إلى بستان سعاده ونزلنا في بيت جميل مخلوف، وكان فيه حشد من القوميين قضينا وإياهم النهار كله. وزارنا عدد كبير من المواطنين وتحدّثنا معهم في شتى قضايا الحزب. وكان الجوّ الطبيعيّ جميلاً، وانتهى النهار دون أي انزعاج من قبل المواطنين في البلدة بعد أن كان حدث نفور بينهم وبين القوميين لكن لم يتكرر. وعدنا إلى اللاذقية في آخر النهار.

بعد ذلك قمنا برحلة طويلة إلى قلعة «صهيون» (أصبح اسمها اليوم قلعة صلاح الدين) وهي تعود إلى زمن الصليبيين وكان لذلك النهار علامة خاصة. فبينما نحن في طريقنا إلى القلعة سيراً على الأقدام حيث لامجال لوصول السيارات، فاجأنا مطر غزير ولم يكن في الطريق مأوى ولا ملجأ والجبال كلها جرداء عارية من الأشجار، ومأوانا الوحيد عندما يشتد المطر هو أن نقف ملتصقين بحافة الجبل. غير أن هذا لم يمنع هطول المطر علينا، وكان الماء ينسكب من الرأس حتى أخمص القدم. لكننا واصلنا الرحلة بين ركض ووقوف حسب شدة المطر إلى أن وصلنا القلعة، وهناك أضرموا النيران واقتربنا كلنا منها لنجفّف ملابسنا وأجسامنا على حرارتها، أما أنا فقد أعطتني إحدى الرفيقات فستانها الأسود الجافّ وارتدت هي ثوباً آخر. في هذه الأثناء وُضعت المأكولات في وسط القلعة وأكلنا حتى توقّف المطر، ثم خرجنا نجول في أنحائها ونستمع إلى شرح عن تاريخها وعمارتها، وعرفنا أنها كانت مغطّاة بالتراب زمناً طويلاً إلى أن جاء الفرنسيون ليكشفوا عن قسم منها، أما القسم الأكبر في الطابق السفلي فما زال تحت التراب. وهي قلعة بناها الصليبيون على الطابع البيزنطي الروماني، وعندما افتتحتها الجيوش العربية أضيف إليها الطابع العربي، وكان فيها غرف هائلة تحت الأرض لتخزين المياه حتى إذا ما هاجمها العدو فإن مياهها تكفي الجيش المحاصَر. وأُقيمت حولها جسور صغيرة متحركة تُرفع عند الهجوم فتظل القلعة بمنأى عن العدو خصوصاً وأنها محاطة بطوق مائي من خلال قناة عميقة محفورة حولها. والواقع أن قلعة «صهيون» تختلف في عمارتها وطبيعتها عن قلعة الحصن.

وعندما عدنا في المساء إلى اللاذقية كان الطقس جميلاً والحرارة معتدلة. في اليوم التالي ذهبنا برفقة السيد غابي سعادة لزيارة أطلال مدينة أوغاريت الواقعة على شاطئ اللاذقية. ووجدنا صعوبات في الوصول إليها لأن قسماً من الطريق المؤدي إلى هناك لم يكن معبّداً فلا تستطيع السيارات عبوره خصوصاً بعد هطول ذلك المطر الشديد. وقد ساعد رفقاؤنا بعضهم بعضاً لرفع السيارات التي

كانت إطاراتها غارزة في الأوحال. ووصلنا بعد جهد جهيد إلى موقع الحفريات التي كانت قد أُنجزت حتى ذلك الوقت، وأثناء جولتنا الاطلاعية فاجأنا المطر الغزير من جديد فلجأنا إلى غرفة العمال حيث تُخزن معدّات التنقيب. وفي هذه الغرفة أكلنا وشربنا من الطعام الذي حملناه معنا. وبقينا محاصرين إلى أن توقّف المطر فخرجنا لنكمل جولتنا الآثارية. وكان السيد غابي سعادة دليلنا يشرح لنا بالتفصيل كل صغيرة و كبيرة لأنه كان مطلعاً على نتائج هذه الحفريات وتاريخ رأس شمرا انطلاقاً من صداقته للدكتور شيفر الذي كان يرافقه أحياناً في أعمال التنقيبات.

إن زيارة هذه الأماكن كانت تُشعرنا بعظمة تاريخنا القديم وعظمة هذا الشعب العريق في الحضارة، فنتذكّر ما علّمنا إياه سعاده وما كشفه في نفوسنا من قوة لو فعلت لغيرت وجه التاريخ. فقد أظهرت هذه الحفريات لوحات فيها من الأساطير ما يفوق الخيال. وعندما صدرت جريدة البناء كرّست زاوية خاصة لترجمة تلك اللوحات التي تحكي عن أمجاد بلادنا، وأعطتها ما تستحق من اهتمام ومتابعة كي تُبرز للشعب كل دلائل الحضارة المكتشفة في مختلف أنحاء البلاد.

وأثناء زيارتنا لقلعة الحصن علمت أن الزعيم ترك كلمة في سجلّ القلعة المفتوح للزوّار عند المدخل، ووجدت الكلمة بعد أن بحثت عنها، وهي بخط يده وفيها يقول: «لقد مشى الفاتحون على آثار أجدادنا أما نحن فسنضع حداً للفتوحات». ثم سجّل كلّ منّا كلمته على صفحات الكتاب.

بعد حوالى الأسبوع عدنا إلى دمشق إذ أصبحنا على أبواب الفصل الدراسي وكان على صفية وأليسار أن تتسجّلا في المدرسة قبل بدء الفصل. وتركنا لرحلة قادمة زيارة حمص وحماه وحلب وجسر الشغور ودير الزور وغيرها من المناطق.

وهكذا عدنا إلى دمشق، وابتدأت المدارس. وكان تحضير البنات للذهاب إلى المدرسة يستغرق القليل من الوقت بينما تأخذ الأعمال الحزبية القسط الأكبر، وما

تبقّى من ساعات النهار للعمل المنزلي لأنني لم أترك المساعِدة المنزلية تهتم بالبنات شخصياً فقد كانت رغبتي أن أقضي معهن على الأقل هذه الساعات عندما يكُنّ في حاجة إليّ. وفي وقت الدراسة كنت أجلس وإياهن حتى نهاية الدروس كي لا يخفّ حماسهنّ واجتهادهن. وخلال ساعات الطعام أجلس معهن لمراقبة غذائهن. وكنت أساعدهنّ في الاستحمام وترتيب ثيابهن، وأبقى معهنّ حتى ينمن كلهن. وأقرأ لهن قصصاً ليس فيها الموت ولا القدر ولا الجنّيّات، بل حياة عصافير تنمو وتطير وتخاف، وأطفال يضيّعون آباءهم وأمهاتهم في غابة فيجدون لأنفسهم مأوى يُبعد عنهم أذى الحيوانات. كنت أحدّثهن في حكايات صغيرة عن كل ما يمكن أن يلاقينه في الحياة ليواجهنه من دون خوف بل بالعقل الذي يعمل ويحلّ جميع المشكلات. ومرّت الأيام علينا كما تمرّ على بيوت كل الناس: أطفال يمرضون، وخوف يهيمن على البيت ثم فرح غامر بعد التغلّب عليه، والمدرسة مرحلة تربط البداية منذ الطفولة وحتى النهاية في فترة المراهقة وكأنها يوم واحد مكرر، إذا ما أعدنا ذكراه فإنها تلخّص حياة الأم في مرحلتها الحيوية التي تقدمها في سياق تلك الفترة، وتستيقظ عندما يكبر أطفالها لتجد أنها طبعت فيهم ما خسرت من حيوية وحياة. هذه هي مكافأة الأمهات: يجدن في أطفالهن ما فقدنه، والواقع أنهن لم يفقدن شيئاً بل تركن ملامح من شخصياتهن مطبوعة لزمن أبعد من زمنهن.

الفصل الرابع عشر

في سنة 1950 وقع انقلاب على سامي الحنّاوي وحكومة الشعبيين. وعند الساعة الرابعة صباحاً من ليلة الانقلاب رنّ جرس الهاتف في بيتنا وكان على الخط الآخر صلاح الشيشكلي يقول لي: احتراماتي سيدتي، لقد انتهينا من هذا العهد. سألته ماذا يعني، فقال: كلهم أصبحوا في السجن، قلت: تعني وقع انقلاب؟ أجاب: نعم، والوزراء أصبحوا في المزة. قلت له: عساه خيراً، سنراك غداً لنفهم أكثر. وأقفلت الخطّ بعد أن ودّعته. ثم ذهبت إلى غرفة جورج عبد المسيح وطرقت الباب وأخبرته بأنباء الانقلاب نقلاً عن صلاح الشيشكلي. فنهض غير مصدّق وانتقل إلى المكتب وهو يقول: هل أنت متأكدة أنه صلاح؟ وماذا قال لك حرفياً؟ فقلت له: الساعة الآن الرابعة صباحاً ولم يبقَ سوى القليل حتى يحلّ النهار وعندها سنقرأ الصحف ونعرف الحقيقة. ثم هاتفت الأمين عصام وأيقظته ونقلت له ما سمعت، فقال لي: بعد الثامنة سأكون عندك.

وطلعت علينا صحف الصباح بعناوين ضخمة حول الانقلاب. وبقي عبد المسيح في المكتب بانتظار أخبار جديدة، وبين الحين والآخر كان يعيد طرح السؤال عليّ: لماذا طلبك صلاح على الهاتف؟ فأجيبه: لقد أراد إعلامي بذلك فقط! بعد ذلك بدأ الاتصال مع أديب الشيشكلي على نطاق أوسع لأنه أصبح قائد الجيش الأعلى، وكانت الاتصالات دائمة مع شقيقه صلاح، الرئيس في الجيش حينذاك، وكان يتردد إلى بيتنا حيث يلتقي بالمسؤولين، هذا إضافة إلى صداقته لكثير من ضباطنا القوميين. فكانت المظاهر تدلّ على تقرّب أديب من الحزب، وفي أحد اجتماعاته عندنا مع العمد طلب منهم أن يسمّوا وزراء قوميين، لكنهم أبلغوه أن الحزب غير

مستعد لتحمّل هذه المسؤوليات الآن. وبالفعل لم يكن الحزب آنذاك يملك الجهاز الكافي القادر على إدارة دفة الحكومة، خصوصاً أنه سيواجه وهو في الحكم المعارك على كل الجبهات الخارجية ومع باقي العسكريين من مختلف الأحزاب وبالتحديد من جماعة حسني الزعيم. وكانت للحزب أسباب درسها في ذلك الوقت فلم يجد من مصلحتنا خوض هذه المعركة التي قد تسبب للحزب خسارة كبيرة والواقع أنني كنت أجهل معظم تلك الأسباب سواء منها الخارجية أو الداخلية.

بعد سنة 1950 أخذ الحزب ينشط في صفوف الجيش بشكل واسع و سريع، وانتمى إليه ضباط وجنود من مختلف الرتب. وفي الوسط الجامعي قامت الحركة بنشاط ملموس وكان للحزب تأثير ملحوظ في الجامعة. وكان الشيوعيون قد لاقوا ملاحقات كثيرة في عهد أديب الشيشكلي وتعرّضوا للسجون والاضطهادات، فعمد قسم كبير منهم إلى الالتحاق بحزب البعث. البعثيون يومذاك لم يفرّقوا بين الشيوعي والبعثي.

وهكذا كان يدور في الأوساط الجامعية وغيرها كثير من الاشتياكات بين القوميين من جهة والشيوعيين والبعثيين من جهة أخرى. وأذكر ذات مرة أنني دُعيت لحضور حفلة على مدرّج الجامعة السورية نظمتها هيئة النساء الفلسطينيات، وشارك فيها حشد من رجال السياسة، وقد صادف مقعدي قرب مقعد أكرم الحوراني. وبعد انتهاء الحفلة تجمهر البعثيون والشيوعيون خارج المدرّج بهدف التعرّض لنا، لكن القوميين أحاطوني بطوق حماية حتى صعدت السيارة. وعلمت فور وصولي إلى البيت أنهم اصطدموا مع البعثيين بعد مغادرتنا الجامعة.

في أعقاب الرحلة التي قمنا بها إلى مناطق الشمال، أخذ يتردد على بيتنا في دمشق مجموعة من الطلاب بينهم شابان من عائلة سليمان المرشد هما مجيب وسميع. وكان مجيب شاباً بهيّ الطلعة ذكياً ويحب المطالعة كثيراً. وعلمت منه أن شقيقه فاتح أمضى في المزة حوالى سبع سنوات بعد إعدام والده. وأظن أن الأمين الياس جرجي قنيزح كان على اتصال به. وكان فاتح يقرأ في السجن كتابات سعاده

وغيرها من الكتب الحزبية التي كان يُسمح له بها، وأظهر إعجابه بأفكار الزعيم. وكان المحامي الياس إسبر يقوم بمساعٍ حثيثة للإفراج عنه. وخلال وقت قصير كان مجيب وشقيقه سميع قد أقسما يمين الانتماء وكنت أراهما يترددان على البيت، مرات مع رفقائنا الطلاب ومرات أخرى لوحدهما.

بعد الانقلاب راح أديب يُعدّ نفسه للرئاسة وأخذ يبتعد عنّا شيئاً فشيئاً. وكان قد أصبح على خلاف مع شقيقه صلاح الذي ترك الجيش في السنوات الأخيرة.

معظم الضباط الذين كانوا يحيطون بأديب، من زعماء وعقداء، كانوا يرغبون في أن يكون للشيشكلي حزب يخدمه ويخوض كل معاركه السياسية. وقد قرر أديب على ما يظهر أن يلعب دوراً سياسياً في الدولة مما سبّب له الضياع، إذ كان يحيط به أصحاب مآرب ومصالح شخصية. وجاء التأثير الكبير على الشيشكلي من قدري قلعجي المعروف بشيوعيته، وكان صديقاً قديماً لأديب في شبابهما ثم تجددت صداقتهما. وبسبب التوجيه الخاطئ الذي شجّع عليه قدري، فقد قرر أديب أن ينشئ حزباً لنفسه أسماه «حركة التحرير» وألغى بعدها الأحزاب كلها وفي مقدمتها الحزب السوري القومي الاجتماعي والذي كان أيضاً من المطالب الأولى التي وضعها له قدري، أي حظر الحزب السوري القومي أولاً وبعده الأحزاب الأخرى.

وبدأ الشيشكلي بإعداد تشكيلات وزارية كان من المتوقع لها الفضل نظراً لأنها ضمت أشخاصاً غير مؤهلين لتحمّل هكذا أعباء. كما وأنه أعدّ تشكيلات مماثلة في المناصب الرسمية وفي قيادات الجيش وفي مجلس النواب حيث كانت له أكثرية النواب من أعضاء حركة التحرير، وقد خُصصت الوظائف الأساسية للذين ينتسبون إلى حزبه. لذلك راحت المؤامرات تُحاك حول أديب من قبل كل هذه الفئات التي سبق وشغلت مراكز حكومية يدعمها أكرم الحوراني والبعثيون والشيوعيون وغيرهم. أما الحزب فكان يحذّر أديب بطريقة أو بأخرى من خطورة نتائج هذه التصرفات. وكان العنصر الأهم في دعم هذه المؤامرات قضية جبل الدروز عندما قام الأهالي بتوجيه من منصور الأطرش، المؤيّد لسياسة الحوراني،

بالتصدّي لعناصر الجيش في المخافر، الأمر الذي تطور سريعاً وانتهى بمأساة هجوم على نطاق واسع سقط خلاله العديد من القتلى. وهذا الحادث ترك في نفوس البعض رغبة في الثأر لإخوانهم و أدى لاحقاً إلى مقتل أديب في البرازيل.

في سنة 1951 طلبنا من الرفقاء القوميين في بيروت أن يرسلوا لنا الحقائب التي كانت تحتوي أوراق مكتب الزعيم. وكلّف بهذه العملية وتأمين نقل الحقائب إلى الشام صلاح الشيشكلي الذي كان يتردد على لبنان ويملك مزرعة وبيتاً في فالوغا. وقد وصلت الحقائب كلها وتسلمها جورج عبد المسيح على أساس تصنيفها في ما بعد. وكنت أود تسلّمها شخصياً لكني وجدت أن وقتي الضيق وانهماكي في شؤون البيت والأطفال وانشغالي بإميلي وقضاياها المنزلية، عدا عن المراجعات الحزبية والاستقبالات الطويلة، لم تترك لي الفرصة لأحقق ما كنت أنويه، خصوصاً أن الأوراق كثيرة في الحقيبتين الكبيرتين اللتين تزن الواحدة منهما أكثر من 30 كيلو غراماً. وانتظرت الفرصة المناسبة التي عندما حانت كان عبد المسيح قد نظر في الحقيبتين وتركهما كما هما، على حد قوله. وكل ما فعلته أنني حفظت الحقيبتين بما فيهما ولم أعد قادرة على تصنيف محتوياتهما أو الاطلاع عليها. وكنت أعرف أن الزعيم أخذ يوم حادث الجميزة كل الأوراق الخاصة، لذلك صدّقت عبد المسيح عندما قال لي إن الأوراق كلها إدارية عدا بعض الأشياء التي ليس لها علاقة بالسياسة وقد تبقى دون تحفّظ في الحقيبتين، وتركت له الأمر إذ كان من المخلصين لقضيتي حين ذاك حسب رأينا كلنا فيه.

وفي العام 1952، وقع الانقلاب على الملك فاروق بقيا دة محمد نجيب. وبعد مدة قصيرة انقلب جمال عبد الناصر على محمد نجيب. وكان لهذه الحادثة صدى كبير إذ إن الانقلاب الثاني كان ذا ميول يسارية، في ظل بداية المعركة ضد الاستعمار البريطاني. وفي لبنان عُزل بشارة الخوري من منصبه كرئيس للجمهورية وانتُخب خلفاً له كميل شمعون.

في 16 تموز سنة 1951 قُتل رياض الصلح في عمان على يد قوميين اجتماعيين هما ميشال الديك ومحمد صلاح، الأول من حوران والثاني من الأردن. وتركت تلك الحادثة صداها في نفوس القوميين وغيرهم. فقد كان ميشال الديك أخذ على عاتقه تنفيذ المخطط لوحده بمعزل عن كل المسؤولين. وعلمت أيضاً في وقت لاحق أن بعض المسؤولين رفضوا خطته خوفاً من كارثة أخرى شبيهة بما جرى بعد المحاولة في بيروت. لكن ميشال الديك صمّم في قرارة نفسه على تنفيذ مخططه. وكانت حياته تحولت جحيماً في الأيام التي أعقبت اغتيال الزعيم فلم يعد ينام أو يهنأ له بال بعد قتل الزعيم بالشكل الذي تمت فيه الجريمة، فقرر ونفّذ لوحده مع رفيقه محمد صلاح. وكان ثمن الانتقام إعطاءهما الدماء التي في عروقهما، إذ انتحر الواحد تلو الآخر عندما تعذّر الفرار، وكانا قد قرّرا مسبقاً هذه النهاية.

أما عملية الاغتيال فقد تمت كما يلي: علم ميشال الديك أن رياض الصلح سيقوم بزيارة الملك عبد الله في عمان، فخطّط ورفيقه محمد صلاح لقتل الصلح أثناء الزيارة. وكان بيته في درعا - حوران وكان على معرفة وثيقة بكل خريطة البلاد خصوصاً وهو الجندي البطل الذي أبلى بلاء حسناً في حوادث الجلاء ضد الفرنسيين، وكانت الخطة أن يلاقيا الصلح وهو ذاهب لمقابلة الملك، لكن رياض سبقهما إلى القصر فترصّدا له في طريق العودة إلى أحد فنادق عمّان حيث ينزل.. وبعد أن راقبا سير الموكب المرافق لرياض في طريق العودة إلى المطار لاحظا أنه ضخم يواكبه العديد من الدراجات النارية المسلحة. وكان مع رياض في السيارة طبيبه الخاص، وعسكري مسلح قرب السائق وأمام السيارة أربع دراجات نارية ووراءها أربع أخرى وكذلك على الجانبين.

ولم يكن همّ الديك عدد الحرس والدراجات النارية المرافقة وإنما الوصول إلى رياض بأي ثمن، لذلك أخذ سيارة صغيرة تخصّ أحد أصدقائه وسار الثلاثة وراء الموكب وهم مسلّحون بالمسدسات والقنابل. وفي إحدى ضواحي المدينة، وقبل وصول الموكب إلى المطار، تجاوزت سيارة ميشال ورفيقيه بسرعة سيارة رياض

واعترضتها لتغلق الطريق أمامها. والأرجح أن سائق سيارة الصلح اعتقد بأن ما يحدث هو مجرد صدفة لأنه توقّف فوراً. في هذه الأثناء نزل الديك من سيارته بسرعة البرق وفتح باب سيارة رياض وأطلق عليه الرصاص قائلاً: خذها من يد سعاده. فردّ رياض صارخاً: لديّ أولاد، حرام عليك. فقال الديك: ولسعاده أيضاً أولاد! وسقط رياض قتيلاً في وسط السيارة وقربه طبيبه الخاص الذي لم يأت لا هو ولا السائق أو الحارس بأي حركة بعد أن هددهم الديك فخاف كل واحد منهم على حياته.

وعاد الديك إلى السيارة التي تنتظره مع الرفيقين الآخرين وراحوا يسوقونها بسرعة جنونية متجهين إلى مكان ما. لكن سرعان ما استفاق الحرس من وهلة الحادث فحاولوا اللحاق بهم، وعندما فشلوا في ذلك اتصلوا بمركز للحرس في مستشفى قريب وطلبوا منهم متابعة الملاحقة. وأثناء المطاردة غرزت دواليب سيارة ميشال في الرمال ولم تعد قادرة على الحركة، فلحق بهم حرس مخفر المستشفى ودارت معركة بين الجانبين بعد أن حاول الرفقاء الفرار على الأقدام. ووصلت تعزيزات جديدة لرجال الأمن وراح الرصاص ينهمر على الرفقاء كالمطر، واستهلك ميشال كل ذخيرته إلا طلقتين أبقاهما لنفسه، وقد أمر رفيقه محمد صلاح بأن يهرب بينما يحمي له ظهره لكن الرفيق محمد رفض، ووقف إلى جانبه يدافع بما بقي معه من الرصاص. وبعد أن نفدت الذخيرة إلا طلقة مع كل منهما، أطلق أولاً ميشال رصاصة على رأسه ولحقه محمد بالعملية نفسها، فاستشهد الديك في حينه وبقي صلاح على قيد الحياة فنُقل إلى المستشفى حيث توفي في اليوم الثاني وهو ينشد في غيبوبته الأناشيد القومية.

بعد ذلك لاحق رجال الأمن شخصاً ثالثاً كانوا قد رأوه مع ميشال ومحمد في السيارة لكن لم يعثروا له على أثر في ميدان المعركة، ولم يعرف أحد هويته سوى القوميين وذلك بعد أن تمكّن من الهرب.

وفي غضون أيام قليلة من مصرع رياض الصلح، اغتيل الملك عبد الله في القدس. فانطلقت إشاعات كثيرة استغلّها الخصوم ليقولوا إن القوميين يزرعون

الرعب والاغتيال في كل مكان، علماً بأن السلطات الأردنية عرفت على الفور الهوية الحزبية للشاب الذي اغتال الملك فقد كان ينتمي إلى جماعة الأخوان المسلمين.

قبل أن يلغي أديب الشيشكلي الأحزاب ألحّ على أولاد سليمان المرشد بالانخراط في حزبه فكان جوابهم أنهم لن يدخلوا أية أحزاب وهم مهتمون أولاً بإطلاق سراح شقيقهم فاتح. وبالفعل أُفرج عنه بعد وقت قصير. وعندما قام أديب بجولة في مناطق العلويين نصب له أولاد سليمان المرشد أقواس النصر ورفعوا الزينات ورحّبوا به ترحيباً شعبياً رائعاً. ولكن بعد مرور أيام علمنا أن مجيب قُتل في بيته مع جماعة كانت ترافقه من دون سبب أو إنذار. وكان القاتل ضابطاً في الجيش يُدعى شحادة عبد الحق.

كان يسكن قرب بيتنا في ذلك الوقت الكثير من الضباط ورجال السياسة: إبراهيم الحسيني على بعد عدة أمتار منا، وبيت أكرم الحوراني أمام بيت الحسيني، و في مواجهتنا العقيد منصور المهندس في الجيش، وعلى مسافة قصيرة كذلك الزعيم أمير شلاش وبعض الموظفين في المكتب الثاني والمخابرات. وأمام البيت أيضاً وفي الواجهة تماماً المقدم الرفيق غسان جديد مع أخيه فؤاد. وكانت أول زيارة يقوم بها غسان إلى بيتنا يوم الانقلاب على سامي الحناوي إذ أتى بصحبة أديب الشيشكلي لوضع بيان الانقلاب. وبعد ذلك رحت أجتمع بأفراد عائلته الذين كانوا كلهم من القوميين باستثناء أخ واحد هو صلاح وكان آنذاك تلميذ بكالوريا ومحاطاً بالبعثيين وعلى خلاف مع أخوته في العقيدة.

وكان يسكن في نفس الحي الملازم الأول (في ذلك الحين) عزيز عبد الكريم، وكان جاراً في البناية للسيدة لطيفة صائب فكانت العلاقات العائلية بينهم قوية. وعُيّن عبد الكريم في عهد الشيشكلي رئيساً للمكتب الثاني (السيدة لطفيّة صائب هي ابنة أخت الزعيم شلاش وأم رفقاء لنا: فيصل و نزار). هذا الحي كان سجلاً مفتوحاً وسهلاً لمراقبة تحركات ضباط الجيش وكذلك تحركات القوميين بسبب ترددهم الدائم على الرفيق غسان جديد الذي كان يتغيب كثيراً عن دمشق بحكم وجوده على الحدود السورية الجنوبية المتاخمة لفلسطين المحتلة.

لم اكن أرى غسان إلاّ نادراً. وكان شقيقه الرفيق فؤاد وزوجته كريمة يترددان عليّ، وقمت أنا بزيارتهما مرة بعد أن أنجبا طفلهما الأول. ثم انتقلوا من البيت الذي أمامنا وسكنوا مع عائلة غسان بالقرب منا علماً بأن كريمة زوجة فؤاد هي شقيقة سهيلة زوجة غسان. بعد وقت قصير سمعت أن غسان أصبح رئيس مدرسة الضباط في حمص.

قبل إسقاط بشارة الخوري لم أجرؤ على دخول لبنان علناً، وقد دخلته خلسة ذات مرّة مع الرفيق يوسف تاج وبهوية زوجته واصطحبت معي راغدة التي كانت في الثالثة من عمرها على ما أظن. وقد تحجّبتُ على الطريقة الشامية فلم يعرفني أحد، ولكن كان على الحدود رفيق في الدرك الدمشقي من عائلة الجرّاح وعندما رأى راغدة عرفها وسألها: «إلى أين ذاهبة دادا»، وأخذها بيديه فرحاً بها وقال للرفيق تاج: من أنت لتصحبها معك؟ فأجابه: أنا يوسف تاج وهذه زوجتي. فرحّب به قائلاً: انتبه لهذه الصغيرة فهي عزيزة علينا. وتابعنا حتى بيروت ثم إلى برمّانا حيث تركنا راغدة في بيت تاج، ودعونا الأمين وديع الياس مجاعص إلى هناك ونزلنا معاً إلى بيروت قاصدين صيدلية أبي عجرم نبحث عن الأمين فؤاد. وقفت خارج الصيدلية إلى أن يتأكد الرفيق يوسف من أنه لا يوجد غريب في مكتبه وأخبره بأنني في الخارج، فدخلت عليه وكنت لا أزال متحجّبة. وكانت تلك أول مرة أزور بيروت بعد حوادث الـ 1949.

كانت الشام بالنسبة لنا و الاستقرار المطلوب الذي تؤمّنه في ما يتعلق بمدارس البنات من الأشياء المريحة، ولكني كنت أتطلع إلى اليوم الذي أعود فيه إلى لبنان حتى أتمم مشروع البناء في ضهور الشوير وأكون قريبة من ذكريات الزعيم. وكانت هذه الزيارة إلى بيروت لمتابعة أعمال البناء وشراء المواد اللازمة، فقد أخذ الأمين مجاعص على مسؤوليته متابعة البناء لأنني كنت ممنوعة من دخول لبنان، وقد قام بهذه المهمة خير قيام.

الفصل الخامس عشر

سأعرض هنا وقائع حياتنا الحزبية والاجتماعية والمادية في الشام. بعد مجيئنا إلى دمشق من دير صيدنايا نزلنا في بيت الرفيق نجيب الشويري ومكثنا فيه قرابة الشهرين إلى أن قررنا السكن في بيت مستقل، وقد تقدّم شقيقي جورج لدفع الإيجار ورحنا نبحث عن سكن مناسب. كان فؤاد الخوري عميداً للمالية أثناء حوادث 1949، وكان الأمين جورج بلدي قد حفظ معه المبلغ الذي سلّمته إياه قبل نقلي إلى صيدنايا، فأعاده إليّ. وابتدأت بدفع المصاريف المتوجّبة عليّ مثل نقل أثاث البيت من بيروت إلى الشام وإيجار البيت ودفع ديوني في لبنان. وهكذا صرفت كل ما تبقّى معي خلال الأشهر الأولى لأن الحزب لم يكن قادراً على تأمين أي شيء لبيت الزعيم.

ومرّت الأيام سريعة حتى استهلكنا المبلغ كله. وكان يسكن معنا في البيت إميلي وجورج، وأهلهما وأقاربهما يأتون ويذهبون من دون أن يساعد أحد منهم بأي مبلغ في مصروف البيت. ولم يسأل عبد المسيح ولا مرّة عن كيفية تدبير هذا الموضوع، في حين كانت إميلي تقول إنها تبحث عن عمل لكن عندما عثرت لها الرفيقة تيريز بلدي على وظيفة في الكلية العلمية الوطنية للدكتور عدنان العائدي، حيث كانت تيريز تدرّس، رفضت أن تتسلّمها قائلة إنها لم تتزوج لتشتغل! وعدت إلى نفس العجز الذي عانيته في بيروت، فالكل في البيت يريدون مطاليبهم لكن لا أحد يتحمل أية مسؤولية مهما كانت. وكنت قد سجلت صفية وأليسار في مدرسة «روضة الأحداث» للآنسة الطيبة روز فروجي التي أعطتني تخفيضاً لا بأس به ووفّرت عليّ مبلغاً كبيراً من القسط. وكانت السيارة المدرسية تقلّهما من البيت إلى

المدرسة صباحاً وظهراً، وكنت مسرورة جداً من «روضة الأحداث» في سلوكها الخلقي وبرامجها التعليمية المخصصة فقط للصفوف الابتدائية، أي مرحلة ماقبل المراهقة، ويؤمّها الأطفال من الجنسين. لهذه الأستاذة عميق شكري لما قدمته إلى صفية وأليسار عند دخولهما إلى المدرسة وكذلك أثناء حوادث سنة 1955 عندما حضنت أليسار وراغدة وأعطتهما غرفة خاصّة ورعتهما حتى نهاية السنة الدراسية حيث نجحت أليسار بشهادة السرتيفيكا، في حين كانت صفية في القسم الداخلي بمدرسة الفرنسيسكان وبقيت هناك خلال الحوادث حتى انتهت من فحوصات آخر السنة، ثم غادرن جميعهن إلى لبنان.

أما من ناحية المصروف البيتي، فقد أخبرت الأمين عبد الله محسن بهذا الوضع فقال لي إنه سيبحث الأمر مع بعض القوميين في لبنان. وقامت هيام نصر الله بالمساعي مع الرفيق زكي ناصيف لأنه كان أحد أعضاء اللجنة لمساعدة بيت الزعيم في بيروت فوعدها الرفيق زكي بالاشتراك مع بعض الرفقاء لتأمين مبلغ شهري قدره 150 ليرة. وعادت هيام تحمل معها مخصصات أول شهر، وكان ذلك أيضاً آخر شهر دُفع من لبنان. وعدنا نبحث عن حل آخر، فعرض بعض الرفقاء في الشام جمع مبلغ كان يتراوح بين 120 و 270 ليرة شهرياً. وكان من الضروري الاقتصاد الشديد بعد أن خف هذا الدخل وزاد مصروف البيت والمعيشة والمدرسة إذ ابتدأت راغدة أيضاً في الحضانة، كما وصل إلى دمشق رفقاء ملاحقون ومتوارون عن الأنظار.

وكذلك أتى ابن أخت عبد المسيح ليسكن في دمشق ويعمل مع الأمين أنيس فاخوري في المطبعة. كنت أقدّم الأكل لهم جميعهم، بعضهم يأتي إلى البيت لتناول الطعام وبعضهم الآخر نرسل له الأكل إلى بيت الأمين الياس جرجي قنيزح حيث كانوا يسكنون غرفة عنده. وأمام هذه المصاريف، قرر الأمين عبد الله محسن مساعدة البيت بمبلغ 300 ليرة شهرياً من مالية عمدة التدريب ووقف المساعدات المقدمة من الرفقاء والتي كادت أن تصبح لا شيء يذكر في المدة الأخيرة.

وعاد عبد المسيح ليأخذ مخصصاته من صندوق الحزب، وفي بادئ الأمر قدّم للبيت مساعدة بمئة وعشرين ليرة شهرياً ثم مئتي ليرة. وكان القسم الأكبر من مصروف البيت يذهب للضيوف ولاجتماعات مجلس العمد الأسبوعية والمجلس الأعلى كل 15 يوماً، إضافة إلى تكاليف المخابرات الهاتفية الخارجية والداخلية، وكل ما على بيت الزعيم من واجبات تجاه القوميين وغير القوميين.

وجاءتني مساعدات من شقيقي جورج، كما قام الأمين وديع الياس بمساع لإتمام بناء بيت الزعامة في ضهور الشوير. وأخبرني أن بعض أصدقاء الحزب قدّموا مساعدات في هذا المجال، وأعطيته أنا ما كان يصلني من تبرّعات. وكان الأمين وديع يجمع من الأصدقاء ويعلمني بكل التفاصيل ويتابع البناء. وقمت بأول زيارة إلى البيت عندما كانت قد ارتفعت فقط أربعة مداميك. وهكذا أقام البُنيان على المساعدات والتبرّعات، بما فيها تبرّع العمّال بأجورهم لمدّة أسبوع.

أما من ناحية حياتنا الاجتماعية، فقد كانت في أفضل حالاتها إذ كان كبار الشخصيات من الأدباء والسياسيين والعسكريين يترددون على بيت الزعيم، وكثير من العائلات الشامية المرموقة قدمت احترامها لهذا البيت. وكانت أنظار الجميع في الشام تتجه إلى هذا البيت وكأنه يمثل حصيلة الآلام والتشرد في سبيل الوطن. وكان اسم سعاده، سواء للصديق أو للعدو، فوق الأهداف والمنافع الشخصية. وكنت أشعر بهذا الأمر خصوصاً عندما أذهب لشراء بعض الأغراض من المحلات فقد كان أصحابها يحسمون لي مبالغ عند الدفع ويقولون لي: «يا سيدتي، هذه واجباتنا تجاهك» وذلك حتى من دون أن أعلمهم باسمي.

وكان رجال الصحافة يرغبون في إجراء أحاديث صحافية معي، فكنت أقابلهم بعض المرات وأدلي بحديث أستوحيه كله من صميم الحركة ومفاهيمنا النهضوية، خصوصاً في ما يختص بنساء بلادي والمسؤوليات الملقاة عليهن في بناء المجتمع الصحيح. ويضاف إلى كل ذلك المقابلات الكثيرة مع المسؤولين الحزبيين والطلاب القوميين وغيرهم. وكنا ننظم في البيت حلقات إذاعية تجمع بعض المواطنات،

وأكثرهنّ من الطالبات، حيث تتولى الرفيقات الحوار معهنّ. وفي بعض الأحيان يقوم الطلبة بهذه المهمة، فمرّات تجتمع السيدات أو الطالبات ومرات أخرى الرجال أو الطلبة. وكل اجتماع يعطي نتيجة إيجابية، إدخال في الحزب ونشر مبادئ وتوعية على حقيقة الحركة إلى حدّ أنه لم يعد للدعاية الكاذبة ضد الحركة أي تأثير. فأصبحت العقيدة واضحة بمفهومها الحقيقي عند الواعين من أبناء الأمة. هذا هو العمل الذي أكسبنا الشخصية العقائدية في صفوف الشعب وفي أجواء الطلبة، لأن السوري القومي الاجتماعي كان يعبّر عن تلك المبادئ المثالية للنهضة السورية.

وفي نفس الوقت كانت جريدة الحزب تصل إلى كل مواطن وتحمل أفكار الحركة في سياستها ومفاهيمها ونظرتها إلى كل الأمور التي تخص الشعب وتطوره وسلامة أمته والنهوض بها. وكانت الصحيفة الوحيدة التي تعيّن بوضوح الأخطار المحدقة بالوطن والمواطن وطريقة مواجهتها.

بين 1950 و 1954 كان المجلس الأعلى يتابع الشؤون الحزبية التي تطرح عليه ويتخذ القرارات المناسبة في شأنها، وفي تلك المرحلة كان لمعروف صعب موقف غريب، فتارة يحضر اجتماعات المجلس الأعلى وهو عضو فيه وتارة أخرى يتغيب لمدة طويلة يعمد خلالها إلى التذمّر أمام الأمناء من تصرفات عبد المسيح لكن من دون أن يحضر ليعالج ويعترض، وفضّل بدلاً من ذلك أن يهاجم المسؤولين من خارج الهيئة الرسمية وفي أجواء غريبة عن روحية الحزب.

ولهذا السبب قمت بزيارته ذات يوم وأمضيت ساعات أحدّثه بصراحة وبرحابة صدر عن كل الأمور التي جرت معه منذ مجيء الزعيم إلى الشام ثم تسليمه إلى السلطات اللبنانية وحتى عودة معروف إلى التنظيم ثم ابتعاده عن مسؤولياته، وأعطاني معروف جواباً غير مسؤول وهو أنه غير راضٍ عن سياسة الحزب، وبدأ يسمّي الأشياء التي لا تعجبه فكان له على كل شيء انتقاد. فقلت له: لا يوجد بيننا من يريد أن يتخلّى عن أي رفيق مهما أخطأ في الماضي، مع العلم أنّ لي عليك

حساباً في أشياء كثيرة... ورحت أعدد له الأشياء التي أخطأ فيها، ثم تابعت قائلة: ولكني لن أتخلى عنك على رغم تذكيرك بأخطائك، فلماذا لا تحضر الاجتماعات كمسؤول في المجلس وتدل على الأخطاء كما أدلك أنا على أخطائك؟ بل ويمكنك أن تعترض على كل شيء ولكن من ضمن صفوف المسؤولين و ليس خارجها، فهذا يفيد وذاك يخرّب.

بعد هذا اللقاء عاد معروف مرة واحدة إلى الاجتماع فجرى بينه وبين عبد المسيح جدال عنيف وقد تدخّل الأمناء لفضّ النزاع وانتهى الاجتماع.. ومنذ ذلك الوقت لم يحضر معروف أي اجتماع حزبي.

لجأ سامي الحناوي مع ابنته إلى لبنان بعد الانقلاب عليه في الشام. وقد اغتيل لاحقاً على يد شاب من بيت حمشو وهو من أقرباء محسن البرازي.

كان عبد المسيح حتى ذلك الوقت يعمل بنشاط ليلاً نهاراً، وكان منكباً على كتابة البيانات الحزبية وقرارات المجلس الأعلى وبعض المقالات في البناء وكان يجتمع باستمرار مع الطلبة والمسؤولين في المنفّذيات وغيرهم. وبالتالي كانت هذه الاجتماعات والنشاطات تشكل حركة دائمة في البيت تبدأ منذ الصباح الباكر وتنتهي أحياناً بعد منتصف الليل، وكان هذا الوضع يشعرني بالفرح بقوة الحزب والأمل بانتشار المبادئ في أوساط الشعب، فكنت أتجاهل التعب الناجم عن هذه الحركة الدائمة. ولكن على المستوى العائلي كان هذا الوضع يشكّل خطراً بالنسبة إلى بناتي فقد أصبح البيت كله، في كل غرفة، مكتباً للحزب ولم يعد هناك أي مجال خاص للعائلة. وقد طلبت من عبد المسيح أن يعقد الاجتماعات في مركز الحزب لأن لا مجال لتربية بناتي في مثل هذه الحال، خصوصاً وأن البيت مقصود ليلاً نهاراً والكل يتدخل في شؤونهن الخاصة وليس لهن حرية التصرف. كما وأنني كنت أتضايق شخصياً عندما لا أجد مكاناً في بيتي أنعزل فيه لحياتي الخاصة. فكانت هذه المسألة محور جدل دائم بيني وبينه، وكان جميع الأمناء يعرفون ذلك وقد طلبت منهم أن يبحثوا له عن سكن خاص ويتركوني وبناتي في بيت لنا. وكانت

هذه المواضيع تنتهي مع جورج بتفهّمه الأمور في بعض الأحيان، لكن في مرات أخرى تندلع نقاشات حادة تنتهي بأن يترك البيت و يذهب إلى مكان آخر لمدة قصيرة ثم يعود ثانية إلى البيت للإقامة والعمل. وقد أُصبت في الآونة الأخيرة بانزعاج كبير بعدما صار البيت مأوًى لعائلة عبد المسيح ومرجعاً شخصياً له ولم يعد يوجد مكان أعتبره خاصاً بي. وعلى الرغم من ذلك، ومع كل المسؤوليات التي كان يفرضها عليَّ هذا الواقع، لم أكن أفكر مرة أن عبد المسيح يضمر نوايا في نفسه وأنه يقصد الاستبداد بي وببيت الزعيم ويصرّ على بقاء هذه الحالة بحجّة أو بأخرى ليظل في البيت يعلم كل شاردة وواردة تتعلق بي وبالحزب ويكتم عليّ ما يريد ويعلمني فقط بما يرغب في تسريبه، وهو المسؤول الذي طالما أعطاه المسؤولون ثقتهم ولم يشك أحد بإخلاصه للقضية.

بعد أن تمّ لأديب الشيشكلي تنظيم حزب خاص له، هو حركة التحرير، أقدم على ترشيح نفسه للرئاسة... فكان هذا آخر ما تحمّله منه أعداؤه. فبينما هو مصرّ على توزيع المسؤوليات الوزارية والعسكرية بين أصدقائه وأعضاء حزبه، كانت الحرب شرسة من قبل الجهات الأخرى المعادية. وجاء ردّ فعل أديب قاسياً ضّد هؤلاء. ويضاف إلى ذلك أن أديب أحاط نفسه برجالات غير مؤهلين لتحمّل هكذا أعباء، فانكشفت أخطاؤهم وعيوبهم سريعاً، وساد في أوساط الشعب استياء عارم من جرّاء هذه التصرفات. وابتدأ الجو يتلبّد. لكن رجاله وأعوانه طوّقوه وأحاطوه بحيث استطاعوا قيادته وتوجيهه وعزله عن الرأي العام وعن الشعور برد الفعل الشعبي الذي تسببه ممارساتهم. وكان المسؤولون في الحزب السوري القومي الاجتماعي ينقلون ملاحظاتهم وانتقاداتهم إلى أخيه صلاح عندما تسنح الظروف. وفي آخر مرة زارني صلاح قبل وقوع الانقلاب على أديب قلت له: إن الرئيس سيعلم ذات يوم من هم أصدقاؤه و من هم أعداؤه بالفعل، لكن قد يكون ذلك متأخراً.. وهكذا كان.

ومع ذلك استمرت الاتصالات العائلية بيني و بين زوجته، إلى أن كان يوم انتخابه رئيساً للجمهورية السورية وكان يتوجّب عليَّ ردّ زيارة لزوجته فارتأيت أن تكون في الوقت نفسه مناسبة لتهنئتها بنجاحه. وقررنا، أنا والسيدة لطفية صائب وأديل صعب، زيارتها معاً وحددنا موعداً لذلك. وعندما وصلنا إلى البيت الواقع أمام السبع بحرات، فوجئنا بمهرجان شعبي ضخم يغطّي الشارع من أوله إلى آخره. وفودٌ وعراضات تمرّ وتهيّص وتعيّش والبعض يحمل السيوف وآخرون يطلقون الأهازيج للرئيس الجديد. وعلى المنصة داخل حديقة البيت وقف أديب يحيّي الجماهير. وبسبب الحشود الكبيرة تعذّر علينا الوصول إلى باب البيت فبدأنا نعود أدراجنا، وإذا بصلاح يقترب منا ويرافقنا حتى الباب. وعندما رآني أديب نزل من على المنصة وسار باتجاهي وسلّم عليّ وشكرني. وفي داخل البيت انضممنا إلى حشد نسائي كبير وبقينا إلى أن انتهى المهرجان في الخارج ثم رجعنا إلى البيت. وقد أبدت أديل اعتراضها على تصرف أديب إذ إنه لم يسلّم عليها ولا على لطفية. وكانت هذه آخر زيارة لبيت الشيشكلي.

كانت جريدة البناء تطبع في مطبعة تجارية، لذلك قررنا شراء آلة طباعة من الأمين أديب عازار الذي كان يعمل مديراً لمطبعة في اللاذقية. اشتريت المطبعة بمالي الخاص و كان ثمنها 7000 ليرة على ما أذكر، وقد قدّ م هذا المبلغ شقيقي جورج. دفعت ثمنها على أساس أن تطبع جانباً من المتطلبات الحزبية وتكون جاهزة للاستعمال دائماً، على أن تعود أرباحها لبيت الزعيم نظراً إلى أن مخصصات العمدة يمكن أن تتوقف في أية لحظة. وكانت مصاريف البيت أصبحت أكبر بكثير من الدخل بسب كلفة المخابرات الهاتفية الباهظة التي كانت تتراكم من جرّاء المخابرات الخارجية لتصل في بعض الأحيان إلى 175 ليرة شهرياً، إضافة إلى إيجار البيت ومصروف المعيشة ومن ضمنها مسؤولية معيشة أشخاص لاجئين في دمشق واجتماعات المجالس العليا... كل ذلك دفعنا للبحث عن مصادر أخرى للدخل. وكان الأمين أديب عازار طرح عليّ عندما زارني في دمشق فكرة شراء آلة

طباعة عرضتها للبيع مطبعته في اللاذقية. وكانت هذه الخطوة بداية التفكير بإقامة مطبعة أوسع، ولكن كيف؟ اقترح بعضهم عليّ شراء آلة أخرى أكبر تستطيع طبع الجريدة والمطبوعات الحزبية الأخرى، ولكن علينا الانتظار حتى نجمع ثمن الآلة الأخرى.

وحدّثني عبد المسيح عن مشروع يدرسه مجلس العمد وهو شراء آلات كافية لإنشاء مطبعة تجارية حديثة، فسألته من أين المال؟ أجاب: سيكون باشتراك القوميين في الوطن وعبر الحدود، وقرّرنا أن يكون المشروع مساهمة، كل سهم بمئة ليرة تُدفع بعد خمس سنوات السهم بمئة وخمسن وعشرين ليرة.. ويكون المبلغ المستثمر 50 ألف ليرة تُدفع بعد خمس سنوات 75 ألف ليرة.. وقال إن هذا المبلغ سيسدد في أقلّ من سنة إذا كانت إدارة المشروع جيدة. قلت له: ولكن جريدة الحزب تخسر دائماً كونها جريدة حزبية عقائدية وليست تجارية. فقال: مستحيل، والأمين أديب عازار يدير حالياً مطبعة في اللاذقية تحقق أرباحاً كثيرة. ثم أضاف: الأسهم ستأتي باسمك أي بتوقيعك. فانتفضت قائلة: أبداً، فأنا لن أوقّع على استلام مبلغ لست متأكدة من ردّه! فلماذا لا يأخذ الحزب على عاتقه هذه المسؤولية؟ أجاب: هذا ما وجده مجلس العُمُد كأحسن مشروع لضمان المطبوعات الحزبية، وقرّر أن تكوني أنت صاحبة الأسهم، لأن القوميين يريدون توقيع شخص معروف ومسؤول في الحزب، ولا يوجد أحسن منك. لكنني رفضت المشروع في بادئ الأمر لشعوري بعبء المسؤولية المادية. واندلع نقاش وجدال بيني وبين عبد المسيح، فأنا أرفض بينما هو يصرّ مؤكداً على عدم وجود أي مسؤولية. وفي النهاية حسم الموضوع قائلاً: لقد اجتمع المجلس وقرر أن تكون هذه الأسهم موقّعة باسمي و اسمك، وبالتالي أفهمني أنه هو أيضاً يتحمّل المسؤولية.

وتأسست المطبعة بعد فترة واستوردنا الآلات المطلوبة. كانت الأسهم موقّعة مني لكن عبد المسيح لم يكن يوقّعها إلا على الوجه الآخر من الصكّ، فقلت له: هذا

ليس توقيعاً مقبولاً ولايعني شيئاً. أجابني: بل يعني، وعلى أية حال القوميون يريدون توقيعك أنت، فأنا محكوم بالإعدام.

وكانت المبالغ تأتي إلى البنك العربي في دمشق الذي كان يصرف كل ما يطلبه الأمين أديب عازار لإنفاقه على المطبعة بوصفه مديرها. وكانت الأموال تنفق لشراء الآلات الكبيرة منها والصغيرة. إلى أن أصبح في المطبعة سبع آلات طباعة كانت كافية لتكوين مؤسسة طباعية كبيرة أطلقوا عليها اسم دار الجيل الجديد وموقعها في سوق ساروجة في بيت كان في الماضي قصراً كبيراً يحوي 13 غرفة.

أصبحت الجريدة معروفة على نطاق واسع، كان لها إدارة ورئيس تحرير. وكُلّف عدد من الأشخاص بمسؤوليات محددة، فالأمين عصام يكتب الافتتاحيّات ويشرف على زوايا أخرى وفاروق نصّار يحرر الأخبار وعبد المسيح يكتب بعض الزوايا المختلفة، إضافة إلى رفقاء من خارج الإدارة يتولّون مهمات مختلفة كل واحد حسب اختصاصه. وصدرت البناء بمظهرها النظيف وصوتها القوي العالي. و كان انتشارها في أنحاء العالم العربي ومناطق عبر الحدود دليلاً على ذلك. وتولّى الأمين فؤاد شوّاف منصب المشرف الإداري على الجريدة والأمين عازار الإدارة العامة للمطبعة. وخُصّص لبيت الزعيم من عوائدها مبلغ 500 ليرة شهرياً.

سُجّلت المطبعة في سجلّ الصناعة في حي «الحريقة» باسمي و رُخّص لها بالعمل على هذا الأساس. وعندما نفّذ أديب الشيشكلي محاولاته الأخيرة لوقف نشاط الحزب وجدنا ذات يوم أن أبوب دار الجيل الجديد خُتمت بالشمع الأحمر من دون أن تُوضح الأسباب. فهاتفت زوجة أديب وسألتها عن دوافع هذه الخطوة ضد المطبعة، فاستغربت الأمر وقالت إنها ستتصل بأديب وتسأله. وأوضحت لها أنه إذا كان المقصود الجريدة الحزبية فالمطبعة غير الجريدة إذ إنها مؤسسة تجارية خاصة بي. وتركتها على أن تجيبني بعد الاتصال بزوجها.. لكنها لم تعاود الاتصال بي أبداً. وقد وقع هذا الحادث قبل أيام من الانقلاب على الشيشكلي.

وعندما دخلت السجن في وقت لاحق والتقيت رفقائي في قفص الاتهام، علمت خلال النظر في الاتهام بحرق المطبعة أن العُمُد كلهم لم يوافقوا على توسيع المطبعة أو شراء آلات جديدة ولا على مشروع بيع الأسهم إلى القوميين. وأخبرني الأمين عصام أن عبد المسيح قال لهم إن الأمينة الأولى تريد أن تأخذ على عاتقها هذا المشروع. وانكشفت أكاذيب عبد المسيح بعد أن وقع الحادث المحزن في نيسان 1955، وقال الأمين عصام إنه لم يرَ في حياته رجلاً يكذب بالشكل الرهيب الذي كان يكذب فيه عبد المسيح. يومها تأسفت لأنهم لم يعلموني عن رأيهم بهذا الخصوص، ولعلهم ظنوا بأني أقف مع عبد المسيح في كل الأمور. وربما كان هذا أحد الأسباب التي جعلت عبد المسيح يصر، رغم عدم موافقتي، على أن يعقد الاجتماعات في البيت ويبقى دوماً فيه ولا يتركه إلا نادراً سواء للذهاب إلى سهرة أو إلى المطبعة، وطيلة بقائه في البيت كان يجلس في مكتب الزعيم يستقبل الزوار أو يكتب ليلاً نهاراً.

ووقع الانقلاب الذي كان منتظراً ضد أديب الشيشكلي. في آذار سنة 1954 تجنّدت جميع الفئات الحزبية والعسكرية المضادة له وخاصة في الشمال وجبل الدروز الذي شهد ثورة ضد الحكومة. وقد قام منصور الأطرش (المتحزب لأكرم الحوراني) بتحريض الدروز في منطقته، كما تحرّك العسكريون والحزبيون العلويون في مناطقهم، وكذلك في الشمال حيث أخصام الشيشكلي من حزب الشعب وحزب البعث والشيوعيين. الجميع شارك في هذا التحرك. انتشر الخبر مع ساعات الصباح الأولى ليؤكد أن الدبابات والمصفحات باتت على حدود دمشق من الشمال، أما من الجنوب فكانت المقاومة ضد الانقلاب بقيادة الضابط شحادة عبد الحق. وعمّت الفوضى الشوارع التي غطّاها أزيز الرصاص. وكان مجلس النواب قد اجتمع ليقرر الخطوات اللاحقة. وقد أُحيط أديب علماً بأن الجبهات الشمالية كلها تقف صفاً واحداً ضده، وقد وجّهت إليه إنذاراً بالتسليم. وانتقل أديب إلى قيادة الأركان لإبلاغها، وكان رئيسها شوكت شقير الذي قال بأن الموقف خطير ولم

يعد هناك مجال للمقاومة. وطلب أديب رأي المجلس المجتمع، فكان الجواب أن يغادر البلاد حتى لا تُهرق الدماء.. علماً بأنه تلقى في نفس الوقت من الضابط شحادة عبد الحق معلومات تفيد بأنه سيقاوم حتى النهاية وهو يملك الإمكانات اللازمة لذلك. ولكن أديب فضّل أن يغادر البلاد حتى لا تقع المذابح بسببه.

كان غسان جديد في ذلك الوقت رئيساً لمدرسة الضباط واتخذ موقفه الإيجابي من الانقلاب انطلاقاً من فهمه لاستراتيجية المنطقة فاستنفر كل قواته للزحف على دمشق.

عندما وصلني خبر الانقلاب كان الأمين عبد الله محسن في بيتنا، وقلت له إنني غير مرتاحة لهذا الانقلاب فربما يكون أديب قد أخطأ لكنه كان مواطناً مخلصاً، وفي وجوده ضمانة للحرب على «إسرائيل»، إضافة إلى أنه لم يتاجر بمصير بلاده لكنه ركب رأسه واستبد! وكان موقف الأمين عبد الله مناقضاً لرأيي، وقال إنه كان من الضروري إزاحته والتخلص من أخطائه. أجبته: ولكني أخاف هؤلاء الذين جاؤوا من بعده ويقفون وراء هذا الانقلاب، فهم من عقائد متضاربة وقد يصيب الحزب ضرر كبير من ورائه. وبعد أيام من المواجهات بين الشمال والجنوب دارت خلالها اشتباكات بالرصاص في قلب المدينة وشهدت الشوارع عمليات تشليح ونهب وسقوط بعض الضحايا الأبرياء، هدأت الحالة واستولت القوى الانقلابية على الحكم وسمحت لأديب بأن يغادر البلاد فترك عائلته في قصر الضيافة حيث كان يسكن منذ تولّيه الحكم وذهب إلى مكان مجهول خارج البلاد.

بعد مغادرته دمشق صرّح الشيشكلي بأنه لو أراد المقاومة لكان ربح المعركة، لكنه لم يرغب في إهراق الدماء. اتصلت هاتفياً بزوجته وهنأتها على موقفه وشجّعتها على أخذ الأمور برباطة جأش وتنزُّه. وعلمت أنها باقية في القصر لتنقل كل أمتعتها، وقد احترم الانقلابيون موقفها هذا وتركوها تأخذ أثاثها الخاص.

بعد نجاح الانقلاب شكّلت قيادة الجيش هيئة عسكرية من كبار الضباط للنظر في تنظيم الحكم. ومنذ البداية قرّر البعثيون والشيوعيون إبعاد غسان جديد عن هيئاتهم الرسمية. فعلى رغم الموقف الحاسم الذي اتخذه غسان وشكّل نهاية أي معركة ضد الانقلاب، فقد قررت الأحزاب إبقاءه على الهامش وصوتت بالأكثرية على هذا القرار. ونقل غسان هذا الموقف إلى المسؤولين في الحزب لتبدأ المعركة خفية في بادئ الأمر ثم علناً في النهاية بيننا و بين البعثيين الذين كانوا متحالفين مع الشيوعيين وغيرهم.

في هذه الظروف انطلق حزب البعث العربي الاشتراكي (وهو حاصل الدمج بين البعث العربي لميشال عفلق و بين العربي الاشتراكي لأكرم الحوراني) يعمل وينظّم داخل الجيش. وكان أكرم يطمح إلى الحكم والسيطرة في حين كان الشيوعيون يطمعون بالمراكز الكبيرة. ونشب تنازع خفي بينهم في البداية سرعان ما ظهر على السطح، والكل يتمسك بمواقفه ومراكزه. وبطبيعة الحال، بعد أن عطّل الانقلابيون مقررات الشيشكلي السياسية، عادت الأحزاب إلى العمل القانوني ومن جملتها الحزب السوري القومي الاجتماعي. وكان معروف صعب مستمراً في حملته العلنية ضد المسؤولين وخاصة جورج عبد المسيح، وتسرّبت هذه الأخبار إلى خارج الحزب فوجد فيها البعثيون سلاحاً يحاربون به الحزب ويتحدثون عن التفكك والخلافات بين المسؤولين.

وعندما جرت الانتخابات العامة في الشام، ظهرت قوة الانقلابيين بعنف إذ إن أحداً من المرشحين القوميين لم ينجح. وقد تدخّل الجيش في عمليات التصويت علناً، ووقعت حوادث قطع طرقات واعتداءات جسدية وتشليح هويات وتهديد بالقتل. وفي داريّا سُرقت صناديق الاقتراع مرات عدة وحُطم غيرها عندما كانت كفة المرشح القومي حنّا كسواني راجحة بنسبة اثنين في المئة لمرشح الحكومة والباقي لمرشح الحزب.

هذه المعركة كانت عبارة عن رسالة واضحة من الحكومة والجيش والأحزاب موجهة إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي.

عندما ذهبت في صيف 1952 إلى مرمريتا، لأنه لم يكن مسموحاً لي الدخول إلى لبنان، علمت من رفقائنا هناك أن الشيوعيين اندمجوا بحزب البعث لكي يهربوا من ملاحقات الشيشكلي. ولكن القوميين كانوا يعرفونهم تماماً. وبعد الانقلاب على أديب ظهرت المخططات الشيوعية أقوى من البعثية، ولم يكن التنافس قد بدأ بعد بين الشيوعيين و جماعة الحوراني للسيطرة على المراكز القيادية. وعندما أسفرت الانتخابات عن فشل الحزب السوري القومي الاجتماعي، تبيّن أن الفئات كلها تعاونت في ما بينها بما في ذلك جماعة الأخوان المسلمين مع الشيوعيين، و لم يبقَ مع القوميين أحد في الساحة.

في هذا الوقت كان الضباط والرقباء القوميون يعدّون بالمئات. ولذلك بدأت المؤامرات تُحاك على غسان جديد كونه يرأس مؤسسة عسكرية كبيرة وله فيها محبّون كثر. وهكذا علمت أنهم نصبوا له ذات يوم كميناً على طريق دمشق - حمص بعد انتهاء زيارة له إلى قيادة الأركان حيث وقعت بينه و بين شوكت شقير مشادّة عنيفة ختمها غسان بالقول: إنني ذاهب إلى منطقتي وسأريكم، والحقوا بي إذا استطعتم! وكانت زوجة غسان في طور النقاهة في المستشفى العسكري بعد عملية جراحية، وكان من المقرر أن تخرج في ذلك اليوم لينقلها غسان إلى حمص. ولكن بعد المشادة في الأركان زارها غسان وطلب منها أن تبقى في المستشفى حتى السادسة مساء ثم تغادر مع أولادها إلى حمص. بعد ذلك مرّ غسان علينا في البيت قبل الرابعة، وقد قرر الرجوع إلى حمص عن طريق أخرى غير المعتادة. والذي حدث أنهم أوقفوا زوجته على طريق حمص بعد أن قطعوا السير بالدبابات والمصفحات. وقد استفسرت منهم عن سبب هذه الإجراءات، فسألوها: أين هو العقيد غسان؟ فقالت: ذهب إلى حمص! غير أنهم لم يصدقوا بل أنزلوها وفتشوا سيارتها قبل أن يتركوها تتابع طريقها. وعندما وصلت إلى حمص أخبرت زوجها بما حصل، فاتصل غسان بشوكت شقير في الأركان وأسمعه كلاماً قاسياً وعنيفاً.

بعد هذا الحادث المفضوح، بات من الواضح أن قيادة الأركان تشعر بالقلق من غسان لأنه قوي في موقعه ومسيطر تماماً على الوضع. واندلعت معركة علنية بين غسان و الأركان، إذ أصدر شكت شقير أمراً بنقل غسان إلى الأركان في وظيفة صغيرة. بعد ذلك ترك غسان السلك العسكري، و لم أعد أسمع أية أخبار عمّا يدور بينه و بين الجيش. وقد ركّز بعد ذلك على العمل محرراً في جريدة البناء فكان لمقالاته وقعٌ عظيمٌ نظراً لما احتوته من بُعد نظر وتفهّم. وفي أحد الأيام قال لي جورج عبد المسيح بعد أن انتهى من لقاء مع غسان: «هذا الرجل يجب أن يطير» سألته: لماذا؟ هل هو خائن؟ أجابني: «لا، ولكنه قبضاي!» قلت: هل يضرّ الحزب إذا كان قبضاي؟ ولم يعلّق، بل خرج من المكتب وهو يصرّ على أسنانه بشدة.

كتبت لي شقيقتي ديانا من الأرجنتين تقول إنها تودّ المجيء إلى الشام وقد كانت في المرفأ لوداع الرفيق فيصل النفوري في بوانس آيرس وتمنّت لو أنها تستطيع المجيء معه. أرسلت إليها أقول إن بإمكانها أن تأتي إذا أحبّت فقد يكون وجودها معنا مفيداً، فنحن لا نعلم متى تترك الأحداث التي نمرّ بها فراغاً في البيت فتكون هي بمثابة الأم لأطفالي.. ولطالما كررت ديانا هذا الكلام بعدما اعتقلتُ في المزة.

وهكذا رافقتها والدتي على أساس أن تعودا سوياً إلى بوانس آيرس بعد قضاء عطلة الصيف معي. وبعد أن أمضتا فترة في دمشق تحسّنت الحالة الصحية لوالدتي وخفّت أوجاعها العصبيّة، لذلك أصريت عليهما البقاء حتى الصيف التالي. وكتبت إلى شقيقي أعلمه بتأجيل السفر فأجابني بأن تبقى والدتي وشقيقتي على أن يأتي هو في الصيف التالي ليقضي العطلة معنا ثم يعود معهما إلى الأرجنتين.

وكنا لا نزال نسكن في البيت الواقع في شارع أبو ذر الغفاري قبل أن ننتقل مؤقتاً إلى بيت نجيب الشويري. وكنت قد قررت العودة إلى لبنان حين تنهي أليسار الشهادة الابتدائية، وكانت يومها في آخر سنة. لكننا فوجئنا بأحداث نيسان ودخولي السجن وما عاد باستطاعتنا تحقيق ما أردناه.

كانت الظروف تلحّ عليّ بالانتقال من هذا البيت الذي أصبح صغيراً، إضافة إلى كونه مكتباً مفتوحاً في الليل والنهار، وكذلك الفوضى النظامية سواء في الطعام أو النوم أو الحياة الاجتماعية. هذا إلى جانب خصوصية وضع البنات في معيشتهن ودراستهن وحريتهن، فكان كل واحد يعطي لنفسه الحق بالتدخل في شؤونهن اليومية. وإذا خاطبت إحداهن ينبري رفيق أو رفيقة ليتدخل حسب ذوقه ورأيه حتى إن جورج عبد المسيح كان يقاصصهن ويعاقبهن وقتما يشاء سواء كنت أنا غائبة أم حاضرة. وكثيراً ما كنا نعود إلى الجدال حول البيت والوضع الشاذّ فيه. وكنت أبحث عن بدائل لكن بلا جدوى، فقد يكون هناك بيت مريح ومناسب، غير أن الإيجارات غالية جداً فأتراجع أمام هذه الصعوبة. وأعود إلى البيت أجبر نفسي على قبول ما كنت عليه سابقاً. وكم من الظلم تعرضت له البنات بوجود عبد المسيح في البيت.

حاولت دوماً أن أرافقهنّ خلال ساعات وجودهنّ في البيت حتى أوفّر لهنّ ما أمكن من ترفيه. لهذا عندما أتى الرفيق نجيب ليخبرني أنه متوجّه إلى الجزيرة ليتسلم إدارة فندق «هدايا» وقد اتفق مع عبد المسيح على ترك البيت له، قلت: لماذا تتركه لعبد المسيح وهو يبقى دائماً هنا للعمل؟ وطلبت منه مباشرة أن يترك البيت لنا وللبنات حيث يوجد متسع لهن وحديقة يلعبن فيها فأهنأ بهن بعد الحرمان الطويل من الراحة البيتية. وذهبت مع الرفيق نجيب إلى جورج وأخبرناه بقرارنا أن يكون البيت لنا ويبقى هو في المنزل الحالي، فقال: أنا طلبت البيت لأنني بحاجة له. قلت: في هذه الحالة هل تترك هذا البيت نهائياً أم سيظل مشرّعاً للذاهبين والآتين ليلاً ونهاراً؟ ولماذا تحتاج أنت الحديقة والبيت الواسع؟ فسكت ولم ينطق بكلمة. وما إن غادر الرفيق نجيب دمشق حتى نقلنا بعض الثياب الضرورية إلى البيت الذي كان جاهزاً إذ لم تأخذ عائلة الرفيق نجيب منه سوى أمتعة خفيفة على أن يعودوا في المستقبل إما لنقل الأثاث كله أو البقاء فيه.

بقيت والدتي وشقيقتي والخادمة في البيت الأول. كانت شقيقتي تعمل سكرتيرة في السفارة الإسبانية بمرتّب قدره 425 ليرة سورية ما جعلها تفكر في البقاء عندما يأتي شقيقي ليأخذ والدتي معه إلى الأرجنتين، خصوصاً أن مناخ الشام والحياة الاجتماعية فيها كانت تعجبها.

قبل الانتقال إلى البيت الجديد قررت التوجه إلى بيروت لشراء بعض المواد اللازمة لمتابعة البناء في ضهور الشوير. وقبل يوم من ذلك عُقد اجتماع للمجلس الأعلى بدمشق. وفي اليوم التالي، أي نهار الاثنين، زارتني أنجال عبد المسيح في لبنان حاملة رسالة خاصة من أخيها. قرأت الرسالة فإذا بها تتضمن ملاحظاته على ما جرى في الجلسة الأخيرة، وفيها يقول إنهم أخرجوه لكثرة ما أحرجوه وتآمروا عليه، ويشرح بإسهاب تفاصيل النقاشات التي اندلعت في الجلسة.. فما كان منه إلا أن عرض تقديم استقالته لكن لم يقبلها سوى ثلث أعضاء المجلس.

وبينما أنا وأنجال في الشارع قرب موقف السيارات حيث سلّمتني الرسالة، إذ بالأمين حسن الطويل يمرّ مسلّماً علينا. فسألته عمّا جرى في جلسة الأمس، وذكرت له رسالة جورج فردّ قائلاً: أنا لم أقبل الاستقالة، ولست أدري الأسباب الحقيقية لذلك، والأفضل أن تسألي غيري. وتركنا من دون أن يشرح لنا الوضع. وفي اليوم الثاني عدت إلى دمشق حيث عرفت من عبد المسيح تفاصيل ما جرى في الجلسة، وقال لي: أجبروني على الاستقالة، لكنها مرفوضة، وهذا يعني أنني غير مستقيل! قلت له بالحرف الواحد: إذا كنت غير مستقيل ولا تريد الاستقالة، فلماذا استقلت؟ هل تُحلّ الأمور بمثل هذه الأساليب؟ ألم نتعوّد الصراحة في مجالسنا بحيث يقول كل واحد منا ما يفكر فيه بشجاعة؟

وفي اليوم التالي انتشرت الإشاعات والأقاويل. وتهافت القوميون، أعضاءً ومسؤولين، إلى البيت ليقولوا إنهم سمعوا بنبأ الاستقالة لكنهم لن يقبلوها. وبعضهم ذهب إلى أبعد من ذلك مُهدداً بترك الحزب. وكان جوابي لهم أنهم في الحزب

ليحترموا دستوره ومؤسساته. لكني في قرارة نفسي كنت متخوفة من العواقب لأن ذلك سيكون بداية لنشوء المحاور والتكتّلات في صفوف الحزب، من جهة معروف صعب، ومن جهة أخرى جورج عبد المسيح. فهل يستطيع المسؤولون وقف هذا التفكك؟

الفصل السادس عشر

إن من أخطر الظواهر قد تكون تلك الأحداث التي إذا ما وقعت أدّت إلى تنفيذ كل مآرب الوصوليين في الحزب. ولاشك في أنّ غياب الزعيم ترك في نفوس الكثيرين مثل هذا الطموح، ولذلك بدأ التضارب في ما بينهم. فكم سيستقبل خصومنا بسرور هذه الحوادث، وماذا ستترك في الصف الحزبي من صراع مخلخل؟ كانت هذه هي أفكاري التي قلتها بصراحة للأمين عصام عندما تحدّثنا عما جرى قبل أن أنزل إلى بيروت. قلت له إن الاستقالة وعدم الاستقالة ليسا هما الموضوع الأساسي، ولا حتى الرئاسة، وأرى أنه في هذه الظروف وبعد أن خرج الحزب من معركة انتخابية فاشلة والكل متكتّل ضده في الجيش والحكومة والأحزاب لا يجوز أن نطلع عليهم بأخبار الصدامات بين هذا وذاك، فالمعروف عنا دائماً أننا صف نظامي. دعوت إلى أن تسير الأمور على ما هي عليه حتى يُنهي عبد المسيح مدته الدستورية وحينئذ ليس على أي واحد منا أن ينتخبه. وسألته: ما دامت الأكثرية لا تريده، فلماذا لم تقبل استقالته؟ ولماذا نتورط بهذه الأمور، نريده أن يستقيل ولكن لانقبل الاستقالة؟ وعدا عن هذا، إذا كان هناك شيء عليه فحاسبوه في أي وقت.

وفي بيروت ذهبت إلى بيت الرفيق جبران جريج فوجدت الأمين عصام هناك، وكنت قد كلفته بأن ينقل إلى المسؤولين ما قلت له في دمشق. وكان عدد من الأمناء والمسؤولين مجتمعين فحدّثتهم بما أفكر فيه وعبّرت عن تخوّفي من عواقب المنافسات والانشقاقات. وعرفت هناك أن معروف صعب لا يقبل إلا الاستقالة وكان هدفه أن يضرب عبد المسيح، وفاته أنّ العواقب على الحزب والحركة ستكون وخيمة. وقلت ما كان عليّ قوله لجميع الرفقاء والمسؤولين، وعدت إلى دمشق. وقد سألني جورج

عمّا فعلت فرويت له ما فعلته وما قلته وأضفت أقول: أرى أنك قد جلبت على الحزب متاعب ليتك ابتعدت عنها. ومع أنني قمت بهذه المساعي فلا تفكر بأنني راضية عن مواقفك لكن مصلحة القضية هي التي تجبرني على هذا العمل. وأنا شخصياً لا يهمّني عبد المسيح أو غيره بل تهمني القضية. وإذا كان لك موقف في المجلس فلماذا تتراجع عنه؟ وإذا قرر الأمناء عدم قبول الاستقالة فلماذا تغير موقفك؟ وحاول أن ينقاشني في رأيي لكنني فضّلت عدم الدخول في أي جدل، ومع ذلك فَهِم أنني لم أكن معه بل مع القضية.

وتركت هذه الحادثة أثرها في نفس جورج إذ إنه كلّف أنجال بأن تحاول معرفة مكانتي بين القوميين. ومن دون أن تدري كشفت أنجال أمامي هذه المهمة وقالت إنها أعطته الفكرة الحقيقية عن احترام القوميين ومحبتهم للأمينة الأولى. هذا الاستنتاج كان في أساس قرار عبد المسيح بالتخلص مني. كما أنه انزعج جداً عندما أخبره سعيد تقي الدين عن لقائنا بالدكتور شارل مالك في فندق قاصوف والموقف الذي وقفته أمام مالك، وظهر هذا الانزعاج عندما سألته: هل أخبروك بما حصل بيننا في القاصوف؟ فقال بغضب: وماذا حصل؟ ثم رمى بنزق الأوراق التي كانت بين يديه!

هكذا كان قلبي ينكمش منه في بعض الأحيان، لكنني كنت أعود لضميري قائلة: ليس ممكناً أن ينقم عليّ هذا الرجل، فأنا لا أكنّ له أي بغض بل بالعكس وضعت كل إمكانياتي أمامه ليكون التلميذ المثالي للحركة، وحتى بناتي قدّمن طفولتهن أمامه كونه يعمل للحركة.

وبعد تقديم الاستقالة قال عبد المسيح إن الأمينة الأولى ستكون أكثر الناس ارتياحاً، ولكن لم تمض أيام على تسلّم الأمين عصام المحايري الرئاسة حتى أخذ بعض القوميين يراجعون الأمناء في هذا الموضوع. واندلع الأخذ والرد حول قانونية الاستقالة، فكانت أيام مزعجة لم أعرف الكثير عن حقيقتها وإنما كنت أرى المراجعات

الكثيفة مع بعض المسؤولين. واعتقدت بأن الأمور ستنتهي في المجلس لذلك لم أعد أتدخّل في المسألة. ولكن لم يقبل جورج إلا أن يُعاد عقد الجلسة لنفس الموضوع بحجة أن قبول الاستقالة غير شرعي. وانتهت المهزلة بتجمّع بعض القوميين وتهديد أعضاء المجلس ودفعهم إلى عدم قبول الاستقالة. وكانت هذه بداية مخطط عبد المسيح للحزب واستطاع بالفعل العودة إلى الرئاسة.

ولم أعد أريد البقاء في البيت نفسه الذي يسكنه، إذ شعرت بأن وجودي هناك قد يُفسّر على أنني أقف إلى جانبه. ولم أكن أرغب بعد هذا الحادث أن أتحمل مسؤوليته، وقد نفرت نفسي من أشياء كثيرة منها معلومات عن حوادث سنة 1949 ومعرفتي بأنه هو الذي شدد على الزعيم بضرورة القيام بالثورة وهدد بالسير فيها وحده... وكانت النتيجة أنه فرّ وترك رفاقه الذين لم يكونوا أكثر من 12 شخصاً هم الذين هدد بالسير معهم لوحده!

لهذا وافتنا فرصة جميلة عندما ترك نجيب الشويري بيته فانتقلنا للسكن فيه، ولشدة ارتياحي وبهجتي بالأطفال كنت أقول إنني لا أصدق أن هذا الهناء سيدوم في بيتي. وكنت أراقبهن وهن طليقات يلعبن في الحديقة ودموعي تنسكب من شدة فرحتي بهنّ. لكن هذه السعادة لم تدم أكثر من خمسين يوماً عندما داهمتنا حوادث عدنان المالكي.

قررنا أن تبقى الماما وشقيقتي ديانا في البيت الأول بسبب وجود أسّرة كافية فيه بينما لم يكن في بيت نجيب أسرّة سوى لي ولبناتي.

وكان يقيم في البيت رفيق يعمل في المطبعة اسمه محيي الدين كريدية، وكان يومها مصاباً بالتيفوئيد ولم يكن له أقرباء في دمشق فتولّت والدتي العناية به. وحين وقوع حوادث المالكي كان لا يزال طريح الفراش وقد عرفت أنه نُقل من البيت في تلك الليلة.

كنت أود الذهاب إلى بيروت وأخذ بناتي معي في عطلة عيد الفصح سنة 1955، أي في شهر نيسان، وكان الفصح مطابقاً لفترة عيد الجلاء في الشام في 17 نيسان. وقد هيّأت حقيبة صغيرة لتمضية ثلاثة أيام في بيت مري حيث يكون في البيت بنات جان عبد المسيح يلعبن مع بناتي فيرفّهن عن أنفسهن عناء الدراسة. وسألت عبد المسيح إن كان يريد شيئاً من عند أهله، فقال: السيارة حاضرة هنا لتّقلك إلى لبنان. (وكانت تلك سيارة شقيقتي ديانا وقد اشترتها من الرفيق زكي نظام الدين كي تشغّلها تاكسي وتدفع ثمنها أقساطاً لأن دخلها مضمون، وقد دفعت أول قسط منها وقيمته ثلاثة آلاف ليرة سورية). وكان عبد المسيح يستعمل السيارة للمطبعة ولأموره الخاصة ويأخذنا عند الحاجة إلى أي مكان، وكان يدفع هو مصاريف البنزين. ولم تكن شقيقتي قادرة على شراء رخصة لتحويل السيارة إلى تاكسي. فاقترح عبد المسيح أن أسافر بالسيارة الخاصة، فسألته لماذا ومن يسوقها؟ فأجاب: كلّفنا رفيقاً ليسوقها. قلت: لا أبداً، فأنا لا أرغب بالتقيد بأحد ولا أن أقيّد أحداً. وللرفيق أشغال ولا أريد أن يترك أحد أشغاله من أجل سفر يتوفر بشتى الطرق. ثم إن السيارة تكلّف مثل سيارة الركاب إضافة إلى أننا سنضيّع وقت الرفيق ونقيّده بنا ومن ثم نتقيد به خلال ثلاثة أيام. وتابعت أقول: لن أقبل، فبلّغ شكري للرفيق لأنني قررت السفر بصورة عادية. فصرخ بي غاضباً: هل تظنين الرفقاء ألعوبة، لقد أخذ مأذونية خصّيصاً لك وها أنت الآن ترفضين؟ قلت: ومن طلب منك السيارة، وكيف تتصرف أنت بأموري الخاصة؟ فلا تُقدم على مثل هذه الأمور مرة أخرى من دون استشارتي! وعلى أية حال لا ذنب للرفيق طالما أنك قيدته. وسألته عن اسم الرفيق، فقال إنه غسان زكريا.

وكانت السيارة في الكراج كالعادة للتنظيف والفحص. ويوم نزولنا إلى بيروت ذهب عبد المسيح وأخرجها من الكراج قائلاً: لقد فحصتها وكشفت عليها بنفسي وهي في حالة جيدة. غادرنا دمشق بعد الظهر وكان برفقة غسان زكريا زوجته هدى زلفو آغا (شقيقة هند زلفو وملك زلفو زوجة عبد الحميد السراج). وفي

طريقنا حتى ضهر البيدر توقفت السيارة عدة مرات، وكانت هدى في شهرها التاسع في السيارة. وتوقفنا مرات بسببها ومرات أخرى بسبب الأعطال. ونزل غسان مرات ونحن في أعلى ضهر البيدر ليفحص السيارة ثم تابع سيره لكن ببطء شديد مما جعلني أفكر أن فيها عطلاً. وسرنا بحذر حتى وصلنا كراج بيروت وعندها قال لي غسان: «الآن أقول لك وقد وصلنا بسلام إننا في سيارة ليس لها فرامل». دُهشتُ لهذا الخبر نظراً إلى أن عبد المسيح أكد لنا أنه فحصها! وكانت النتيجة أنني دفعت ثمن التصليح، وإذا أضفنا البنزين فتكون الرحلة قد كلفتني مرتين أكثر من أجرة سيارة ركّاب.

وصلنا بيت مري، وكان عليّ أن أخابر عبد المسيح الذي طلب مني الاتصال به حتى يطمئن على وصولنا، فخابرته.

وبعد انقضاء الأيام الثلاثة، جاء غسان وزوجته اللذان كانا في ضيافة أقرباء لهما في بيروت لمرافقتنا في طريق العودة إلى دمشق فاصطحبنا معنا نضال وأمل (وهما ابنتا جان عبد المسيح أخ جورج عبد المسيح، ومن نفس أعمار بناتي). وقد كانت العطلة المدرسية مستمرة فاتفقنا أن نأخذهما في طريق العودة إلى دمشق عند عمتهما أنجال العائدة من القدس بصحبة بعض أصدقائها يوم الأحد الواقع في 17 نيسان ويكون اليوم التالي موعد افتتاح المدارس في دمشق فتعود بناتي إلى الدراسة.

وعند وصولنا إلى دمشق دخلت ابنتا جان لتسلّما على عمهما قبل أن نذهب كلنا إلى بيتنا في شارع بغداد. وأبدى عبد المسيح استغرابه من مجيئهما وقال: لاشك في أن هذه خبرية أنجال. فقلت: ألست مسروراً برؤيتهما وهما جاءتا لرؤيتك؟ وقبّلهما بامتعاض ولم أفهم من هذا الموقف سوى أنه ذو طِباعٍ غريبة.

أمضَت البنات سوية أربعة أيام في بيتنا. ويوم الأحد الواقع في 17 نيسان، أي عيد الفصح، قمت بتهيئة بيض العيد (الملون والمصبوغ) وغيره من الأشياء التي

تبهج الأطفال. كانت الساعة تقترب من التاسعة صباحاً والبنات في غرفتهن يَحُكن ثياباً لألعابهن في حين كنتُ أنا في قاعة الطعام أتناول الشاي، وإذ بجورج يدخل وتحت إبطه حقيبة تشبه حقائب المدارس الثانوية، بل مثل حقيبة أليسار بالذات. سألته إن كان يريد أن يشرب شيئاً فرفض، ثم دخل غرفة النوم الخاصة بالبنات ولم يخرج منها إلى أن أنهيت الشاي فأطلّيت من الباب لأجده واقفاً على باب الشرفة يرفع الستارة وينظر إلى الشارع، فظننته يراقب الدبابات التي كانت تمر في الشوارع متجهة إلى مكان الاستعراض العسكري. وتركته هناك وذهبت إلى أشغالي من دون أن أعلم بوقت خروجه من البيت.

بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً وصل جان عبد المسيح ومعه رفقاء من بيت مري وقال لي إنه أتى خصيصاً لاصطحاب البنتين إلى بيت مري، فقلت له وقد استغربت هذا التصرف: أتدفع ثمن أجرة سيارة لتأخذ البنتين في حين أن أنجال آتية من عمّان ومعها سيارة خصوصية وستكون هنا عند المساء؟ كما وأن المدرسة في برمّانا تبدأ يوم الأربعاء فلماذا هذه العجلة وأنا أعرف أن مصروف السيارة ذهاباً وإياباً هو أكثر من استطاعتك! أجابني بالقول: خشيت أن لا تأتي أنجال اليوم. فقلت: وماذا يحدث إذا أتت غداً، فإن لم تأت اليوم فهي آتية غداً على كل حال: ولماذا تفترض صباحاً بأنها لن تأتي هذا المساء؟

وبقي جان مع ابنتيه إلى أن انتهت حفلة المركز التي اشتملت على مهرجان تمثيلي لرضى كبريت. وفي تمام الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر غادر دمشق مصطحباً ابنتيه.

بعد ذلك بدأ جورج عبد المسيح يرسل مدبّرة المنزل إلينا مستخبراً عن أنجال وما إذا كانت قد رجعت، وهي لم تكن قد وصلت حتى تلك الساعة. وعاد يكرر سؤاله مرات وكانت المساعدة المنزلية تقول إنه ثائر على أنجال ويكيل لها الشتائم. فزاد اقتناعي بغرابة طباعه. وهكذا مضى النهار ولم أعرف ما إذا كانت أنجال قد عادت أم لا.

في ثاني يوم العيد، أي الإثنين، ذهبت بناتي إلى المدرسة. ودخلت الغرف أرتّبها وكانت أول غرفة لصفية وأليسار وفيها مكتب في إحدى الزوايا قرب باب الشرفة، وهناك وجدت حقيبة أليسار موضوعة على الأرض ومسنودة إلى المكتب فاستغربت الأمر وفكّرت أن أنظر في داخلها كي أعرف ما هي الكتب التي تركتها في البيت. ويا لدهشتي، فقد كانت الحقيبة التي هي عين حقيبة أليسار مليئة بالأوراق العسكرية، وما إن فتحتها حتى انكمش قلبي من تصرفات عبد المسيح المستهترة. كان عنوان الأوراق «هيئة الهدنة»، لكني لم أفتح غير طبقة واحدة وفهمت أنها أوراق لا تخصني ولا تخص الحزب فكيف تترك في بيتي الذي لا يحتوي على أية أوراق حزبية بتاتاً؟ وما هذا الاستهتار في وضعها في متناول الأطفال، وفي حال لعبوا بها فماذا يفهمون منها وهل يدركون خطورتها؟ ملأ الغضب الشديد جوانب نفسي، فرفعت الحقيبة لأضعها في مكان بعيد على أن أحملها لاحقاً إلى عبد المسيح وأكلّمه اللازم.

أبعدت الحقيبة عن متناول الأطفال، وتوجهت بعد يومين إلى البيت القديم لأحدّث عبد المسيح عنها وأطلب منه أن يأخذها من بيتنا إذ ليس من المناسب أن تكون هذه الأشياء عندنا. لم أجده في البيت في تلك المرة، ومع أني نويت تنفيذ هذه الخطوة عدة مرات إلا أنني كنت أنساها بسبب المشاغل الكثيرة. إلى أن حلّ يوم الجمعة الواقع في 22 نيسان 1955، وكان مجلس العُمُد منعقداً في بيت عبد المسيح كالعادة كل يوم جمعة. وكنت، كالعادة أيضاً، أطبخ في بيتنا و أرسل الطعام إلى البيت الآخر. وفي 22 نيسان طبخت، وساعدت البنات في التحمّم لأن الجمعة هي يوم العطلة عندهن، وكانت مدبرة المنزل تعاونني. عند الساعة الواحدة والنصف ظهراً أرسلت أسأل ما إذا كان الاجتماع قد انتهى لأرسل لهم الطعام ساخناً حتى لا تضطر والدتي لتسخينه هناك، وعادت مدبرة المنزل لتقول إنهم ما زالوا في الاجتماع. وسألت مرة ثانية وثالثة.. حتى حلت الساعة الثالثة والنصف فإذا بهيئة المجلس كلها تأتي مع عبد المسيح لتناول الطعام عندنا. انتابني الغضب

آنذاك وقلت لجورج: اليوم الجمعة والسوق مقفلة، فلماذا لم تخبرني باكراً أنهم قادمون كلهم إلى الغداء؟ فما كان منه إلا أن رد بانفعال: ولماذا أرسلت تسألين عدة مرات إذا كنا قد انتهينا؟ قلت: مثل العادة، أريد التأكد ما إذا كنت في البيت وجاهزاً لإرسال الطعام. لكنه غادر البيت من دون أن يتناول الغداء بحيث شعرت بعدم الارتياح لأنه بقي دون طعام، فهذا الشعور بالمسؤولية تجاه كل واحد منهم جعلني أعاملهم كأبناء لي.

وتدبرت أمور الغداء بما هو متوافر، ثم ذهبت إلى البيت الآخر تاركة العمد على المائدة لوحدهم لأن خالدة صالح دعتني لحضور اجتماع إذاعي سيعقد هناك وتريدني أن أحدّث الحضور.

كانت القاعة ممتلئة بالطالبات ومعهنّ خالدة، جلست وإياهن نتحدث عن القضايا المتعلقة بالوطن والأحزاب والمبادئ وتعريف الشخصية السورية القومية. انتهى اللقاء الإذاعي عند الساعة الخامسة والنصف وبدأت الطالبات مغادرة المكان، وكنا نستعد للرحيل بدورنا عندما سمعت رنين الهاتف في المكتب الذي يفصله الزجاج عن الصالون، ثم نهض جميع الحاضرين من دون أن يتركوا المكتب. وبعد قليل دخل فؤاد جديد ليقول إنه علم وهو عند باب الخيّاط في شارع البرلمان بوقوع حادث اغتيال في الملعب البلدي وأن القتيل ضابط اسمه عدنان المالكي. كنت أسمع كلام فؤاد من خلال الباب المفتوح ولم أدر أن للقضية علاقة بنا كحزب أو بأحد رفقائنا. ولكني شعرت بأن الجو، مهما كان الموضوع سيكون متوتراً. واعتقدت في بادئ الأمر أن الاغتيال جزء من الخلافات الدامية التي كانت تدور في حماة بين أنصار الشيشكلي وأنصار الحوراني، إذ قبل هذا الحادث بأيام قُتل أحد شباب الشيشكلي فكان أن أخذ هؤلاء بالثأر من أحد شباب الحوراني وأظنه شقيق أكرم. فقط في السجن علمت أن القاتل كان قومياً.

عندما غادرت خالدة الصالون دخلت المكتب لأسأل عما يجري، فأخبرني الرفقاء بالموضوع لكنهم لم يوضحوا لي أن القاتل قومي. كان الجميع يتهيأون

للرحيل وارتأوا كلهم أن يتوارى عبد المسيح كونه محكوماً بالإعدام في لبنان وقد يسلّم بحجة أو باخرى. وقال الرفقاء الذين كانوا قد جاؤوا من لبنان إنه من المفضل عدم البقاء في دمشق فربما تغلق الحدود ولا يعود بإمكانهم مغادرة الشام إلى لبنان. وأخيراً بقي في المكتب الأمين عصام وغسان جديد وعبد المسيح، فسألتهم: ماذا عليّ أن أفعل، هل هناك أشياء يجب إخفاؤها؟ هل نحن معرّضون للتفتيش؟ ماذا يجب أن افعل إذا ذهبتم أنتم؟ وتذكّرت الحقيبة التي تركها جورج في بيتي، فقلت له: لماذا تركت تلك الحقيبة عندنا وفيها أوراق لا تخصّنا بشيء؟ أجاب: لا بأس دعيها، فهي أوراق غير مهمة! فصرخ به غسان: ماذا تقول؟ إنها هامة وخطيرة. وتوجّه إليّ قائلاً: أعيديها لنا.. وهكذا كان، وأعيدت الحقيبة إلى صاحبها غسان على يد أشخاص لم أعرف هويتهم. ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الامتعاض ظهر على وجه عبد المسيح بوضوح عندما طلب مني غسان أن أعيد له الحقيبة، فكان يذرع البيت من أوله إلى آخره بتوتّر وعصبية.

ترك غسان البيت وبقي عصام وعبد المسيح الذي طلب مني أن أعطيه قنينة ماء ورغيف خبز، وطلب كذلك الحطّة والعقال. سألته عن الأوراق التي يجب إخفاؤها. وهل أوراق الحزب السرية في البيت، وأين رسائل هشام شرابي، وماذا عن محاضر الجلسات؟ وكان يجيب على كل هذه التساؤلات بالنفي قائلاً: لا شيء مهم أبداً، كل ما هو موجود عبارة عن أوراق إدارية لا قيمة لها. وعدنا أنا وعصام نكرر عليه الأسئلة بإلحاح بينما هو يستعدّ للخروج من البيت، فكان جوابه دائماً: لا شيء مهم إطلاقاً. قلت له: عندك رشاش ومسدسان فماذا تريد أن نفعل بها؟ سألني: أين هي، فأجبته: في الخزانة. قال: وماذا سأفعل بها؟ أجبته غاضبة: هل أعلّقها برقبتي؟ السلاح سلاحك وأنت تتركه تحت فراشي حيث يوجد أطفال صغار، فأين أضعهما إذن؟ لم يُجب بحرف بل غادر البيت تاركاً الأمين عصام وأنا نفتّش في الأوراق مع العلم بإنه لم يكن يوجد في المكتب ما يثير الخوف سوى محاضر الجلسات التي يجب أن تكون سرية. ولم نجد أي شيء بالفعل على الرغم

من أنني عدت طيلة اليومين التاليين (حتى صباح الأحد) لأبحث بين الأوراق علّني أجد فيها أشياء سرية، لكن عبثاً.

عند الساعة السابعة والنصف مساءً زارني رفيق كان قد عرّفني على نحاتة إنكليزية متزوجة من طالب شامي هو قريب لذلك الرفيق، واقترح أن تصنع تمثالاً للزعيم لأنها ناجحة جداً في فنّها. وكان ذلك قبل الحادث في الملعب بحوالي أسبوعين، فأعطيتها عدة صور للزعيم لتنقل عنها: وعندما انتهت من وضع الشكل الأوّلي بالمعجون طلبت من الرفيق أن يُحضرني لإبداء الرأي قبل أن تصب الجفصين عليه. فذهبت مع الرفيق وزوجته وصاحب السيارة إلى المشغل، وهناك وجدت أن التمثال لا يشبه الزعيم في بعض النواحي فأعطيتها الملاحظات اللازمة للتصحيح. وبينما نحن هناك أعطاني الشاب الذي أقلّنا في سيارته نشرة صغيرة مزنّرة بشريط حداد أسود تنعي العقيد عدنان المالكي الذي أغتيل في الملعب البلدي، فعلّقت قائلة: هذا من ذيول حوادث حماة. ثم عدنا إلى الحديث عن التمثال والملاحظات عليه. تركنا المشغل قرابة العاشرة ليلاً وعدت إلى البيت لأجد الأمينين فؤاد شوّاف وأديب عازار في انتظاري، فقالا لي إن عبد المسيح موجود في بيت الأمين أديب وقد أرسلهما لاستطلاع ما جرى في البيت. وعلمت أنه أرسل خلال غيابي الأمين كامل حسان، قبل أن يرسل الأمينين فؤاد وأديب، ليستخبر أيضاً عن وضع البيت.

في هذه الأثناء وصل من عمان رفيق يحمل رسالة من الأمين مصطفى أرشيد إلى عبد المسيح، وقال إنها سرية وخاصة. قلت له: ألا تدري أن الجو الآن لا يسمح بأن تأتي من الأردن إلى الشام حاملاً رسائل سرية؟ أجابني أنها مطلوبة من الرئيس اليوم بالذات! وأعطاني الرسالة وذهب. وعندما علمت أن عبد المسيح في بيت الأمين أديب سلمته هذه الورقة ليحملها إليه.

لم يمض وقت طويل على عودتي إلى البيت من عند النحّاتة الإنكليزية حتى سمعت في الخارج ضجة كبيرة، فتوجهنا جميعاً إلى نافذة المكتب لاستطلاع الأمر.

كان الشارع يغص بسيارات الشرطة التي نزل منها العشرات مدجّجين بالسلاح وصعدوا إلى طابقنا وطرقوا الباب ففتح لهم الأمين فؤاد وسألوا عن جورج عبد المسيح، فقلنا لهم أنه غير موجود. والغريب أنهم لم يطلبوا تفتيش البيت.

أغلقنا الباب بعد مغادرتهم، لكنهم عادوا خلال دقائق ليسألوا الأمينين فؤاد وأديب عن هويتهما، وبعد التدقيق أخذوهما معهم مخفورين. وعندما ذهبوا تذكرت الرسالة التي سلمتها إلى الأمين أديب، فركضت أفتش في الغرف لعله رماها عندما شاهد سيارات الشرطة في الشارع. وأثناء بحثي قالت لي المساعدة المنزلية لورانس أنها رأته يفتح البراد قبل وصول رجال الأمن، وفتحت البراد لأجد الرسالة هناك.. وفي الحال أحرقتها.

وبقيت في البيت بعد حادثة المالكي، وفقدت شهيتي للأكل عندما وجدت أن الشرطة منتشرة في الشارع وفي البناية وصولاً إلى درج البيت، وهي تعتقل كل من يحاول زيارتي من الرفقاء أو المواطنين. وعلمت في وقت لاحق أن الكثيرين حاولوا إعلامي بإحراق المطبعة لكنهم لم يتمكنوا من الوصول إليّ. وكان أن اُعتقلت من دون أن أعلم شيئاً عن الحريق.

يوم الأحد الواقع في 24 نيسان، أي بعد الحادث بيومين تبلّغت قرار توقيفي. فاعترضت بسبب أوضاعي العائلية، خصوصاً أن بناتي سيبقين لوحدهن. ورفضت الخضوع، فما كان منهم إلا أن أحضروا أوامر مشددة وساقوني بالقوة إلى دائرة الشرطة. كانت شقيقتي معي فأخذنا سيارة تاكسي وصعد معنا ملازم أول يشبه إسماعيل جمعة. في الطريق عرّجنا على دائرة الشرطة حيث أنزلوا شقيقتي ديانا فقط، وتابعنا نحن حتى سجن المزة.

في الطريق شرحت لشقيقتي بالإسبانية بعض الأمور عن البنات وأشياء أخرى تخصّني لتخفيها عند عودتها إلى البيت.

ومن الغريب أنني شاهدت نصري سرور، ابن أخت عبد المسيح، ماراً من أمام البيت قبل اعتقالي بنصف ساعة، وقد أومأت إليه من الشرفة كي يتراجع حتى لا

يمر أمام الشرطة، لكنه تابع سيره. والغريب أيضاً أنه كان قبل ذلك في بيروت يستعد للسفر إلى أفريقيا، فلماذا جاء إلى دمشق وإلى البيت تحديداً، في تلك الظروف؟

انتظرت في إدارة السجن حوالى الساعة من دون أن يحدّثني أحد وكأنهم كانوا يعقدون جلسة تشاور قبل تقرير مصيري. ثم أدخلوني إلى مطبخ - حمام وأجلسوني على كرسي خشبي بين الباب والنافذة، فكنت أشعر بمجرى الهواء يضرب ظهري. وكان الطقس بارداً وأنا أرتدي فقط كنزة رقيقة وتنورة سوداء رقيقة أيضاً ومعي شال أسود وضعته على كتفيّ لكنه لم يحمني من البرد، فحاولت الابتعاد عن مجرى الهواء غير أن الشرطي طلب مني العودة إلى مكاني. بعد ذلك نقلوني إلى زنزانة صغيرة ضيّقة عرضها متر وطولها متران، فيها حِرام مفروش على الأرض وآخر للغطاء مهترئان ورائحتهما كريهة.. وأغلقوا الباب عليّ. الضوء مطفأ، ولا أسمع سوى رنين الجنزير وحديد الأبواب التي تُفتح وتُغلق وكأنها أبواب قلاع كبيرة على الرغم من صغر حجم الباب.

بقيت في هذه الزنزانة خمسة أيام سمعت خلالها أصواتاً كانت تأتي من الخارج، وكانت كلها أصوات رفقائي في التعذيب والتحقيق، وأوامر عزّت حسين للسجناء والشرطة، وصوت المكانس وهي تنظّف الدار عند مطلع الفجر. أما الزنزانات المجاورة لي يميناً ويساراً فلم أعرف عددها تماماً وكانت أكثر الأحيان هادئة. كنت أسمع حديثاً قصيراً خافتاً بين شخصين، ولم أعرف بادئ الأمر ما إذا كان من داخل الزنزانة أم خارجها، إلى أن تكرر في نفس المكان وأظنه صدر عن سجين في الزنزانة المجاورة. كان الضوء عبارة عن لمبة معلّقة في السقف تظل مضاءة حتى الصباح، وتطفأ في النهار فتبقى الزنزانة أشبه بالمغارة. والسبب في ذلك أن تكون الرؤية داخل الزنزانة واضحة في الليل عندما يطل الحرس لمراقبة السجين، أما في النهار فيكفي النور الضئيل. وفي باب الزنزانة نافذة بحجم الكف لها فتحة جرّارة من الخارج تُفتح وتُغلق عندما يكلّم الحارس السجين أو يراقبه.

في أول ليلة لي داخل هذه الزنزانة، وبينما أنا مستلقية على ظهري والحِرام الكريه فوقي وقد وضعت شالي الأسود حاجزاً بين وجهي والحِرام لأبعد عني رائحته، رأيت هذه النافذة الصغيرة تُفتح وتغلق فأغمضتُ عيني متجاهلة وجود الحارس. سمعت صوتاً غريباً يقول للحارس: قل لها أن تخرج لترى رفاقها! فيردّ الحارس الحر قائلاً: إنها نائمة ولن أوقظها. ويعاود النظر من النافذة الصغيرة ليقول: أيقظها، طلبوا مني أن أوقظها! فيرفض الحارس بالقول: لن أوقظها وهي نائمة. وقد استعملت هذه الطريقة كل ليلة حتى أتخلّص منهم.

دخلت السجن يوم الأحد، ويوم الثلاثاء سمعت شخصاً يحدّث الرقيب أوّل عزّت حسين الذي كان في ذلك الوقت مدير سجن المزّة، وهو شركسي من فوج الخيّالة، وظننت بأن صوت الشخص الآخر هو صوت شقيقتي ديانا، فلم تعد أعصابي تتحمّل أكثر إذ ربما كانت بناتي قد بقين لوحدهن ومن يدري إذا كنّ الآن مشرّدات في الشوارع مرعوبات من ملاحقات الجنود. وكنت منذ اندلاع الحوادث وحتى ذلك الوقت لم أتناول أي طعام فهزل جسمي. وفي خضمّ ذلك القلق المتزايد سألت عزّت حسين ما إذا كانت شقيقتي معتقلة أيضاً، فلم يُجب بل راح ينظر إلى الأرض وأنا ألحّ عليه وهو صامت كالحجر. وأصبحت شبه متأكدة من اعتقالها فانفجرت في بكاء حادّ حتى كاد يغمى عليّ، فنادى الحارس عزّت الذي كان الوحيد المفوّض بفتح الباب. فجاء وأخرجني من الزنزانة وأخذني إلى المطبخ. الحمام حيث توجد طاولة كبيرة وسرير وطلب مني أن أستريح عليه. سألته: ما سبب هذه التصرفات معي، إنني لا أدري ماذا جرى لبناتي وأنا لا أعلم لماذا أكون في السجن؟ أجابني: لا بأس، هنّ سيتربّين كما رُبّي المسيح اليتيم ومحمد اليتيم! قلت: ولماذا يكون لهن هذا النصيب وماذا يجب أن افعل لأفهم ما يجري؟ قال: إذا كنت بريئة سيظهر هذا، وإن لم تكوني بريئة فالمحكمة ستقول لك وليس أنا.

فهمت من خلال هذا الحديث أنهم يتآمرون عليّ وعلى الحزب كله. فكّرت أن العملية شبيهة بأحداث سنة 1949، افتعال حوادث لزجّ الحزب في مجزرة. وكنت

أسترجع في ذاكرتي أساليب حوادث سنة 1949، وشعرت أنّ يدأ واحدة هي التي تحرّك خيوط التمثيليتين. وبعد أن ذهب عزّت، غسلت وجهي بالماء البارد وعدت إلى هذا الفراش لأستريح وأنا أفكر بأهوال الحوادث الأولى والثانية.

أثناء هذه الاستراحة ابتدأت أراجع في ذاكرتي آخر أيام سنة 1954 وأوائل سنة 1955، وكانت كلها ثقيلة على صدري لما فيها من الفوضى البيتية والمماحكات بين بعض المسؤولين والهجمات الخارجية الشديدة... وفي آخر المطاف نُفا جأ بهذه الأحداث الرهيبة. كانت نفسي مضطربة كثيراً ولم أكن مرتاحة لوضع الحزب، داخلياً بسبب التناطح بين معروف صعب وجورج عبد المسيح، وخارجياً تجاه الأحزاب والتكتلات السياسية الكبيرة. ومن جراء هذا الاضطراب كنت أحلم بكوابيس مزعجة، وآخر كابوس عشته كان أني وجدت نفسي في إحدى زنزانات المزة، وكان على بابها شرطي من العشائر شكله خليط افريقي ـ عربي. وقد تحدّثت في ذاك الوقت عن هذا الحلم المزعج أثناء وجود بعض الأمناء في بيت الزعيم، وكنا نتناول فنجان شاي في أواخر الليل.

في ذلك الكابوس رأيت الجنود يزجّونني في زنزانة معتمة صغيرة مربّعة الشكل وعلى أرضها بساط مهلهل. دفعني الشرطي ذو الشكل الأفريقي إلى الداخل بعنف، فوقعت على البساط. نظرت حولي وأنا أردد لنفسي: أفي مثل هذه الزنزانة وضعوا الزعيم؟ كان النور خافتاً، لكني شاهدت بعد فترة نافذة صغيرة تُفتح في وسط الباب ويد الشرطي ترمي ثعباناً من خلال هذه النافذة إلى أرض الزنزانة. أقفل الشرطي النافذة بينما راح الثعبان الذي يبلغ طوله المتر تقريباً يزحف قرب الجدار. ورأيت أنه لا مناص من لدغته فقد كنت عزلاء من أي شيء أواجهه به. لكني تناولت حذائي من زاوية الزنزانة، فإذا بكعبه ثقيل حتى تخيّلت أنه مطرقة. وفكرت أنه إمّا أن يموت الثعبان أو أموت أنا. وضربته على رأسه باستحكام فانتفض قليلاً ومات. عدت إلى بساطي، لكني فكّرت أن الشرطي سيأتي فيرى ما فعلت. أخذت الثعبان المُدمى ولففته حول ساقي واستلقيت دون حراك وكأنني ميتة..

وعند هذا الحد استيقظت، لكنني لم أعد مرتاحة أبداً بعد هذا الحلم وقد شرحت لرفقائي سبب انزعاجي.

وعندما التقيت لأول مرة بعد الأحداث، مع الأمين فؤاد شوّاف قلت له: أتذكر ذاك الحلم اللعين؟ فقال: لا أذكر غيره.

بعد الاستراحة القصيرة في هذا المطبخ، أتى عزّت حسين وسألني إن كنت أريد تناول الطعام لأنه لا يجوز أن أبقى على هذه الحال دون أكل. لكنني رفضت إذ إن نفسي لم تعد تتقبل الطعام، وعدت إلى الزنزانة. وبعد قليل نُقلت إلى الإدارة لبدء التحقيق لأول مرة يوم الثلاثاء في 26 نيسان.

كان في التحقيق عقيد ركن لم أعد أذكر إذا كان الرافعي أو الرفاعي، ومعه محققون ومسجلو محاضر. كنت في حالة يرثى لها على رغم استعدادي النفسي، فقد أصبت بدوار شديد وضعف ولكني أعطيت الأجوبة اللازمة على كل أسئلته. كان هو يصرّ على أننا كنّا نعلم بالحادث مسبقاً، وكنت أنا أؤكد على أنّ الحزب لا يمكن أن يقوم بهكذا اغتيال، وليس لرفقائنا أي يد فيه، وأنّ أخلاق القومي الاجتماعي لا تسمح له بالاغتيالات. وسألني عن يونس عبد الرحيم، فقلت لا أعرفه. (والحقيقة أنني نسيت آنذاك أنه ينتسب إلى الشيخ عبد الرحيم).

وبعد تحقيق استغرق ساعة أعادوني إلى زنزانتي. وعندها طلبت من عزّت فنجان شاي، فأحضر لي شاياً وكتاباً باللغة الإنكليزية وعلبة دخان وعلبة كبريت وولاّعتي، وجلب أيضاً معجون أسنان وفرشاة ومنشفة. وقد أخبرني أنه دفع ثمن هذه الأغراض من المال الذي ضُبط في حقيبتي.

أما الأصوات التي رافقتني في زنزانتي معظم الوقت فقد كانت آلاماً جسديّة لا يتصورها العقل، وكأن هؤلاء الأبرياء أصبحوا فريسة بين أنياب حيوانات ضارية. لم أتعرّف إلى صوت أحد منهم، إذ إن الأصوات لم تعد إنسانية من شدّة الألم. وكانت صرخاتهم تخترق أذنيّ ليبقى صداها الجارح حتى بعد أن تنتهي عملية

التعذيب. وكانت مأساتهم تبدأ عند المساء وتنتهي بعد منتصف الليل، فالكل نائم ولا توجد حركة في الخارج لتفضحهم، فلا أحد يدخل السجن مساء سوى الموظفين فيه أو الجنود.

ودامت هذه الحالة فترة طويلة، وكل يوم أسمع أصواتاً جديدة، وأدرك حجم العذاب الذي يلقاه الرفقاء على أيديهم. لعلّ في الزنزانات الأخرى رفقاء لي أعرفهم من حيث لا أدري. في أحد الأيام سمعت أحدهم يغنّي بصوت منخفض وكأنه لا يبالي بما يحدث. وبعد فترة أخذوا يتبادلون من وراء الجدران بعض الكلمات على رغم أن الحرس كان يصرخ بهم.

بعد مرور خمسة أيام، وكنت ما زلت من دون طعام في السجن، جاءني عزّت عند الساعة العاشرة ليلاً وقال لي: لملمي أغراضك وتعالي معي. سألته إلى أين؟ قال إلى مكان آخر. صعدنا درجاً طويلاً يؤدّي إلى طابق عُلوي، فإذا بي أمام مشهد لم أصدّق عينيّ عندما رأيته. كنت في شرفة أمامية تطلّ على فسحة... وأمامها دمشق. رحت أتنشّق الهواء وكأنني نسيت رائحته وأتمعن في السماء والنجوم. وانتظرت حتى دخل عزّت إلى الشقّة المقرّر أن أكون فيها وأقفل أبواب الغرف الأخرى. ودخلت معه غرفة لا بأس بحجمها لها مدخل ونافذتان كبيرتان مغلقتان، مطليّتان بدهان سميك قاتم اللون، وفوق النافذتين درفات مفتوحة تظهر منها بقع سماوية زرقاء، وعندها انتبهت للفارق بين هذه الغرفة والزنزانة التي كنت فيها. أما الأثاث فعبارة عن سرير مُخلّع فوقه فراش عتيق وحرامات وكرسي واحد. قال عزّت: هذه غرفة لا بأس بها لكن عليك إبقاء النافذة مغلقة فلا تفتحيها أبداً، وغداً صباحاً أحضر وأفتح لك الباب. فهل تريدين شيئاً الآن؟ قلت: ماءً للشرب. وأحضر لي الماء في وعاء معدني وقال: إبقي الوعاء لك فهذا جهاز الطعام في غرفتك.

تركت أمتعتي القليلة على الكرسي وخلعت لأول مرة ثيابي بعد أسبوع على ارتدائها. وفي الصباح الباكر نهضت ولبستها من جديد. كان على الكرسي كتاب

تناولته لأتفحّص محتواه فإذا بورقة عليها عبارة «أمتعة عبلة خوري» فعرفت أنها سبقتني إلى السجن ثم علمت بعد ذلك أنها غادرته.

تابع عزّت زياراته المعتادة صباحاً وعند الثانية ظهراً وعندما يفرغ من شغله في الثامنة مساءً. وفي كل مرة يدعني أدخل الحمّام بينما هو ينتظر حتى أنتهي كي يقفل الباب ويُبقي المفتاح معه طوال الوقت. وكنت إذا ما احتجت شيئاً في النهار، ولو شربة ماء، وطرقت على الباب لأستدعي الحرس، فإنهم يقولون ليس معنا مفتاح. وما عليّ سوى الانتظار حتى يحضر عزّت من المستشفى أو من المحكمة. وأحياناً تصبح الساعة الثالثة بعد الظهر والطعام في الصحن خارج باب الغرفة.. لكن المفتاح مع عزت الذي لم يأت بعد!

كان محدداً لي فتح الباب فقط ثلاث مرات في النهار: الصباح الباكر، وعند الظهر، وفي المساء حين يكون عزّت في السجن.

وفي هاتين النافذتين المطليّتين بالدهان الكثيف كان يوجد مكان في الزجاج خالٍ من الدهان بحجم العدسة، وكان يكفي لأضع عينيّ عليه فأرى من ورائه الباحة الكبيرة أمام الإدارة والدار التي يخرج إليها المساجين للتنفّس. وكان عزّت يعرف أن هذه النافذة تطلّ على الإدارة، فيأتي كل يوم لتفحّص الدرفات والدهان ويتأكد من أنني لم أقشره. فكنت أكتفي في بادئ الأمر بهذا الثقب الصغير حتى لا ألفت النظر، وكنت أقف أمامه ساعات فقد كان وسيلتي الوحيدة للاتصال مع الخارج.

من هذا الثقب رأيت مشاهد تعذيب لا يتصورها العقل، وراقبت مناظر التمثيل التي يلعبها المحقّقون مع الموقوفين.

في مساء اليوم التالي لانتقالي إلى هذه الغرفة، سمعت حفيفاً في الخارج فنهضت لأرى وإذا بقصاصة جريدة تدخل من تحت الباب. ركعت على الأرض وسألت: من هناك؟ فجاءني صوت يقول: أتريدين شيئاً؟ أنا الضابط... ولا أذكر

الآن اسمه. قلت: لا شكراً. قال: اقرأيها ومزّقيها. كانت القصاصة من صحيفة مصرية فيها قصة غريبة تتناولني، وكأن قضيتي هي من أهمّ ما يعني تلك الصحيفة. كانت قصّة افتراء تتّهمني باتصالات مع الأميركيين. ونشرت الجريدة رسالة من شخصية أميركية كبيرة (لم تذكر الاسم أو المنصب، ولم تحمل الرسالة أي توقيع) إلى الأمينة الأولى تتضمن عبارات ملفّقة عن اتفاق مزعوم حول موضوع تعاون سياسي مقابل مال أُرسل إليها. ومن خلال هذه الحملة أدركت أن مصر تريد استغلال هذه الفرصة بقدر ما يفسح لها الجهل في سوريا من مجالات.

بعد قليل من إعطائي هذه القصاصة، أدخل الضابط المجهول فنجان قهوة من تحت الباب وركع ووضع عينه في الفراغ بين الباب والأرض وقال لي: لا تخافي فالكل ينظر إليك بفخر. دعيني أرى وجهك من تحت الباب. ثم سألني: هل تتعرّفين عليّ إذا رأيتني مرة ثانية؟ أجبته: لا أظن لأن نور الليل ضعيف. ولكنني رفضت القهوة لأن معدتي كانت ضعيفة ولا تتحمّلها.

بعد هذه المفاجأة شعرت بأنه يوجد حولي من يؤيّدني ويحترمني. وكنت أظنّ في بادئ الأمر أنّ المكان الذي وضعونا فيه مخصّص لدراسة صفّ الضبّاط. وبعد أيام قليلة حلّت في الغرفة أمامي والتي لا يفصلني عنها سوى ممرٍّ صغير لا يتجاوز السبعين سنتيمتراً، امرأة لم أعرف في بادئ الأمر هويتها. ولكن عندما راحت تشكو من سوء المعاملة وتردّي وضعها الصحي وعدم وجود مفتاح عند الحرس لفتح الباب عند الحاجة، عرفت من صوتها أنها زوجة الأمين عبد الكريم الشيخ. وكانت تحتجّ بلهجة عنيفة وتجادل الحرس. وفي أحد الأيام غاب عزّت عن السجن حتى الخامسة مساءً، وكنا منذ الصباح الباكر لم نتناول ماءً ولا طعاماً ولم نستطع دخول الحمّام. وكانت السيدة جورجيت مريضة وتتقيأ، فأخذت تضرب على الباب ثم على النافذة المطلّة على الإدارة، فصعد الشرطي ليسأل عمّا تريد وقال: المفتاح ليس معنا، أخذه عزّت وذهب إلى المستشفى وهو لم يعد حتى الآن. ولم يفتح الباب إلى أن وصل عزت، وكنت أنا مريضة أكثر منها. وفي تلك الليلة ارتفعت حرارتي

كثيراً ومع ذلك أتوا وأيقظوني بعد منتصف الليل لأخذي إلى التحقيق. وكانت تلك أول مرة أجد فيها نفسي أمام قاضي التحقيق المنتدب جلال عقيل.

تتابعت جلسات التحقيق ليلة بعد أخرى، وخلال تلك الفترة كنت أرى التعذيب في الباحة أمام الإدارة وأعرف أصوات الجلاّدين وضحاياهم. بهجت مسوتي أو عبد المجيد جمال الدين يقف أمام القومي الأعزل وبيده السوط الضخم الذي تفنّنت في صنعه أيادي الجلادين فأضافت إليه عقداً ضخمة وربطت في أطرافه قطعاً من الحديد. هذه السياط رأيتها معلّقة على جدران الإدارة عندما دخلت السجن لأوّل مرة وانتظرت تقرير مصيري.

الفصل السابع عشر

كان المعتقل يقف بين السوط والجدار، وعبد المجيد يطرح الأسئلة بصوت خافت وكأنه يتحدث سراً. ومع كل سؤال يوجّه بالسوط ضربات عنيفة إلى وجه الموقوف البريء الذي لم يكن باستطاعته الدفاع عن نفسه سوى بمحاولة تغطية وجهه بيديه وهو يصرخ من الألم فينهال السوط على يديه بضربات متلاحقة فلا يعود يعرف هل يحمي يديه أو وجهه أو جسمه.

ما أغرب ذلك الصوت الخافت الصادر عن الجلاد في عمليات التعذيب الصارخ! لعلّه صوت من يخاف إعلان الجريمة التي صمّم عليها!

كانت هذه وقفتي في الليل، كل الليل، خلف ذلك الثقب المشرف على ساحة التعذيب. وفي النهار أرى حركة السجن وكأن شيئاً لم يحدث تحت جنح الظلام. الحرّاس في حراستهم، والإدارة تعمل طبيعياً، والبلدية (هذا هو لقب المساجين المختصين بالتنظيف) منهمكون في سكب الماء لشطف الأرض بالمكانس وتنظيف البحرة والعناية بالحديقة وأزهارها. كل شيء في الخارج وفي وضح النهار وكأنه ستار مسرح كبير أُسدل بهدوء على الحركة الداخلية الرتيبة التي لم يكن يعكّرها سوى حادث واحد كان يخرج عن الروتين بالنسبة إليّ وهو رؤية أحد الرفقاء، مدنياً كان أو عسكرياً، وهو يعبر الباحة أو يتمشى فيها للتنفس بعض الدقائق (لعلّه بعد إرهاق التعذيب الذي دام أياماً وليالي).

كنت أعطي إفاداتي أمام قاضي التحقيق العسكري جلال عقيل منفردة، أي أنني لم أجتمع برفقائي ولا مرة. وفي بعض الأحيان كان يحضر جلسات التحقيق

بهجت مسوتي وغيره ممن لا أعرفهم. وكانت جلسة التحقيق تستغرق أكثر من ثلاث ساعات أحياناً، لكن المحقق لم يكن يدوّن كل الأجوبة، أما إذا فعل فقد كان التسجيل صادقاً لا تحريف فيه. ولم أشعر مرة أنه كان يستخفّ أو يهزأ بي، مع العلم أنه كان يُحرجني في شتى الأسئلة الحزبية والعقائدية.

انتهى ذلك التحقيق. وقبل إقفاله دعاني المحقّق لآخر مرة بحضور الأمناء كامل حسان وفؤاد شوّاف وعصام المحايري والرفيقة خالدة صالح وسألني إن كنت أريد إضافة أي شيء قبل إقفال التحقيق. وعندما رأيت الأمناء لأول مرة فرحت بهم على رغم علامات التعب والضعف البادية عليهم. قال لي المحقق: أنت تنكرين وجودك في البيت عندما وصل الخبر باغتيال عدنان المالكي، فهل هذا صحيح أم أنك كنت موجودة بالفعل؟ وأضاف: يجب ألاّ تخفي هذا الخبر لأن عواقبه ستكون وخيمة عليك. وتدخّل الأمين عصام قائلاً: يصلح أن تغيّري إفادتك لأن الموضوع بالنسبة لنا لا يتغيّر، فمن المحتمل أن تتذكّري أنك كنت في البيت حين إعلامنا بالخبر وهذا لا يربطنا بالحادث مطلقاً! ولكني أصريت على أنني لم أكن في البيت، ورفضت تغيير إفادتي.

أُطلق سراح جورجيت بعد اعتقالها لمدة عشرين يوماً والتحقيق معها. كانت الشقة التي اعتقلت فيها تضم أربع غرف اثنتان تطلاّن على الشرفة إلى خارج السجن والأخريان على الداخل ولهما نوافذ تطل على الباحة والإدارة. واحدة من هاتين الغرفتين كانت لي. بعد إطلاق جورجيت سمعت حركة في الغرف الأمامية، ومع أني لم أعرف من كان فيها إلاّ أنني كنت متأكدة أنهنّ رفيقات قوميات. وفي آخر الممر الضيق كان يوجد حمّام صغير يفصل بين غرفتي وغرفة أخرى أمامية، وكنت أركع على الأرض كلما سمعت وقع أقدام لأرى من تحت الباب ما إذا كان هناك أحد أعرفه. ولم يكن باستطاعتي مشاهدة أي شيء سوى القدمين فأحاول التخمين عن صاحبهما. وكلما سمعت حركة جديدة في الشقة، أركع وأهمس بصوت منخفض: مَنْ هناك؟ في إحدى المرات كانت خالدة، وما إن سمعت صوتي حتى

توقفت ونظرت من ثقب مفتاح الباب قائلة: أنا خالدة، مَنْ أنت؟ قلت: الأمينة. ردّت متسائلة: الأمينة؟ ثم أسرعت في سيرها. وعرفت لاحقاً أنّ الحراس كانوا يراقبونها، وهكذا صرنا نتراسل بشتى الطرق. وأول رسالة رمتها لي من تحت الباب، وهي ذاهبة إلى الحمام، أخبرتني فيها عن تفاصيل التحقيق معها في النظّارة. وقالت إنّ العم ترك معها مفاتيح لتتخلّص منها، وفي التحقيق سألوها عن هذه المفاتيح وظنّوا أنها مفاتيح لخزائن الأسلحة. وأضافت: العم نزل إلى لبنان، وأنتِ لك أطفال صغار فقولي لهم إنّ الخزانات ليست لك طالما أنه غائب وأنتِ في السجن.

فاستغربت هذه القصة التي لم أعرف مغزاها.

بعد مرور حوالى الشهر على توقيفي، دُعيت إلى التحقيق لسؤالي عن إحراق المطبعة. وكنت مثل «الأطرش في الزفّة» لا أعلم شيئاً. وظننت أن الحادث جديد، فصرخت: مطبعتي احترقت؟ متى؟ فنظر إليَّ المحقق متسائلاً: لماذا تتجاهلين الأمر وأنت أخبر الناس بحرقها؟ أجبته: ولكن كيف لي أن أعلم وأنا في السجن؟ قال وهو يتفحّصني بعينيه: احترقت يوم قتلتم عدنان، ثم ذهبتم وأحرقتم المطبعة. أجبته: لا علم لي بالحادث حتى الآن. ومن الطبيعي أن لا أعرف لأنه يوم احتراق المطبعة، أي يوم وقوع الحادث، كان بيتنا مطوقاً برجال الشرطة وكل مَنْ أراد الاقتراب منّا تعرّض للتوقيف، ولذلك لم يصلني الخبر. وبعد أن انتهى التحقيق أويت إلى غرفتي ورحت أتساءل، وأنا في ظلام الليل، عن مصير الحزب بعد هذا الإرهاب والتنكيل والتحطيم.

أخذت السجون تزدحم بالمعتقلين القوميين، ولم يعد سجن المزّة قادراً على استقبال المزيد. فالغرفة تحوي ثلاثة أضعاف قدرتها على الاستيعاب، ومع ذلك ظل السجن والأماكن المحيطة به تستقبل الموقوفين. كانت الأبواب الحديدية تُفتح وتُغلق ليلاً ونهاراً ليدخل القوميون إلى السجن بالمئات، وكانت حركة الأبواب هي الشيء الوحيد الذي يدلّني على كثرة الاعتقالات. في هذه الأثناء انشغلت الغرفة الأمامية لكنني لم أعرف هوية المعتقلة فيها. وقد رغبتُ في رؤية ساكنة تلك الغرفة

لمعرفة ما إذا كانت رفيقة أم لا، لذلك رحت أردد مقاطع من بعض الأناشيد القومية وأنتظر فإذا سمعت متابعة لنفس الأغنية من الغرفة الأمامية تأكدت من أنها رفيقة، فأركع على الأرض وأنظر من تحت الباب إلى باب الغرفة الأمامية التي يفصلني عنها أقلّ من متر. وبهذه الطريقة رأيت الرفيقة تيريز بلدي التي انتهزت فرصة غياب الحاجب وابتعاد الحرس عن الباب لتخبرني بصوت هامس أنّ البنات كلّهن أصبحن في بيت مري. حينئذ تعمّق شعوري بالاضطراب لأن أغلاط عبد المسيح واحتكاره هذا البيت وتسلّطه على بناتي ستدوم إلى ما شاء الله بينما أنا سجينة لا يدري أحد حقيقتها، ولن يعرف أي إنسان التفاصيل إذا ما قُتلت ذات ليلة. وقد قلت لتيريز في إحدى المرات: أنا لا أريد لبناتي أن يكنّ في بيت أيّ كان.

ورحنا نتراسل بطريقة أو بأخرى. وكنت أسجّل ما أراه من ثقب النافذة في الباحة والإدارة وأرسله إلى تيريز مع ملاحظاتي واستنتاجاتي.

ظلّ موضوع ما سيحدث لبناتي يضغط على فكري وأعصابي حتى انهار وضعي الصحي وتدهورت أحوالي بحيث لم يعد يعرفني أحد من معارفي إذا ما شاهدني. وأمضيت أياماً بلا طعام ولا نوم، فهبط ضغطي لدرجة لم أعد أستطيع معها الوقوف وتجاوزت دقات قلبي مئة وعشرين دقة في الدقيقة. واستُدعي الطبيب لمعاينتي عدة مرات، فكان يكتفي بإعطائي مسكّنات لأنام مما زاد في هبوط الضغط من دون أن أتمكن من النوم. وأخذت تصيبني نوبات عصبية عدة مرات في الأسبوع، واقتصرت الإسعافات على استنشاق شيء من الكحول... ثم العودة لإقفال الباب ووضع ورقة على ثقب المفتاح حتى لا أشاهد أحداً في هذه الدنيا.

لم تكن المقابلات مسموحة خلال الأشهر الثلاثة الأولى إلى أن تم الانتهاء من التحقيق، وأظن أن ذلك كان بعد مرور 75 يوماً على الاعتقال. أمّا استلام أغراض من أهالينا فقد كان من المستحيلات في بادئ الأمر، لذلك بقيت بنفس الثياب التي أتيت بها إلى السجن حوالى الأربعين يوماً كنت خلالها أغسل كل ليلة قطعة لأعود والبسها عند الصباح.. وهكذا. وفي نفس الغرفة أيضاً كنت أطلب من عزّت الماء

الساخن حتى أستحمّ في الليل، وكنت مضطرّة لذلك ليلاً لأنني كنت معرّضة في النهار للزيارات الدائمة من قبل عناصر المكتب الثاني وبصحبتهم ضباط أو صحافيون وغيرهم كانوا يترددون عليّ بكثرة يومياً وكأنني صندوق الفرجة. لم أغضب منهم على رغم علمي بالخلفيات التي كانت تدفعهم لزيارتي، فكنت أستقبل الجميع بابتسامة ورحابة صدر. لم أكن أعرف في ذلك الحين أحداً منهم حتى ولا بهجت مسوتي او عبد المجيد جمال الدين. الكل كان يأتي وكأنه المنقذ. غير أنني كنت أعرف وجههم الآخر. فكنت أتجاهل ذلك طالما أنهم يتعمّدون إخفاء الحقيقة بل يحدّثونني بلطف وتهذيب إلى حد أنني لم أسمع في حياتي كلها عبارة «ماذا تأمرين؟» و«على عيني وراسي» بقدر ما سمعتها في ذلك الوقت... لكن الأمر في النهاية كان أمرهم والعين ليست عينهم! أما الأسباب الحقيقية لهذه الزيارات فكانت الدعاية الصحافية للعهد الذي كان «يطهّر البلاد من الشرذمة» الذين هم القوميون! هذا العهد الذي ما نطق بكلمة واحدة صادقة عنّا، ولا قدّم للأمة أية معلومة صحيحة، وما وزّع خبراً حقيقياً واحداً عني، ولم يكن يحمل إلاّ التناقض بين التكلم عني في الصحف والتكلّم معي في السجن. هذه الأكاذيب كنّا نعرف أوّلها ولا ندرك نهايتها. كانت آلات التصوير تدور في السجن لتلتقط الصور في غرفتي مرات عديدة لم أعد أحصيها، لكن كلهم كانوا تجار أقلام! وعندما كثر التردّد علينا من قبل الصحافيين، عمدت إدارة السجن إلى استخدام الرفاهية المزيّفة لدعم أكاذيبها في ما يتعلّق بمعاملتنا. فكانت «فرشة البولمان» والحرامات الجديدة توضع على أسرّتنا حتى يتمكن المصوّرون من إظهار «حُسن» معاملتهم لنا. لكن عندما انتهت المحاكمات سُحبت كل الحرامات والفرشات منا (هذا الأمر أرغمني على القول لمدير السجن أن هذه الأغراض أصبحت من حقي طالما أنني ساهمت عبرها في صنع الدعاية لهم).

يوم أُفرج عن تيريز بلدي بسند كفالة استطعت وداعها، وبكت لأنها كانت تعلم أنّ قرار الاتهام يطلب الإعدام لي ولاثنين وثلاثين من رفقائي. وأعطتني ورقة

تحمل اصطلاح كلمات شيفرة الدقات على الجدار للتخابر مع رفيقتها في الغرفة المجاورة. في ذلك الوقت كانت خالدة في الغرفة المجاورة لغرفة تيريز التي ظلّت فارغة، وكنت أطرق على الجدار عندما أتوجّه إلى الحمام ولا يكون الحارس واقفاً قربي، فيأتيني الردّ منها. ولم يكن هذا سوى لتمضية الوقت والشعور بأن الواحد منّا قريب من الآخر.

كيف جاءني قرار الاتهام؟

قبل أن يسمحوا لي بالزيارات، أتى عزّت في إحدى الأمسيات وهو يحمل جريدة مطويّة. وقف يسألني عمّا أريد وحدّثني عن أشياء غير مهمّة ثم ترك الغرفة. واستغربت أمره عندما ترك الجريدة وراءه. فتحتها، فإذا بقرار الاتهام وطلب الإعدامات يحتلّ الصفحة الأولى، وفي مقدمة الأسماء اسمي، وعلى رأس كل الحملات اسمي! وتبيّن لي أن كل شيء مهيأ ومركّب من أساسه. وحتى ترك الجريدة في غرفتي كان مقصوداً من قبل المدير. وعرفت بعد ذلك أنّ الملازمين بهجت وعبد المجيد سلّماها لعزّت ليُدخلها إلى غرفتي أو يُعطيني إياها، وكانا بانتظاره عند باب الشقة حيث قالا له: «خلّيها تتسلى قبل النوم».

طبعاً انفعلت، وكانت أفكاري تدور حول بناتي. فبعد أن ينتهي دوري الآن يصبح بإمكانهم متى شاؤوا اختراع رواية أخرى للقضاء على بناتي. وكنت مقتنعة بأنّ الهدف من كل هذه العمليات هو القضاء على أي أثر من بيت الزعيم... لكني لم أعرف أنّ الفاعل هو عبد المسيح لأني لم أكن اطّلعت بعد على إفادات رفقائي المعتقلين.

عندما سُمح لي باستلام أغراض من أهلي، وصلتني بعض الثياب وكمية قليلة من الفاكهة المهترئة. وعلمت لاحقاً أن الفاكهة كانت تأتي بكميات كبيرة ومن مختلف الأصناف، لكن الإدارة كانت تحجز عليها فيأكل رجال الشرطة القسم الأكبر منها ثم يرسلون إليّ بعد أيام ما تبقّى منها على تلك الحالة المهترئة. ومهما يكن من أمر فقد علمت أنّ أهلي لا زالوا في الشام.

في ذلك الحين اعتُقلت الرفيقة نازك حمامي ووُضعت في الغرفة الأمامية حيث كانت تيريز بلدي سابقاً. ركعتُ على الأرض ونظرت من تحت الباب فعرفتها. كان الباب مفتوحاً بينما الشرطي يُساعدها في إدخال أغراضها. وعندما غاب كلّمتها فركعت لتراني، وطمأنتني عن بناتي وأهلي. لكن صوتها كان أعلى من صوتي فسمعها الشرطي وعرف أنها تُحدّث أحداً ما فعاقبها بنقلها من هذه الغرفة إلى غرفة خالدة.

بعد الانتهاء من التحقيق وإقفال الملفّ وإعطائنا قرارات الاتهام، سمحوا لنا بمقابلة أهالينا. جاء إلى غرفتي أكرم الديري وابتسامة عريضة على وجهه وحيّاني باحترام وسألني إن كنت أريد شيئاً لأنه أصبح مسموحاً لنا بالمقابلات. قلت له: كيف أُخبر أهلي بذلك وأنا أعتقد بأن خط الهاتف في البيت قد قطع؟ وطلبت منه إن كان باستطاعته الاتصال بابنتي صفية في مدرسة الفرنسيسكان وإبلاغها بأنه بات مسموحاً لهم بزيارتي. فوعدني بإبلاغها فوراً، وهكذا كان. فقد أتت لزيارتي لأول مرّة والدتي وشقيقتي ديانا، وعلمت منهما أن بناتي أصبحن جميعاً في القسم الداخلي بمدرسة الفرنسيسكان تحت إشراف السفارة الأرجنتينية كونهن من مواليد الأرجنتين ويحملن جنسيتها. وعرفت أيضاً أن أليسار نالت شهادة السرتفيكا، وصفية نجحت إلى الصف التالي. وطمأنتني والدتي إلى أخبار راغدة التي كانت قد تهيّأت لإجراء عملية اللوزتين عند الدكتور شاهين لكنّ الجراحة تأجّلت بسبب الأحداث ودخولي السجن. وقالت لي إن لورانس (مدبّرة المنزل) اعتُقلت لأنها أعطت قطعة سلاح كانت في البيت لأحد القوميين.

خلال هذه المقابلة كان عزّت موجوداً لمراقبة والدتي وشقيقتي اللتين أمضتا وقتاً جيداً معي. وعندما انتهت الزيارة طلبت والدتي من عزّت أن يسمح لي بالخروج دائماً للتنفّس خصوصاً أنني معتادة على المشي قليلاً قبل النوم، فوعدها بتحقيق طلبها. لكن المسكينة والدتي لم تعلم أنهم لم يسمحوا لي بالتنفّس خارج الغرفة أبداً حتى لو انتابتني نوبة عصبية قوية.

بعد هذه الزيارة بأسبوع وصل شقيقي جورج من الأرجنتين ليجدني في سجن المزّة.. ويا لها من صدفة غريبة، ففي أول مرة جاء إلى الوطن وجدني سجينة في دير صيدنايا، وها هو يأتي ثانية لقضاء فصل الصيف معنا في ضهور الشوير فإذا به يزورني في المزّة! ومع ذلك كانت فرحتي به كبيرة على رغم أن نفسي كانت حزينة للقائه في السجن. وبقي شقيقي في الوطن قرابة الأربعة أشهر ذهب خلالها إلى لبنان بصحبة بناتي وعاد ليزورني مع والدتي كل أسبوع. وكانت شقيقتي ديانا قد أُبعدت عن الشام فذهبت إلى ضهور الشوير وأخذت البنات معها، فاطمأنّت نفسي إلى حدّ ما عندما علمت أنّهن تركن بيت مري.

بعد مرور أربعة أشهر حُدّدت أول جلسة للمحاكمة. ولم أعطِ هذا القرار اهتماماً شديداً إذ تأكد لي أنّ المحاكمة ستكون علنية وذلك بعد أن زارني المحاميان سيف الدين مأمون وهاني البيطار لأكلفهما بالدفاع عني. وأكّد لي سيف الدين أنه لا توجد قضية ضدي ولذلك يجب أن لا أخاف من قرار الاتهام الذي سيسقط في المحكمة. وقال إنه لن يتولى بنفسه الدفاع عني لأنه لا يوجد شيء هام في قضيتي بل سيسلّمها لهاني في حين يتولى هو الدفاع عن العسكريين لأن قضيتهم خطيرة.

وهكذا بدأت أول رحلة من الرحلات السبعين إلى المحكمة العسكرية التي انعقدت في إحدى قاعات بيت حسني الزعيم الجديد في شارع الروضة الذي سكنه بعد استلامه الرئاسة. وكانت القاعات ضخمة جداً وقد أُقيمت خصيصاً في حديقة البيت الكبير لمحاكمتنا.

في هذه القاعة اجتمعت لأول مرة مع بعض الرفقاء ومن بينهم العسكريون. انتقلنا إلى المحكمة في مصفّحة مع عزّت حسين الذي جلس معي في المقعد الأمامي قرب السائق. وعند وصولنا إلى باب المحكمة نزلت معه درج المصفّحة العالي، فإذ بجمهور غفير يتحلّق على بُعد أمتار منّا في الشوارع والحدائق وعلى الشرفات والنوافذ، وقد خرجوا كلهم لمشاهدتنا عندما عرفوا بمجيء القوميين إلى المحاكمة. وبين المحتشدين لمحت بعض الوجوه التي كنت أعرفها.

دخلنا المحكمة، أو بالأحرى البيت، فوجدنا المحامين مجتمعين كلهم فأسرعوا إلينا لإخبارنا عن بعض الأمور والتفاصيل. ثم انتقلنا إلى مكتب خاص برئيس المحكمة بدر الدين علوش الذي طلب أسماءنا. ولم أعد أذكر أسئلته في ذلك الوقت، لكن اللقاء كله لم يستغرق سوى دقيقتين. وهناك رأيت الرفيقين العسكريين منعم دبّوسي وبديع مخلوف بين المتّهمين ولم أكن أعرفهما من قبل، ولربما كنت رأيتهما سابقاً ولكني لا أذكر ذلك. كان اللقاء منعشاً جدّاً بعد ذلك التحقيق الطويل والعذاب المرير. كنا نتخيل أن رفقاءنا أموات أكثر منهم أحياء، ولكن وجوههم لم تدل على أي انهيار معنوي أو عقائدي. فكانوا عندما يلتقون يرفعون أيديهم بالتحية القومية الاجتماعية في قلب قاعة المحكمة. ورأيت المحامي سيف الدين مأمون يتناقش مع الأمين عصام طالباً منه أن يغيّر إفادته بحجة أنه لا فائدة تُرجى من الموقف الذي يتّخذه، وفهمت أنه يقصد تعديل الإفادة التي أعطاها في المزّة وذلك لصالح جورج عبد المسيح. وكان الأمين عصام يرفض هذا الكلام. أما أنا فلم أكن لأفهم سبب موقفه، وكنت محتارة بسبب الهجوم الذي شنه على عبد المسيح إذ إنني حتى ذلك الوقت لم أكن متأكدة من معرفة عبد المسيح مسبقاً باغتيال المالكي لأنني لم أتّصل بأحد خلال فترة التوقيف ولم أطلّع على إفادات رفقائي. وذلك على رغم أن نفسي كانت مشمئزّة من عبد المسيح وتصرّفاته خصوصاً في ما يتعلق بالأوراق الحزبية وغيرها من الأشياء التي تُركت في البيت، وحسبت الأمر إهمالاً واستهتاراً بي لا أكثر ولا أقلّ.

كان الأمين عصام، كما فعل معروف صعب من قبله، قد وجّه رسائل إلى رفقائنا في لبنان يتّهم فيها عبد المسيح بالاشتراك في تنفيذ هذه الجريمة. وجاء صحافيون إلى غرفتي يسألونني ما إذا كنت أؤيّد هذا الاتهام، فأجبتهم: أنا لا أستطيع التعليق بشيء، وإنني أجهل الأسباب التي دفعت الأمين عصام لتوجيه الاتّهام إلى عبد المسيح. ولعلّه يعلم أشياء أجهلها أنا. وبما أنني أجهل كل ما يتعلّق بالاغتيال، فكيف أستطيع إعطاء رأي في ذلك؟

بدأ الاستجواب، وكنت أول من طُلب للمثول أمام المحكمة. طُرحت عليّ أسئلة أجبت عليها كلها وأنا متمالكة قواي العقلية والنفسية. ولا أذكر من تلك الأسئلة سوى: ما رأيك في اغتيال عدنان المالكي؟

أجبت: إنّ الاغتيال هو جرح بليغ في المجتمع ويترك ثغرة كبيرة فيه يصعب على الإنسان تضميدها، فكيف يقوم السوري القومي الاجتماعي بهذا العمل وهو المكلّف من خلال مبادئه بأن يزيل الثغرات بين مختلف الفئات سواء كانت طائفية أو إقليمية أو عائلية.

س: ماذا كنت تفعلين يوم وقوع الاغتيال؟

ج: أشغال بيتية، إعداد طعام وترتيب ثياب وحمّامات وحضور اجتماع إذاعي.

س: هل أنت عضو في المجلس الأعلى؟

ج: نعم.

س: هل تَنتخبين وتُنتخبين؟

ج: نعم.

س: هل تأخذين مصروفك من الحزب؟

ج: كلا.

س: هل الحزب هو الذي قرر إعطاء أرملة ميشال الديك مرتّباً شهرياً بعد أن قتل رياض الصلح؟

ج: الأمين الياس جرجي قنيزح كان يعيل شقيقته بعد وفاة زوجها، وعندما قرّر الزواج ولم يعد باستطاعته مساعدتها بعد ذلك لأنه لا يملك ما يكفي، عرض هذه المسألة على المجلس الأعلى الذي اتّخذ قراره بناءً على أنها شقيقة الأمين الياس وليس بوصفها أرملة ميشال الديك.

س: من أين حصلت على المال لشراء المطبعة؟

ج: إنّ المكتب الثاني، وقد ضبط أوراق الحزب كلها ودفاتر المطبعة كلها وأرومة سندات الأسهم المعطاة للمشتركين، يستطيع أن يوضح كيف أتت هذه المبالغ. فأنا مديونة بخمسة وسبعين ألف ليرة لشراء الأسهم، وهي عبارة عن مبلغ خمسين ألف ليرة قبضتها لأدفعها بعد خمس سنوات خمسة وسبعين ألف ليرة.. وهي واضحة.

س: في أي بنك كانت حساباتك؟

ج: في البنك العربي بدمشق.

وهنا تدخّل خليل كلاّس من قبل الادّعاء ليطرح السؤال التالي:

س: صرّح عصام المحايري بأنّ جورج عبد المسيح قام بعملية الاغتيال هذه، فهل هذا صحيح أم افتراء؟

ج: أنا لا أريد اتّهام أحد من رفقائي ويعود للمحكمة أن تكشف ما إذا كان هذا التصريح افتراء أم لا.

س: يعني أنه افتراء؟

ج: قلت إنّ على المحكمة أن تقرّر طالما أن الإفادات بيدها.

تدخّل رئيس المحكمة قائلاً لكلاّس: ألا تسمع ماذا تقول، إنها لاتعرف وعلينا نحن أن نقرّر.

وعاد خليل كلاّس يسأل:

س: هل يوجد خلاف بين المسؤولين في الحزب؟

ج: قد يقع خلاف بين أعضاء الحزب كما يحدث أي خلاف بين أفراد العائلة الواحدة، لكنّ هذه الخلافات تبقى ضمن العائلة القومية الاجتماعية.

وبعد ذلك تقدّم رفقائي واحداً واحداً حسب طلب المحكمة ليمثلوا أمام الهيئة. وكنّا في قفص الاتهام حوالى الخمسين نواجه أحكاماً بالإعدام وغيره. كانت إفادة منعم دبوسي وبديع مخلوف، حسب أوراق المحكمة، الاعتراف بتدبير المؤامرة والتصميم على القيام بها يوم عيد الجلاء حيث كان عدنان المالكي يتهيّأ ليلقي كلمة في مقهى قرب البرلمان على ما أذكر، وقال دبوسي في إفادته إن العملية تأجّلت. وعند الساعة السادسة والنصف صباحاً أتى إسكندر شاوي ليبلغهم أنها غير مناسبة في ذلك اليوم لأنه عيد وطني.. وكان ذلك أول باب يُفتح أمامي ليرتفع الستار عن تمثيلية جورج عبد المسيح.

وبعد أن تراجع دبوسي عن إفادته لأنه وقّع اعترافاته تحت التعذيب، عاد ليجلس في قفص الاتهام فسألته: هل كان لرئيس الحزب معرفة بالعملية؟ أجابني: وكيف لا؟ فهل نقوم لوحدنا بهذه العملية؟ ولكن احفظي الأمر بيننا.

وأخذت تتّضح سلسلة الأعمال التي قام بها عبد المسيح وسبقت عملية الاغتيال. فإذا كان هذا الاتهام صحيحاً، وكان مقرراً تنفيذ الاغتيال يوم عيد الجلاء ثم تأجّل، عندها ينكشف لماذا أتى جان عبد المسيح ليأخذ ابنته من عندي يوم الأحد، يوم عيد الجلاء وعيد الفصح، إذ إن جورج أوعز إليه بهذا العمل خشية أن تكونا في دمشق ساعة وقوع الحادث. وبات أكثر وضوحاً أيضاً وضع حقيبة هي طبق الأصل عن حقيبة أليسار يوم عيد الجلاء بالذات في إحدى زوايا الغرفة حتى لا يشتبه بها أحد، وقد وُضعت دون علمي ودون سبب لأنها لم تكن هناك في الأساس ولأن جورج لم يكن يعمل في بيتي الجديد مطلقاً لا بتلك الأوراق ولا بغيرها.

وعدت أتذكّر كيف غضب بشدة على شقيقته أنجال لأنها تأخّرت عن موعد عودتها المتوقع عند الساعة الرابعة بعد الظهر، ولذلك تأجّل العمل الإجرامي حتى لا تقفل الحدود أمام أنجال العائدة من القدس.

كما أن عبد المسيح توتّر عندما أدرك أنني علمت بوجود الحقيبة وقررت إخراجها من البيت، وهو الذي كان يأمل بأن يخدعني عندما قال لي: «إتركيها فهي ليست هامّة»، وراح يدور في البيت ذهاباً وإياباً قائلاً بصوت مضطرب: «أعطوني قنيّنة ماء، أعطوني رغيف خبز».. وظننت حينذاك أنّ الخوف على حياته هو السبب.

بقي عليّ أن أعلم ماذا كان يقصد جورج عبد المسيح بتسليمي إلى القوة العسكرية بتهمة الخيانة العظمى؟ فهل يبقى مجال للدفاع ساعة أقع بين أيديهم في ظروف كهذه بعد عملية اغتيال؟ أيصدّق أحد أنني لا أعلم بوجودها لو أنها ضُبطت في بيتي؟ وهل دُسّت فيها أوراق خاصة بي أو بالزعيم؟ لا أعرف شيئاً من ذلك لأنني لم أطلّع على محتوياتها، فقد أقفلتها فوراً عندما قرأت على إحدى صفحاتها كلمة «الجيش السوري».

قضيت أياماً وأشهراً وأنا أعيش مشاعر الصدمة من تلك الخيانة. كدت لا أصدّق نفسي! ولكن كيف لا أصدّق وأنا أعاني مع رفقائي مأساة تلك الخيانة والغدر. طيلة ساعات الليل والنهار كنت أسترجع كل دقيقة من دقائق حياته في البيت، وفي تلك اللحظات كانت تهاجمني الأسئلة التي كنت أُلقيها على نفسي البريئة وفيها الشكوك بصحّة عقيدته، أسئلة تأتي الواحد تلو الآخر.. واضحة، صادقة، أليمة، لم يقع مثلها في تاريخنا. وبينما رفقاؤنا يذهبون إلى الإعدام لايزال هو يتظاهر بالبهلوانيات الفارغة! كيف أستطيع أن أتجاهل ماعلمته بنفسي ورأيته بعينيّ وأعيشه الآن في السجون مع رفقائي الأبرياء؟

ولكن لماذا خطّط عبد المسيح هذا المقلب الخطير للحزب؟

الأجوبة على هذا السؤال لا نهاية لها. فقد تكون وراء هذا العمل أشياء وأشياء، القليل منها عرفناه والكثير لم نعرفه ولن نعرفه! فكيف نعرف أسباب جريمة هائلة كهذه؟

عندما أفكّر بالساعات الأخيرة التي أعقبت خبر الاغتيال، وكيف كان تعليقه الأول إنّ هذا دسّ من المكتب الثاني واستمرّ في الاجتماع حتى أتى فؤاد جديد شخصياً ليؤكد لهم صحة الخبر، وكيف أنكر وجود أوراق سرية للحزب كنت بحثت عنها طيلة يومين ولم أجد لها أثراً. تُرى أين كانت؟ ألم يعثر عليها عناصر المكتب الثاني خلال التفتيش؟ وأعود لأفكّر أنّ من أراد هذا الشرّ بي، أليس من المعقول أن يكون دبّر سابقاً خطة للقضاء عليَّ مع بناتي حين أصرّ على ذهابي في سيارته إلى بيروت وكانت دون فرامل؟ من يدري؟ لكن الشيء الذي لن أعرفه هو ما إذا كان عبد المسيح قام بهذا مدفوعاً بهدف شخصي خاصّ أم كانت هنالك مؤامرة على الحزب تعاون هو في تنفيذها؟ لماذا أراد إزاحتي من الوجود وأنا لا أنافسه على أي مكانة في الحزب؟ هل قرّر عبد المسيح ضرب الحزب وشقه عندما شعر بأن المسؤولين يستعدّون للتصدّي له، وكان يشك في أنني لن أكون في صفّه ولن أقف معه؟ ألم أقل له مرّات عدّة إنه، هو وغيره، ليس الأهم في الحزب بل إن وحدة الصف هي الشيء الضروري الذي أسعى له دوماً؟

تابعنا في المحكمة جلسات لانهاية لها. وعندما انتهى أول تحقيق وبدأ صدور الأحكام كان قد مرّ على اعتقالنا ثمانية أشهر صدر في نهايتها الحكم الذي كنّا نعرفه كلّنا. وهو يقوم على تُهم شتّى لم تكن داخلة في قرار الاتهام. صدر حكمٌ وجاهي بالإعدام على دبوسي ومخلوف وجديد الحاضرين في قفص الاتهام، وحكم غيابي على الهاربين عبد المسيح وغسان جديد وإسكندر شاوي وسامي الخوري وغيرهم. وكان الحكم بالسجن 17 سنة مع الأشغال الشاقّة للأمناء فؤاد الشوّاف وعصام المحايري وكامل حسان و أنا، مع زيادة الإقامة الجبرية في تدمر مدة خمس سنوات ثم النفي والإبعاد الجبري. كل هذا ولم أكن أعرف حتى ذلك الوقت على أي أساس صدر الحكم، إذ إن «الوثيقة» التي اعتمدوا عليها لم يبحثوا فيها معي ولم يطلعوني عليها لا خلال التحقيق في المزّة ولا أثناء المحاكمة.. وحتى اليوم لا أدري شيئاً عن محتويات هذه الوثيقة. والذي عرفته بعد صدور الحكم عليّ أنها

كانت رسالة من العسكري السابق القومي ألبير جزدان مرفوعة إلى الزعيم في سنة 1947، ربما في الوقت الذي لم أكن فيه قد عدت إلى البلاد بعد. وعلى كل حال فهي رسالة مكتوبة ـ حسب ما أخبروني ـ باسم الزعيم وتوقيع الرفيق العسكري واضح والأهم من ذلك أن المحكمة كشفت عنها سابقاً واتخذت تدابير بحق ألبير في سنة 1947 وحكمت عليه بالسجن سنتين وطرده من الجيش، ولم تتخذ أي تدبير بحق الزعيم لأن الرسالة لم تكن بإيعاز منه. وقد سُرِّح العسكري المذكور وانتهت المسألة في وقتها. فما علاقتي أنا بهذه القضية التي صدر الحكم فيها ونُفِّذ في الشخص المسؤول عنها في حينه؟ ولأنها لاتمتّ لي بأية صلة، لم يبحث فيها المحقق معي. وعرفت أنهم اعتقلوا الشخص مرة أخرى وأطلقوا سراحه عندما أعلمهم أنه قضى حكمه بسببها.

عندما دخلنا السجن كان العسكريون من الأحزاب المعادية قد قرروا إبادة الحزب وإعدام جميع المسؤولين فيه، خصوصاً الأمناء، ولذلك ارتأوا، بعد الاعتقالات والاضطهادات وبعد أن ملأوا السجون بالقوميين الاجتماعيين، أن إعلان الأحكام العرفية يساعدهم في تنفيذ الإعدامات بالجملة، فأعلنوا الحكم العرفي ووافق عليه كل من رئيس الأركان شوكت شقير ووزير الدفاع ورئيس مجلس الوزراء صبري العسلي، أما التصديق النهائي عليه فكان لرئيس الجمهورية في ذلك الوقت المرحوم هاشم الأتاسي. ولكن عند وصول القرار إليه رفض أن تخضع البلاد للحكم العرفي لمجرد وقوع حادث اغتيال، واعتبر أن العدالة تستطيع أن تأخذ مجراها من دون تصعيد الأمور ووضع البلاد كلها تحت الأحكام العرفية التي ستؤدي إلى عواقب وخيمة، وبالتالي امتنع عن التصديق على القرار. فاضطرّ العسكريون للعودة إلى المجلس الوزاري حيث تقرر تعيين هيئة محكمة جديدة مكلّفة خصيصاً بالنظر في قضية اغتيال عدنان المالكي وما تفرّع عنها. وكانت الهيئة مؤلّفة طبعاً من أخصام الحزب اللدودين وهم أثنان عسكريان ونائب عام عسكري ورئيس المحكمة المدني والعسكريون المستشارون، على اليمين كان عفيف البزري الشيوعي المعروف، وبشير

الطبّاع الصديق الحميم لعدنان المالكي على اليسار، والنائب العامّ محمد الجرّاح المشهور بحملته علينا أثناء الاعتقالات وخلال المحاكمة. وكان القاضي المدني بدر الدين علوش رئيساً للمحكمة.

وبعد قراءة الأحكام، رفع محامو الدفاع الدعوى إلى المحكمة الاستئنافية أي التمييز. وكانت الأحكام على القوميين المدنيين صدرت كلها اعتماداً على وثائق خارج القرار الاتهامي. ومن الاتهامات التي على أساسها صدرت الأحكام بحق أعضاء الحزب الاشتراك في الاغتيال، وسرقة معلومات من الجيش، ودسّ الدسائس لدى دولة أجنبية والتجسّس وغير ذلك. ولكن كل هذه التهم لم تقم على وثائق تكفي للإدانة. غير أن العسكريين عمدوا إلى استخدام كل وثيقة لا تمتّ إلينا بصلة، فقط لإثبات الجرم علينا. فمثلاً اتُّهمتُ أنا و حُكمتُ على أساس رسالة ألبير جزدان التي أشرت إليها أعلاه، وحُكمتُ سنتين لتشويق العسكريين للانتساب إلى الحزب، وإقامة جبرية في تدمر مدة خمس سنوات ونفي من البلاد بعد ذلك. وحُكم الأمناء فؤاد الشوّاف وعصام المحايري وكامل حسان بتُهمٍ خارج قرار الاتهام.

اعترض محامو الدفاع على الأحكام الصادرة واعتبروها غير شرعية، وقرروا رفع القضية إلى التمييز للنظر في الاعتراضات الكثيرة ومن أهمها الحكم على أعضاء الحزب من قِبَل محكمة شُكّلت خصيصاً للنظر في قضية اغتيال عدنان المالكي وما تفرّع عنها فقط. وبما أنّ المحكمة برّأت الحزب من الاغتيال واكتفت باتهام بعض الأفراد من عسكريين ومدنيين، بينهم منعم دبوسي وبديع مخلوف وفؤاد جديد، (وكذلك غسان جديد واسكندر الشاوي وجورج عبد المسيح وسامي الخوري غيابياً)، وخُفّض حكم الإعدام على فؤاد جديد إلى المؤبّد. وبما أن صلاحيات المحكمة لا تخولّها النظر في قضايا المعتقلين غير المعنيين بتهمة الاشتراك في عملية الاغتيال، فقد أقرّت محكمة التمييز بعد صلاحية تلك المحكمة النظر في دعوانا لأنها برّأت الحزب في جناية مقتل عدنان المالكي، وقرّرت سحب الدعوى

ضد الحزب من هذه المحكمة إلى محكمة مدنية. وتردّد آنذاك أنه تقرر الإفراج عن المعتقلين عندما يمثلون أمام المحكمة المدنية نظراً إلى عدم وجود أي دعوى جنائية ضدهم حسب قرار الاتهام. ولكن ما إن صدر قرار محكمة التمييز حتى جُنّ جنون هيئة المحكمة العسكرية، فتجنّد العسكريون و الفئات الحزبية كلها للقضاء علينا. وأخذت ملّفات الدعوى تنتقل ذهاباً و إياباً من التمييز إلى المحكمة ومن المحكمة إلى التمييز لعدة أسابيع كنا خلالها نحضر إلى المحكمة من دون أي استجواب، ونستمع فقط إلى احتجاجات الادّعاء العسكري على رفض التمييز الآخذ بالأحكام الصادرة بسبب عدم صلاحية المحكمة العسكرية النظر في دعوانا. ولكن الذي حدث بعد هذه الأحكام المجحفة بحقّنا وظهور رغبة التعدّي على المتهمين الأبرياء، وعلى رغم من أن الأحكام الصادرة غير شرعية وملّفقة من قبل العسكريين، فإن المحكمة العسكرية أُعطيت مرة ثانية الحق بالنظر في الدعوى المقامة علينا. وصادق على هذه الجريمة شكري القوتلي، وتحت تأثير الإرهاب تخلّت الفئات المسؤولة أمام القضاء والعدل عن واجباتها وصادقت على التعيين الجديد على رغم علمها بالجريمة القانونية التي تُنفّذ ضدنا.

ولكن حسابات هؤلاء الحكّام لم تشفع لهم حينما وصلت الموسى ذقونهم فقد دخلوا الواحد تلو الآخر إلى السجون بشتّى التهم. أمّا المسؤول الأول عن الدولة وفي عنقه أمانة إدارة البلاد فكان شكري القوتلي الضعيف الشخصية.

وهكذا صدرت الأحكام نفسها مرة أخرى بحق القوميين كلهم، تماماً كما سبق في الهيئة السابقة. وعندما رُفع الأمر إلى التمييز كان الجواب أن الأحكام باطلة ويجب تعطيلها، وسبب ذلك أنها صدرت عن هيئة محكمة عُيّنت مُجدداً بمرسوم جديد.. ولهذا عليها أن تبدأ التحقيق من جديد ثم تُصدر قرار اتهام جديداً بعد انتهاء هذا التحقيق الجديد الذي قد يكون غير التحقيق السابق، وربما كان القرار الجديد غير القرار السابق، ومن حق القانون إلغاء ذلك القرار الصادر عن هيئة غير معنية بقضيتنا... وإذا كانت هذه المحكمة هي المختصة، فإن القرار يكون غير

منفصل عن تلك الهيئة. أما إذا كان القرار الأول الذي يأخذون به هو الأساس فإنه سيُعطل بسبب عدم صلاحية المحكمة المذكورة النظر في دعوانا.

ولكن لم يكن في حسابات العهد في ذلك الوقت أي وزن لقانون أو لعدالة. وعندما وقف بعض رجال القضاء النزيهين ليغلسوا أيديهم من تلك الجريمة التي كانت تحاك في أروقة المحاكم العسكرية، كان نصيبهم التقاعد والملاحقة والاتهام بالخيانة (الخونة، أولاد الاستعمار، جواسيس اليهود). كانت هذه الألفاظ تُطلق في كل الاتجاهات وعلى كل شخص لا يتبع سياستهم وأفعالهم، بل تُوزّع يميناً و يساراً حتى على الشخصيات التي ساهمت في المعارك الوطنية. وهكذا أصبح حُماة الديار هم لصوصها الغاصبون المتستّرون وراء الإذاعات الرنّانة حتى انكشف الستار عن الجوقة بكاملها، ويا لها من جوقة مهولة لفّها الانتقام والحقد على الأمة كلها.. فما لا تتعب عليه الأيدي لا تحزن عليه القلوب!.

الفصل الثامن عشر

أثناء المحاكمات، وخلال ترددنا على المحكمة، كنا نستطيع تفّهم ما يدور في الأجواء عن طريق المحامين، وعرفنا من يقف وراء هذه الحملة كلها ومن يحرّك تلك المحاكمات ومن يرتّب التعيينات من هنا ومن هناك. وفي كل هذه الأمور كانت الأصابع المشاركة في ضرب القوميين كثيرة ومتشابكة مع أصابع عبد الحميد السرّاج الذي عرفنا بعد الانفصال أنه مدبّر عملية قتل عدنان المالكي بالاشتراك مع جورج عبد المسيح وغيره، والذي لم يكفّ يوماً عن صبّ الاتهامات علينا و البكاء على «عدنان الشهيد».

هذه المسرحيات استمرت إلى أن انتهى العهد المصري الناصري، كنت أفرح عندما نذهب إلى المحكمة لأن ذلك يعني بالنسبة إليّ الخروج من السجن حتى ولو لسماع الأضاليل والأكاذيب. كانت تلك الفرصة الوحيدة التي ألتقي فيها برفقائي. وباستثناء ذلك لم أكن أخرج من غرفتي إلى التنفس لا ليلاً ولا نهاراً. أما في قاعة المحكمة فقد كنت أزداد معرفة ويقيناً كلما سمعت مرويّات رفقائنا عن الحوادث، وكيف أنّ المؤامرة كانت مدبّرة من قبل الخصوم وبالاتفاق مع عبد المسيح.

قبل أن تُعقد أي جلسة جديدة كنا نأخذ علماً بها مسبقاً أو في الليلة التي تسبق الجلسة أو حتى في صباح اليوم نفسه وفي ختام الجلسة يُعيّن رئيس المحكمة موعد الجلسة التالية. ولكن مواعيد الجلسات لم تكن كلها مضبوطة بل تتغير أحياناً في آخر لحظة. وربما نُفاجأ بجلسة غير منتظرة في آخر ساعة. وكنت أشعر بأنهم يعتمدون تركي حتى اللحظة الأخيرة قبل إبلاغي عن الجلسة بحيث لا يعود هناك متسع من الوقت لكي أرتدي ثيابي وأسرّح شعري وما إلى ذلك. وكان

الشرطي يأتي إلى الغرفة كل دقيقة ليطلب مني الإسراع لأن سيارة المحكمة في انتظاري!

بعد أن بدأنا التردّد على المحكمة، خفّت حملة التعذيب بصورة عامة. وكانت الشرطة العسكرية تحضر كل يوم موقوفين آخرين من القوميين، فمتى ينتهي هذا السيل من المتهمين؟ لكن المجازر الكبيرة توقّفت وكمُنت بانتظار الانتقامات الهائلة نتيجة للإرهاب السابق الذي جرى في المزّة. ومن الأمور التي عرفتها أنّ العسكريين قرّروا تنفيذ إعدامات بالجملة، ولذلك أرادوا إعلان الأحكام العرفية التي أيدها فوراً شوكت شقير وكافة المسؤولين في الدولة من بينهم رئيس الوزراء صبري العسلي ووزير الدفاع وغيرهم. لكننا يجب أن ننحني تقديراً لمن احترم قوانين بلاده وكرامتها ورفض أن يترك العصابة التي كانت تدير سلطات الحكم والجيش تمضي في مخططاتها، وامتنع عن وضع البلاد في حالة طوارئ، وأكّد أنه لن يسمح بالخلط بين القضايا بل سيترك للعدالة أن تأخذ مجراها في موضوع الاغتيال وتُعطي لكل ذي حق حقّه. وكان من جرّاء هذا الموقف أن اتُّهم الرئيس هاشم الأتاسي حينذاك بأنه عميل قومي (أي سوري قومي اجتماعي). وهذه الخطوة الشجاعة أنقذت الموقوفين، ومنهم الأمناء والمسؤولون، من عمليات إعدام كانت قد تقررت في مكاتب العسكريين لكي تُنفّذ في نفس الزنزانات وفي نفس السجون.

عندما جرى البحث في طبيعة المحاكمات وهل ستكون سرّية أو علنية، اعترض الضباط على فكرة العلنية بحجّة أن المحكمة ستنظر في تُهم تجسّس (حسب زعمهم ومن دون وثائق). لكن المجلس الوزاري الذي كان يسيطر عليه الشعبيون آنذاك رفض على أساس أنّ قرار الاتهام الذي يطلب الإعدام لاثنين وثلاثين موقوفاً لم يتضمّن أية تهمة جنائية، وأصرّ على مبدأ العلنية. وساهم في هذا الأمر أيضاً قيام بعض الصحف في الدول المجاورة بفضح المؤامرات التي تُحرّك هذه الأحداث... فأُجبروا على إقرار المحاكمة العلنية.

كانت أول جلسة صورةً حقيقيةً عن الجو الإرهابي الذي افتعلوه في الملاحقات والسجون والمحاكمات. وقد تعرّض للتهديد جميع المحامين الذين كُلِّفوا بالمرافعة عن المتهمين، ووصلت هذه التهديدات إلى حد أنّ المحامين طلبوا من الحكومة حمايتهم وأخذوا من نقابة المحامين ضمانة بالدفاع عن حرية التعبير في المحكمة بما يختص بمهنة الحقوق. وعادت نقابة المحامين لتطالب، بخجل، بأن يكون لكل محامٍ ضمانة في دفاعه عن أي متهم، وأعلنت تضامنها مع المحامين المحتجّين. كما أن هذه الممارسات أثارت نقابات المحامين في لبنان وغيره من الدول المجاورة. وكتبت الصحف مقالات عديدة عن موقف المحامين. ومع ذلك، وعلى رغم تعهّد الحكومة بإعطاء الحرية للمحامين للقيام بواجباتهم القانونية المهنية، فقد تواصل مسلسل الإرهاب والتهديد حتى اضطر المحامون إلى طلب الحراسة المشددة لحمايتهم أثناء تنقّلهم من المحكمة وإليها. وقد نُقل المحامون لأول مرة في سيارات تابعة للشرطة العسكرية، واستمروا بنفس الطريقة مدة إلى أن اتّضح سير القضية في المحكمة بعد فترة من الأخذ والردّ بين محامي الدفاع ومحامي الادّعاء، وظهر كأن المحاكمات محمية من قبل النقابة.

كنتُ من أوائل الذين خضعوا للاستجواب في المحكمة. وتتالت الإنكارات والتراجعات عن الإفادات التي انتُزعت بالقوة والتهديد والتعذيب. لكن ماذا كان محتوى تلك الإفادات على رغم الإرهاب والتعذيب؟ لقد فضحت المؤامرة التي نفّذها جورج عبد المسيح حينما كلّف اسكندر شاوي بالاتصال مع منعم دبوسي وبديع مخلوف لتكليفهما بالأمر وكأنه أمر حزبي، بينما الحقيقة أنه أخفى في نفسه مآرب خاصة بحيث أنّ أحداً لم يتخيّل بأنّ مؤامرةً من هذا النوع وعلى هذه الشاكلة كانت تُحاك في الظلام. واستمر الإنكار والنفي على رغم كل إفادات هؤلاء التعساء الذين ذهبوا ضحيّة عبد المسيح ومآربه الخاصة. والله وحده يعلم إلى أين كانت تتجه مخططاته، ومع مَنْ كانت ستستمر، وكيف التزم التكتّم والتجاهل منذ بدء الحوادث وحتى نهاية المأساة!

كانت تنقّلاتنا تتمّ في سيارات الطيران التي خُصّصت لنقلنا من السجن إلى المحكمة لأنها تتسع إلى العدد الكبير الذي يتوجّه إلى المحاكمة يومياً. وكنّا نلتقي مع بعضنا منذ ترك السجن وحتى العودة إليه. وأثناء هذه السفرات كان نمط الحياة حولنا يختلف عمّا هو عليه في السجن، عدا عن اختلاف الطبيعة التي لم نستطع رؤيتها من غرفنا بسبب الانفراد وعدم السماح لي بالتنفّس لتنشّق الهواء الطلق، ورؤية الأشجار والناس والحركة الطبيعية في الشوارع.. كل هذا كان يعطينا شعوراً بأن كل شيء خارج السجن ما زال كما كان، وأن أحداً لا يدري بمؤامرات الإجرام والقتل التي تُدبّر بحق الأبرياء.

كانت مشاهد الحياة الطبيعية خارج السجن تُسبّب لي شقاءً بالغاً. فضمن الجدران الأربعة في غرفتي داخل السجن، ومع متابعة التحقيقات وأصوات عمليات التعذيب، كنت أشغل نفسي طيلة الوقت ليلاً ونهاراً. وكانت صور بناتي تخطر على ذهني وأراهنّ في أجواء الحزن والتيتُّم، فأشعر بالضيق يطبق على صدري كلما فكّرت في المكائد التي دُبّرت لي ولهن. وعلى رغم هذه الضائقة النفسية العميقة التي كانت تسبّب لي نوبات عصبية، فلم أكن لأشعر بحقيقة التيتُّم وواقعه حتى أرى شوارع دمشق وضواحيها حيث كانت بناتي يعبرنها ذهاباً وإياباً إلى مدرستهنّ في «روضة الأحداث» بشارع الروضة، فأراها الآن وكأنها خالية تماماً لن تعود بناتي إليها ولن تعودنَّ إليّ، وأن بعدهنّ عني ليس بالسجن فقط بل بالموت الذي حاكه عبد المسيح بيديه وهو قابع في لبنان يمارس البهلوانيات مع الحزب ويتنطّح للدفاع عنه وكأنه يستطيب معرفة أنه لم يعد للدفاع أي معنى.

عندما وقفنا في قفص الاتهام حضر محامو الدفاع وكان من بينهم محامون قوميون، بعضهم من لبنان وبعضهم الآخر من الشام: فرحان سلّوم وكمال التقي من دمشق والأمين نصري أبو سليمان وسليم عثمان وبهيج تقي الدين ورياض أبو فاضل من لبنان. وقد قال لي هذا الأخير، بعد أن أصبح صهر جورج عبد المسيح في أعقاب زواجه من ابنة أخته، إن عبد المسيح يوصيني بأن أكون كما أنا شجاعة

وأن أقف بكل معنوياتي القومية وأقول للمحكمة إنني مستعدة لأن أستشهد كما استشهد زوجي! قالها المحامي المسكين وهو لا يعرف أنني بدأت أدرك عمق مسؤولية عبد المسيح واستهتاره في قضيتنا. (حتى ذلك الوقت لم أكن بعد قد عرفت الإفادات ولم أتبين ما إذا كان قد اشترك في عملية الاغتيال). أجبت أبو فاضل: ولماذا يريدني أن أقول هذا الكلام؟ هل يريدني أن أتلبس أنا الجريمة زوراً؟ وما هي هذه البطولة حتى أستشهد من أجلها؟ هل هي معركة مشرّفة مع العدو أم مجرد جريمة نكراء؟ أيريدني أن أستشهد من أجل هذا العار؟

من الأكيد أنّ عبد المسيح تبلّغ جوابي، وقد يكون حَسِب لي حساباً وبدأ يدرك أن الثقة به وبكلامه أصبحت معدومة. وقبل هذه المحاولة جرّب أن يُقنع بعض القوميين بأن الأوراق التي ضُبطت في البيت (إذا كانت قد ضُبطت في البيت فعلاً!) كانت بحوزتي. فقد سألني رياض أبو فاضل: هل تذكرين أين وضعتِ، أو أين كانت هذه الوثائق التي يحقق فيها الجيش؟ أجبته: أيسألني عبد المسيح أنا أين كانت الأوراق وهي تخصّه، وهو يحفظها معه، وهو مسؤول عنها، وهو الذي أنكر وجودها معه قبل أن يغادر البيت وعاد لينكر وجودها مرات عدة بعدما ألححنا عليه أنا والأمين عصام محايري لنعرف ما إذا كانت معه وأين يخفيها، وكان جوابه الوحيد أنه لا يوجد شيء أبداً وهي مع الأمين إنعام رعد، وأنّها أوراق إدارية عامّة لا أسرار فيها.. وبعد أن بحثت عنها مطوّلاً لم أعثر على شيء، فكيف ضُبطت وأين كانت؟ هذا ما لا أعرفه حتى الآن، ولعل عبد المسيح يعرف تماماً!

وراحت الأيام تمرّ بين ذهاب إلى المحكمة، وزيارات المحامين وأهالينا مرة في الأسبوع والصحافيين من دمشق وغيرها، وزيارات ضبّاط من الجيش، وبعضهم يأتي للتعرّف على هذه المرأة زوجة الزعيم سعاده التي خصّصت لها الصحف العناوين الكبيرة الطنّانة... إضافة إلى المرض بين حين وآخر والاحتجاج كل يوم على إجراءات جديدة تدخلها الإدارة في نظام السجن لتحقيق المزيد من الحرمان، إلى ما هنالك من أمور تبتلع الوقت وتملأه بالمرارة.

عندما وصل شقيقي جورج قادماً من الأرجنتين كان قد سُمح لنا بمقابلة أهالينا، فزارني لأول مرة مع والدتي وشقيقتي. وكانت تلك آخر زيارة لشقيقتي إذ تم إبعادها بعد ذلك عن دمشق (لماذا أُبعدت شقيقتي وهي التي كان بإمكانها مساعدتي والتردّد عليّ؟).

في أول جلسة جاء شقيقي إلى المحكمة مع بناتي، فرأيتهنّ بعد غياب أشهر. كنّ قد غادرْن دمشق بعد انتهاء الامتحانات المدرسية وذهبن إلى بيت مري عند جورج عبد المسيح بناء على طلبه. (كان ذلك في إطار مخطّطاته فهو يتظاهر بالعطف عليهنّ بينما يهيّئ لهلاكهنّ). وعندما زارتني شقيقتي لآخر مرة أبلغتني بقرار إبعادها من دمشق، وأخبرتني أنّ البنات موجودات مع أنجال عبد المسيح. فقلت لها: فور وصولك إلى بيروت أحضريهن إلى ضهور الشوير وأبقيهنّ معك، فلا أريدهنّ أن يكنّ مع أحد غيرك. وهكذا كان.

قضى شقيقي ثلاثة أشهر في الوطن حضر خلالها جلسات المحاكمة واستمع إلى استجوابي، ثم غادر البلاد عائداً إلى أعماله في الأرجنتين. وبقيت والدتي في دمشق بينما شقيقتي في لبنان مع بناتي اللواتي انتسبن إلى إحدى المدارس في رأس بيروت.

في بادئ الأمر بقيت والدتي والمساعِدة المنزلية لورنس في البيت الأول الذي سكنتُه. أمّا البيت الثاني فكان يخص الرفيق نجيب الشويري، وقد تسلّمه هو بعد عودته من القامشلي.

كانت والدتي تتردّد عليَّ في السجن مرة كل أسبوع، وفي بعض الأحيان يُسمح للورنس بمرافقتها أو يرافقها شخص آخر مثل الرفيقة نهال صعب. لكن سرعان ما تغيّر هذا الأمر ومُنعتُ من مقابلة أكثر من شخص واحد مكلّف بزيارتي. وفي كل مرّة كانت والدتي تخبرني عن زيادة التدهور في صحتها ومضايقات رجال المكتب الثاني، فيوماً يُوقفون لورنس ويسوقونها إلى السجن ويوماً آخر يقومون بتفتيش

البيت للتشفّي والتعذيب ليس إلاّ. وكلّما حاول أحد الرفقاء أو الرفيقات الاتصال بها للسؤال عن صحتها والاستفسار عن أوضاعها يتعرّض للتوقيف والاستجواب.. بحيث لم يعد أحدٌ يجرؤ على المجيء إلى البيت!

كانت والدتي في سنها الرابعة والسبعين. وبعد حوادث عام 1955 ، تركت الممارسات الإرهابية والإجرامية آثاراً عميقة في نفسيّتها وصحّتها. فازداد قلقي عليها خصوصاً أنها تصاب بالدوار وقد خفّ سمعها كثيراً بحيث لم تعد تسمع رنين جرس باب البيت أو الهاتف، فكانت بعض السيدات يأتين لزيارتها لكنها لا تسمع رنين جرس الباب فيعتقدن بأنها غير موجودة، لذلك يعدْن أدراجهنّ دون رؤيتها. وعندما علمتُ بهذا الوضع باتت تترك الباب الخارجي مفتوحاً حتى يدخل من يأتي لعندها من دون قرع الجرس، وأيضاً في حال وقع لها عارض أو أُغمي عليها يكون الباب مفتوحاً لمن يتفقّدها.

في خضمّ هذه الحالة النفسية والجسديّة عاشت والدتي في دمشق لتواجه أيضاً العذاب مع رجال المباحث، ولهذا ألحّيت عليها بأن تغادر دمشق إلى لبنان للإقامة مع شقيقتي وبناتي. غير أن رجال الشرطة منعوها من الخروج ولم يعطوها إذناً لنقل أثاث البيت. وقد كلّفت الرفيقة نهال صعب بإتمام المعاملات الجمركية، وبالفعل حصلت على إذن وذهبت إلى والدتي لتساعدها في ترتيب الصناديق.. فإذ بعناصر التحرّي والشرطة بإمرة سامي جمعة يعتقلون نهال وينقلونها إلى المزّة، وهناك سمعت صوتها وعرفت أنها معتقلة بصحبة ابنها الصغير. وأُفرج عنها بعد أن قضت أسبوعاً في المزّة كانت تصاب خلاله بنوبات عصبية. وقد أخبرتني والدتي أنّ نهال اتصلت بها وأعلمتها أنّ سامي جمعة مزّق ورقة الإذن بالخروج من الجمارك وعندما عادت إلى بيتها بعد الحصول على الإذن حطّم لها كراسي الدار.. وكل ذلك بعد مرور حوالى السنة على توقيفنا، أي بعد الحكم الثاني.

صدر أول حكم بعد مرور ثمانية أشهر على توقيفنا. وأذكر أنه عند عودتنا من المحكمة وقد وصلنا أمام باب السجن، وكنّا لا نزال في سيارة الطيران والحرّاس من حولنا، وقف الأمين كامل حسّان وهتف: يا أبناء الحياة لمن الحياة، لنا، ولمن نحيا، لسورية، ومن هو قائدنا، سعاده، تحيا سورية، تحيا، تحيا سورية، تحيا، تحيا سورية، تحيا، يحيا سعاده، يحيا، يحيا سعاده، يحيا، يحيا سعاده، يحيا. وردّدنا هذه الهتافات كلّنا بملء حناجرنا. كان مدير السجن الملازم الأول تركي التركاوي على باب السجن ينتظر نزولنا حسب العادة لاستلام المساجين. وقد بُهت من هذا الموقف ولم يجرؤ على قول أية كلمة للحرس، لكن علامات الاضطراب كانت واضحة على وجهه وهو يرتجف من التوتّر. نزلنا من السيارة وعاد كل واحد منّا إلى زنزانته وتركنا وراءنا الإعجاب الشديد في نفوس رجال الشرطة، إذ قال لي عدد منهم في وقت لاحق: نحن لم نرَ في حياتنا شجعاناً مثلكم، فبعد هذه الأحكام الفظيعة تهتفون وكأن الموت لا يعني لكم شيئاً؟

وأريد هنا أن أتحدّث عن الملازم التركاوي الذي استلم إدارة سجن المزّة بعد نقل عزّت، وكان يعاونه الرقيب عادل الديري. كنت أعرف الديري قبل مجيء الملازم التركاوي، إذ كان معاوناً لعزّت. وكنت أرى اعتدالاً في تصرّفاته، فهو ليس عنيفاً معي ولا متساهلاً ولم أتلقَّ منه يوماً كلمة قاسية أو تصرّفاً عنيفاً. وكان مثل أي عسكري يُنفّذ ما يُؤمر به ولم أشعر أنّ في نفسه أية ضغينة علينا، فلم يسهّل التعذيب ولا الترهيب.

أما الملازم التركاوي فكان ذا منظر بدوي أسمر قاتم، طويل القامة نحيف الجسم. لباسه بسيط دائماً ويفضّل البدلة الميدانية ذات اللون الكاكي على الطقم الرسمي (عرفت أنه ابن أخت الرفيق علي التركاوي من حمص - تدمر). تصرّفاته مع المساجين فظّة وعقوباته كثيرة، لكنه كان يتظاهر أمامي بشدّة الاحترام ويصرّح لي بأنه مستعد للاستفادة من معلوماتي في بعض المواضيع التي تهمّه في السجن. وكان يأتي إلى غرفتي ويناقشني في القضية القومية ويُظهر في كلامه تمسّكاً

بالتعصّب الديني. ومع هذا كان يحترم رأيي ويقول لي: أودّ أن أحضر لك شقيقتي كي تبقى معك وتتعلّم منك، لكني أخاف أن تجعلي منها قومية. هي ليست جميلة لأنها سوداء مثلي! فأجبته: المهمّ أن يكون قلبها أبيض وتعي ما تسمع، فالمبادئ ليست حفظاً ببغائيّاً بل هي قناعة، فلو أنك اقتنعت بمبادئنا لما كنت ضدّنا.. وقد تكون شقيقتك كذلك.

عندما عدنا إلى السجن بعد إصدار الحكم الأول علينا، اتخذ الملازم التركاوي ترتيبات جديدة لتشديد الحراسة. وكنت قد تأكدّت من أنهم سائرون في تحقيق أهدافهم فينا، ورحت أفكّر في وضع بناتي ومستقبلهنّ إذا ما بقيتُ في السجن وشعرت بالقلق على مصيرهنّ إذا ما بقي عبد المسيح على رأس الحزب من دون أن يعلم أحد بمؤامراته ويوقف مخططاته التي تشمل البنات الثلاث وهن طفلات بريئات لا يدرين معنى الشر ولا يعرفن من هو عدوهن، خصوصاً إذا كانت تربيتهنّ في المستقبل ستتم على أيدٍ غريبة. فضاق صدري بهذه الحقائق ولم أستطع التغلّب على قلقي، فأُصبت بنوبة عصبية وأُغمي عليَّ. وسرعان ما جاء الملازم التركاوي وأسعفني بإشراف الممرّض وبقي معه حتى عدت إلى وعيي، وكان يقرأ آيات من القرآن بقربي. وعندما أراد الذهاب وإقفال الباب وراءه، صرخت به قائلة إنني سأكسر الباب إذا أقفله.. وكانت تلك الفرصة الأولى التي سُمح لي فيها بفتح الباب والتنفّس وذلك بعد ثمانية أشهر على سجني. لكن الانفراد دام طيلة فترة سجني في المزّة، أي ثلاث سنوات وثمانية أشهر، كانوا خلالها يتشدّدون في منعي من الاتصال مع باقي السجينات، بل وحتى مع رجال الشرطة.

تابعنا حضور جلسات المحاكمة بعد نقض الحكم وإعادة تعيين هيئة المحكمة ذاتها بقرار جديد من شكري القوتلي. واستمرت الجلسات حتى نهاية السنة الأولى على توقيفنا فصدر الحكم نفسه وصُدِّق عليه رغم أنّ القضاة في التمييز استقالوا احتجاجاً، ورئيس المحكمة بدر الدين علّوش رفض الحكم علينا. إلاّ أنّ المستشارين عفيف البزري وبشير طبّاع أجمعا على الحكم، فكانت أحكامنا بالأكثرية وليس

بالإجماع. وأوضح رئيس المحكمة موقفه قائلاً إنّ الحكم صدر بالأكثرية وليس بالإجماع لأنه هو شخصياً لم يقرّ بذلك. ثم عقد مؤتمراً صحافيّاً ليخلّص ذمّته من المؤامرة التي نفّذها العسكريون بحقّنا. هذا الموقف ذكّرني بموقفه السابق عندما طلبوا منه أن يصدر أحكام الإعدام حسب قرار الاتهام فرفض متذرّعاً بعدم وجود أية وثائق تديننا حتى ولو في جناية واحدة. وأكّد أنه بصفته رجل قانون لا يستطيع أن يلعب هذا الدور لأن التاريخ سيسجّل عليه هذه الجناية. وبعد جدالات ونقاشات مطوّلة فضّل الاستقالة من منصبه كرئيس للمحكمة، وعقد مؤتمراً أعلن فيه رفضه الخضوع للأهداف الحزبية مؤكداً على أنه يتقيّد فقط بالحكم العادل للقانون. وعندما خرجت معظم الصحف في البلاد العربية لتكشف لعبة العسكريين في قضية المعتقلين القوميين، اضطروا إلى إعادة النظر خوفاً من الدعاية السيئة والنقمة التي ستندلع ضدهم في العالم العربي، فعدّلوا موقفهم من علّوش وسمحوا له بترؤس المحكمة التي ستنظر في الدعوى. وصدرت الأحكام مرّة أخرى، ورفضها علّوش مرّة أخرى أيضاً مُعلناً عدم موافقته عليها لعدم وجود وثائق تدين بأية جريمة كانت. وبقي على هذا الموقف الشريف بعد أن زال العهد وسقطت من الحكم الشخصيات المأجورة وأخصام الحزب اللدودون، كما انتهى عهد شكري القوتلي وظلّت صورته الضعيفة في قلب المجتمع السوري.

وذات يوم وقعت حادثة أدت إلى نقلي من غرفتي الداخلية في الشقة المخصصة للنساء والتي كانت تشرف على الإدارة من خلال نوافذها المغطّاة بشبك من الخشب، بحيث أنني إذا فتحت النوافذ للتنفّس لا يراني أحد لكنني أستطيع الرؤية نحو الخارج. وفي إحدى الليالي كان أحد المتهمين (ولا أظنه قومياً) يتعرض للتحقيق والتعذيب وسط الإدارة على يد بهجت مسوتي وعبد المجيد جمال الدين، وكنت أتأمّل الاعيبهم وأراقب المشهد من خلف الشبك الخشبي بينما النور مطفأ داخل الغرفة. وبعد انتهاء وجبة التحقيق والتعذيب، خرج مسوتي وجمال الدين للاستراحة وأدخلا أحد رجال الشرطة ليتصرّف وكأنه يتعاطف مع الموقوف، فيعامله بعطف

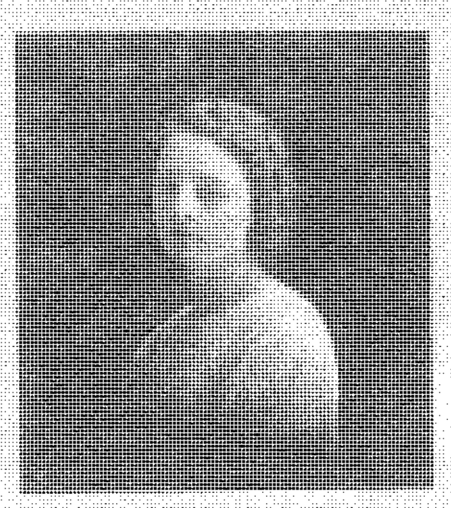
وإنسانية ويأخذه إلى الخارج ويقدم له فنجاناً من القهوة متظاهراً بأن المحققين ذهبا إلى مكان بعيد.. بينما هما في الواقع يتيحان له فرصة معاملته بهذا الأسلوب حتى يستدرج المتهم ويأخذ منه ما يستطيع من الثقة وبالتالي الاعتراف. وقد يكون المتّهم ساذجاً في بعض الأحيان فيقول ما لا يرغب بالكشف عنه. وهكذا ينقل الشرطي إلى المحقق ما أسرّ به المتهم، فيعودون به إلى الإدارة لاستئناف التحقيق والتعذيب. في تلك الليلة خرج عبد المجيد من الإدارة، ورفع رأسه نحو نافذتي وهو يعبر الساحة قائلاً: «عال العال، هذه غرفة للتسجيل على التحقيق.. انقلوها في الحال». وكان لا يدري أنني أراه وأسمعه!

في اليوم التالي نُقلت إلى غرفة أمامية مطلّة على الشرفة حيث كانت خالدة صالح موقوفة. كانت الغرفة مريحة وأكثر إشراقاً وعلى جدرانها أشعار قوميّة اجتماعية، وعلى بابها رسمة الزوبعة. وفيها قرأت كثيراً من أقوال الزعيم وسجّلت جزءاً من افكاري.

عندما نُقلت إلى هذه الغرفة ظلّ بابها مغلقاً عليّ. كان ابن عادل الديري الصغير، واسمه خلدون وعمره سنة وشهران، يصعد إلى الشرفة ليلعب مع الحاجب إذ إنّ والدته كانت تدرّس في المعارف وجدّته منهمكة في الأشغال البيتية، وكلهم يسكنون الطابق السفلي من المبنى. أخذت ألاعب خلدون في غرفتي وأصنع له رسوماً مفرحة وأسرد عليه قصصاً مسلّية، وفي نفس الوقت أنتبهُ لصحته. وعلّمته كيف يعبّر عن حاجاته الطبيعية ودرّبته على الطاعة والأكل النظامي وكل ما هنالك من واجبات نحو الطفل النظيف المهذّب. وعندما يتفقده أبوه كان يجده نظيفاً هادئاً مطيعاً، يتناول طعامه بتهذيب، فلم يصدّق أنه تغيّر بهذه الصورة الجذرية. وكان سروره به عظيماً فشكرني وهو يدعو لي بسلامة أولادي جزاء ما أفعله في سبيل ولده. وتركت هذه التربية صدًى واسعاً في أنحاء السجن، إذ إنّ الحرّاس كانوا يلاحظون هذا التغيّر الكلّي في تصرفاته ومأكله وحديثه والاعتناء بحاجاته

الطبيعية، وسلامه المهذّب على الجميع، وكيف أنه كان يعرف مواعيد مجيئه لعندي وذهابه إلى بيته عندما تعود أمه من المدرسة، وحينما يراها قادمة يقول لي: ها هي الفرصة، لقد قُرِع الجرس كي أنصرف إلى بيتي. ويأخذ أغراضه تحت إبطه ويقف باستقامة ويحَيّي منحنياً باحترام وينصرف. وكانت هذه المشاهد تنتشر في السجن لتتحدث عن التربية الصحيحة، وكيف أنّ مدام سعاده بدّلت أخلاق هذا الطفل حتى كاد والده ألاّ يعرفه. وقد ذكرت سابقاً أنه أغمي عليّ بعد صدور الحكم وأتى الملازم التركاوي لإسعافي ثم فتح لي الباب لأول مرة وتركه مفتوحاً منذ ذلك الوقت.. في تلك الليلة جاءت عائلة الرقيب الديري لزيارتي، وقد بكت زوجته ووالدته بسبب الحكم الظالم الذي صدر بحقّي. لكن بعد هذه الزيارة عمد بعض رجال الشرطة إلى إطلاق إشاعات ضد الديري تتّهمه بأنه يتلقّى رشوة مني ولذلك يرسل ابنه وزوجته إلى غرفتي، علماً بأنه حصل على إذن من التركاوي كي تصعد زوجته إليّ حتى أعطيها إبرة مقوّية لصحّتها. ونُقل هذا الرقيب بعد مدة قصيرة إلى منطقة بعيدة عن دمشق، ولم يبقَ من ذكرى بيني وبين خلدون سوى كتابين فيهما صور وحكايات، وقد كتبت على صفحات أحدهما تقدمة للطفل الصغير الذي لم يعرف قطّ أننا كنا في سجن المزّة.

Julieta E. de Saadeh



جولييت المير حوالي عام [illegible]



حوالي 1930 من اليمين: جولييت المير وشقيقتاها ديانا وكتالينا في الأرجنتين



1937 حفلة تخرج الممرضات، وتظهر جولييت المير الثالثة من اليسار



[illegible] في الأرجنتين على ظهر الباخرة التي أقلتنا الى [illegible]



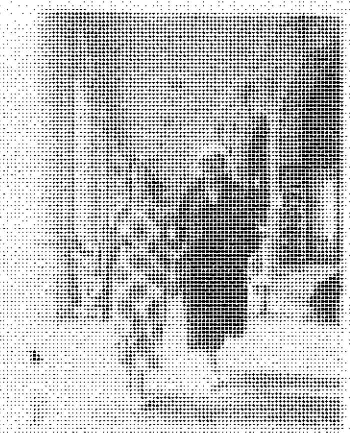
1938 جوليت المير من اليسار وصديقتها تتنزهان على الشاطىء

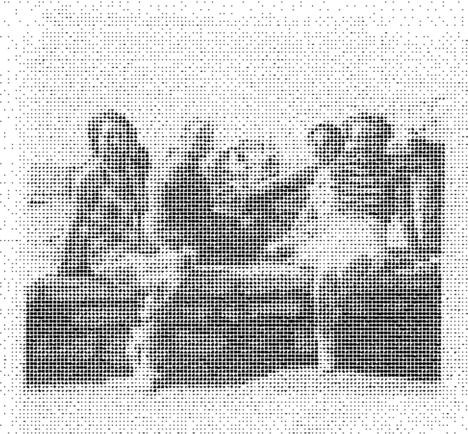


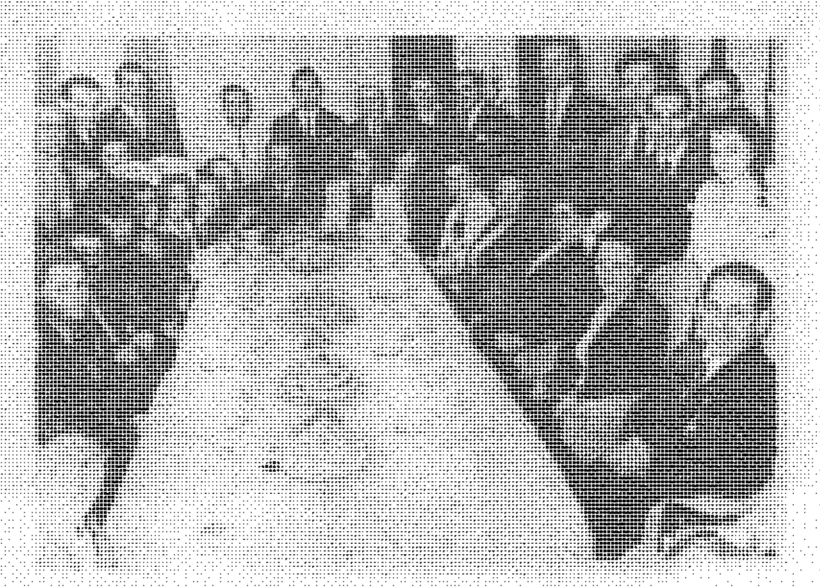
1937 جوليت المير صورتها خلال تخرجها كممرضة

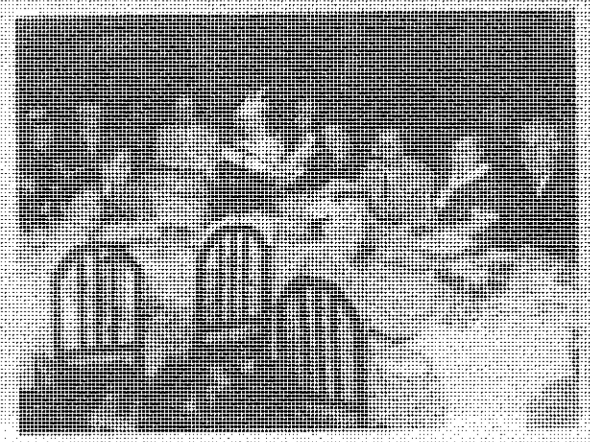


1936 جوليت إلى اليمين وشقيقتها ديانا







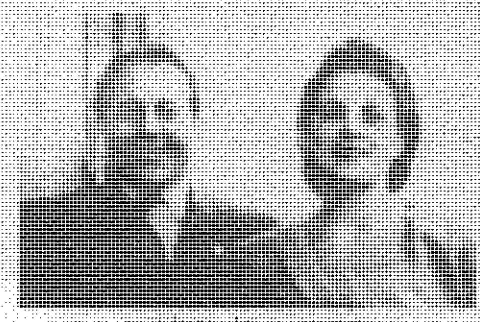


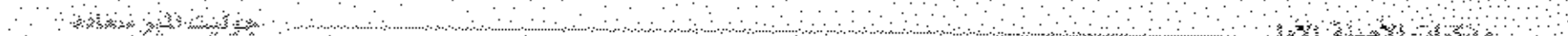




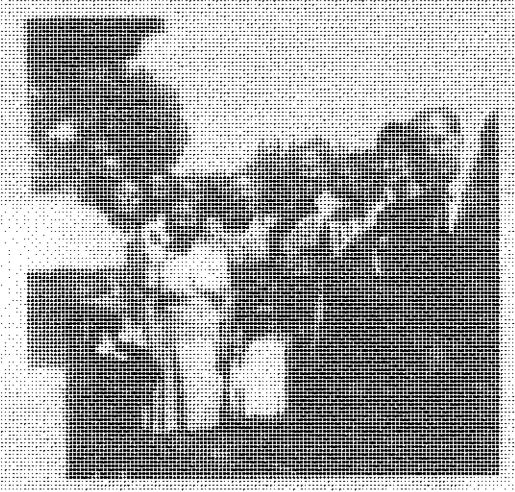


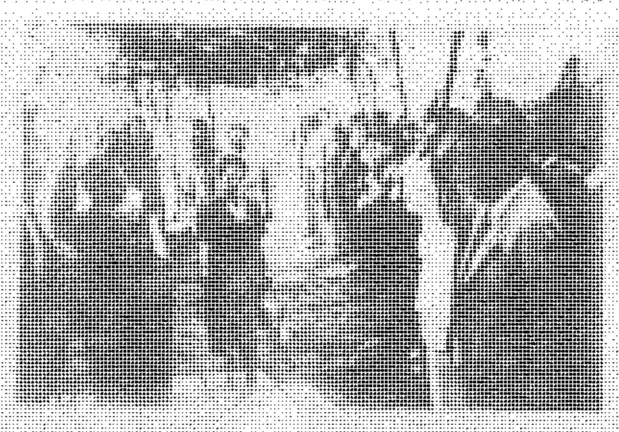










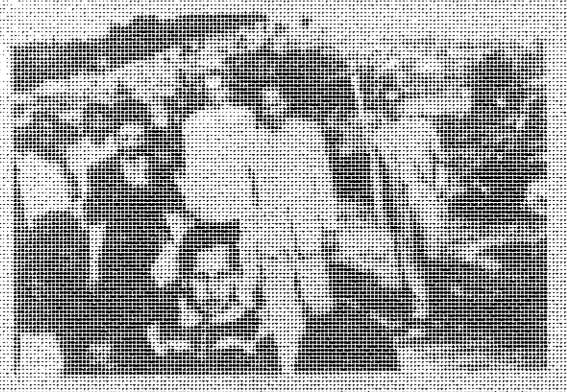


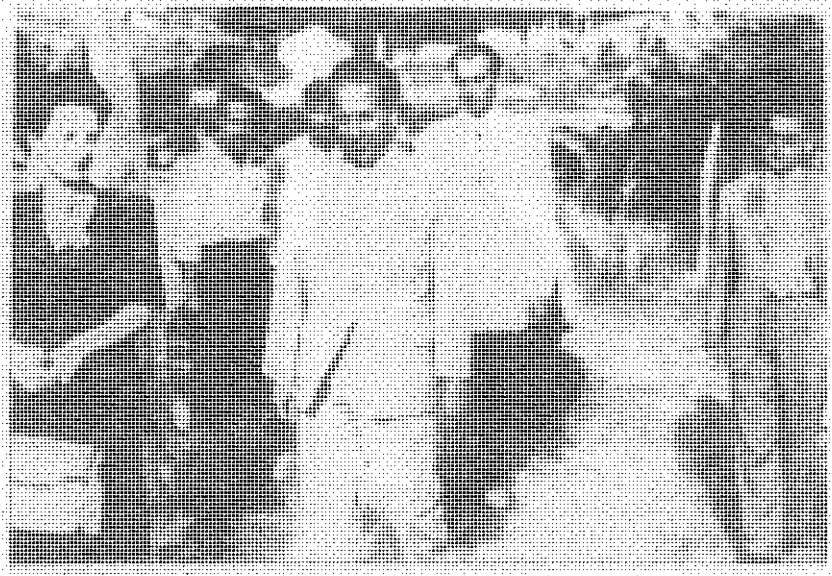
[illegible]



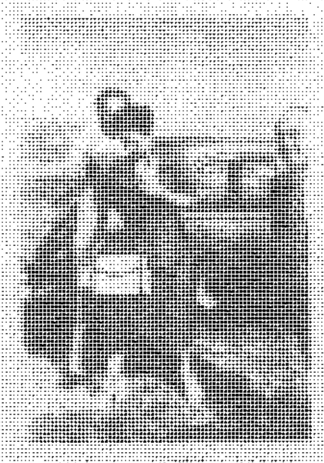
[illegible]







[illegible] في الحديقة من اليمين: هشام الرافعي، يوسف سلامة، الزعيم والأمينة الأولى



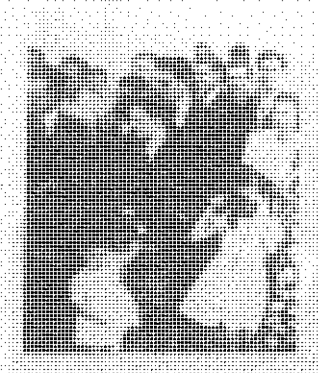
[illegible] الأمينة الأولى ووراءها الزعيم





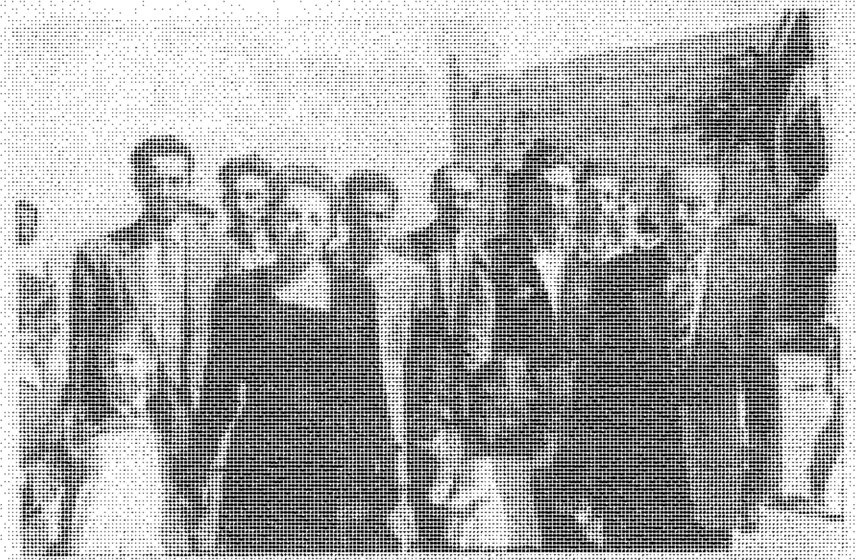


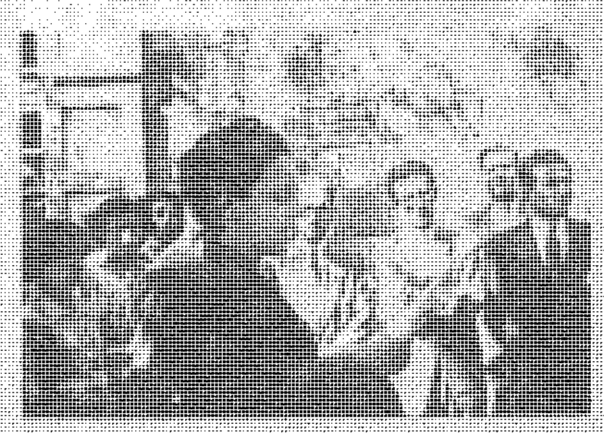
(..) الأمينة الأولى [illegible]
[illegible]

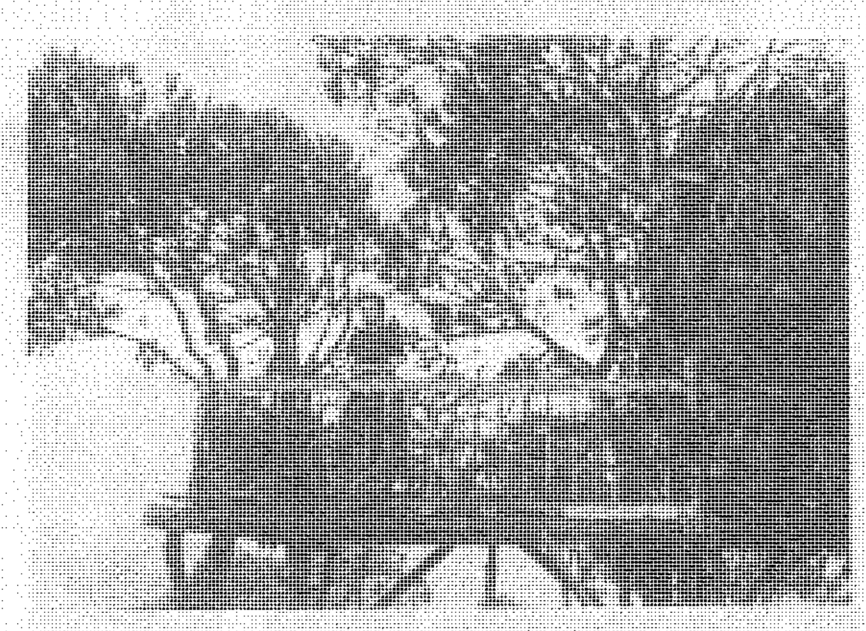


(..) الأمينة الأولى [illegible]
[illegible] في صافيتا

(30) الأمينة الأولى وكريمتها صفية مع حشد من الرفقاء في صافيتا



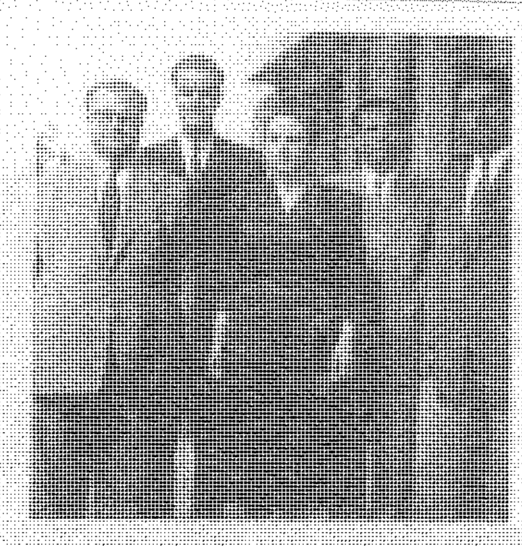


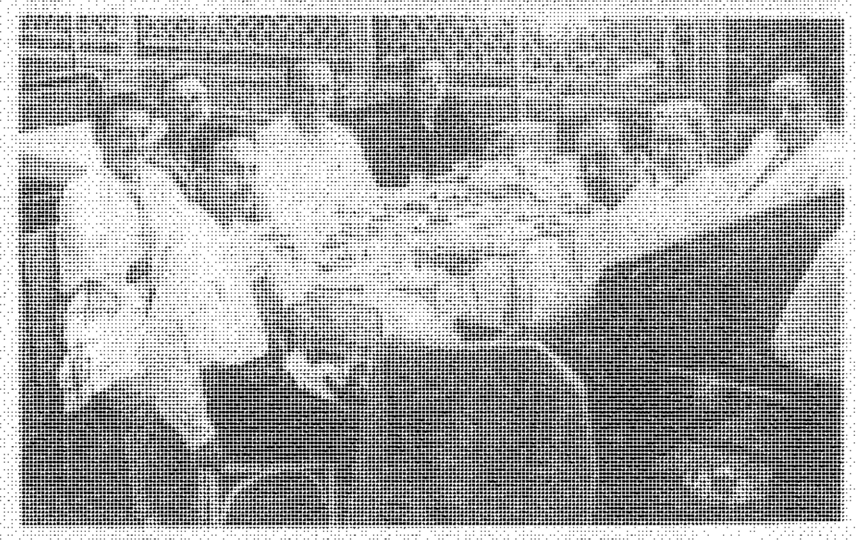


١٩٥٩ الأميرة الأولى على شرفة المنزل















1950 الأمينة الأولى مع بعض الرفقاء في رحلتها إلى صافيتا و مرمريتا وطرطوس



1950 الأمينة الأولى في رحلتها إلى الساحل السوري ويبدا إلى يمينها الأمين
عيسى سلامة والأمين الياس جرجي قنيزح



١٩٧١ السيدة الأولى تلتقي السائحين في مصر



1954 الأميرة الأولى وأمامها راغدة وإلى يمينها صفية واليسار وأختها ديانا
ويبدت والدتها حنة المير جالسة



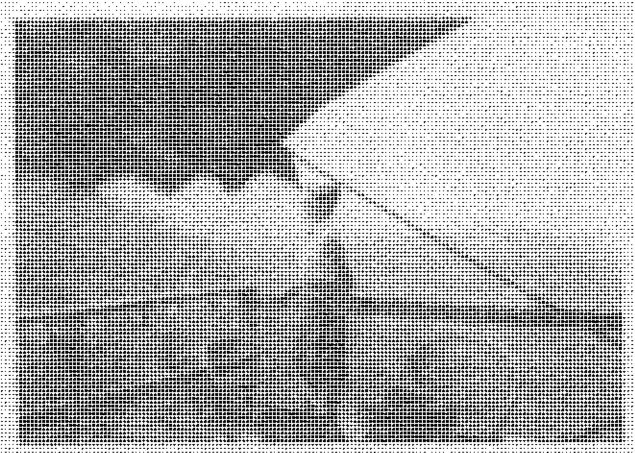
1960 لقاء في السجن، من اليمين: ديانا المير، جولييت المير وأمها حنّة المير



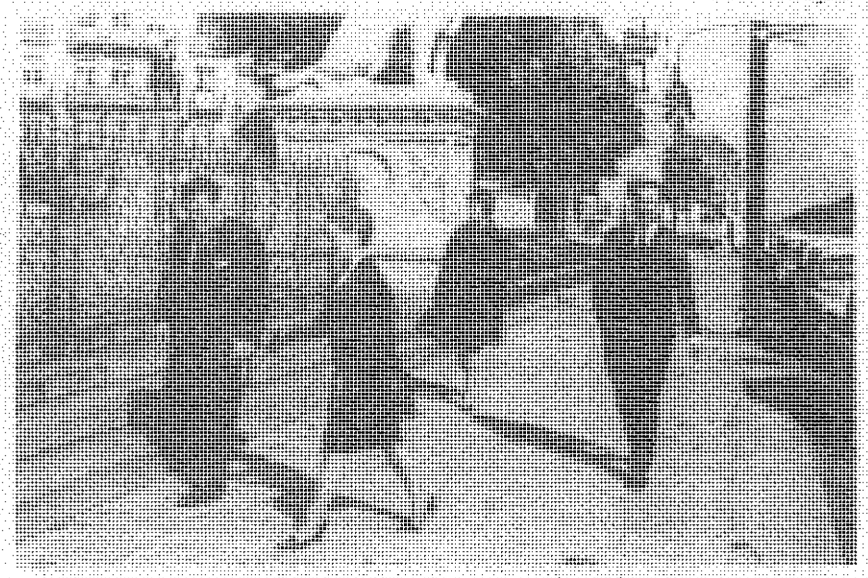
[illegible] الأميرة الأولى في [illegible]







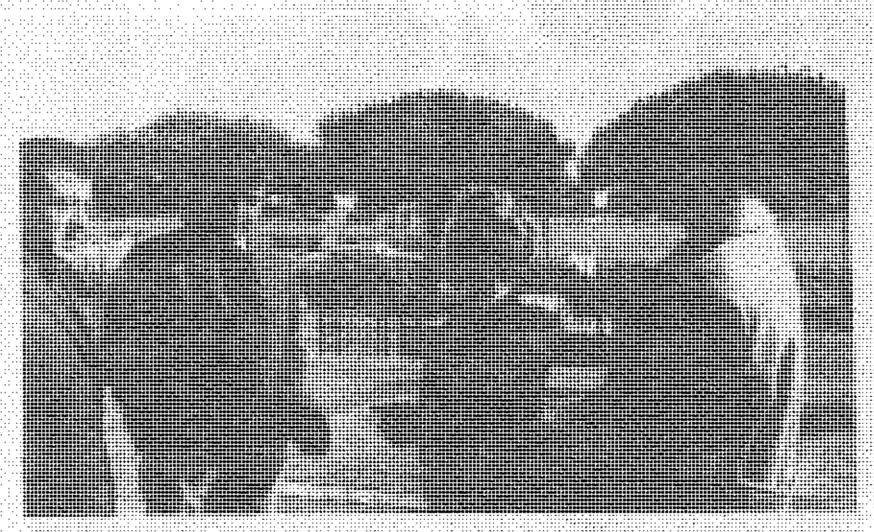




1968 الأميرة الأولى وإلى يمينها الراحل الشيخ صقر في الكويت



1961 الأميرة الأولى تتوسط رفاقها ويبدو الراحل الشيخ صقر إلى اليسار في الكويت

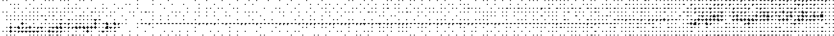


[illegible]



[illegible]











الفصل التاسع عشر

خلال الفترة التي قضيناها في السجن شهدت البلاد أحداثاً لم تكن في حسبان التاريخ لسورية، سورية الطبيعية كلها. فقد تابعت الأحداث سيرها في اتجاهات سياسية خطيرة وسط مخططات أجنبية كبيرة. فما إن انتهت حملة الاعتقالات ضد القوميين حتى أخذ النشاط الشيوعي يتوسع، وانتشرت الدعايات الشيوعية بينما كان المسؤولون الشيوعيون في الشام يطلقون التصريحات الهجومية ضدنا ويلصقون تهم العمالة للاستعمار بنا وبكل واحد لا ينتمي إلى التيار الشيوعي ـ البعثي الاشتراكي.

وكانت صحف القاهرة تشنّ حملات كاذبة ضدنا مليئة بالأضاليل والقصص المختلقة، وكأنها أصبحت البلد المختار لتلك الحملة. وبعد المحاكمات ظهر للعيان مدى التقارب بين الشام ومصر باسم الأمة العربية من المحيط إلى الخليج. وفي قلب هذه الهزّات السياسية الخطيرة وقعت هزّة أرضية فعلية كان مركزها في لبنان لكن تأثيراتها وصلت حتى الشام. وشعرنا بسلسلة متتالية من الهزات كانت الثانية أعنفها وقد فاجأتنا ونحن في سجن المزّة. كنت في الانفراد مستلقية في فراشي أقرأ كتاباً عند حوالى الساعة العاشرة وعشرين دقيقة مساء عندما شعرت بهزّة وكأنها رجرجات الأرض من جراء عبور دبابات كبيرة كنّا اعتدنا صوتها على طريق السجن في المزّة. لكن الهزّة ازدادت بصورة محسوسة خلال ثوان قليلة وراحت الأرض تميد بنا والطاولات تهتزّ بعنف بحيث لم يعد هناك مجال للشك في أنها هزّة أرضية. فنهضت وركضت إلى النافذة أستنجد بالحرس طالبةً فتح الباب بسبب الهزّة الأرضية. لكن الحارس في تلك الليلة كان أحد البسطاء المساكين

الذين لا يصلحون لا للخدمة العسكرية ولا لأي شيء آخر، ومعروف عنه بأنه أبله. فأجابني: لا يا ست لا أستطيع أن أفتح الباب! قلت: ولكن هذه هزّة أرضية، إذهب إلى المدير وبلّغه. قال: مثلي مثلك! أجبته: أهرب بنفسك على الأقل. وأثناء هذا الحديث كانت الهزّة الأولى قد هدأت، غير أني عدت وشعرت بخفقان سريع في صدري وظننت بأن الهزّة ستعود، وربما كان الجو أثّر على ضغطي. فرجعت إلى النافذة أطلب من الحارس أن يسأل مدير السجن التركاوي هل سيتركني أموت تحت الركام إذا تكررت الهزّة مرّة أخرى؟ ولم أكد أنتهي من كلامي حتى جاءت الهزّة الثانية وكانت أعنف بكثير من سابقتها. لم أستطع الرجوع إلى سريري لأن الأرض أصبحت شديدة الانزلاق، وتدحرجت الكتب عن الرف وتحطّم الزجاج، واندفع السرير نحوي. ومرّة أخرى أيضاً طار فكري إلى بناتي وشعرت بأن نهايتي ستكون في هذا الانفراد بينما هنّ موجودات في الساحل حيث الخطر أعظم، فإذا هي نهايتنا كلنا من دون أن نكون معاً تمسك الواحدة منّا بيد الأخرى.. وتخيّلتهن يّركضن في كل اتجاه والرعب مسيطر عليهن ثم يصبحن جميعاً تحت الركام. كل هذه الأفكار خفقت في رأسي خلال ثوانٍ قليلة.

ولكن الهزّة الثانية، مع عنفها، توقفت بسرعة. وعندما هدأت جاء التركاوي ليتفقد الأوضاع، وقد وجّه صفعة قوية إلى الحارس بعدما علم بموقفه وصرخ به قائلاً: أمجنونٌ أنت؟ لماذا لم تذهب إلى الإدارة لجلب المفاتيح! أتريد أن يموت السجناء تحت الركام؟ أبقِ هذا الباب مفتوحاً وإذا تجددت الحالة تأخذ هذه السيدة مع الحاجب حتى الفسحة الكبيرة خارج السجن وتحرسونها هناك.. أفهمت؟ وهكذا أبقوا الباب مفتوحاً، لكن الهزّة الثالثة التي وقعت بعد الساعة الثالثة صباحاً كانت أخف من سابقاتها فلم نعرها اهتماماً.

وكان من الطبيعي أن حادثاً من هذا النوع لم يقع مثله منذ مئات السنين سيصبح موضع اهتمام عام. ووصلتني عن طريق بعض رجال الشرطة أخبار الكارثة في لبنان، ولم أكن في حالة نفسية مريحة طيلة الوقت الذي أعقب وقوع الزلازل إلى أن تراجعت الإشاعات واتضحت المعلومات وعلمنا حقيقة الكارثة التي كادت

تغمر لبنان بالدمار. وتبيّن أن الهزّة تمركزت في منطقة الشوف وأدت إلى وقوع عدد من الضحايا وخراب وهدم عدد كبير من المنازل.

بعد هذه الحادثة بفترة قصيرة نُقل مدير السجن التركاوي وعُيّن مكانه جاسم ويس من دير الزور، وهو برتبة وكيل أول. كان هذا الرجل فظّاً في أخلاقه وذا تصرفات بدوية وطموح فاجر، إذ كان يعامل رجال الشرطة في المزّة كالأسياد ويقدم لهم أفضل ما يأتي إلى السجناء من أطعمة، في حين كان ينظر إلى السجين وكأنه لعبة سخيفة لا حول له ولا قوة. وكان جاسم يتظاهر مثل عبد المجيد جمال الدين بأنه يريد خدمتي، ويقول لي دائماً عندما أطلب منه أي شيء «تكرمي»! لكن فترة مسؤوليته في المزّة كانت أسود أيام سجني، فلم أكن مرتاحة له ولهذا يُخيّل إلي أني لم أستطع النوم طيلة الليالي التي مرت عليّ أثناء وجوده في السجن. وفي زمنه سمعت عن «انتحار» ثلاثة من الموقوفين، أحدهم رمى بنفسه من سطح السجن ليسقط مهشماً في صحن الدار حيث رأيته بأم عيني. كانت الساعة الخامسة صباحاً عندما يخرج السجناء للغسيل والحمامات، وفي ذلك الوقت كانت الرفيقة أدما ناصيف معتقلة وغرفتها تطل على الدار وقد رأت أيضاً ذات المشهد وكان منظراً رهيباً. وبعد اطلاعي على التفاصيل اقتنعت بأن هذه الحادثة مفتعلة من قبل إدارة السجن. فالسجين، وهو علويّ برتبة نقيب في الجيش، كان محكوماً بالحبس مدة سنتين ولم يبق للإفراج عنه سوى خمسة أشهر. فهل من المعقول أن ينهي حياته بيده بعد هذا السجن الطويل؟ وهناك آخرون غيره ماتوا تحت التعذيب لتزعم الإدارة أنهم انتحروا. أحداث كثيرة مثل هذه جعلتني أظن بأنهم سيحاولون الإقدام على عمل ما للقضاء عليّ. فقد كانت البلاد يومها تعيش أجواء معركة بورسعيد والعدوان الثلاثي على مصر حيث التعتيم والاستنفارات الدائمة، وكل شرطي مُدجج بالسلاح حتى أسنانه وأنا وحيدة تحت رحمتهم.

الشقة التي وُضعت فيها كانت خاصة بالنساء، وأطلقوا عليها اسم «مستشفى سجن المزّة» وكان رجال الشرطة الذين يقومون بالحراسة مسلحين ليلاً نهاراً، وقد عُبِّئت بنادقهم بالرصاص. ولم أكن أعلم من قواعد الحراسة شيئاً إلى أن صعد

الملازم التركاوي في أحد الأيام، ورأيته يصفع الشرطي الحارس قائلاً له: «أتريد أن ترتكب جناية بالبارودة المحشوة؟ أخرج هذا المشط وسلّم البارودة وإنزل إلى الإدارة!» فعلمت آنذاك أنه يُمنع على الحرس الداخلي، أي داخل السجن، حمل السلاح خلال النهار عندما يكون السجناء غير محفوظين. ولذلك بدأت ألاحظ أنه لا يوجد في السجن أي حرس يحمل سلاحاً إلاّ عندي. وعندما سألت أحد الحراس عن ذلك قال لي: هنا مكانك أخطر! فقلت له: لماذا البارودة محشوة، إخلع مشط الرصاص منها. أجابني: أنا على كيفي. وأصبح هذا الوضع يلفت نظري خصوصاً عندما كنت أراهم دائماً يلعبون بالزناد ويضغطون عليه بينما تكون فوهة البارودة المحشوة مصوبة نحوي في غالب الأحيان. وترسّخت هذه القناعة، إذ لعلهم يتعمدون مثل تلك الحركات كي تظهر وكأنها طبيعية، فإذا ما انطلقت رصاصة قاتلة يقولون إنه القضاء والقدر.

كنت أتخيل هذه الأمور على رغم علمي بأنّ هناك أسباباً تؤدي إلى استبعاد مثل هذه الفكرة. ومع ذلك فإنه يوجد أشخاص لا يضمن أحد التزامهم الأخلاقي، وقد يتطوع أحد رجال الشرطة للقضاء عليَّ بعد أن يعبّئه أحدهم بروح الحقد والانتقام، وربما لا يطلب منه مباشرة أن يقتلني بل يدلّه على طريقة أخرى مثل «القضاء والقدر». ويُضاف إلى ذلك أنّ هناك أساليب وألاعيب يمارسها العسكريون وأصبحت مكشوفة لدينا. ولهذا كنت أطلب من مدير السجن جاسم ويس وأكرر الطلب بأن يلغي حمل البارودة خلال النهار لأنني أرى أنها تعرّضني للخطر. غير أنه كان يرفض طلبي مدّعياً بأن غرفتي تقع في واجهة السجن وقد يتآمرون لخطفي... مع العلم بأن خمس مصفحات وكوكبة من المدرعات تتمركز أمام السجن، لكن لحراسة ماذا؟

واستمر الوضع على هذا المنوال إلى أن جاء يوم كنت جالسة فيه على الشرفة أقوم ببعض الأشغال اليدوية، وإذ بالحارس يخلي مكانه لزميله الذي كان غريباً عني أراه لأول مرّة، ويبدو كأنه من العشائر. جلس هذا على الكرسي قريباً من باب غرفتي، وكلما أردت الدخول أو الخروج صوّب بندقيته نحوي ويده على الزناد.

نظرت إليه فإذا بعينيه معلّقتان بي وشرارات الحقد تقدح منهما. فما كان منّي إلاّ أن دخلت الغرفة وأغلقت بابها بقوة ورحت أصرخ بصوت عالٍ أتّهم العسكريين بإضمار الشرّ لي والاحتيال لقتلي عن طريق «رصاصة طائشة». ووصل صوتي إلى الطابق الأسفل، وكان أمام باب السجن زوار كثر ينتظرون التفتيش فتجمعوا كلهم تحت الشرفة وعيونهم شاخصة إلى الطابق الذي ينبعث منه الصراخ. ركض معاون مدير السجن، الوكيل سليمان عيسى، ليستطلع الأمر ففوجئ بباب غرفتي مغلقاً وأنا أرفض فتحه لأي كان بعد أن تعبت أعصابي من مناوراتهم الكثيرة. أخذ الوكيل سليمان يرجوني لكي أسمح له بالدخول، فقبلت بعد مدة. وما إن دخل حتى أغمي عليَّ، فأسرع يستدعي الممرض لإسعافي وسألني عمّا بي، فأخبرته أنني أعرف حقيقة نواياهم، فهم يحملون البنادق بالذخيرة الحيّة خلال الحراسة الداخلية وهذا شيء ممنوع. ولا يوجد أي مكان آخر في المزّة تحت الحراسة المسلحة في النهار، فلماذا يتسلحون في حراستي وأنا عادة لوحدي؟ فقد تُطلق عليّ رصاصة ويزعمون أنها قضاء وقدر! لكنه نفى هذه الأمور قائلاً: «أبداً، إننا كلنا أخوة لك». وكان لطيفاً جداً معي وقال إنه سيرسل المدير إليّ، فأجبته: لا أريده، فهو الذي يريد قتلي (وكان هذا بعد أن أوصى الشرطي أمامي بأن يطلق النار عليَّ إذا ما رآني مستعدة لإلقاء نفسي من الشرفة).

وجاء جاسم ويس ليقول لي: هل أنا الذي يريد قتلك؟ أجبته: نعم، وحمل البندقية طيلة النهار وهي محشوة بالرصاص دليل على ذلك. أنا وحدي في الشقة كلها بينما لا يوجد في شقة الضباط العشرة أي حاجز خشبي أو حتى حراسة مسلّحة! قال: حسناً سننزع الحراسة المسلحة.. وهكذا كان. فبعد وقوع الفضيحة فقط تحقّقت النتيجة. ومنذ ذلك اليوم شعرت وكأن حملاً ثقيلاً أُنزل عن صدري.

ذكرتُ سابقاً أن الرفيقة أدما ناصيف كانت موقوفة في المزّة آنذاك. وبعد مرور سنة على تلك الحادثة سمعت الشرطيّ يقول للحاجب إنهم أرادوا قتلي بالرصاص الطائش في أحد الأيام، ولكن بما أني «امرأة فظيعة» فقد أحسست بالأمر وتصنّعت الجنون وصرخت لأُعلم الزّوار المحتشدين خارج السجن بالمؤامرة... وهكذا فشلت العملية.

وخلال فترة الاستنفار التي رافقت العدوان الثلاثي على مصر، كان هناك حارسان فقط نوبة كل واحد منهما 24 ساعة. وعندما طلبت تغيير الشرطي العدواني وإبقاء الآخر المهذّب والمحترم، قام جاسم ويس بنقل الشرطي الجيّد وأبقى الآخر طيلة خمسة أشهر ينام ويأكل ويشرب في الشقّة مع الحاجب. وكنت أخشاه من جرّاء هذا التبديل، ولم أعد أطمئنّ له أبداً حتى إنه شعر بهذا الموقف وفاتحني فيه.

في هذا الجوّ من التحدي والتعرض للضغوط، والشعور بوجود المخاطر حولي تحيطني من كل الجوانب، خلف القضبان وخارجها، كنت أعيش في سجن المزّة وحيدة في غرفتي داخل الشقة المخصصة للنساء لا أُشاهد أحداً ولا أُعاين شيئاً. هذه الحالة من التعذيب النفسي رافقتني طيلة وجودي في المزّة. ما عُذِّبتُ جسدياً أبداً ولا أُهنتُ حتى بكلمة واحدة، بل العكس تماماً «في الوجه مراية وفي القفى صرماية» كما يقول المثل الشامي الذي يجوز تطبيقه على كل متآمر يريد أن يتخفّى وراء ستار شريف ليلعب في الخفاء. وكان أكثر الأشخاص لطافة بوجهي هم الذين يتآمرون للقضاء عليّ.

بعد مرور سنة ونصف السنة على اعتقالنا، تم اكتشاف خطة لقلب نظام الحكم في الشام اشترك فيها الكثير من الشخصيات السياسية المهمة. في ذلك الوقت كان النشاط الشيوعي يتمدد في قطاعات الجيش والمجالات الإعلامية وغيرها. هذا الأمر جعل المسؤولين الحكوميين يشعرون بالخطر من جراء الترتيبات التي كان يعدّها الشيوعيون. إزدادت هذه المأساة بعد اكتشاف خطّة قلب نظام الحكم، فجُن جنون المسؤولين وراحوا يتقصّون أخبار المحاولة الانقلابية عن طريق جواسيسهم، وكان أبرزهم الضابط برهان أدهم.

علمتُ بهذه التفاصيل من خلال حرّاس السجن الذين أخبروني أن أكثر من عشرين وزيراً ونائباً أصبحوا تحت التعذيب بعد اتهامهم بالتآمر لقلب نظام الحكم الذي صار بيد الجيش. وقد تم ذلك بعد وقوع العدوان الثلاثي على مصر.

وخلال الأيام التالية عرفت أن من بين المعتقلين عدنان الأتاسي ابن رئيس الجمهورية السورية ومنيرالعجلاني وزير العدلية السابق والأمير هايل سرور من العشائر والعقيد السابق صبحي العمري وعدنان العائدي ومصطفى المالكي وغيرهم. لكني لم أعرف شيئاً عن رفقائنا في السجن على رغم أن أحد الحراس أخبرني أن المحاولة الانقلابية جرى ترتيبها في بيروت من قبل القوميين.

بعد أيام وضعوا بعض المعتقلين السياسيين في الشقة المجاورة لشقتنا. وكانت قبل ذلك مخصصة لرجال الشرطة. ومن الظواهر الغريبة التي تثبت أن السلطات كانت تعلم مسبقاً بهذه المحاولة أنهم عمدوا إلى إخلاء الغرفتين وطلائهما وتنظيفهما قبل أربعين يوماً من الكشف عن المؤامرة. وعندما رأيتهم يخرجون رجال الشرطة منهما، سألت الحراس عن السبب فقالوا لي إن الإدارة قررت وضع السجناء المرضى فيهما بدلاً من نقلهم إلى المستشفى في كل مرّة. وكانت الترتيبات توحي بالفعل وكأن الغرفتين ستتحولان إلى مستشفى، فالدهان أبيض والأسرة التي أُحضرت جاءت من المستشفى العسكري.. لكنّ المكان ظلّ فارغاً إلى أن تمّت الاعتقالات سنة 1956 مما يعني أن الجيش الشامي كان يستعد لذلك.

أُعيد اعتقال خالدة صالح مرّة ثانية لتُكمل بالسجن ستة أشهر كانت قد قضت منها أربعة أشهر ونصف الشهر. وجاء اعتقالها بُعيد اعتقال السياسيين السوريين، أي خلال مرحلة التعتيم والاستنفارات بسبب العدوان على بورسعيد والتخوّف من حملة مماثلة على سورية. ولم يسمحوا لخالدة بالدخول إلى غرفتي في السجن بل وُضعت في غرفة تقع عند الطرف الآخر من الشقة. ورفض جاسم ويس محاولات خالدة لإقناعه بهذا الأمر بسبب التعتيم والاستنفار وأجواء الحرب التي تُخيّم على منطقة المزّة كلها والمدافع المضادة المصوبة نحو كل طائرة تعبر فوق دمشق وإحتمال وقوع عدوان على تلك المنطقة العسكرية في أية لحظة. واكتفى جاسم بالقول: «لا تحلمي بهذا، فهو مستحيل لك ولها».

ولكن على رغم هذا التشديد فقد كنت ألتقي بها أحياناً في غرفتي بحضور الحارس، وأحياناً أخرى في الممر خارج غرفتي طبعاً بعلم الحارس الذي كان يريد مراقبتنا والتنصت إلى أحاديثنا.

عرفت من خالدة ما يجري بالنسبة إلى الحزب والقضايا العامة، وفهمت منها كيفية كشف المحاولة الانقلابية والثورة في الشام. وما كدت أسمع أن السياسيين السوريين كانوا على اتصال بالقوميين ومن بينهم جورج عبد المسيح حتى انخلع قلبي خوفاً على الحركة وأعضائها من القيام مجدداً بأي عمل مماثل لأن نتيجته ستكون الكارثة والفشل حتماً. فمنذ أن أدركت حقيقة موقف عبد المسيح من الحركة، وانكشفت الجريمة النكراء التي ارتكبها بحق الحزب، لم يعد عندي أدنى شك في أنّه أحد المخبرين للمكتب الثاني. فكيف يُعقل أن يتبنى عبد المسيح النشاط القومي الاجتماعي ويسعى إلى انتشاره في الشام وهو على ما هو عليه، وأول اهتمامه تحطيم أية محاولة لتعزيز وضع الحزب؟ وهو الذي ضرب الحزب عن سابق تصور وتصميم عندما اشترك في عملية اغتيال عدنان المالكي خفية عن الحزب وترك أعضاءه مطوقين بالنيران التي أضرمها من حولهم؟

عرفتُ أنّ خالدة ستخرج من السجن بعد أيام، فذهبت أردد على مسامعها تكراراً ومراراً حقيقة ما عرفتُ وما اكتشفتُ من مؤامرة عبد المسيح ابتداءً من قاعة المحكمة حيث تحدثت مع بديع مخلوف ومنعم دبوسي اللذين أكدا لي أنّ عبد المسيح هو الذي هيّأ لعملية الاغتيال. وأخبرتها كيف أنه دبّر مكيدة لي ولغسان جديد. وذكرت لها أن كل ما عرفته خلال المحاكمة أظهر لي أن لعبد المسيح علاقة بما كان يدور في الأيام الأخيرة التي سبقت الاغتيال، وإن كنت لم أعرف سببه في ذلك الوقت. وأوصيتها بأن تبلّغ المركز بكل هذه الحقائق ولا تخفي منها شيئاً لأنني أصبحت متأكدة من أني لن أخرج حيّة من السجن بعد أن بدأ عبد المسيح يستهدفني وقد أدرك أنني كشفته أثناء المحاكمة، خصوصاً جوابي لرياض أبو فاضل رداً على

سؤاله: «.. وأين كانت الأوراق في رأيك؟» وأيضاً طلبه مني: «قولي لهم إنك مستعدة للاستشهاد كما استشهد زوجك!» فقد قلت له: بلا خلط الآن، وكفى ألاعيب. إن الاستشهاد في سبيل عملية اغتيال حقيرة كهذه لا يشرّف أحداً، وإنما الاستشهاد يكون من أجل قضية عظيمة.

وقلت لخالدة: أنا متأكدة الآن أنّ في صفوف الحزب إمكانات فكرية وعقائدية وحزبية تفوق ما كان في الماضي. وهذه كفيلة بأن تجابه كل العقبات التي يضعها أمثال جورج عبد المسيح وغيره. لهذا لم يعد مهماً بالنسبة إليّ البقاء أو الفناء، فأموت مطمئنة لوعي القوميين. فلا خوف ممّا أتعرّض له هنا إذ لم يعد هذا الأمر في حسابي. بل كل ما أريده هو أن يعرف كل قومي اجتماعي حقيقة عبد المسيح حتى لا يستمر في استغلال القوميين المؤمنين كما حدث معي ومع غيري.. فليضعوه أمام جريمته التي لم يعد يختلف عليها اثنان. وفور وصولها إلى بيروت أعلمت خالدة المسؤولين الحزبيين بما سمعته مني.

أثناء فترة التعتيم والاستنفار التي دامت أكثر من خمسة أشهر وأُعلن خلالها أنّ دمشق مهددة بهجوم مماثل لما حدث في بورسعيد، لم تكن الحالة في سجون المزّة تختلف عن حالة الحرب في البلاد كلها. كانت دوريات الحراسة ليلاً ونهاراً تجوب شرفة الشقة الخاصة بنا وكذلك مختلف أنحاء السجن من الداخل والخارج. وكنا في بعض الأحيان نسمع صوت محرك طائرة أو نراها تحلّق فوق المزّة فتُطلق عليها نيران المدافع المضادة من مختلف أنحاء دمشق، مرّة من الميدان ومرّة من معسكرات المزّة التي كانت معرّضة لكارثة لا مثيل لها في حال وقوع هجوم عليها لأنّ فيها مستودعات ذخيرة ضخمة. وعندما نسمع صوت طائرة كنا نتساءل: هل هي طائرة سورية أم طائرة معادية؟ وكانت التحركات العسكرية في المزّة دائمة، أما عند التعتيم في الليل فيصبح لكل صوت معنى يختلف عن ذلك الذي يرافق النظر.. وكنا نتكهن بأشياء كثيرة كلها مغلّفة بالقلق.

في تلك الأثناء كنت وحيدة في الشقة كلها، ولاحظت أنّ الحرس المكلّف بمبنى النساء أصبح شخصاً واحداً وليس اثنين حسب العادة على أن يتناوب كل واحد منهما 24 ساعة. وحدث هذا بعد أن طلبت من مدير السجن أن يبدّل الحارس الشرس ويبقي الآخر المحترم. لكنه نفّذ العكس كما ذكرت سابقاً، إذ إنه أبقى الأوّل لوحده مدة خمسة أشهر. وبما أنني لم أطمئن إلى المدير أو الحارس، فقد امتلأت أيامي بالقلق. وكان التعتيم عاملاً إضافياً في زيادة قلقي، إذ من السهل تنفيذ أي اعتداء غادر ضدي ومن ثم حجبه بسبب التعتيم. وتعزّز شعوري هذا عندما وجدت قطعة حديد عتيقة، أظنها سقاطة باب حديدي وزنها أكثر من ثلاثة كيلو غرامات، مخبّأة عند حافة الشبك الخشبي الموضوع فوق رصيف الشرفة لكي يحجب النظر من خارج السجن. ورحت أتساءل عن سبب وضعها هناك؟ وكنت متأكّدة من عدم وجودها سابقاً إذ إن الدرفة كانت مفتوحة قبل أيام ولم تكن قطعة الحديد هناك، أما الآن فقد أُغلقت بالمسامير حتى لا أطلّ إلى الخارج. سألت الحاجب عن الأمر، فقال إنه لا يعلم أيّ شيء عنها وربما وضعها الشرطي لسبب ما! لكن لماذا يخبئها الشرطي هناك إذا كان يحتاجها؟

صحيح أن مثل هذه الأفكار ترد إلى الذهن بسبب الحالة النفسية التي كانت تساعد في بروز هذه المشاعر. لكن الصحيح والأكيد أيضاً هو أنّ بعض الأشخاص الذين كانوا يوحون إليّ بالثقة كانت سمعتهم حسنة بين الجميع، والعكس كان من الأشخاص الذين لم أثق بهم ولم يثق بهم غيري، وقد كشفت تصريحاتهم ومواقفهم أن مرادهم هو النيل مني. وقد يتساءل البعض: ولماذا لم يقضوا عليك طيلة تلك المدة؟ والجواب هو أنه لم يكن من السهل القيام بهذا العمل وتغطيته، إذ إنهم يريدون قبل أي شيء غسل أيديهم أمام الرأي العام، ولهذا يجب استخدام الأشخاص المقربين جداً منهم والموثوقين بشدة. ثم إنهم لا يريدون تسرب المعلومات إلى أي موظف في المزّة إذ قد يكون فيهم من لا يأمنون له، وبالتالي قد تتسرّب الأخبار إلى العالم الخارجي. فالموضوع بالنسبة إليهم، على ما أعتقد، كان انتظار الظروف المواتية حتى لا تقع الشبهة عليهم. وربما حانت الفرصة المناسبة عندما كان

الأشخاص المكّلفون بها متغيبين! وقد يكون هذا استنتاجي الخاص نتيجة سوء معاملتهم لي. ولكن بالنسبة إليّ، وللأسباب العديدة التي ذكرتها سابقاً، فقد كنت مقتنعة بأن هناك ترصّداً وتربّصاً للنيل مني.

بعد انتهاء الاستنفار والتعتيم زالت الحالة الخانقة في المزّة. والذين كانوا يترددون على زيارتي في السجن اقتصروا في بادئ الأمر على والدتي ومعها إحدى الرفيقات أو الخادمة. وبعد سنة غادرت والدتي الشام إلى لبنان وبقيت الآنسة أسمى خوري تتردّد عليّ كل يوم ثلاثاء وتُحضر معها بعض الأغراض ولوازم المعيشة وأخباراً عن بناتي وعائلتي. أما زيارات بناتي ووالدتي من لبنان فكانت تتم خلال العطلة المدرسية في عيد رأس السنة وعيد الفصح، ليس لأنهنّ كنّ ممنوعات بل لأنه لم يُسمح لهنّ بزيارتي في أي يوم غير موعد الزيارات نهار الثلاثاء. ولذلك كان عليهن انتظار العطلة المدرسية ليأتين إليّ على رغم أنّ جميع المساجين كان مسموحاً لهم بالزيارات في حال وجود أقرباء أو أصدقاء لهم خارج دمشق وذلك بعد الحصول على إذن خصوصي من مركز الشرطة. وفشلت والدتي وبناتي مراراً في الحصول على الإذن مع أنّ البنات في سن الدراسة، فكانوا يعذبونهنّ طيلة النهار بالمماطلة والتسويف بحجة أن الرئيس لم يأت بعد أو أن المسؤول مريض... وما شابه ذلك، إلى أن تيأسن وتعدْن إلى لبنان دون زيارتي. وحدث ذات مرة أن رأيتهن على درج السجن وكنت أنا على الشرفة، وشاهدت الشرطي يمنعهن من الدخول. كانت والدتي قد شارفت الثمانين من عمرها تقريباً، وهي تتحمّل مشقة بالغة حتى تصل إليّ ومع ذلك يمنعونها. وكدت لا أصدّق عينيّ، ورحت أنادي على صفية وأليسار لكنهما لم تسمعاني أو تراني. وعندها صرخت بأعلى صوتي: أيها العسكر الظالم، أتعيدون بناتي إلى لبنان بينما من حقهن زيارتي مثل ما هو من حق أولاد سامي كبارة الذين يزورونه يومياً ويبقون عنده طيلة النهار.. وأنا أحق بذلك لأنني بعيدة عنهن!

وغادرت السيارة عائدة إلى لبنان من دون أن يسمحوا لهن بزيارتي، فدخلت غرفتي وأخذت أضرب على الباب لأحطمه وكسرت زجاج النافذة.. وكنت أودّ تدمير كل ما في الغرفة لولا أن المدير جاء راكضاً إلى غرفتي ورآني على تلك الحالة الثائرة، فخاف عليّ وتوجه إلى عناصر الشرطة يأمرهم بملاقاة بناتي والعودة بهنّ إلى السجن.. لكن الدم كان قد صعد إلى رأسي فلم أرغب في استقبالهن وأنا في تلك الحالة.

تركت عبلة خوري العمل في الإذاعة السورية بسبب يأسها من الجو الخانق في دمشق، وغادرت إلى بيروت. ثم غادر شقيقاها عادل وعارف، بينما كان الأمين سامي متوارياً لأنه ملاحق. ولذلك قررت الآنسة أسمى الانتقال إلى بيت أهلها في الكفير حيث مسقط رأسها. وقد كلّفت الرفيقة ناديا دبس التي لم أكن أعرفها كثيراً في بادئ الأمر بزيارتي في السجن بدلاً منها. وكان قد مضت سنتان على وجودي في السجن عندما بدأت ناديا تتردد عليّ وتهتم بي وتسعى إلى تحقيق ما أطلب من حاجات. وفي بعض المرات أعطيها رسائل لتحملها إلى شقيقتي ديانا، وكانت دائماً تُظهر إخلاصاً للقضية ولي.

ومنذ ذلك الحين، أصبحت ناديا الشخص الوحيد الذي تسمح له إدارة السجن بزيارتي بالإضافة إلى أهلي. ولم أعرف سبباً لهذا الترتيب، فمثلاً إذا جاءت معها رفيقة أخرى أو صديقة لا يسمحون لها بالدخول مع أنه يكون يوماً مخصصاً للزيارات. وكان ذلك ابتداء من العام 1957. لم يراودني أبداً أي شعور نحوها ولم أشعر بأنها غير مخلصة، ومع ذلك فقد خجلت ذات يوم من الشك الذي خالجني عندما لاحظت أنهم لم يفتشوا أغراضها أبداً، وكانت عند خروجها تمرّ قرب الوكيل مصطفى معاون المدير الذي كان يقف في الفسحة الأمامية وتقترب منه كثيراً وكأنها تكلّمه وهو ينظر إليها، لكن دون أن تتوقف. استغربت هذه الحركة، لكنني رفضت الشك الذي راودني وتابعت الاتصال بها كالعادة.

في أعقاب إلغاء الاستنفار العام في الشام، انتقل مدير السجن جاسم ويس إلى مدرسة الضباط بعد أن أنهى فحص الكفاءة، واستلم الوكيل سليمان عيسى إدارة السجن بدلاً منه. منذ ذلك الوقت ارتاحت حياتي القلقة في المزّة، وصرت أشعر باطمئنان ولم أعد أفكر باحتمالات الاعتداء عليّ. كان الوكيل سليمان رجلاً سليم النية على رغم تمسّكه بالنظام وتنفيذ الأوامر بحذافيرها، لا يعطي أحداً أكثر من حقّه ولا يطلب من أحد أكثر من حقّه. وشخصياً لم أكن لأطلب أكثر من هذا.

كنت أرى السياسيين المعتقلين في الشقة المجاورة خلال فترة التنفس، وكانوا يرسلون لي سلاماتهم وتحياتهم مع الحارس والحاجب لأنهما يغطّيان الشقتين. وفي بعض الأحيان كنت أتبادل وإياهم الحديث حتى وهم برفقة الشرطي. ولابد من الإشارة هنا إلى أنّه كانت تبرز بين هؤلاء الحراس نفوس طيبة وصافية تعكس أصالة بلادنا، فمهما حاول الأشقياء تشويه النفس السورية كان هناك دوماً وجه صحيح من وجوه بلادي، فلهم كل احترامي ومحبتي. وحتى أولئك الأشقياء لا أظن أنهم يفتقدون إلى الطيبة فيما لو وُجهوا التوجيه الصحيح. فكم من أبناء أمتي من سار وراء الباطل وهو لا يدري!.

وذات يوم أصابني عارض تسمّم شديد فغبت عن الوعي وانقطع تنفّسي مدة طويلة، وعبثاً حاول الشرطي الممّرض ولمدة طويلة إعطائي الأوكسجين وإجراء التنفّس الاصطناعي لكن من دون فائدة، فهرع إلى الإدارة يبلغها بأنني توفّيت بعد إصابتي بتسمم شديد. فاشتعلت الاتصالات الهاتفية مع إدارة الشرطة، وأسرع أحد الملازمين المسؤولين وهو عبد المجيد جمال الدين ليشهد على وفاتي. وهنا أشير إلى أن فرح جمال الدين بالخبر كان عظيماً لأنه أسرع هو بالذات ولم يرسل أحداً غيره ليشهد على الوفاة. لكن لسوء حظّه، كنت قد بدأت أستعيد الوعي حين وصوله إلى غرفتي، وقد عرفته من صوته دون أن أراه لأن نظري كان غائماً ورأسي الذي كان تحت مستوى السرير لا يتحمل بسبب الهبوط الشديد في ضغطي وكلما

رفعته كنت أغيب عن الوعي. ولما تبيّنت صوت جمال الدين صرخت به: خذوني إلى المستشفى فأنا أموت هنا بالتسمّم من دون إسعاف. أجاب: لقد استدعيت الطبيب ولم يأتِ بعد! قلت: خذوني إلى المستشفى فهو على بعد رمية حجر من هنا. وغبت مرّة أخرى عن الوعي، لكنه لم يحرّك ساكناً ولم يتّخذ أي تدبير لإسعافي. وبعد أن استعدت وعيي قليلاً صرخت أمام رجال الشرطة وكان عددهم أكثر من ستة: اشهدوا كلكم أن دمي في عنق عبد المجيد. وهنا خرّ على الأرض وقال بصوت مضطرب: أنا! أنا! ما ذنبي والطبيب لا يأتي؟ قلت: خذوني إلى الإسعاف في المستشفى. عندئذ طلب من الشرطة الذهاب والتأكد من سبب عدم حضور الطبيب. وعند الساعة الحادية عشرة ليلاً حضر الطبيب ومعه ممرضة، وكانت حالتي أصبحت في خطر شديد. وبقيا إلى جانبي حتى أولى ساعات النهار وهما يجهدان لإنقاذي من الموت، فكان الخلاص على أيديهما فلهما شكري واحترامي. وأنا على يقين من أنهما ليسا من المحبّذين للحركة ومع هذا فعلت فيهما النفسية الطيبة فقاما بما عليهما من واجبات إنسانية كاملة.

هذا الحادث ترك في نفسي شيئاً من اليأس، فبعد أن شاهدت ما شاهدت واستُهدفت بالطريقة التي استُهدفت بها ماذا أستطيع أن أفعل لهذا الشعب الذي أحببته أكثر من نفسي؟ كيف أستطيع أن أجعله يؤمن بنفسه ويؤمن بي؟ ماذا عليّ أن أفعل لإقناعه بأننا من أجل خيره وسعادته نتحمل كلنا هذه الأعباء الثقيلة لنرفعها عن كاهله؟ علينا أن نعمل بصمت، فمن وعى قضيته يصبح مسؤولاً ولا يستطيع التخلي عنها. وكنت أستعيد كل ساعة ما قاله الزعيم وهو يدرك أبعاد ما يقول: إن آلاماً عظيمة، آلاماً لم يسبق لها مثيل في التاريخ تنتظر كل ذي نفس كبيرة منّا.

الفصل العشرون

انتظرت الإعدام ثلاث مرات في سجن المزّة. كانت الأولى حينما تبلّغت قرار الاتهام. والثانية عندما نقلوا الضباط القوميين إلى المحكمة العرفية على الحدود، وقد أخبرني أحد رجال الشرطة قبل نقلهم بيومين أنهم ينوون محاكمتهم وإعدام من يصدر عليه حكم الإعدام، وأن قرار الاتهام سينفّذ بنا في نفس المحكمة.

والمرة الثالثة كانت بسبب مؤامرة حيكت ضدي قبل أيام من انتقالي إلى القلعة، وهذا طبعاً بعد قيام الوحدة مع مصر.

كما وانّ إعدام رفيقينا منعم دبوسي وبديع مخلوف فاجأنا وصدمنا، فما كدنا نطمئنّ لسماعنا أن شكري القوتلي يرفض التصديق على حكم الإعدام حتى استيقظنا ذات يوم لنتبلّغ أنّ الإعدام نُفّذ فيهما.. فيا لها من مأساة تعيشها بلادي دون جدوى!

لاشك في أنّ الأحداث في بلادنا، وإن ظهرت وكأنها وليدة الساعة، تتكشف في وقت لاحق عن مخططات مفتعلة وتمنح الثمار المرجوّة إلى مفتعليها. فهذه حوادث سنة 1955 بدأت بعملية اغتيال بدت وكأنها قضية شخصية، ثم تحولت إلى قضية عقائدية حزبية، ثم تدخلت فيها منظمات دولية تقف وراءها مخططات أبعد نطاقاً وأكثر تحدياً لقضيتنا القومية. ولعلّ الجاني الذي افتعل هذه الأحداث كان يجهل أبعاد الخطر الراهن، واكتفى بأن يشبع جشعه بالقليل القليل من ثمار الأرباح التي عادت على أعداء أمتنا! كم وكم من خطوات صغيرة قادت نحو الهاوية الكبيرة. وكم من الجهاد بُذل لإنقاذ الأمة من هذه الهاوية. عاقل يبني حياة جديدة بقلبه وضميره وجاهل أناني يضرم النار فيها ويرى نفسه كبيراً إذا هدّم شيئاً كبيراً!

وكثيرون هم الذين يجهلون حتى الآن ما إقترفته أيديهم. ولكل واحد اسم: الجاني والمنقذ، الجبان والبطل، السافل والسامي.. فلا السجون ولا الأكاذيب ولا حتى الموت يغيّر في صفاتهم، ويبقى البطل هو البطل والخائن هو الخائن.

ومضت السنوات، أيام فيها الهدوء وأيام فيها القلق. وحسب موجات الإشاعات التي تصلني من الخارج كنت أتحسّس الخطر على قضيتنا. وعلى رغم أن اطلاعي على المعلومات الحقيقية لم يكن كاملاً، فقد تحسست الوضع من خلال مجموعة أحداث وإشاعات تتناول موقفاً ما أو خطراً معيناً. فيبقى هذا الأمر شغلي الشاغل إلى أن تتجلي الأمور على حقيقتها.. وللأسف فإنها لم تكن لتخيّب ظنّي مرة بل على العكس كانت أكثر خطراً مما تخيّلت.

في أواخر سنة 1957 انطلقت الإشاعات وال دعايات لأكبر عملية تآمر على وطننا. ومما يؤسف له أن هذه الدعوة كانت تلاقي الاستحسان في صفوف الشعب، فلم يطرح أحد تساؤلاً أو يطالب بالتروّي.. اللهم سوى الواعين منهم الذين دبّ فيهم الخوف على سلامة قوميتهم وسلامة بلادهم وحدودها. ومَنْ أكثر إحساساً من القوميين بقضيتهم من خلال الوعي القومي الصادق؟ عندها أدرك العالم أنّ اغتيال عدنان المالكي كان وسيلة للنيل من الحزب السوري القومي الاجتماعي، وأنّ العملية نُفّذت بمشاركة عسكريين قوميين اجتماعيين من دون علم المجالس العليا في الحزب. وكان ذلك أفضل طريقة للقضاء على كل إمكانيات الحزب المادية والمعنوية والسياسية. وما اشتراك عبد المسيح في الجريمة، وتوريط رفقاء نظاميين مخلصين لم يدركوا من الموضوع سوى أنها أوامر حزبية أُعطيت لهم ونفّذوها بحذافيرها (كما قال لي منعم دبوسي في قفص الإتهام)، سوى المطية التي خطّط لها أعداء الأمة وعمل على تنفيذها عبد المسيح.

الإشاعات والدعايات لوحدة عربية شاملة ظهرت في بادئ الأمر وكأنها شعار حزب البعث للوحدة العربية «أمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة». هذه العبارات كانت تتطاير في أجواء سورية ليصل صداها إلى سجن المزّة. وما كاد يحلّ شهر

شباط سنة 1958 حتى كانت الوحدة قد أُعلنت، كانت صفوف الرافضين كبيرة وقد ضاق صدرها بما يجري، لكنها لم تجرؤ على أية حركة. واكتفت بأن تعبّر أحياناً بصورة فردية وأحياناً أخرى في بعض الصحف الصادرة في الخارج. في اللحظة التي ارتفعت أعلام دولة الوحدة فوق المباني الحكومية والرسمية كنت على يقين من أنّ هذه الوحدة المصطنعة المسلوقة لن تدوم طويلاً. وقد عبّرت عن رأيي هذا يوم إعلان قرار الوحدة لأحد رجال الشرطة الذي تحداني بالقول: هاهي الوحدة العربية التي لا تؤمنون بها أنتم القوميون وقد أصبحت حقيقة واقعة. أجبته: أُذكرْ ما أقوله لك تماماً، إنّ الندم سيأتي قبل مرور ثلاث سنوات على هذه الوحدة.. وستكون أنت من أول المطالبين بزوالها. فهل تذكّر ذلك الشرطي قولي بعد وقوع الانفصال؟ من المستحيل أن يقتنع عاقل بإمكان دوامها على تلك الطريقة المشوّهة حيث لا وجود لقواعد دستورية أو اجتماعية أو سياسية.

كان التحدي الذي يواجه الوحدة متنوع الأشكال. ومن الأمثلة الطريفة في هذا المجال الضابط الذي وقف في صف النقباء من كوكبة المصفّحات الخمس التي كانت تحيط بالسجن ليهتف بهم: هذه هي وحدتنا ونحن مستمرّون بها بدعم من القوة الروسية، فليعش السوفيات. وهتف الجميع معه: عاش السوفيات. لكن في اليوم التالي تماماً نُقل الضابط المسكين الذي خلط بين عصبيته الشيوعية والقومية العربية والوحدة مع مصر. وكان الضابط المتظاهر بالشيوعية يظن حينذاك بأن عبد الناصر سيبعث إليه بوسام، لكنه أخطأ كما أخطأ كل من لم يعرف طبيعة عبد الناصر واتجاهاته المتعددة.

بعدما تسلّم عبد الناصر منصب الرئاسة في الجمهورية العربية المتحدة، أي الوحدة بين مصر والشام، ألقى خطاباً سمعناه في المزّة. وكان الراديو قد وُضع خصّيصاً عند شرفة المعتقلين السياسيين الذين كانوا قربي. وبما أن الصوت كان مرتفعاً فقد سمعته من وراء الباب الحديدي الذي يفصل الشقتين. أبدى كل من الأتاسي وكبارة والعجلاني وغيرهم إهتماماً كبيراً بسماع أول خطاب لعبد الناصر

في سورية. وسمعت بدوري كلمات كانت كلها وعوداً برّاقة وكأنه الأب الحنون الذي جاء ليعطف على أبنائه كلهم بمن فيهم هؤلاء الذين ظلموا في السجون، وقد خصّهم ببعض العبارات. أما الواقع فقد كان عكس ذلك بالضبط، إذ زاد الاضطهاد بازدياد ملاحقة الشيوعيين بعد الوحدة بعشرة أشهر في أعقاب إلقاء خطابه المشهور في آخر سنة 1958، وكانت الوحـدة أُعلنت يوم 21 شباط 1958. وأُخلي سبيل الدكتور سامي كبارة بعد مرور سنة ونيّف على اعتقاله بسبب إصابته بمرض عضال.

وفي 14 تموز سنة 1958 اندلعت الثورة في العراق وأطاحت بالعائلة الملكية بصورة دموية تمثّل فيها الموت بأشنع صوره. وسمعنا في المزّة أن العنف الدموي كان للتشفّي من عهد نوري السعيد. وتردد آنذاك أن العراق يقف مع الوحدة، وعندما زار عبد الكريم قاسم الأركان في الشام وتفقّد المعسكرات على الجبهة السورية، قيل أنّ انضمام بغداد إلى الجمهورية العربية المتحدة سيتمّ بعد الزيارة.. لكن ذلك لم يحدث.

من الطبيعي أن تتأثّر الشام أكثر من غيرها بالأحداث التي تقع في الدويلات السورية. وكان للثورة في العراق هزّة قوية استغلها كل طرف على هواه، فالقاهرة زعمت أنها لصالح مصر وكادت تقول أن الانقلاب من فعل يدها. وقال الشيوعيون في بادئ الأمر إنه انقلاب شيوعي ثم ما لبثوا أن اكتشفوا أنّ الحقيقة عكس ذلك فراحوا يردّدون بعد يأسهم أن الانقلاب لم يكن شعبياً بل عسكرياً ولهذا فهو ليس معبّراً عن إرادة الشعب.

وعرفتُ بعد حين أنّ الانقلاب لم يكن لصالح مصر وأن عبد الكريم قاسم لا يريد الانضمام إلى الجمهورية العربية المتحدة بل أخذ يطالب بالكويت، الأرض القومية التابعة للعراق. فثارت ثائرة القاهرة وردت بتحريك الاتفاقيات العسكرية الموقّعة بين مصر والكويت.

وفي صيف سنة 1958 انـدلعت الفتنة التي أهرقت فيها الدماء البريئة على أرض لبنان وراحت تنشر الذعر والإرهـاب والدمار والفتنة الطائفية، من دون أن تتضح أسباب الثورة حتى بعد أن انتهت الحوادث. أما مسبّبوها فمعروفون تماماً: جمال عبد الناصر وعبد الحميد السرّاج.

كان بعض رجال الشرطة أبدوا أمامي رغبتهم في الذهاب إلى لبنان وهم يقولون: سنسحق شمعون! وأظهروا سرورهم بالتطوّع للهجوم على لبنان وشعبه قائلين: غداً سيكون الجيش كله في لبنان، وسنحتله في غضون أربع ساعات. وعندما سألتهم عن سبب رغبتهم في احتلال لبنان، أجاب بعضهم: لكي نضمه إلى الجمهورية العربية المتحدة.

بعد أيام على اغتيال نسيب المتني تبيّن أنّ مدبّري الجريمة كانوا من الشام. وقد ذُكرت أسماؤهم في مقالات «مطّلع» وأظنه الغادري في كتابه الأسود. وكان من الممكن إختيار شخص آخر غير المتني لاغتياله. فالمطلوب أساساً عود ثقاب لإشعال الفتنة.

وفور وقوع الحادثة بدأت أسمع وأنا في المزّة أنّ مئات الشباب المسلّح يتطوّعون للهجوم على لبنان، ومن بينهم أقرباء لرجال الشرطة أكثرهم من الشمال أي حماة وحمص وحلب. وعلمت أنهم تمكنوا من إحداث ثغرة من حمص حتى طرابلس، كانت الأخيرة بالفعل إحدى المسارح الدامية الخطيرة. وانتشرت المعارك في كل مناطق لبنان، وكان الإتفاق على دعم الثورة تم مع بعض السياسيين اللبنانيين حتى قبل اندلاعها. وشهدت الحدود اللبنانية - الشامية عمليات تهريب للرجال والسلاح. وسمعتُ في المزّة أن المعركة لم تحقق في النهاية الأهداف المرجوة منها. فقد كانوا يترقّبون وقوع لبنان في أيديهم بين ليلة وضحاها. ثم بدأت أسمع من رجال الشرطة عبارات التذمّر والتأسّف على فقدان أقربائهم الذين سقطوا في المعارك، وقالوا إنهم لم يدركوا بعد لماذا قامت هذه المعركة بالفعل! وجاء تغيّر المواقف نتيجة انكشاف حقيقة الوعود الكاذبة المعطاة لهم.

كانت الحجّة انتقلت من اغتيال نسيب المتني إلى موضوع التجديد للرئيس كميل شمعون.

مواقف القوميين الاجتماعيين التي أنهت معركة لبنان لصالح الوطن كانت إشارة خزي وعار على جبين المتآمرين ضد أبناء أمتهم. لكن ويا للأسف ما زال هؤلاء في رئاسة الحكم. ورحت أتساءل: من رفعهم إلى تلك المناصب ذات المسؤوليات الجسيمة؟ هل هو الشعب؟ ولماذا؟ أيُغلب على أمره في كل دورة؟ الا يستطيع أن يقول كلمته الحاسمة؟ أليست الكلمة له في نهاية الأمر؟ فوا أسفاه على من يحفر لأبناء وطنه هوّة سحيقة سيسقط هو نفسه فيها غداً. كم هو كبير وثقيل هذا العبء الذي حمله سعاده، كم تحمّل من آلام وكم سنتحمّل نحن أيضاً، ونتابع المسيرة حتى النصر مع هذا الجيل، أو الآتي، أو الذي يولد بعده.. فكل طريق سيؤدي إلى نهاية عندما يسير الشعب عليه ونحن نأخذ بيده ونحمله إذا عجز عن السير ونفديه بأنفسنا وأرواحنا.. ونتابع المسير. والآلام، متى كانت في سبيل قضية، تهون عند ذوي النفوس الكبيرة، وتهون معها آلام الشعب. ولابد من أن ينبثق الفجر، فلكل أمة أبطال يحققون لها الانتصار.

طالت الأحداث المريرة في لبنان وغُلب المتآمرون على أمرهم. وقيل لي في المزّة «لولا مشاركة القوميين لربحنا المعركة منذ اليوم الأول، لكننا سنكسر أنوفهم»، أجبتهم: إذا كان هناك رجال فليلاقوا الرجال.

أُقفلت الحدود بين الشام ولبنان طيلة فترة الأحداث، فلم أعد أرى أحداً من أهلي أو بناتي. والحقيقة أنني لم أكن أرغب في مجيئهم بسبب تدهور الأوضاع الأمنية حيث تكاثرت الاعتداءات على المارّة والسيارات وانتشرت عمليات السلب والنهب وعمّت الفوضى البلاد وألبستها لباساً من الذعر والجريمة. ولازمني القلق والحزن خلال حوادث لبنان ومآسيها حتى إنني لم أعد أعرف طعم النوم في تلك الليالي. وصرت لا أصدّق كل ما أسمع بل أترقب مجيء الحراس العسكريين الذين أثق بكلامهم لأطلع منهم على سير الأحداث. وكانت أي حركة غير طبيعية منهم أو

أي عبارة غريبة كفيلة بأن تجعلني أفكر أن كارثة ما قد حلّت بالحزب أو ببناتي أو أنها ستحلّ بي. فعلى سبيل المثال سألني أحد الحراس ذات يوم: ما اسم ابنتك الكبيرة وكم عمرها؟ وعندما أجبته قال «مسكينة»! ورحت أُشكّك في كلامه: لماذا يسألني عن اسمها هي بالذات، وعن عمرها؟ هل يعلم شيئاً عنها لا أعرفه أنا؟ ألحّيت عليه بأن يخبرني ولا يخفي عني إذا كان حصل لها شيء. وكان المسكين يؤكد سلامة نيّته وأن لا شيء هناك سوى سؤال عابر. لكنّ خواطري لم تعرف الراحة إلى أن جاءت ناديا دبس في زيارتها الأسبوعية لأطمئنّ من جوابها ومن علامات وجهها. وهكذا استمر الوضع حتى انتهت بعد سبعة أشهر حوادث لبنان فأتت والدتي لزيارتي وطمأنتني عن الجميع. لكن بناتي تأخّرن في الزيارة لأني طلبت منهن عدم اجتياز الحدود التي بقيت عرضة للاعتداءات لفترة طويلة بعد انتهاء الثورة.

أما في الشام فكانت الإشاعات آنذاك تتحدث عن الصراع على الصلاحيات بين أكرم الحوراني من جهة وعبد الحميد السرّاج من جهة أخرى، مرّة تقول إنّ السرّاج سيبطش بالحوراني ومرّة ثانية تؤكد أنّ الحوراني سينهي السرّاج قريباً.. وما إلى هنالك. وفي الواقع كانت مؤشرات الخلاف بين الأطراف الحاكمة بدأت تظهر وتزداد تعقيداً.

ومن المعروف أنّ الأحزاب الشامية كانت حلّت نفسها عند الاتفاق على الوحدة إلاّ الحزب الشيوعي الذي رفض بناء على أوامر عليا بحجة أنه يوافق فقط إذا كانت الوحدة فيدرالية. وكان هذا أيضاً موقف رئيس الأركان حينذاك عفيف البزري، وهو شيوعي وإن لم يظهر ذلك، وكان له موقف خاص من عبد الناصر. وعلمت أنه لم يذهب مثل باقي الضباط الشاميين إلى استقبال عبد الناصر عند مجيئه إلى دمشق تعبيراً عن عدم رضاه على الوضع. ولمّا اشتدّت وطأة حملة عبد الناصر على الشيوعيين كان البزري قد استقال، وبدأ ابتعاد البعثيين وانعزالهم عن الحكم. ويقال أن الشيوعيين والبعثيين اتفقوا على محاربة عبد الناصر. وفي هذه المعركة

كان السرّاج يميل بكلّ قوّته إلى عبد الناصر ويحارب البعثيين وأصدقاءه القدامى من الشيوعيين ليحتلّ مركزاً مرموقاً عند سيّده.

في هذا الوقت كنت أرى سيارات البيك آب (الستايشن) تحمل أفواجاً أفواجاً من المدنيين إلى مركز المزّة حيث يدخلون كلهم إلى المستودع ليخرجوا ومعهم بدلات عسكرية. وعلمت أن هؤلاء متطوعون في الشرطة العسكرية، وأن عددهم يزداد يوماً بعد آخر حتى قيل إنه أصبح عشرة أضعاف ما هو مطلوب. وتردد يومها أنّ السرّاج يسعى إلى تجنيد جيش خاص من الشرطة يخضع لأوامره تماماً.

في هذه المرحلة بين العهدين الأول والثاني، جرت محاولات عديدة للإفراج عن السياسيين ومن بين الذين سعوا في هذا الإتجاه المرحوم هاشم الأتاسي رئيس الجمهورية السورية السابق. وعلمت أنه فاتح عبد الناصر بموضوعي وقال له: إذا كان لي طلب عفو فأول طلب هو لامرأة سُجنت ظلماً وزوراً ولها أطفال صغار تشردت وإياهم بعد أن قتلوا زوجها.. وهذا شيء لا يقبله الرئيس العربي وتأباه الأخلاق والأعراف والشرف العربي. فوعده خيراً. ثم أضاف الأتاسي: إنني لا أبرّئ ولدي من عمله ومؤامرته، لكن من المفيد لهذا العهد الجديد أن يكون له وجه سموح، ونحن كلنا معك.

حضر المقابلة بين الأتاسي وعبد الناصر بعض سيدات دمشق، وهنّ اللواتي نقلن هذه الكلمات إلى السياسيين في المزّة والذين بدورهم أوصلوها إليّ. وكنا جميعاً نظنّ بأن عبد الناصر يريد بالفعل أن يفتح عهد محبة لكسب مختلف الفئات.

في أواخر سنة 1959 ظهرت الخلافات بوضوح بين البعثيين والشيوعيين. استقال عفيف البزري من رئاسة الأركان وهرب خالد بكداش من دمشق. ثم اندلع الخلاف بين البعثيين وعبد الناصر فاستقال عدد من نوّاب أكرم الحوراني. كانت الشام في عهد الوحدة تُسمّى الإقليم الشمالي، وكان النّواب الشاميون في مجلس الأمة يمثّلون الإقليم الشمالي مع منصب نائب رئيس الجمهورية للحوراني الذي

انتهى في آخر مدته بأن لا يمثّل شيئاً. وكان السرّاج يتقدّم عليه في الاتصالات والسلطات التنفيذية بحيث أصبح الحاكم العملي لكن تحت إشراف عبد الحكيم عامر والضباط المصريين الحاكمين فعلياً.

وتمزّقت صفوف القوى التي أعلنت الوحدة، وفشلت في تحقيق التوازن في ما بينها. فما كاد قادتها يتفقون على تنفيذ المخطط ضد الحزب وجمع كل المكاسب والمصالح بين أيديهم، حتى تفرقوا عند توزيعها. كان عبد الناصر يخطّط لزرع بذور الخلاف بين البعثيين، وتم له ما أراد. وكذلك تشرذمت صفوف الشيوعيين في العراق وغيره. وحقّق عبد الناصر غايته في النيل من هذين الحزبين.

في خضمّ هذه الخلافات ارتاح الجو في المزّة نوعاً ما. وشعر بعض الشيوعيين بأن دورهم في الملاحقات قد حان على رغم أن الموقف منهم كان لا يزال غامضاً. وقال لي أحد الحرّاس وهو من دير الزور: دوركم انتهى وأتى الآن دورنا. أجبته: ماذا تقول، أنت شيوعي وعبد الناصر يحميكم. قال: لا، إنه لا يحمينا وغداً سنكون كلنا في المزّة! وكان هذا الحديث قبل أن يعلن عبد الناصر برنامجه تجاه الشيوعية في خطابه الشهير أوائل سنة 1960.

ولعلّ تصريحات بعض العسكريين عجّلت في عملية نقل المعتقلين السياسيين من المزّة إلى القلعة على دفعات، فكنت أراهم يركبون السيارات أفواجاً ومن بينهم عدد من رفقائنا. وتمّ نقل الجميع باستثناء السياسيين الموجودين في الشقة المجاورة، أي العجلاني والأتاسي والعمري والمالكي والأمير هايل سرور. وعندما علمت أنّ السياسيين يتم نقلهم إلى القلعة، طلبت من مدير الشرطة المقدّم حسين القاضي الذي كان يتفقدني دائماً وكان قد تسلّم مديرية الشرطة بعد هشام العظم، أن أكون أوّل من ينقل بصفتي امرأة في سجن عسكري، فقال لي: هنا أحسن لك وأنظف وأشرف. قلت له: أعلم أنّ سجن القلعة أشبه بمغارة للصوص، لكني أريد أن أدخلها فلعلها تتحول إلى مدرسة. أجاب: هذا كلامك لأنك تجهلين ما هو سجن القلعة للنساء، فهناك التي قتلت زوجها أو أخاها أو أباها، والشاردة والسافلة.. قلت:

يُحسن أن أعرف هذا بنفسي. قال: ليس لي يد في الموضوع، وإنما الأمر للذين هم أعلى منّي.

وقد تقدمت بهذا الطلب بعد أن سئمت من إرهابهم لي وتعذيبي النفسي ومضايقتي واستهدافي في كل فرصة سانحة. ومن الأمثلة على ذلك أنني كنت ذات يوم شتائي شديد البرودة في غرفتي بحدود الساعة الحادية عشرة صباحاً أقرأ في فراشي والأبواب والنوافذ موصدة، والمدفأة مشتعلة بطاقتها القصوى، إذ بانفجار هائل يهزّ غرفتي هزّاً عنيفاً بحيث تساقط الكلس من على الجدران، فنهضت مذعورة وركضت نحو الباب أفتحه لمعرفة سبب الانفجار، فوجدت الشرطي الحارس واقفاً في باب الغرفة يسألني: ماذا جرى؟ قلت له: أتسألني وأنت موجود هنا في الخارج؟ أجاب: ظننت بأن الانفجار وقع عندك! وأطليت من على الشرفة لأستطلع سبب هذا الانفجار الذي هزّ سجن المزّة كلّه، فرأيت في جلّ قريب وتحت نافذتي مباشرة أكواماً من الورق المحترق ويبدو أن قنبلة انفجرت فيها. والغريب أن معظم رجال الشرطة كانوا جالسين عند أطراف الفسحة أمام السجن لكن لم يتحرك أحد منهم! وبعد قليل أتى رئيس الحرّاس ونظر إلى الورق المحترق وقال: هذه قنبلة كانت في سلة المهملات وألقيت خطأً مع الأوراق! ثم جاء الوكيل سليمان ليتفقد الحريق، ورفع نظره نحوي وهو يقول: لا تخافي، لا شيء مهم! قلت له: هل وصل الاستهتار إلى حد القنبلة؟ وكدت لا أصدق أنهم عاملوا الموضوع بهذه الخفة، إذ من المعتاد أن يركض الحرّاس عندما يسمعون ولو طلقة رصاص واحدة لمعرفة مصدر النار فما بالك بهزّة عنيفة سببها انفجار قنبلة.. لا أحد يسرع لمعرفة السبب، ولا شرطي يتحرك من مقعده؟ لست أدري ولن أدري! كل ما حافظت عليه من تلك القنبلة الكبسولة التي وصلت حتى الطابق العلوي وسقطت أمام باب غرفتي من شدة الانفجار. وقد عرضتها على أحد العسكريين المطّلعين فقال لي إنها كبسولة قنبلة مدفع ولا خطر منها في الفلاء وإنما يكمن خطرها في الغرف المقفلة والمكتظة بالناس.. لقد حفظت هذه الكبسولة بين الذكريات الملموسة في المزّة.

والآن سأختم مذكرات فترة السجن في المزّة بآخر مؤامرة ضدي كادت تودي بي إلى الإعدام بتهمة التجسس. وسأقصّ هنا كيفية تدبيرها.

كان السياسيون في الشقة المجاورة يعلمون عنّي وعن أحوالي الصحية والنفسية، وكان الممرّض يمرّ بهم حينما يأتي لإسعافي. وكانوا ذوي ضمائر حيّة صافية يعبّرون عن أسفهم لوضعي وإشفاقهم على بناتي اليتيمات لأنهم متأكدون من براءتي. وكنت أشعر بأنهم يتفقدونني بالسؤال عني دوماً وبإرسال زوجاتهم للاطمئنان عن أوضاعي، مرّة بحجة المرور إلى شقتي مع أطفالهن في الطريق إلى الحمّام ومرّات بحجج أخرى إذا أُتيحت الفرصة.

وكانوا يعرفون أيضاً أنني أُصاب بنوبات فيُغمى عليَّ ويأتي الممرّض لإسعافي فيقفون أمام الباب ليعلموا من الممرّض عني وعن صحتي. كانت تلك أياماً سوداء لكن تضيء فيها هذه الوجوه القريبة مني. وعندما ظنّوا بأنّ الحاجب الذي يخدمنا أمينٌ كتبوا لي رسالة صغيرة ليس فيها شيء سوى أملهم بالفرج القريب عن طريق المساعي التي يبذلها رجال السياسة، وأملهم بالعفو على يد عبد الناصر. أجبتهم على هذه الرسالة بكلمة لم تحمل سوى الاطمئنان على أهلي وبناتي. وعادوا بعد مدة قصيرة يكتبون لي أيضاً في نفس الموضوع ولا شيء آخر، فأجبتهم كما في المرّة الأولى. وبعد أيام وصلتني ورقة صغيرة فيها هذه الكلمات «لقد سبق وكتبت لك رسالتين هل تسلّمتهما قولي نعم أم لا؟» طبعاً كانت هذه الرسالة غريبة، وأحسست بأنها تحمل نوايا خفية، وشككت في أن تكون من الجيران. وفكّرت بأنها جاءت من الإدارة وقدّرتُ بأن الموضوع إذا صحّ فهو من تدبير الإدارة، فماذا يقصدون سوى إيقاعي بالإعتراف بالتراسل مع جيراني. وخطر على بالي أن لا أكتب، ثم فكّرت أن أكتب حتى تكون هذه حجّة أعترض بها على إجباري على مثل هذا السلوك كوني في الإنفراد، وقد تكون العقوبة فقط منعي من التنفّس يومين كالعادة.. وكتبت على نفس الورقة، لكن لم أجب بنعم أو لا بل طلبت منهم أن يأخذوا حذرهم من الوكيل سليمان لأنه منعهم من المرور إلى شقتي، وقد يكون أحسّ بأننا نتراسل.

وأضفت أنني رأيت أولادهم يزورونهم في ذلك اليوم ولم أستطع التحدّث إليهم.. إلى ما هنالك من أمور عامة.

سلّمت الرسالة (الورقة الصغيرة) إلى الحاجب ومشيت وراءه حتى الباب الحديدي كي أراه وهو يسلّمها لهم. دخل الغرفة ثم خرج بعد قليل ليقول لي إنه سلّمها وهم يرسلون لي تحياتهم. كانت الساعة آنذاك الخامسة مساء في أواخر شهر كانون الأول سنة 1959، وحسب العادة يقفل الباب الحديدي المؤدّي إلى الطابق الأسفل، أي باب الدرج، عند الساعة السادسة فلا يدخل أو يخرج أحد سوى الحرّاس. وفي هذه الأثناء يودع المفتاح مع رئيس الحرس وليس مع الحارس المناوب في الشقة، وإذا أراد أحدنا شيئاً ضرورياً يستدعي أن يُفتح الباب يُنادى على رئيس الحرس كي يفتح لنا. هذه كانت العادة في السجن حيث تقع المسؤولية على شخص واحد فقط ولا تبقى المفاتيح عرضة للجميع، وطبعاً يكون حرّاس الليل مسلّحين.

ولذلك استغربت بشدّة عندما شاهدت الحاجب ينزل الدرج عند الساعة السابعة مساءً، إذ من المستحيل أن يكون الباب مفتوحاً في مثل تلك الساعة وبالتالي أن يُسمح لسجين، كون الحاجب سجيناً أيضاً، بأن يغادر المكان بعد السادسة. فبدأ الشك يراودني وذهبت على الفور إلى الغرفة التي تطلّ على الإدارة، وكنت أسكنها أيضاً، ولدهشتي رأيت الحاجب في مكاتب الإدارة يتكلّم مع ضابط ورقيب وشخص آخر لم أعرف هويته. فأدركت عندها أنني وقعت في خديعة. ولكن ماذا يكون في تلك الورقة حتى تُعطى هذه الأهمية؟ قد يستحقّ موضوع المراسلات عقوبة ما لكن هل يستدعي الاهتمام من قبل الضابط؟

عاد الحاجب إلى الطابق العلوي فانتبه إلى أنني راقبت تحرّكاته، قلت له: لقد رأيتك وأنت تُخادعني، لكن ماذا سيجدون في رسالتي إن أوقفوها؟ أجاب: معاذ الله لم أعطهم أي شيء، والرسالة سلّمتها إلى السياسيين! بعد الساعة الثامنة عاد ونزل إلى الطابق الأسفل لكنه هذه المرّة حمل قبقابه بيديه حتى لا أحسّ به.

وشاهدت في الإدارة ضابطين لا أعرفهما قابلا الحاجب وأخذا يكرّمانه بالسكائر ويربّتان على كتفه. وعندما رجع إلى الطابق العلوي أخبرته أنني كشفت لعبته. ولا يهمني أبداً هذا التآمر! أجاب: .. وأنا حر في أن أفعل ما أشاء.

بعد الساعة التاسعة حضرت سيارة جيب عسكرية ونزل منها ضبّاط ذوو رتب عالية لم أتبيّن أحداً منهم بسبب ضآلة النور وتوجّهوا فوراً إلى مبنى الإدارة. ويبدو أنهم إستدعوا الحاجب الذي عاد مرّة أخرى إلى الإدارة وأخذ يتحدث معهم بحماسة وكأنه «مكتشف أميركا». لكنني أدركت عندها خطورة الموضوع، وأنه شرك نُصبَ خصّيصاً لإيقاعي في تهمة زور. فقد يكون الطرف الآخر، أي كاتب الكلمات الأولى، أحد اليهود الموقوفين في السجن على الحدود، وربّما صاغوا له هذه الرسالة كي يتهموني بأني أتراسل مع اليهود فيلصقوا بي تهمة باطلة ويعدموني.. من دون أن يدري أحد باللعبة، إذ عرفت في وقت لاحق أن كاتب الكلمات الأولى هو ضابط يهودي موقوف في المزّة. لا أخفي الصدمة العنيفة التي عشتها من جرّاء هذه المؤامرة. ألم يكفِ حتى الآن ما تآمروا به وما نفّذوه في غضون هذه السنوات الطويلة؟ لكن لماذا؟ لماذا ملاحقتي أنا بالذات ومحاولة القضاء عليَّ أنا بالذات، والكل يعرف أنني لم أتحمّل في الحزب مسؤولية كبيرة وكنت أمثل بالنسبة إلى رفقائي والمواطنين شخصية معنوية فقط؟ وحتى إذا قضوا عليَّ فلن يعرقل هذا سير الحركة. إنهم يعلمون كل ذلك وأكثر، فبعد استشهاد الزعيم رأوا بأم أعينهم كيف انطلقت الحركة من الطوق الذي فرضه أعداؤها حولها وانتصرت عليهم واحداً واحداً.

كانت هذه الحادثة أصعب تهمة على نفسي وأصعب طريقة للموت.. الاتهام بالخيانة والتجسس! يا له من دماغ جهنمي لم يعش إلاّ في الظلام ولم يتحرك إلاّ للتآمر على الأبرياء. فأين لذة هذا الانتصار؟

آويت إلى فراشي واستندت على وسادتي بينما كل خلية في جسدي تنتفض ودقات قلبي تتسارع بشكل مجنون. آه ما أتعس الانفراد في الظلم والظلام، فلا أحد سيعلم بعد موتي حقيقة المؤامرة التي حيكت ضدي.

وبقيت أفكّر بكل كلمة كتبتها، وماذا سيُعلّقون عليها. وتصوّرت نفسي في المحكمة أمام جلاّديّ، ورحت أجيب في ذهني على كل سؤال يمكن أن يُطرح عليّ وأستعيد الكلمات التي كتبتها، وكيف أني لم أقصد منها سوى القول إن السجن وضع حواجز بيني وبين جيراني المعتقلين ولذلك ذكرت اسم الوكيل. غير أني لم أكن لأطمئنّ إلى هذه الأفكار فأعود أستعيد الكلمات ونفسي مضطربة بشدة.

بلغت الساعة العاشرة والربع مساء ولم يأتِ أحدٌ لتأمين الباب، فشككت في الأمر ودعيت الحارس قائلة له: تستطيع إقفال الباب فأنا لا أريد شيئاً. أجابني: أعرف ولكننا لا نريد إقفال الباب الآن. وأدركت عندها خطورة الموقف. واستمرّ الوضع حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً حينما وصلت سيارة المحكمة وقفز منها الرقيب صارخاً بالشرطي المناوب أمام باب غرفتي: أقفل الباب وتعال بالمفتاح. ردّ الشرطي: هل أُنزلها معي؟ أجابه: كلاّ. فلا شيء مهم. إطفئ الضوء وانزل. وهكذا انتهت تلك المؤامرة، وأعتقد بأنّ الكلام الذي كتبته لأصف موقف الوكيل سليمان في كل ما يتعلق بالوضع بين الشقتين لم يترك مجالاً للشك في أنّ الموضوع محلّي بين السياسيين وبيني.

هذا كان آخر حادث مهمّ في المزّة، لكنه كان كافياً لأن أتّخذ تدابير أنهي بها هذه المؤامرات الدنيئة وقررت أن لا أفسح لهم المجال أكثر لان يقدموا على إعدامي بتهم مزورة خبيثة، بل أفضل الموت وأنا نظيفة من مؤامراتهم، فانزويت في غرفتي لا أتحرّك من فراشي ولا أتكلّم ولا أشارك أحداً في أي شيء ورفضت تناول الطعام والماء.

بقيت على هذه الحال ثلاثة أيام كان الحاجب يأتي خلالها ويترك الطعام ثم يغادر ليعود بعد قليل فيرى أن كل شيء ما زال كما هو، فيذهب إلى المدير ويخبره ثم يعود مرّة أخرى لتفقّد الوضع. وفي الليل يأتي المعاون ليسألني لماذا لا أضيء النور، ولماذا لا آكل، وهل أنا بحاجة إلى الممّرض؟ فأجيب: كلاّ، لا أريد النور ولا الطعام ولست مريضة أو مضربة عن الطعام، بل أنا غير جائعة. ويذهب ليعود في

اليوم التالي مكّرراً الكلمات نفسها، وأنا أصرّ على أنني في حالة جيدة ولا أريد شيئاً. ولمّا فشل في إقناعي طلب من المدير أن يتدخل. لكن المدير لم يأتِ إليّ مباشرة بل وقف بعيداً يراقب المعاون وهو يكلّمني. وحدث في آخر ليلة أنّ إحدى السيدات لم أعرف هويتها، جاءت إلى المزّة. وعند منتصف الليل سمعت بوضوح طرقات حذاء نسائي وصوت الشرطي يقول لصاحبة الحذاء: لا، هذا غير مسموح به يا مدام. كان صوت هذه السيدة خافتاً فلم أتبيّنه لكنني سمعت رئيس الحراس يقول: دعها، لا بأس. أجاب الشرطي: تريد أن تدخّن؟ فقال له: لا بأس. كانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وخشيت أن تكون هذه السيدة هي ناديا دبس ولعلّهم يريدون إيقاعها في شراكهم بعد أن فشلت المؤامرة الأخيرة. وانشغل فكري في هذا الشأن. فكيف أستطيع معرفة ما إذا كانت هي ناديا أم لا؟ قرّرت المجازفة بموقفي حتى أريح نفسي من عناء ذلك القلق، فعمدت في صباح اليوم التالي إلى استغفال الحارس وفتحت الباب بين الشقتين وركضت نحو الغرفة الخالية الموجودة قرب غرفة السياسيين ورحت أطرق على الباب بقوة وأسأل عمّن في الداخل. فوجئ الشرطيّ بتصرّفاتي هذه واعتقد بأني فقدت عقلي، فراح ينادي على رئيس الحرس وفي الوقت نفسه يرجوني العودة إلى غرفتي، فقلت له: افتح هذا الباب. ففعل.. وكانت الغرفة خالية! عدت إلى غرفتي خائرة القوى، إذ إن مرور ثلاثة أيام على انقطاعي عن الأكل والشرب والنوم أنهك قواي وأعصابي فلم أتمكن من الوصول إلى فراشي ووقعت على الأرض من الإعياء. قدّم لي المعاون والممرّض الإسعافات اللازمة، ثم عاد المعاون بعد ذلك ليقول لي: إرتدي ملابسك ونحن سنجمع أغراضك، أنت ذاهبة إلى القلعة.

هنا تنتهي مأساة سجن المزّة الكبيرة والطويلة كأنها استغرقت العمر كلّه. في القلعة تعرّفت إلى المرأة التي جاءت إلى المزّة في تلك الليلة الأخيرة ولم تبقَ فيه سوى ساعات ثم أُخلي سبيلها. كان سبب اعتقالها أنها ضربت أحد الضباط، وهي صاحبة سوابق في الحياة المنحرفة.

من أهم الأحداث الأخرى التي وقعت أثناء وجودي في المزّة خطاب خروتشيف الخطير الذي أدان فيه جرائم ستالين، والذي على أثره عمدت الحكومة السوفياتية إلى إزالة ضريح ستالين وتماثيله. ثم كان إطلاق القمر الاصطناعي الروسي الذي كاد يذهب بعقول الشيوعيين في الشام من شدة الفرح فعدّوه انتصاراً حربيّاً على العالم وانتصارا خاصّاً لهم في الشام. لكن عندما أُطلق القمر الاصطناعي الأميركي هبطت حرارة الحماس بعد أن أصبح القمر الاصطناعي شيئاً عادياً.

الفصل الحادي والعشرون

هذه الصفحة لبناتي الثلاث. لم أجرؤ على ذكرهنّ كثيراً وأنا أسرد هذه الوقائع الشنيعة المشوّهة. لهنّ في نفسي مكان أعذب من العذوبة وأصفى من الصفاء،فقد تختلط أسماؤهنّ وعذوبة التحدّث عنهنّ وعن براءتهنّ بالأحداث المشؤومة والنفوس المشوّهة! وكان فكري يبعدهنّ خلال التحدّث عن المأساة التي عشتها ورفقائي في تلك الأيام.

أول مرة واجهت بناتي بعد اغتيال المالكي كانت في أول جلسة في المحكمة. لا أخفي أنني بكيت بحرقة عندما رأيتهنّ، وأنا أدرك أن وراء هذه الأحداث أمور خافية عنهنّ وهنّ يتصبّرن بشعور من يحمل قضية هي رمز التضحية والعطاء. يأتين إليَّ والابتسامات على شفاههنّ يقدّمنها لي هدية من صفاء أنفسهنّ. وكنتُ أعلم أنّ الآلام التي يشعرن بها عميقة وبعيدة الغور بُعد والدهنّ عنهنّ. وما كان بإمكانهنّ أن يجبنّ أو يشتكين وقد تلقّين العبرة والدروس منذ صغرهنّ من وقفات الزعيم في صراعه من أجل أمتّه.

توقّفت عن رؤيتهنّ طيلة مدة المحاكمات. لم أُردْ أن أجرح أنفسهنّ وهنّ يعلمْن أنّ أمهنّ لم تقدم يوماً على أي عمل، فكيف سيكون انعكاس هذه الوقفة على أنفسهنّ في السجن؟ سأنتظر حتى ينتهي التحقيق ويعود الحقّ إلى نصابه ويُخلى سبيلي، خصوصاً وأن المؤشّرات على براءتنا بدأت تظهر على منبر العدالة وكنا متأكدين من أنّ الإفراج عنّا سيكون قريباً.

ولكن لا أحد يشعر كيف كانت صورهنّ ترافقني، وما أجملها من صُورٍ. أحلام اليقظة تأخذني إليهن ساعات طويلة أسوح وإياهنّ في البيت وطيفهنّ معي: ها هنّ

ينهضن من الفراش ويسرعن إلى الاغتسال وارتداء الملابس، فهل يتذكرنني؟ نعم، كنت وإياهنّ، أسرّح شعرهنّ وأجدل لهنّ الضفائر وأجلس معهنّ للإفطار وإعداد الزوادة للمدرسة والاستفسار عن كتبهنّ والقبلة الأخيرة قبل الذهاب، والعناق الطويل والقبلة الأخيرة من الصغيرة راغدة.. راغدة صغيرتي التي لم تتعرّف على والدها ولم تنعم بظل أمها، فقد تركتها وهي في الخامسة من عمرها، وخيّم اليُتم في بيتنا واستوطن الحزن في قلوبهنّ الرقيقة رقة الطير الحالم! أستعيد مناداتهنّ: أمّي، تعالي نامي قربي.. أمي، احكي لي حكاية حتّى أنام!

كم كانت سعيدة تلك الساعات، بل لم يكن هناك أسعد منها. هل تنتظرن أن آتي إليكنّ؟ نعم أراكنّ تتذكّرن وعيونكنّ تدمع. لو تعلمْن كيف كانت الليالي تمرّ وأفكاري معلقة عندكنّ. هل تخفين دموعكن وأنا أسكبها ملء مقلتي، فلا شاهد ولا شريك هنا، وأحسّها نبيلة تلك الدموع لأنها تنسكب في ذكراكنّ! كل شيء في جواركنّ كان عظيماً بالنسبة إليّ. والساعات السريعة التي خطفت منّا الفرص السعيدة أيضاً كنت أشعر بأنها لو عادت لما خسرتُ ثانية واحدة منها.

أنتنّ تذهبن إلى المدرسة وأبقى في البيت الفارغ وفكري خالياً من صوركنّ فأعود إلى خزاناتكنّ المليئة بفساتينكنّ الصغيرة ألمسها بيدي وأضعها على وجهي. إنها عزيزة على قلبي، فخيالكنّ وصوركنّ مزروعة فيها. أتركها وأذهب لأحمل كتبكنّ، نعم كتبكنّ وأنا في السجن: هذا لصفية وذاك لأليسار. كيف علامات صفية؟ وهذا دفتر راغدة الصغير وتلك أولى كلماتها التي ربما بدأت تركّب منها جملاً أكبر. وأليسار حبيبتي، أليسار التي كانت تقف على الشرفة تنتظر عودتي في حال كنت خارج البيت أثناء رجوعهن من المدرسة، وتردّد بصوت مسموع: يا الله أرجع إلينا أمنّا. وحتى الكراسي التي كنتنّ تجلسن عليها هي قطع عزيزة على نفسي، فأذكر كيف كانت كل واحدة منكنّ تجلس عليها. الآن ستأتين إلى البيت وقد تغيرت أشياء كثيرة، وغلّف الحزن قلوبكنّ الصغيرة. وستدركن أنّ أناساً شوّهتهم الأهواء الشخصية يترصّدون بكنّ. نعم ستعلمن أن طرقات الباب في الليل المظلم

هي علامة خطر ومؤشّر إلى مجيء عسكر ووجوه حمقاء وأعمال تخريب. رأيتن هذا كله بعيونكنّ المتسائلة ولم يكن في بيتكنّ رجل يحميكنّ وأنتنّ في عمر الطفولة، لا أب ولا أخ، فقط جدتكنّ وخالتكنّ تحميانكنّ من الأقدار وتنتقلان بكنّ من مكان إلى آخر عندما كانت الأيدي المجرمة تتحرّك لتفتك بالشعب، وكنتنّ طفلات «كبيرات» تشاركن شعبكن آلامه بصبر وحرمان.

.. وصدرت الأحكام. يا للعار! ويا لهول الجريمة! أناس برّأتهم أعمالهم ومع ذلك يُحكم عليهم. العدل يقول إنهم أبرياء والقانون يرفض الحكم عليهم، لكنّ العسكريين يحكمون ويتمادون في أحكامهم وكأن شريعة الغاب هي الوحيدة المسيطرة على مصير الشعب.

وأتيتنّ في تلك الأيام العصيبة إلى السجن ليتلاقى نظركنّ بنظري وتتساءلن عمّا عساكنّ فاعلات. ولا كلمة أمام عبيد العهد المأمورين بالتشديد والظلم والطغيان. أعينكنّ تدمع لكنّ الدمعة تختفي وراء ابتسامة كنت أفهمها وأفهم ما في أفكاركنّ من ثورات. نعم، لكن ليس لغيركن هذا الفخر. أنتنّ بنات المجاهدين المناضلين في سبيل قضية أمتهم على دربهم تسرن وتخططن لغد أفضل. في انفرادي في تلك الغرفة المنعزلة أركض إليكنّ بأفكاري وخيالاتي، فأرى أمامي، كشريط سينمائي، أشياء وأشياء كلها محببة إلى قلبي، وأتصوّركنّ في البيت الذي اخترته منذ الصغر محاطاً بالحدائق الجميلة تلعبن فيها وأصواتكنّ تتطاير في الهواء وصداها يصل إليّ وأنا أراقبكنّ من النافذة. كم سعدتُ بتلك الصور التي لم تتحقّق في حياتنا، وبقي هذا البيت الصغير المحاط بالحدائق الجميلة صورة دائمة تنتصب أمامي في انفرادي وكأنّها حاجة ملحّة لتزويدي بالأمل.

كيف أصبر على بعدكنّ عنّي أشهراً طويلة؟ ألم تُمنعْ عنكن الزيارات خارج الدوام الرسمي للسجن بينما أنتنّ في مدارسكنّ بلبنان فلا تستطعن تعطيل المدرسة والحضور لزيارتي؟ ألم يكن لكل سجين الحق بزيارات خصوصية عندما يكون أهله وأقرباؤه بعيدين عنه، وكانت هذه الزيارات دوماً في المزّة.. إلاّ أنتنّ فقد حرمتنّ من

هذا الحقّ فكانت أعياد رأس السنة والفصح هي الفرصة الوحيدة لزيارتي إذ إن يوم الثلاثاء يكون من ضمن هذه الفرصة! وكنت أجلس في انفرادي أعلل نفسي بذكركنّ، أعمل أشياء تتعلق بكنّ، أطرّز قطعاً لكنّ وأزيّنها بالألوان الزاهية التي أصبحت أفضلها على غيرها بعكس ذوقي السابق، وكنت أرى فيها تعويضاً عن الظلمة التي تكتنفني، وأشعر أن التعبير عن الفرح الذي أريده تحمله هذه الأشغال اليدوية لعلّها تصوّر استمرار الصلة بيننا. وعندما تتسلمنها تبهجكنّ فيكون في ذلك بهجة لي.

كانت ساعات ظلام حالك تفاجئني في انفرادي وترسم في مخيّلتي صوراً جهنمية تتضخم ساعة بعد أخرى وتضغط على نفسي فأشعر وكأن كارثة كبيرة ستحلّ بكنّ أو مؤامرات ظالمة تُخطط لكنّ، فأهب من فراشي مقطوعة الأنفاس وأحسّ بالحاجة لأن أركض إليكنّ أحميكنّ من كل الأخطار.. لكنني أدور في هذه الغرفة ضمن جدران أربعة، أهجم عليها لتحطيمها فترتدّ يداي الضعيفتان من الألم. وتصبح التجربة أقسى وأشد إيلاماً عندما أضرب الجدران برأسي: لماذا هذا الغدر وهذه الخيانة؟ من المستفيد؟ والمال الذي يُقبض لبيع الوطن والقضية المقدّسة هل سيفيد أبناءهم في المستقبل؟

وابتدأت أبحث في تلك الغرفة عن شيء يهوّن قساوة الجدران الصمّاء فوجدت أن الطبيعة تمد يدها نحوي وتقول لي إنّ في الدنيا دائماً أمكنة ينتشر فيها عطاؤها، وها هي أغصان الحور التي كانت يانعة عندما نُقلت إلى هذه الزنزانة تنمو وتمتّد عالياً وكأنها تريد أن تصل إليّ لترافقني بصمتها وتبهج نفسي وتعطيني نفحات من الأمل. وكنت أجد فيها سلوة لساعات، أراقب أغصانها من وراء نافذتي فيذكّرني حفيفها بحفيف الأشجار التي كنّا نحبها ونتأمّلها سويّاً حينما نذهب في نزهة إلى البرية. كم يريّحني لونها الأخضر! وعندما أقف أمام النافذة أتأمل مواكب العصافير الفرحة، كنت أنسى هذه الجدران الموحشة وأُحلّق معها في عالم بعيد، في عالم أحلامي، وكنتم دوماً معي ومع الزعيم في ذلك العالم.

كنت والعصافير نستيقظ مع ساعات الصباح الأولى وعند الغروب نودّع النهار سويّاً، ذلك النهار الذي قد يكون مليئاً بأحداث سيّئة أو أطلّت فيه بعض نسمات الأمل.. فحتى في أشدّ الظلمات حلكة يطل نور الفجر الذي يحمل الأمل دوماً مهما كانت الشدائد خانقة. هذا هو الأمل الذي ينبثق من أعماق الإنسان ومن حبّه للحياة. أتعلمون كم من أمهات العصافير غرّدت على أغصان أشجار الحور تلك؟ في كلّ ربيع كانت تبني أعشاشها فيها، وما أعذب أصواتها وهي تعبّر عن بهجتها في ذلك البناء الأمومي. فراخ تحت أجنحة أمهاتها، كانت زقزقات الفراخ ورؤوسها تعلو عندما تأتي الأمّ بالغذاء، فتهتف لها وتضع في مناقيرها الصغيرة الطعام لتختلط زقزقة الأم الفرحة بأصوات الفراخ القلقة.

هذه الصور عاشت بقربي، عاشت معي وكأنني عشت أنا معها. أتفقّدها صباحاً ومساء فأرى عند زاوية النافذة في الخارج عشّاً تحميه الأمّ برهة ثم تذهب ليأتي الأب فيحميه برهة أخرى، وكأنّهما إطمئنّا إلى عزلتي فالقضبان الحديدية والشبك الخشبي لم تفتح قط. وحدث ذات يوم أن دعيت الوكيل سليمان، وكان يتفقّدني في طلب ما، لكي يشاهد هذا المنظر. وأدخلت إصبعي من بين الشبك وحرّكته كأنني أريد الوصول إلى العش، فما كان من الأم والأب إلاّ أن حلّقا من شجرة الحور أمام النافذة وهما يصرخان ويرفرفان حول إصبعي وكأنّهما يريدان مهاجمة هذا العدوّ الذي يهدّد فراخهما. وقلت له: هذه هي الأمومة في عالم الطيور فماذا تقول عن أمومة الإنسان العاقل؟

الفصل الثاني والعشرون

انتقلت إلى سجن القلعة الموجود قرب سوق الحميدية في دمشق، وهو قلعة تاريخية تعود إلى زمن الفتوحات العربية وعصر الحملات الصليبية. خُرّب قسم منها ولا زال القسم الآخر يأوي مئات السجناء. دخلت المهجع المعتم الكبير وفيه تتدلّى لمبات خفيفة النور وكأنه بالفعل مجرّد مغارة. مساكين هاتيك النسوة وأطفالهنّ كلهم في هذا المهجع المظلم الذي يدخله النور من طاقة صغيرة في السقف. والحمّام موجود داخل المهجع يستره نصف باب فقط. وعندما دخلت ظننته ممّراً وسرت في وسطه أبحث عن باب للخروج اعتقاداً بأنه يؤدي إلى السجن، لكنهم قالوا لي: هذا هو سجن النساء.

رفضت إدارة السجن طلبي بوضعي في غرفة خاصة كوني سجينة سياسية، بل أفرغوا الغرفة المخصصة للسياسيين من السجينات المحظوظات ووضعوهنّ في المهجع الكبير ثم ملأوا الغرفة الصغيرة بحطب وأدوات عتيقة قبل مجيئي إلى السجن بليلة واحدة. وتحمّلت مصيبتي الجديدة لأن هذا كان طلبي في الأساس. وأُعطيتُ زاوية في المهجع قيل لي إنها كانت زاوية السيدة أم خلدون، زوجة فوزي الغزّي، طيلة فترة سجنها (عشرون سنة ونيف)، وكانت محكومة بالسجن المؤبد بتهمة تسميم زوجها الذي تولّى منصب رئيس وزراء سورية قبيل موته.

كانت قواي منهارة بعد الأيام والليالي الأخيرة في المزّة . وفي ثاني يوم ثلاثاء، المخصص لزيارة الأهالي، كنت واقفة أمام الباب الحديدي أتحدّث مع ناديا دبس بعد أن كانت قد ذهبت إلى المزّة لزيارتي ولم تجدني وعَلِمتْ أنني انتقلت إلى القلعة، شعرت بأنّ قدميّ ما عادتا قادرتين على حملي وأحسست برجفة عنيفة في

ركبتي بينما ناديا تقول لي: «بقيتِ تحركين الأمور حتى انتقلت إلى القلعة» وكانت كلماتها هذه آخر ما سمعته إذ فقدت وعيي وسقطت على الأرض. أسرعت السجّانة «أم ياسين» وفتحت الباب وأخرجتني إلى الباحة أمام القاعة حيث استعدت وعيي، فشاهدت ناديا دامعة العينين وهي تقول لي: لماذا انتقلت؟ أجبتها: لم أعد أطيق البقاء هناك بعد أن حطّموا أعصابي. وكان آخر فصل من مأساة المزّة أنني اعتقدتك موقوفة هناك! وحتى الآن لا أعرف ماذا كانت ناديا تقصد بقولها وهي منفعلة: «بقيتِ تحركين الأمور حتى انتقلت إلى القلعة»؟

ها هو السجن مزدحم بنساء من شتى المناطق وشتى المشارب، ولكل واحدة قصة أغرب من أختها. ومنذ اليوم الأول لوصولي شعرت وكأني جئت في مهمّة إصلاحية لهذا السجن. إذ ما معنى وجودي بينهنّ؟ هذه تدور حولي لتراني عن كثب، وتلك تتبجّح بعدم اكتراثها بالوزراء (ظنّاً منها بأني زوجة وزير)! أطفال صغار ترفعهم أمهاتهم على أكتافهنّ، ووجوه كثيرة تنبئ عن أنه ليس للحياء مكان هنا. لم يكن عددهنّ يتجاوز الأربعين مع تسعة أطفال بعضهم في الثالثة من العمر. كانت أحوالهن الشخصية تتراوح بين الفقر والنعمة، النظافة والقذارة. في المهجع حورانيات بلباسهنّ الريفي وفلسطينيات بثوبهنّ الإقليمي وكرديات بزيّهن المزركش، وفي بعض الأحيان تأتي نوريات وبدويات وتركمانيات عدا عن السوريات من مختلف أرياف الشام، وكان بينهنّ عدد كبير من ذوات الأخلاق المنحرفة وهنّ ينعمن بالملابس الحديثة الفاخرة.

إستقريت في أنظف زاوية في ذلك المهجع الذي كان يعجّ بالنسوة والأطفال وسط صراخ من الكبار والصغار، ولم يكن فيه سوى سريري الذي وضع خصّيصاً لي وسرير السجانة أما الأخريات فكنّ في الليل يضعن فراشهنّ على بساط وفي النهار يرفعنه إلى إحدى زوايا القاعة.

بعد أن استرحت على سريري من عناء المرض والتعب، قمت لأرتّب أغراضي فوجدت أنّ معظمها محجوز لأنها ممنوعة في القلعة. وطلبت من إحدى السجينات

أن تعدّ لي فنجاناً من الشاي تناولته مع قطعة خبز كانت أول طعام أتذوّقه منذ أربعة أيام.

ولمّا تجاوزت الصدمة الكبيرة بسبب الفارق بين المزّة والقلعة، رحت أجول ببصري في تلك القاعة فلم أجد فيها أيّ شيء آخر يسترعي النظر، لا شيء سوى الجدران الضخمة التي كانت القلاع القديمة تمتاز بها، وطبعاً السجينات في أعمالهنّ وكلامهنّ وحياتهنّ الروتينية. جاءت إليّ إحدى السجينات، وهي أرمنية، وقالت: «أنا أعرفك، أنت لبنانية وعندكم حزب كبير هناك في لبنان»، وواظبت على زيارتي يومياً لتسأل عن إحتياجاتي. والتف الصغار حولي لينظروا إلى هذه السجينة الجديدة، فحملت واحدة منهم بين ذراعيّ وتأملت في ملامحها. كانت ذات وجه جميل لكنها تحتاج إلى العناية والنظافة. هذه الطفلة واسمها فايزة وأختها الأكبر سناء ترددتا عليّ دوماً، كنت أعطيهما بعض الحلوى والفاكهة وأغسل وجهيهما وأيديهما. وانطلاقا من مثل هذه المعاملة وجد احترامي طريقه إلى السجينات. كنت أُعامل كل الأطفال في المهجع على مستوى واحد، ووجدت سلوى وعزاءً في محبتهم لي حتى إننا كنا نلعب سوياً ألعاب الأطفال.

والدة الطفلتين وردة جلبوط كانت محكومة بالإعدام ونُفّذ فيها الحكم شنقاً في القلعة، فذهبت الطفلتان بعد أن أُعدمت أمهما ولم أعد أراهما. حدث هذا بعد أشهر على نقلي إلى القلعة. كانت تلك التعيسة في السابعة والعشرين من العمر رشيقة القوام طويلة القامة، لها عينان خضراوان ومنظر حسن. جريمتها كانت قتل امرأة بريئة عن سابق تصوّر وتصميم. كانت جناية شنعاء بحيث أنها لم تستطع التخلّص من حكم الإعدام على رغم أن بعض جهات النيابة العامة طلبت تخفيض الحكم عليها إلى المؤبد.. لكن عبثاً، فقد نفّذ بها الإعدام شنقاً في القلعة مع عشيقها خليل نهرا الذي هو في الوقت نفسه شقيق المقتولة. كان الاثنان فلسطينيي الجنسية، لها أربعة أطفال وله طفل واحد.

لم تكن عملية الإعدام التي قد تحدث في معظم سجون العالم بهذه السهولة بالنسبة إليّ، فقد عشت مع تلك الامرأة التعيسة أشهراً كانت خلالها تحترمني وتقدّر كلامي وتعود إليّ بكل أمورها داخل السجن، وكنت مرشدتها في سلوكها مع رفيقاتها ومع السجانة التي كانت على خلاف دائم معها. وكنت أفكّر أن أناساً مثلها يرتكبون الجرائم، لكن المصيبة تقع على المجتمع الذي يتحمّل المسؤولية. إذ إن تلك التعيسة ذهبت ضحية أجواء عاشت فيها واشتملت على أحداث قتل وثأر دون وازع من ضمير، فأخذت من هذه البيئة أسوأ الطرق المعوجّة. ولعلّها نشأت يتيمة الأمّ بين أُناس كثرت فيهم الخطط التآمرية، فارتكبت جريمة شنعاء بقتلها شابة بريئة محدودة القوى العقلية ثم ألبستها ثيابها لتغطية هروبها مع عشيقها ظنّاً منها بأنهم سيعتبرون أنها هي القتيلة فلا يلاحقونها. إن المقاييس الأخلاقية والاجتماعية التي يتربى عليها الطفل تسيّره حتى نهاية حياته، فماذا توافر لهؤلاء الفلسطينيين التعساء، خصوصاً أهالي الغور، من تهذيب وتربية؟ ألم يبق الجاهل جاهلاً والفقير فقيراً والمريض مريضاً والمجاهد أعزل من السلاح يوم كانت فلسطين نهباً لليهود الدخلاء؟ ماذا صنعت أيدي المتآمرين الأجانب غير التخطيط المحكم؟ هذه هي الآلام التي كنت أشعر بها من جراء هذه الحادثة وغيرها من الجرائم المماثلة، وكلها من بطولة نساء عشْن الأوضاع المذكورة سابقاً.

الحياة في سجن القلعة حياة غريبة ودنيا غريبة ونفوس غريبة، والسجّانة في سجن النساء كهذا هي أيضاً غريبة التصرّف وغريبة النفس وغريبة الطباع، فالجوّ يساعد في استغلال هذا السجن مادياً ومعنوياً. قضيت في القلعة خمس سنوات كانت أيامي خلالها صراعاً في خضمّ الفوضى لتثبيت احترامي مع السجّانة «أم ياسين» ومع السجينات اللواتي كنت أكنّ لهنّ كل محبّة، وأعطف على حياتهنّ المعنوية والمادية. وأستطيع القول في نهاية الأمر إنني تغلّبت على مساوئ الوضع بالنسبة لي وللسجينات، فوضعت النقاط على الحروف في ما يتعلّق بالسجّانة ولم أتهاون معها أبداً في البرامج التي اعتادت على تطبيقها في سجن النساء لسنوات

طويلة. كان الجهل والفقر والأخلاق الشاذة هي التي تسيطر على السجينات وتسيّر شؤونهن، وبالنسبة لي أصبح وجودي بينهنّ إمّا أن أكون مُصلحة لهذه الأوضاع أو أنعزل في زاويتي أشاهد ما لا تجوز مشاهدته.

كان عليَّ أن أحبّهنّ بإخلاص وأعطيهنّ من وقتي ونفسي حتى يستوعبن ذلك من تلقاء أنفسهنّ. كنت لهنّ أختاً وأمّاً ومرشدة وممرّضة حسب الحاجة، أقف معهنّ عندما يطالبْن بحقهنّ في المعاملة اللائقة. هذه الحقوق كانت مهضومة في الماضي، والضعيف يلاقي الإجحاف لدرجة الاستزلام والإذلال، والمعاينات الطبية تتمّ عندما يشاؤون ووقتما يرغبون. وحدث بعد أسبوع من دخولي القلعة أن امرأة في العقد السابع من عمرها ماتت بعد أن مرضت في الشهر الثالث من سجنها، وهي محكومة بالسجن ثلاثة أشهر فقط، ولم يرضوا بنقلها إلى المستشفى حتى غابت عن الوعي على رغم احتجاجي الشديد بأنّ السجينات لا يتحمّلن رؤية مناظر العذاب هذه وأنّ لكل امرأة سجينة الحقّ بالعلاج في المستشفى أسوة بالمساجين الرجال خصوصاً عندما تسوء أحوالهم الصحية. وقد أضرب السجن حتى نُقلت السجينة المريضة في أواخر أيامها لكنهم أعادوها إلى السجن بعد يومين حيث ماتت.

وعلى رغم هذه الأوضاع السيئة داخل المهاجع، فقد كان لسجن القلعة حسنات كثيرة، خصوصاً في المعاملات الإدارية والعسكرية والمدنية تجاه السجناء وتجاه أهالي السجناء، وكذلك في حدود الإساءة للسجناء لأن كل شيء هنا يُعلن ويُنشر على نقيض ما يحدث في المزّة الذي تغلّفه السرّيّة والكتمان.

ولابد من القول هنا أنه على رغم المشاهد المؤذية التي ذكرتها عن سجن النساء في القلعة، فلقد طاب لي فيه النوم بهناء لأول مرة منذ أن سجنت.. لماذا؟ لأنني أصبحت لأول مرة محاطة بشهود عيان، وقد يصبح لي الحق مثلهم في مقابلة أولادي وغير أولادي، وشعرت بأن الاستهداف الذي تعرّضت له طيلة مدة سجني في المزّة زال، وقد يكون زال نهائياً إلى حدٍ ما!

إذن ليس من الضروري أن أتذمّر من وضع هذا السجن بعد أن أراح عذابي النفساني الذي لاحقني طويلاً في المزّة ، وذلك حسب القول المأثور: جنّة في الذل لا أرضى بها وجهنّم بالعزّ أفضل منزل.

بدأت أرى الناس يأتون ويذهبون إلى الشبك لمقابلة أهاليهم في يوم الزيارات، الشيء الذي عكس في نفسي ارتياحاً شديداً بعد إصرار السلطات على منعي من رؤية الناس أو التحدّث مع أي إنسان غير ناديا دبس، وكذلك بناتي كل أربعة أشهر. ومن خلال تنقل السجينات ذهاباً وإياباً إلى المحاكم المدنية أصبح باستطاعتي معرفة أشياء كثيرة عما يجري في هذا العالم خارج القضبان. كل يوم تأتي سجينات جديدات وتخرج أُخريات في حركة مستمرة، أراهنّ وأحدّثهنّ وأعرف منهنّ بعض الأشياء الملحّة عن أجواء البلاد. وشيئاً فشيئاً انفتحت في هذا السجن المغلق القاتم نافذة انشراح نفسي بغض النظر عن كل سيئاته. وعلى رغم قذارة المهجع فقد انعزلت في زاويتي أحرص على نظافة مكاني، وبالقرب مني امرأتان هما السجّانة وسجينة أُخرى محترمة ونظيفة. وهكذا استطعت الحفاظ على هدوء تلك الزاوية ونظافتها فلا يقصدها أحدٌ إلاّ إذا كان بحاجة إليّ. وعايشت الحياة اليومية معهنّ على رغم ابتعادي عنهنّ، فهذه تشتم وتلك تقذف القبقاب على جارتها وأخريان تشتبكان في عراك بالأيدي وشدّ الشعر، فتتدخل السجينات كل واحدة منهن تنحاز إلى طرف حتّى أضطرّ أحياناً إلى التدخّل ووعظهنّ بالتي هي أحسن، فيتفرّقن لتقوم بعدها حفلة غناء ورقص.. وكأن هذه العادة، العراك ثم الرقص، أصبحت من مستلزمات السجن. وكانت العلب المعدنية الفارغة أو الطناجر تستخدم للإيقاع الموسيقي المصاحب للرقص.

كانت عين أم ياسين تراقب الحركة في هذا السجن الذي أصبح منطقة نفوذ وسلطة أبدية لها. كانت تسهّل أموراً كثيرة في ما يختصّ بحاجات السجينات فتجلب لهنّ ما يردن من ملابس ومأكولات وغيرها، ولكن تحت إشرافها هي وحدها فقط.. وطبعاً مقابل ثمن! وتضع العيون لتتجسّس لها عمّن تريدها أو لا تريدها،

ولمعرفة ماذا تفعل السجينات حتى إذا ما أحسّت بأن شيئاً قد يمسّ مصالحها أو نفوذها أعلنت عليه الحرب ووجّهت جواسيسها لمحاربته. أوليست هذه أساليب السجون؟

كان عليّ أن أفرض احترامي بين هاتيك السجينات الخاضعات للوضع الراهن، فمنهنّ المحظوظة التي تملك المال الكافي لتصرف على شؤونها. ومنهن المنبوذة التي لا حول لها ولا قوة بل عليها أن تخدم أم ياسين لتدعها تعيش. هذا الوضع في سجن النساء بالقلعة كان يستدعي مني اتخاذ خطوة حازمة تجاه الموظفين، وكذلك السجينات اللواتي أردت من جهة مساعدتهنّ في تحسين أحوالهنّ وأخلاقهنّ ومن جهة أخرى فرض احترامي عليهنّ والابتعاد عن معشرهنّ.

لجأت إلى زاويتي أتأمّل نواقصهن في الحياة اليومية سواء من جهة المعيشة أو الترفيه أو النظافة أو الأخلاق. ورحت أتسرّب إلى تلك الحياة وأدخل في تفاصيلها من بعيد، وأترك ما يجب عليّ تركه لتفعل فيه القدوة الحسنة. كان من الضروري أن يثقن بي ويحترمنني في بادئ الأمر، ولذلك كنت أقدّم لهن العون عند الحاجة من دون زيادة في التدخل، وأصبحت الممرّضة لهنّ ولأبنائهنّ من دون قيد أو شرط وكنت أسعفهنّ بما يتوافر عندي من أدوية، وكل أغراضي وحاجياتي كانت تحت تصرفهنّ دوماً. وبعد مدة قصيرة إنتهت في السجن تجارة «بابور الكاز» وفنجان الشاي والقهوة وما إلى ذلك من عمليات استغلال وبدأت التعاون في ما بينهن، وانتظمت التنظيفات في القاعة على نطاق واسع وترتّب الوقت بحيث كنّ يقمن السهرات في الليل وينمن في النهار، وترسّخت هذه الحالة مع تشديد الأوامر بحفظ السكون ابتداء من الساعة العاشرة مساء، وكنّ تنتظرن جميعاً تصفيق يديّ لإعلان موعد السكوت والإستراحة ويتقيّدن بذلك كلهنّ. وكان هذا أهمّ نجاح بين هاتيك الضائعات المسكينات في سجن لا يعرف أيّ إنسان ما له وما عليه!

واختفت في ذلك السجن إصابات القمل بين المحكومات بعد أن طلبت من الإدارة التفتيش في رؤوسهن وتنظيفها بالأدوية اللازمة، فكنّ جميعاً متحمّسات

للنظافة وخلا المهجع من القذارات ورحن يراقبن بعضهن للتقيد بما وضعته لهنّ من قواعد النظافة.

ولكن الأمر لم يكن ليخلو من مصاعب كثيرة كنت أضطرّ لمواجهتها نظراً إلى نوعية بعض السجينات اللواتي كان من بينهنّ مستهترات بالأخلاق لا يُقمن حساباً لأحد بعد أن أفلتن من القيود الاجتماعية. لكن بعد وقت استطعت فرض احترامي عليهنّ وبطريقة تنفعهنّ مادياً ومعنوياً على رغم صفاتهنّ تلك فقد وجدت بينهنّ كثيرات من ذوات المعدن الطيب والاستعداد للتعامل بطريقة أخلاقية مع زميلاتهنّ، وكنّ تترددن عليّ بعد الإفراج عنهن. وتحسّنت معاملتهنّ معي كلّهنّ حتى أصبحن يتقبلن إرشاداتي بالطاعة والمحبة، وصرت الحكم الأخير بينهنّ في منازعاتهنّ. هذا التغيير في حياة السجن أوقعني في متاعب شخصية مع السجّانة التي رأت أن التوفيق بين السجينات لم يعد يترك لها مجالاً للتجسّس عليهن، وهي أشياء سخيفة وحقيرة. ولذلك عمدت إلى محاربتي في بادئ الأمر لكنّها انتهت بأن تستفيد هي أيضاً من مواقفي في السجن وتركت لي مسؤولية توجيههنّ داخل القضبان، وفي المقابل أعطيتها الكثير من وقتي بأعمال يدوية وغيرها من الخدمات.. ولكن كان هناك شيء واحد لم أسمح بحدوثه بيني وبينها ألا وهو إبلاغ الإدارة عن سلوكها، إذ كنت أعرف أننا موجودتان معاً على مدى طويل وعليّ أن أحلّ مشاكلي لوحدي، لهذا بقيت الخلافات التي كانت تحدث بيننا حكراً علينا فقط وأظن أنها كانت تقدّر هذا الموقف، فقد قالت عني في إحدى المناسبات «هذه المرأة تتمتّع بأخلاق لا مثيل لها».

كان من الضروري أن أذكر هذه التفاصيل الصغيرة التي لم تكن في يوم من الأيام شيئاً أساسياً في حياتي داخل السجن، لكنها كانت كل شيء بالنسبة إلى حياة السجون، فعليها تقوم راحة السجين أو عدم راحته بسبب الحرمان منها. إنها الأشياء الصغيرة التي تكوّن مجموع الساعات التي يقضيها السجين خلف القضبان، وهي التي تسمح للعوامل الخارجية بأن تفعل فعلها في السجن.

مرضت عدة مرات وأُهملت عدة مرات في بادئ الأمر مثل كل السجينات، لكن بعد وقت قصير تبدّلت هذه المعاملة معي ومع كل السجينات إذ لم أعد أقبل بالوضع المحزن الذي يسود السجن من حيث المعاينة الطبية، خصوصاً أن الموظفين كانوا يتركون المساجين حتى آخر ساعة من ظهور الخطر على حياتهم، وكانت العبارة السائدة في سجن النساء «من يموت إلى البالوعة»! وقد توقّف هذا الكلام بعد أن بات أصحابه يلاقون حساباً دقيقاً، ووُضع حدّ لتجاهل واجباتهم.

عندما انتقلت إلى القلعة كان العقيد عارف قنّوت هو مدير السجن. كان سلوكه معي واحترامه لي كبيرين، وكنت على يقين من أنه صادق في أعماله وأقواله. كان رجلاً حرّاً في تفكيره لا يأبه لأحد ولا يتأثر بالضغوط، ويحاول أن لا يهضم حقوق المساجين خصوصاً النسوة. كنت أطلب منه إدخال التحسينات اللازمة في السجن فيفعل أحياناً لكن في أحيان أخرى كانوا يقفون في وجهه كما حصل في عهد عبد الحميد السرّاج ومحمد الجراح اللذين لم يكن قنوت على وفاق معهما. وقد تأكّدت من ذلك عندما طلبنا منه نقلنا إلى مكان آخر في القلعة حتى تتاح لنا فرصة التنفّس والتعرّض لأشعّة الشمس، فقال لأم ياسين: هذا (وكان يقصد الجرّاح النائب العسكريّ العامّ) صديقك الحميم، اذهبي إليه واطلبي منه هذا الطلب.. فأنا لست صديقاً له.

وفي عهد قنوت قابلت بناتي بعد انقطاع دام تسعة أشهر بسبب حوادث لبنان سنة 1958 . كم كانت فرحتي كبيرة برؤيتهنّ ، وكم من السرور دخل قلبي عندما شاهدتهنّ بصحّة جيدة. فوجئت بنموهنّ السريع، فقد أصبحت صفية آنسة بكل معنى الكلمة وأليسار كبرت وكادت تعادل صفية بالنمو. كان عمر أليسار أربع عشرة سنة وصفية سبع عشرة سنة وراغدة في العاشرة وهي أيضاً كبرت كثيراً. رأيتهنّ وكأنني أنظر إليهنّ عن بُعد، فلم أصدّق أننا نجونا جميعاً في هذه المعارك العصيبة. وفي تلك اللحظة تحرّك في أعماقي الاعتراف بالجميل لوالدتي وشقيقتي اللتين عانتا الكثير من المصاعب والآلام النفسية حتى أوصلتاهنّ إليّ سالمات وبصحة

جيدة. جلست أحدثهنّ وكلّي لهفة لأدخل في أعماق أفكارهنّ ومشاعرهنّ. أنا أعرف أسباب قلقي عليهنّ ومن أي ناحية أتى هذا القلق. كنت أحدثهنّ لأعرف هل لا زال بناؤهنّ على ما كان عليه، وماذا غيّرت فيهنّ الأيام التي إبتعدن خلالها عني؟ كم كانت هذه الأمور تقلقني، وكم وددت لو أنهم أبدلوا سجني بالإعدام لكن بعد أن أكون قد أمضيت هذه المرحلة معهنّ وهنّ في مراحل البناء الأول في حياتهنّ. كم كانت صعبة عليّ تلك الأيام! فهل يستطيع مَنْ يحبهنّ ويحميهنّ أن يعرف بناءهن النفسي؟ وهل بإمكان أي شخص أن ينوب عن الأمّ وهنّ في ذلك العمر التأسيسي، خصوصاً وأنه ليس لكل تأسيس غرض واحد؟

تحرّكت عواطف بعض موظفي السجن عندما شاهدوا بناتي الثلاث وعرفوا بتيتّمهنّ منذ الصغر. كان مشهد لقائنا الأول مؤثراً للغاية بحيث اغرورقت عيون بعض رجال الشرطة بالدموع وهم يراقبون هذا المنظر العاطفي بحضور والدتي العجوز التي لفّ البياض شعرها وكانت تمشي بصعوبة من جراء كسر في ركبتها أيضاً. وراح هؤلاء يقولون: مسكينة هذه الأم التي تقطع المسافات البعيدة وهي على هذه الحالة حتى ترى ابنتها، فلماذا لا يطلقون سراح هذه المرأة؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟ لم أكن أطمع في الحصول على مثل هذه التعليقات من الموظفين، فبالمقارنة مع غيري كنت أُعامل بكل احترام وأفضل من الآخرين. هذا السلوك كان يعني الكثير بالنسبة إليّ خصوصاً بعد حجز حقوقي وحرماني من الاتصال الطبيعي في المزّة مثل باقي السجناء، أما هنا فيوجد شهود على طريقة معاملة السجناء، كما وإن رجال الدرك يختلفون عن عناصر الشرطة العسكرية الذين تدرّبوا خصّيصاً على أعمال العنف وبالتحديد في الأمور السياسية.

بعد هذه المقابلة الحرّة إلى حدّ ما رفعنا طلباً بالسماح لهنّ بزيارات خصوصية تأخذ في الاعتبار ظروفهنّ الدراسية، وحصلنا على إذن بمقابلة كل خمسة عشر يوماً مع العلم بأنهنّ لم يأتين خلال تلك الفترة بهدف توفير مصاريف الرحلة من بيروت إلى دمشق. وكنت أنشرح عندما يطلبني مدير السجن للمقابلة في مكتبه.

لم يمنع المدير عني أيّ مقابلة، لكن حدث في إحدى المرّات أمر لا أعلم سببه فمنعوا المقابلات عن كل المعتقلين السياسيين ولذلك أعادوا بناتي من دون أن يسمحوا لي برؤيتهنّ. وقد حصلت على إذن من المدير بالخروج إلى الشمس ساعة كل يوم على أن يتمّ ذلك أمام غرفة السجّانة أم ياسين عندما تكون هي موجودة. وهكذا استمرّت حياة السجن داخل المهجع بمشاكلها الدائمة بين السجينات وفي موازاتها الحياة التي كنت أحسّ بوجودها خارج المهجع من خلال الزيارات والأحاديث في مكاتب الإدارة والأخبار التي كنت أتلقّاها عن أوضاع الحزب والرفقاء وكانت تهمّني في الدرجة الأولى.

بعد فترة من وصولي إلى القلعة، ألقى عبد الناصر خطابه المشهور الذي أعلن فيه الحرب على الشيوعيين وبدء ملاحقتهم. وكانت سلوتي آنذاك الاستماع إلى الإذاعة الشامية التي أخذت تبثّ برامجها في السجن عن طريق مكبّر للصوت في كل مهجع. كنت أُتابع الأخبار وأستنتج من خلفياتها. أما في الموسيقى فقد كانت فيروز سلوتي في أغانيها الشعبية المحببة إلى نفسي. لكن الحياة في القلعة تختلف تماماً إذا ما قارنّاها مع الحياة في المزّة ، فهناك كان الجو يخلو من أي حركة أو ضجيج لكوني الوحيدة في سجن النساء كله، لذلك تمكنّت من القراءة المكثفة وابتدأت دروساً باللغة الفرنسية، وكنت أمارس أعمالاً يدوية من تطريز وحياكة وغيرها. أمّا في القلعة فالحياة الفكرية أصبحت معدومة، وكيف لا تكون الحياة كذلك والجميع في مهجع واحد مع الأطفال ومعدّات الطبخ والمعارك بين السجينات والرقص والدبكة في حفلات ليس لها آخر. والواقع أنني شعرت بأنه لا مجال للاستفادة من وقتي إلاّ بالأشغال اليدوية. وهكذا كنت أشتغل وفي الوقت نفسه أعلّم بعض السجينات وأقدّم قطعاً من أشغالي كهدايا. أمّا القراءة فأصبحت مقتصرة على الوقت الذي يشهد بعض الهدوء، أي بعد العاشرة مساء. وكنت أصرف كثيراً من وقتي في أحاديث مع السجّانات اللواتي كن يحرصن دوماً على الجلوس معي.. وعدا عن التوجيه والتدخّل في مشاكل المهجع، لم يكن لي أيّ عمل آخر أرقى وأكثر إفادة.

وحانت فرصة لنقلنا إلى مهجع آخر تتوافر فيه عوامل الصحّة والراحة والشمس والهواء الطلق، فكتبت إلى النيابة العامة أدعوها للنظر في وضع سجن النساء الذي لا توجد فيه شروط صحية مناسبة ولا يؤمّن حق النساء في التنفّس والشمس. ورُفع الكتاب إلى الإدارة بعد أن زكّاه العقيد عارف قنّوت ورفعه بدوره إلى الزعيم زيد الأطرش مدير عام السجون مع الموافقة من قبل النيابة العامة. ثم حضر وفد مسؤول للتفتيش، وأقرّت هذه اللجنة التي ضمّت محمد الجرّاح مع الزعيم الأطرش والعقيد قنّوت والنائب العام المدني وغيرهم نقلنا إلى القاعة الجديدة. وتحقق هذا الانتصار بعد مرور عشرات السنين على ذلك الوضع، وكان يوماً من أجمل الأيام في القلعة. كان المهجع الجديد على النقيض تماماً من المكان القديم، فهذه القاعة كانت مخصصة كمشغل في السجن لتجهيزات الدرك ثمّ تمّ التخلي عنها لصغرها. وعندما رأيتها فكّرت بطلبها، لكنني تعمّدت طرح فكرة إيجاد مكان أصلح من الذي نحن فيه من دون أن أذكر تلك القاعة المريحة.. وعندما جاء الرد إيجابياً انتقلنا إليها، ولا تزال حتى الآن سجناً للنساء.

تتمتع القاعة بنوافذ عديدة تطلّ على باحة كبيرة، وتدخل الشمس إليها باكراً وتظلّ طيلة النهار مشرقة في الباحة حيث لنا الحقّ بالبقاء فيها حتى يتمّ الإقفال على السجناء عند الساعة السادسة مساء. وبعد مدة قررت النيابة العامة فصل القضايا الأخلاقية عن القضايا السياسية وغيرها من القضايا الأخرى، وقسّمت المهجع إلى غرف كان لي منها الحصة الأكبر. كنت السجينة الوحيدة المحكومة لمدة طويلة، ولم يبق في السجن بعد العفو في أعقاب الوحدة سوى السياسيين والذين يكملون ما تبقّى عليهم من أحكام والمحكومين بالجنح. ولهذا أُعطيتُ غرفة بنوافذ عديدة تدخلها الشمس والهواء باستمرار. ويعود الفضل في تحقيق هذه الترتيبات للعقيد عارف قنّوت الذي أذكره دوماً باحترام.

بعد انتهاء الترتيبات في السجن الجديد وُضعت للجميع أسرّة عسكرية من طابقين وفرشات وبعض الحرامات. وبهذا الانتقال تحقّقت الراحة والنظام للجميع

على مستوى واحد. وجاء العقيد قنّوت آخر مرة ليتفقّد عملية تقسيم البناء، وسألني: هل أنت راضية؟ قلت: راضية ولك الفضل، وأنا أشكرك. أجاب: لا، هذا ما قررّته النيابة العامة. ثم نُقل العقيد قنّوت من السجن ليحلّ مكانه العقيد وجيه البرازي الذي لم يكن لي عليه أي احتجاج، بل بالعكس كان على درجة كبيرة من الاحترام والاهتمام. ولكن لأنه لم يكن بعثياً أو شيوعياً أو ناصرياً بل هو «يميني» حسب تصنيفات الحكومة، لذلك لم يكن يجرؤ على المبادرة مثل العقيد قنّوت الذي كان معروفاً لدى الجميع.

قبل انتقال العقيد قنّوت اندلعت في 22 شباط تظاهرات تطالب بعفو خاص في مناسبة الذكرى الثانية للوحدة. وأضرب السجن كله عن الطعام، وأحرق بعض السجناء الحرامات وهم يرددون الهتافات «بدنا العفو يا جمال» ولم تكن السلطات في وارد أن تصدر أي عفو جديد فأخذت تتشدد وتعاقب السجناء بالضرب والانفراد وشتى الأساليب القمعية الأخرى. واتُّهم السياسيون بالتحريض، ولم يكن هذا صحيحاً لأنهم لم يعلنوا الإضراب هم أنفسهم. بل ادّعى بعض السجناء الشيوعيين زوراً بأنهم سمعوا العجلاني يُحرض على الإضراب. وبعد وضع العجلاني في الانفراد تبيّن أن الاتهّام غير صحيح فأُعيد إلى القاعة. وأثناء هذه الحوادث مُنعت الزيارات عن السياسيين.

لم يشارك سجن النساء في الإضراب بعد أن ناقشت السجينات، خصوصاً اللواتي معهن أطفال صغار، بأن أي حل للقضية سيشملهن من دون التعرض للمشاكل. والحقيقة أني كنت مقتنعة كل الاقتناع بأن شيئاً من هذا القبيل لن يتم. وعلى رغم معرفة السجناء كلهم بعدم موافقتي على الإضراب، فقد اخترعت أم ياسين حجّة تقول أنه إذا أضرب بعض السجناء فلأن للسياسيين مصلحة في ذلك، وأن لي يداً في التحريض. وهذا نوع من المشاكسة المفتعلة التي كنت أجدها من قبل السجّانة. هذا كله تغيّر بعد سقوط عهد الوحدة، وعلى رغم عدم النظر في قضيتنا التي انفضحت أسرارها من خلال أوراق ووثائق المكتب الثاني فقد أصبح الجو سورياً

والروح سورية حتى وإن ظلّت الأخطاء تتكرر يومياً والمواقف لم تتبلور بعد بسبب ضعف الحكّام. فقد تغيّر الوجه المستزلم وسقطت الأقنعة، وأسرع جميع المتورّطين في أعمال المباحث والإرهاب في زمن الوحدة إلى التملّص من أسيادهم والتظاهر بالبراءة! وانكفأ تفتيش المكتب الثاني على القوميين أثناء الزيارات في السجون، وتضعضع موقفهم بين عهد وعهد فارتحت من منظرهم الشرس المستفرس عندما كانوا يشكّلون لكثرتهم طابوراً أمام شبك النساء ويأتون ويذهبون أفواجاً أفواجاً ووجوههم تفضح مهمّاتهم، عدا عن الوشوشة بينهم وبين أم ياسين.

تعرّضت وأنا في القلعة خلال عهد الوحدة لمرض لم أعرف سببه. فجأة أُصبت بآلام مبرحة في معدتي امتدت إلى كل أحشائي. وهاجمتني نوبات متتالية لم تتوقف أبداً حتى مع المورفين الذي حقنوني به. ودامت هذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها ومع ذلك لم يرضوا بنقلي إلى المستشفى بحجّة أنني سأهرب! وكادت هذه الحالة تأخذني إلى القبر. ورفضوا إحضار طبيب خاص من خارج السجن، في حين كان طبيب السجن الدكتور التكريتي يقول انه من المستحيل نقلي إلى المستشفى، وإنني أتصنّع الألم حتى أهرب! علماً أنه كان يراني ويرى آلامي والتقلّص الشديد الذي يحدث في أحشائي، فصرخت به: ألا تعرف وأنت طبيب إذا كانت الأوجاع تمثيلية أو حقيقية؟ أنا لا أريد الذهاب إلى المستشفى فأحضروا لي طبيباً خاصاً يعرف ما بي طالما أنك لا ترى سبباً لمرضي. والحقيقة أنّ كل من شاهد آثار تلك النوبات كان يرثي لحالي. وجاءت ناديا تزورني، وبينما هي خارج الغرفة تنظر إليّ من خلال الشباك أدركت أنني في حالة خطرة بعد أن أصبحتُ شبه خيال في غضون ثلاثة أيام فقط، فطلبت من مدير السجن العقيد وجيه البرازي أن يسمحوا لي بطبيب خاص.

وهكذا كان، وجاء الطبيب في اليوم نفسه. وبعد أن فحصني قال: لست أدري، افحصوا البول قبل أي شيء. وذهب ولم يعد. وكذلك فعلت ناديا التي أعطيتها العيّنة للفحص فقد ذهبت هي الأخرى ولم تعد مطلقاً. وعلمت بعد ذلك أنها سافرت إلى بيروت وبقيت هناك وقتاً طويلاً ولم تأتِ لزيارتي سوى مرة واحدة

لتبلّغني بأنها لم تعد ترغب في الحضور إلى السجن لأسباب خاصّة تتعلق بموقف الإدارة، وقالت إنها لم ترجع في ذلك اليوم لأن عناصر من المكتب الثاني لاحقوها طيلة النهار. واستعدتُ في ذاكرتي حادث التسمّم الذي تعرّضت له في المزّة وكيف أنهم رفضوا إسعافي في المستشفى بحجة خوفهم من إقدامي على الهرب.. فهل يهرب من يكون على حافة الموت؟ وفكّرت في العوامل التي يمكن أن تكون السبب في هذه الأعراض المرضية. قبل ليلة من بدء النوبات تلقيت حقنة قيل لي إنها مضادّة للرشح، وفي اليوم الثاني لم أتناول سوى شراب المتّى الذي كانت تأتيني به ناديا في أكياس مختومة، وكنت أستهلك الكيس الثاني عندما بدأت النوبات المتتالية. لكن كانت هناك عناية تحميني، وفي كل مرّة كنت أنجو من الخطر... وفي هذه المرة أيضاً خرجت سالمة. غير أن الضعف الجسدي كان شديداً بحيث أنه لم يعد يعرفني كل من يراني. وكانت أم ياسين دائماً بقربي لتواسيني، غير أنني لم أعد أثق بأحد. وكانت تعرف سبب مرضي من خلال أحاديثها مع الطبيب ومع ذلك كانت تخفي عني كل شيء. المهم أنهم لم يعطوني شيئاً لعلاج النوبات سوى المورفين بعد أن قالوا لي إن العوارض غير مهمة. وفي إحدى المرات قالت لي أم ياسين: كدت تذهبين إلى القبر عندما أصابتك تلك النوبات فقد وصل ضغطك إلى الستة! فقلت لها: ولماذا زعمت أنت والأطباء أنه لا يوجد شيء مهم، ولم تُخبروني بما حدث لي فعلاً؟ أجابت: طبعاً كنّا لا نريد تخويفك! قلت: وماذا فعلتم لمعالجتي؟ قالت: أتى تشديد من الدوائر العليا بأن لا نخرجك من السجن أبداً. فيا لها من صدف أليمة، ففي كل مرة أُصاب بمرض شديد لا أجد حولي أحداً من خاصتي.

لكنّ الأيام التي تحمل مفاجآت كثيرة وتقلُّبات وتبدُّلات وتغيُّرات في الأفكار والاتجاهات تعمل أيضاً على كشف الستائر التي أسدلها أحد العهود ليحجب عن أعين الشعب الإرتكابات التي أخفاها وراء تلك الستائر. إنني متأكّدة من أنّ الذين لعبوا هذا الدور الإجرامي بحقّنا وأرادوا القضاء عليَّ داخل السجن في مناسبات عديدة اكتشفوا بعد زوال عهدهم أنّ حسابهم مع الشعب سيظلّ عسيراً ولن تخفّف مِن وطأته مؤامرة إزاحتي من الطريق بل كنتُ النقطة السوداء في ضميرهم عندما

عَلِم الشعب، كل الشعب السوري، بأن مؤامرة أعدت لحساب أشخاص معينين قامت لتفني حزباً بكامله وأنا من ضمنه. تجنّد كثيرون وتسابقوا لقذفنا بشتّى التُّهم حتى من على منصة القضاء. أذكر والألم يعتصر نفسي أن من بين هؤلاء الذين اعتلوا منصّة الادّعاء امرأة لا تعرف عنّي شيئاً، أذهلتها رهبة تلك المحاكم الضخمة التي لعبت فيها شخصيات وأسماء كبيرة فوقفت تلقي خطاباً خصّصته لي وحدي وقذفتني بشتى الإتهامات من دون أن تقدم أي سبب أو دليل أو شهادة واحدة وقالت إنني أنا قاتلة عدنان المالكي وإنني الأم الوحيدة في العالم التي لم يتحرك لها ضمير عندما قررت هذا العمل المنكَر! وأرادت أن أجيب على هذه الكلمة التي ألقتها المحامية ملك كبارة، لكن لم يكن بالإمكان إيصالها إليها عن طريق سجن المزّة. أردت أن أقول لها أن تسأل عني أولاً. رغبت في أن أسألها: هل هي على منصة العدالة فتأتي بالإثباتات التي اعتمدت عليها للطعن في شخصيتي، أم أنها تتكلم عبر نافذة تطل على حارة بيّاعي الشوارع، أم تطلّ فوق جدار يفصلها عن جيرانها لتقذفهم بالسباب من دون حساب لأن أحداً لا يدوّن ما تقول الجارة لجارتها؟ أتكتفي السيدة ملك، وهي المحامية المفترض أن تكون ضليعة بالقانون، بهذه الشتائم من دون ذكر أي أدلّة؟ وما معنى منصّة العدالة التي اعتلتها إذن؟ لكن السيدة ملك حضرت جلسات المحاكمة كلها لكنها لم تسمع شيئاً من الإفادات ولم تكن لتعيرها أي اهتمام، بل أخذتها روعة الجلسات والجلوس مع محامي الإدّعاء الذين كان من بينهم رياض المالكي وعبد الفتاح الزلط وجهاد ضاحي وخليل كلاّس وغيرهم. كانت منشغلة بالتحدث والضحك طيلة الجلسات حتى أنّ رئيس المحكمة الأستاذ بدر الدين علّوش نبّهها مرات عدة ولفت نظرها إلى أنها موجودة في المحكمة لحضور جلسات المحاكمة فما بالها لا تعيرها أذناً صاغية؟ وفي مرات أخرى كان يهوي بمطرقته على المنصّة ويقول لها إنها إذا كانت تريد التحدث والضحك فلتخرج من القاعة.

هذه السيدة بالذات زارت سجن النساء في القلعة مع أعضاء جمعية خيرية ووزّعت بيدها الهدايا على السجينات وأطفالهن، وكنتُ أوّل من تقدمت إليه بهدية

فأرجعتها قائلة لها: هذه الهدايا للمساكين الذين لا يملكون شيئاً أمّا أنا فلست محتاجة، فأعطها لمن تريدين! وقبل أن تغادر السجن مع رفيقاتها خرجت إلى الباحة حيث بكت بكاءً مرّاً، فقالت لي السجينات: لا شك في أنّ صدى خطابها ما زال يتردد في ضميرها، خصوصاً بعد أن دخل شقيقها سامي كبارة السجن، وكان يعلم بالمؤامرة علينا والحكم علينا زوراً.

مضت سنة 1959 بسلامة في المهجع الكبير. كانت تزور سجن النساء وفود من طالبات المعهد الإصلاحي وجمعيات خيرية وغيرها. حزنتُ لرؤية الأطفال المساكين في المدرسة الإصلاحية والذين تتراوح أعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة، فما إن رأيتهم حتى أدركت أنّ سبب جنوح هؤلاء التعساء يكمن في أوضاعنا الاجتماعية، ذلك أن غالبية المشاكل ناتجة عن الطلاق وتعدّد الزوجات وإهمال الأطفال الذين يضيعون بين غياب عناية الأم ونقمة زوجة الأب والتشرّد من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع. أمّا الجمعيات الخيرية فلم أعرف عنها سوى القليل. في إحدى المرّات زار السجن عدد كبير من ضباط البحريّة المصرية وجاؤوا لتفقّد مهجعنا. ورأيتهم يدلّون عليَّ ويقولون لبعضهم البعض «هذه مدام سعاده!». وخصّني رئيسهم بنظرة لا أنسى حتى اليوم كم كانت غريبة ومعادية تحمل مشاعر الحقد الواضح وكأنه يكلمني بعينيه ليقول «أنا أكرهكِ.. أكرهكم»، فأجبته بنظري أيضاً «ونحن لا نأبه لحبكم أو لكراهيتكم».

كان انتقالنا إلى المهجع الجديد مليئاً بالأمل على رغم مضايقات الوضع الصحي وعدم إعطائنا الاهتمام اللازم. لكن إشراقة الشمس والتمتع بالنور والفلاء والجو المناسب من حولنا أشاعت في نفسي نسائم الحياة. كما وأن الاتصال الدائم ببناتي ووالدتي ورفقائي والمعاملة المقبولة من قبل المسؤولين والدرك في القلعة.. كل ذلك أعطاني المعنويات لمتابعة ذلك السجن الطويل من دون تذمّر.

الفصل الثالث والعشرون

منذ إعلان الوحدة اندلعت في صفوف الجيش حملة تصفيات عن طريق لوائح التقاعد التي طاولت الضبّاط كباراً وصغاراً يوماً بعد يوم، وكذلك بين المدنيين. ولم تأت نهاية العهد الناصري حتى كانت التسريحات والإحالات على التقاعد ظاهرة، خصوصاً عند المسيحيين من ضبّاط وصفّ ضبّاط ووكلاء وغيرهم. ولم يبقَ في الجيش وجوه سورية بالمعنى الوطني ولا في الحقل المدني أيضاً.. وبقدرة قادر ساحر أرادوا للشعب أن ينقلب على هويته ويتنكر لقوميته حتى يترك للغرباء تقرير مصيره!

قبل وقوع الانفصال كثرت حالة التذمّر في صفوف الشعب، فكانت تظهر خفية في بعض المرّات وبصورة علنية ورسمية في مّرات أخرى. ووصلتنا أخبار عن أن عدداً من الشخصيات السورية نقلوا إلى عبد الناصر حقيقة الأوضاع وحذّروا من العواقب التي ستنجم عنها، لكن الردّ كان المزيد من التشديد على المخلصين وإطلاق أيدي المخابرات في ملاحقتهم. وكان البعض قد انخدع بالعاطفة الطيبة التي يبديها «الرئيس»، وعندما ذهبت بناتي للقائه وهو يستقبل المهنّئين في قصر الضيافة بدمشق ليطلبن منه الإفراج عني، وعدهن خيراً وكان عبد الحميد السرّاج واقفاً بالقرب منه يُسجّل طلبات «الرئيس» ولمّا علمت بهذا الخبر قلت إنّ أهداف عبد الناصر نحونا ظهرت بوضوح عندما كان يمتلك حقّ إصدار العفو العام يوم تسلّم مفاتيح الشام، فلم يفعل وعلمت كذلك بأن وفداً نسائياً من أهالي السياسيين المعتقلين قطع الطريق على سيارته قبل مغادرته دمشق بثلاثة أيام، وطالبته السيدات بالعفو عن أزواجهن وأبنائهن، فوعدهنّ خيراً وقال إنه سيحقق طلبهن قبل أن يغادر دمشق، وطلب منهنّ العودة إلى بيوتهنّ وانتظار الفرج قبل انقضاء تلك الأيام الثلاثة.

كان فرح هاتيك السيدات شديداً لدرجة أنهنّ لم يستطعن كتم الخبر بل أوصلنه إلينا في السجن، فأطل أحد السياسيين من فوق الجدار الفاصل بيننا ليقول لي: مدام، غداً إخلاء سبيل جميع السياسيين! وأعترف بأنني كدت أصدّق الخبر لأنه أضاف يقول إنّ الوعد أعطي بالتأكيد من قبل عبد الناصر شخصياً.. وبعد هذه الوعود بساعات، أي فجر اليوم التالي، كان عبد الناصر قد طار إلى القاهرة من دون أن يحدث أي شيء في مسألة العفو. وكانت تلك آخر زيارة يقوم بها عبد الناصر إلى دمشق إذ وقع الانفصال بعد ذلك بفترة قصيرة.

قبل الانفصال تردّدت أخبار صدور عفو عن بعض المعتقلين السياسيين الذين اشتركوا في محاولة الانقلاب بالاتفاق مع بغداد. ونشرت الصحف المحلية هذه البلاغات كما نشرتها جريدة رسمية قاهرية، وكان الشرط أن تكون إقامتهم في مصر. وهكذا نُقلوا جميعهم إلى القاهرة حيث وضّعوا تحت الحراسة. ولا أستطيع الجزم ما إذا عُوملوا هناك كسجناء أم لا، وقد رأيت زوجة عدنان الأتاسي في الإدارة وهي تودّع زوجها قبل نقله إلى مصر فقالت لي: لست مطمئنّة لذهابهم، وكنت أفضّل بقاءهم في السجن هنا!

من الملفت للنظر أن الأمور بدأت تتضح للناس حتى عندما كنت ما أزال في سجن القلعة، وذلك من دون أن أشرح مأساتي في حوادث سنة 1955 وبالتالي انتظار أي تغيير من قبل أولئك الذين شاركوا في المؤامرة على الحزب. ومن بين الذين اتّضحت لهم ظروف القوميين أثناء حوادث عدنان المالكي وبراءتهم من اغتياله، شقيقه رياض. فقد وصلتنا عن لسانه أحاديث في اجتماعاته العائلية يقول فيها إنّ الحزب ليس قاتل عدنان وإنه هو يعرف القتلة الحقيقيين. وكانت مثل هذه التصريحات تُطلق في بادئ الأمر في دوائر خاصة بالأصدقاء لكن بعد الانفصال أصبحت علنية أكثر.

وتغيّرت مواقف أشخاص كثيرين في ما يتعلق بنا، بعضهم لإدراكه بأنّ الأمور ستنكشف أمام الشعب وبعضهم الآخر لأنه ما كان مقتنعاً أصلاً بالتّهم الموجهة

ضدنا . ومن بين الذين تبدلوا المحقق الملازم بهجت مسوتي (جلاّد المزّة) الذي كان يزور سجن القلعة في أحيان كثيرة لقضايا تتعلق بوظيفته . وفي إحدى المرات رأيته يبتسم لي وأنا جالسة في الإدارة بانتظار السجّانة كي أصعد إلى غرفتي، فقال: هل عرفتني؟ أجبته: أظنك السيد بهجت مسوتي! قال: نعم وكيف حالك؟ إنشاء الله تخرجين قريباً من السجن، وصدقيني إني أتمنى لك ذلك من كل قلبي . فشكرته وأنا أتعجب لهذا التبديل، خصوصاً أنه هو الذي قال للصحافي سليم اللوزي وهما خارجان من مقابلتي في المزّة : «إنها أكبر ممثلة عرفتها في حياتي» . وبعد الانفصال أراد اللحاق بي في باحة القلعة وأنا برفقة أم ياسين ليقول لي إنه جادّ في السعي للإفراج عني، كما أرسل لي سلاماً خاصاً معها . واستغربت هذا التغيّر، لكني قبلت هذا الشعور إذ من الأفضل أن يتحرّك الضمير متأخراً على أن لا يتحرك إطلاقاً .

كان الشعور بالقلق على مصير بلادي يدفعني إلى التساؤل عمّا عساه يكون العلاج لهذا القلق؟ إنّ مأساتنا كمنظمة عقائدية ظلّت مستهدفة طوال اثنتين وثلاثين سنة لم تكن لتقلقنا كوننا حركة صراعية ضد المفاسد القائمة في بلادنا ونضالنا هو الصراع الدائم والمواجهة المباشرة مع هذه المفاسد . ونحن على يقين بأننا نخرج دوماً من هذا الصراع وقد حققنا المكاسب للشعب السوري، وأوضحنا حقيقة شخصيته وقضيته وحقوقه القومية . أمّا القلق الفعلي فكان على مصير بلادنا ونحن وراء القضبان أو ملاحقون ومشرّدون، والإرهاب والجرائم قائمة على قدم وساق . هذه كانت أكبر مأساة عشناها لأنها كانت مأساة بلاد وشعب بأسره . ومن خلال إيماننا بشعبنا وبمبادئنا التي وُجدت من أجل هذا الشعب، كنا ننظر كلنا بعمق إلى توق هذا الشعب العظيم للوصول إلى أهدافه العليا السامية وتحقيقها للأجيال الصاعدة .

ليلة 28 أيلول لن أنساها أبداً . كانت الساعة تقارب الرابعة صباحاً وأنا مستيقظة في فراشي كالعادة عندما أكون قلقة، فإذ بأصوات الرصاص تلعلع، أكثر من خمس أو ست رصاصات أولاً ثم طلقات عديدة لم أستطع حصرها . وكان هذا يعني لي

شيئاً واحداً، فقد اعتدت سماع طلقة واحدة أو اثنتين من القلعة إذ قد تخرج رصاصة طائشة من بندقية الحارس وهو يهيئ سلاحه أو ينظّفه.. أمّا هذه الطلقات المتتالية فلها معنى واحد عندي بعد أن عايشت عدة انقلابات في بلادي: إنه انقلاب أو محاولة انقلاب! وكانت بقربي سيدة مسنّة مستيقظة هي أيضاً فسألتها: هل سمعت الطلقات يا أم خليل؟ أجابت: نعم، وقد تكثّف إطلاق النار، فماذا يحدث يا ترى؟ قلت لها: عساه خيراً وسنعرف من الإذاعة عند الساعة السادسة ما إذا كان قد وقع انقلاب أم لا. ونهضت من فراشي أتمشى بهدوء كي لا يشعر أحد بقلقي حتى حانت الساعة السادسة فأدرت الإذاعة، أي مكبر الصوت، فلم يكن فيه أي برنامج ولا حتى تلاوة القرآن.. عندها تأكّدتُ أنّ شيئاً خطيراً قد حدث إذ لم يكن من عادتهم أن يتخلوا عن قراءة القرآن في السادسة صباحاً.

وعرفنا من قلق واضطراب أم ياسين، التي أبقت الباب مقفلاً علينا، أن انقلاباً وقع بالفعل. وعادت الإذاعة تبث برامجها عند الساعة التاسعة لتعلن نبأ نجاح الانقلاب. هل يتصوّر العقل الحر ما معنى هذا النبأ؟ وقفت تحت المذياع طيلة النهار لا أكترث بأي شيء آخر. كانت وجوه السجينات تعكس ردود فعل شديدة التفاوت. أكثرهن متحمسات لعبد الناصر.

وأخذ الجميع يتحدثون عن قرب الإفراج عن القوميين والمعتقلين السياسيين، بينما الإذاعة تبثّ بكل حماس البلاغات العسكرية رقم واحد، رقم اثنين، رقم ثلاثة.. مع تفاوت في الوقت بين بلاغ وآخر حتى الثامن. وبعد الظهر أُذيع البلاغ رقم تسعة.. فيا للأسى، إذ أعلن عودة وجوه الوحدة مع بعض التغييرات الطفيفة. وتبدّلت تعابير وجوه السجينات، وانقلب الفرح إلى حزن عند بعضهن والحزن إلى فرح عند أخريات، خصوصاً المصريات اللواتي كان في السجن عدد كبير منهن.

قبل الوصول إلى نهاية عهد عبد الناصر في سورية ظهرت خلافات بين قيادات الجيش السوري والجيش المصري. وكنا نسمع مثلاً أنّ المشير عبد الحكيم عامر اختلف مع السرّاج من دون أن نعرف التفاصيل. ولا أُخفي أنّ هذه الخلافات

مهما كانت طبيعتها، لم تُحدِث أي قطيعة نهائية إلاّ أنها كانت تدلّ على وجود غمامة سوداء في الجوّ قد تكون هي بداية النهاية. من هنا كان اهتمامي بمتابعة أنباء هذه الخلافات. وهكذا علمت مرة أنّ السرّاج استُدعي إلى مصر، وسمعت أيضاً أنه اختلف مع عبد الناصر فتعرّض للتهديد والتوقيف في القاهرة ثم عاد إلى دمشق بعد أن ربح عبد الحكيم عامر المعركة الخفيّة وكفّ يده عن العمل.

أثناء هذه الفترة، أي بين ذهاب السرّاج إلى مصر والعودة منها ووقوع الانفصال، أصدر المكتب الثاني أوامره بمنعي من المقابلات والزيارات من دون إبداء أي سبب. فكان باب غرفتي ونوافذها تُغلق أثناء زيارات الأهالي حتى لا أرى أحداً ولا يراني أحد. وعندما استفسرت عن الأمر لم يعطني أحد جواباً لعدم معرفتهم بالسبب. ولكني أحسست بأنّ المكتب الثاني، بالاتفاق مع أم ياسين، اتخذ هذا التدابير حتى لا أعرف انعكاسات الجو تجاه السراج. وقد يكون لأم ياسين سبب آخر خاص وهو أنني لم أرض بأن أكون شاهدة زور وبهتان ضد أم نبيل السجّانة الجديدة التي كنت أحترمها وأحبها كونها مثقفة ومخلصة. وقد فشلت أم ياسين في مساعيها مع العقيد وجيه البرازي لإزالة أم نبيل من طريقها فقالت لي: أرأيت لو أنك أعطيت شهادتك لكان العقيد سمع منك لأنه يثق بكلامك، أما أنت فقد كسفتني في موقفك! وطبعاً كانت تقصد أن أخدمها مثلما اعتادت أن تسخّر النساء في الطعن ببعضهنّ وبالسجانة. وخلاصة الموضوع أنها طلبت مني أن أشهد أنّ أم نبيل تضرب البنات من دون سبب لأنهنّ يرفضن خدمتها. بينما الحقيقة هي العكس، إذ لم تجرؤ أم نبيل ولا مرّة على ضرب أية سجينة، لكن إحدى السجينات ضربتها وادّعت عليها بأنّها تضرب البنات وهنّ يطلبن من المدير طردها. وعندما جاءت إليّ أم ياسين لتقنعني بشهادة الزور قلت لها: أنا لست فلانة ولا فلانة ولا حتى أم ياسين، أنا زوجة سعاده ولا أحد يستخدمني في أغراضه الخاصة، وإذا أردت نقل شكواي إلى المدير فسأبدأ بأم ياسين أولاً! فخافت وقالت: عفاك، أنت عاقلة ولا تشهدين بأية شهادة. لكنها حقدت عليّ. وقد قالت لي بعد ذلك إنَ العقيد وبّخها مع البنات عندما ذهبْن إليه في موضوع أم نبيل، فلو كلّمته أنا لما حدث هذا. فبمثل

هذه التصرفات والصغارات والحقارات ضمن هذه «السلطنة» التي هي سجن النساء، كانت أم ياسين تصرف كل إمكاناتها العقلية والنفسية لتحرك السجينات ولا ترضى بأي وضع أحسن في السجن.

صادف يوم الانقلاب والانفصال موعد زيارات الأهالي، ومع ذلك أعادوني إلى غرفتي المقفلة. طلبت من المدير ورئيس المخفر أن يسمحا لي بالخروج لأن أوامر المكتب الثاني لم تعد سارية المفعول بعد أن انقلب الوضع وتغيّرت الحكومة، فكان جواب رئيس المخفر وهو ناصري: لا يا سيدة، ليس هناك انقلاب على الحكم والخلاف سيزول والعهد باقٍ! قلت: إلى أن تأتي أوامر جديدة لن أبقى رهن التشديد من دون أي عذر أو ذنب. فتركوني في الغرفة والباب مفتوح بشرط ألاّ أخرج إلى الباحة.. ولكن بعد ساعات تأكّد وقوع الانفصال من خلال البلاغات العسكرية، وأخذ اسم الكزبري يتردد بين السجناء. ولا شكّ في أننا، بعد مرور أيام على هذه الفرحة الكبيرة، كنا نترقب الإفراج عنا بأسرع وقت وإعادة محاكمتنا قانونياً.

وعلمت أنّه بعد مرور أسبوع على استلام الكزبري، قامت من حوله أشياء وحدثت تدخلات في الجيش بحيث أخذ الجوّ يتحوّل من الاطمئنان على قضيتنا والقضايا السياسية الأخرى إلى الانحراف نحو اتجاه معاكس. وقد أُفرج عن المعتقلين الشيوعيين في بادئ الأمر بينما لا نزال نحن في انتظار الأقوال المتناقضة من هنا وهناك. وذهب الكزبري من سُدّة الحكم وتركنا نعود إلى الانتظار والتساؤل.

وبدأت أخبار العهد السابق تُعلَن أمام الشعب بكل تفاصيلها. ومن بين هذه الفضائح فضيحة اغتيال عدنان المالكي التي انكشفت أسماء المشتركين فيها، وهم السوريون عبد الحميد السرّاج وأكرم الديري وشوكت شقير، ومن المصريين الملحق العسكري في السفارة المصرية بدمشق. لم أفكر سابقاً في أنّ المكتب الثاني والسرّاج وشقير والديري يمكن أن يكونوا على اتفاق مع جورج عبد المسيح، خصوصاً وأن المكتب الثاني كان دائماً بالمرصاد للحزب!

كم كانت تلك الفضيحة مخجلة بحق الحزب. رئيس الحزب السوري القومي الاجتماعي يشترك في مؤامرة اغتيال مع أعداء الحزب وبغفلة عن قيادة الحزب؟ من هو هذا الرجل، وماذا يبتغي من وراء هذه المؤامرة؟ كنت أشعر بحقيقة تدخل عبد المسيح في الاغتيال بغفلة عن الحزب، ولكني لم أكن لأصدّق بأنه يشترك في ذلك مع أعدائنا. وكيف يتعرض الحزب لكل هذا التنكيل بينما هو قابع في بيروت ينشر التساؤلات والأجوبة ليبعد الشكّ عن فعلته؟ لكن من يصدقه سوى البسطاء المساكين والبعيدين عن مجريات الحوادث وحقيقتها؟ وماذا سيفيده هذا بعد أن كشفته الجهات التي لم تكن تستهدف عبد المسيح بالذات وإنما العهد البائد؟

عندما رأيت الرفيقة أدما ناصيف في المزّة بعد إيقافها ما يقارب الأربعين يوماً، علمت منها أنّ عبد المسيح أصبح معزولاً والمسؤولين غير راضين عنه. ولمّا اعتُقلت خالدة صالح وجدت أن الفرصة لن تسنح لي مرّة أخرى، إذ قد يحقق المتآمرون هدفهم بي أو ربما دام انفرادي طويلاً، وقد يداهمني الموت في أية لحظة ويبقى موضوع مؤامرة عبد المسيح خافياً على الحزب. وعلمت أنّ ثمة عملاً تآمرياً قد يقوم به عبد المسيح بعد أن تناهى إليه أن الأمينة الأولى أوصت الحزب بالحذر من مؤامراته. وحدّثت خالدة بكل الأمور التي اكتشفتها بعد تردّدي إلى المحكمة، والتي سبق أن سجّلتها في مكان آخر من هذه الأوراق. ومع ذلك كان لابد من تسليم الأمانة، خصوصاً أنني لم أعد أعتبر وجودي على قيد الحياة أو عدم وجودي ضرورياً. فقد رأيت ورافقت هذا الفوج الجديد من المفكّرين والمخلصين في الحزب، وهم قادرون على تحمّل أعباء أكبر وأعمق مما ادّعى عبد المسيح حمله. وبعد تسليم هذه الأمانة ارتحت ارتياح المؤتمن على وديعة يسلّمها إلى أصحابها ويبقى ضميره مرتاحاً.

طيلة إقامتي في سجن المزّة لم يرسل عبد المسيح أحداً من جماعته ليتفقّدني. لعله كان يعرف أنني محاطة بأسوار حديدية تقوم بمهمّة عزلي عن القوميين، فلم يشعر بالقلق على أسراره. وكلما تحدث أحد الرفقاء النظاميين عنّي وعن موقفي ضد أعماله، أجاب: «بكرا بتطلع الأمينة الأولى ومنشوف». هذا كان جوابه عندما

يبدو أن إخلاء سبيلي كان مستحيلاً، أما عندما يتغيّر الجوّ السياسي ويصبح خروج أحدنا من السجن متوقعاً كان يغيّر تعبيره ويقول: «الأمينة الأولى أصبحت مختلّة من كثرة التعذيب فلا اتكال على عقلها». كان نقلي إلى القلعة ضربة كبيرة لعبد المسيح فأسرع يرسل إليّ الرسل، مرة أحد الكهنة ومرّة أخرى الأرشمندريت فرح ليبلّغني سلام عبد المسيح واهتمامه بأمري. وكأنه بقيَ أحد في هذا العالم لا يعرف من هو عبد المسيح وماذا فعل! لكن لم يكن من واجبي الإدلاء بأي رأي أمام هؤلاء الرسل، وليس لهم عليَّ أيّ واجب فلم أتفوّه مرة بكلمة عنه، ولم أكن أجيب أحدهم لا سلباً ولا إيجاباً عندما يذكرون اسمه.

ومرّت الأيام ووقع الانفصال، وازدادت مراسيل عبد المسيح من خلال أتباعه. مساكين هؤلاء، فكم أعماهم بألاعيبه! أحدهم يهرع إليّ ليقول إنهم قاموا بمساعٍ مكثفة، وإنّ عبد المسيح كلّف أناساً بالاتصال مع جهات عليا، إلى ما هنالك من هذه الحكايات. كنت أصغي من دون أن أنطق بكلمة. كان من بين هؤلاء المغشوشين والمتحمّسين الدكتورة نورا زيتون وميشيلين داغر. وجاءت السيدة نجّار زوجة أمين النجار مرتين على ما أظن، وكذلك زوجة إبراهيم دانيال. وكنّ يحضرن لي معهن الحلويات والهدايا، وكم كنت أكره تلك الهدايا وأودّ إرجاعها إليهن، لكني تحمّلتها حتى لا يقع الجدال بيننا أمام الإدارة في السجن. وكنت أترقّب معرفة موقف هؤلاء الأشخاص بعد خروجي من السجن، هل كانوا فعلاً مقتنعين به أم ظنّوا أنني مقتنعة به؟ على كل حال ليس لي أي تدخّل معهم طالما أن المركز موجود وولاءهم يجب أن يكون للهيئات الدستورية. وكلّما طال الزمن على سجني كلما توضّحت أمامي أخلاقه وأعماله.

ولاحظت أنّه بقدر ما ازداد الحديث في الصحف عن إمكانية الإفراج عنا ازدادت زيارات مراسيل عبد المسيح لتردد أمامي النغمة ذاتها من أنّ عبد المسيح يسعى إلى الإفراج عنّي! وكدت أضحك مرات عدة عندما كانوا يذكرون لي أن الإفراج سيكون عن يده! وأدركت كيف يستغلّ الشائعات لينصّب نفسه منقذاً ومخلّصاً.

بعد الانفصال عمّ الانشراح صفوف الشعب لتخلّصهم من التحكّم والذلّ، كما شعرتُ بانشراح شخصي عندما علمت أنّ رجال دين كباراً يتدخلون بإخلاص من أجل الإفراج عنّي. وكان بعضهم يتردّد عليّ في القلعة ويهديني من الكتب والمجلات ما يفيدني ويسلّيني. وكان أكبر عزاء لي أنهم لم يعرفوني سابقاً، وقد عبّروا عن احترام وتقدير لم أتوقّعهما منهم، خصوصاً أنهم كانوا يجهلون شخصيتي. ولا شك في أن سعاده كان في ضميرهم وهم يعبّرون عن تقديرهم لزوجته بهذه الطريقة الودودة.

كان ممثلو المؤسسات الدينية الكاثوليكية والمارونية يزورون سجن النساء في مناسبات الأعياد، ويحملون معهم الهدايا لتقدّمها تلميذات مدارس الراهبات إلى كل السجينات. وكانت التلميذات يقدّمن مقطوعات غنائية راقصة ليُدخلن البهجة والفرحة إلى السجن في هذه المناسبة. كما كان الرهبان يأتون لتهنئتي بالأعياد، ومن بينهم الأرشمندريت سرج رئيس مدرسة البيزانسون بدمشق حيث تعلّمت ابنتي صفية لفترة، وكذلك الأرشمندريت إيلي زحلاوي الذي أقام قدّاس يوم الميلاد في غرفتي بالسجن وحضرته كل السجينات. وكان لمنظره وهو يقدّس وعيناه تدمعان أعمق الأثر في نفسي. بعد القدّاس أهداني كتاب الصلاة الذي حفظته معي، واستمرّت المراسلات بيننا بعد خروجي من السجن.

الفصل الرابع والعشرون

في أعقاب الانفصال التقيت لأول مرة بشقيقتي ديانا بعد مرور سبع سنوات تقريباً، إذ كان يُحظّر عليها الدخول إلى الشام. ثم تابعت زياراتها إلى السجن، وكانت تنقل إليّ أخبار العالم الخارجي والمساعي المبذولة للإفراج عني، وكذلك الاتصالات القومية مع السياسيين في دمشق لإعادة النظر في قضية القوميين. لكن بعد مرور وقت على الانفصال تبيّن أن الجهات التي كانت ميّالة إلى إنهاء قضينها لاقت معارضة شديدة من قبل بعض الدوائر في الجيش، وقد كان الخوف من العسكريين يلازم العهد حتى بعد الانفصال. ومع أننا تلقينا وعوداً كثيرة بأنّ الإفراج عنّي سيتم قريباً، فقد وجدنا أنّ في الدوائر الحكومية والعسكرية أعداء كثيرين لنا. ولهذا لم أعد أثق بالوضع الراهن من حيث النظر في القضايا القومية، فلكل فئة عقيدة ولكل طرف مخططات لا تلتقي مع أهدافنا خصوصاً الذين حاربونا منذ عهد قريب وزجّوا بنا في السجون.. فكيف يرضى هؤلاء بإخلاء سبيلنا وهم ما زالوا يأملون بإعادة الكرّة؟

كانت زيارات الرفيق نزار المحايري إلى السجن هي التي تحمل لي الأخبار الموثوقة من القضايا التي تتعلّق بنا. ودامت هذه الزيارات بموازاة الاتصالات مع مسؤولين في العهد الجديد وغيرهم للعمل على الإفراج عنّي. وكنت قد أُصبت بورم في عنقي أخذ يتضخّم ويزعجني ويقلقني، كما استدعى قلقاً مماثلاً في صفوف القوميين. فكثّف الرفيق نزار مساعيه للإفراج عني، وكذلك قامت ديانا باتصالات كثيرة في لبنان والشام حسب التوجيهات التي كانت تتلقّاها من المسؤولين

في الحزب. وقد عرضت القضية على غبطة البطريرك المعوشي الذي بذل مساعيه المخلصة، واتّصل بالفعل بكل من كان يعتقد بأن له أملاً بالنجاح في السعي سواء في لبنان أم في الشام.

إنّ إلحاحي على الخروج من السجن كان له سبب واحد لا غير. لم تكن صحتي هي التي تقلقني بالدرجة الأولى، بل بناتي الثلاث وقد مضى زمن طويل على ابتعادنا عن بعضنا بحيث لم أعد أعرف ماذا تبقّى من روابط بيننا بعد انقطاع جذري وهن في أعمار طريّة. لربما تكوّنت في أفكارهنّ أوجه حياة غريبة عن الحياة التي أردتها لهنّ، عدا عن قضاياهنّ الشخصية والعاطفية، ومستقبلهنّ في سن قد يتقرر فيه ما لاأرغبه لهنّ.

كانت أخبارهن المدرسية تطمئنني دوماً، وهنّ لم يخيّبن أمل أحد في هذا المجال. لكن يجب أن لا يبقى مكان فارغ في أعماق نفوسهنّ بل من الضروري أن تظل فيه شعلة الإيمان بالصراع من أجل الحياة العزيزة السامية. ومع أن حضورهن إليّ ورؤيتي إياهنّ واطمئناني عنهنّ والاستماع إلى أحاديثهنّ كانت تشعرني بالراحة نوعاً ما، إلاّ أن قلقي عليهنّ استمر من الناحية النفسية التي نشأن عليها مع مرور السنين والتي لم يكن من السهل معرفتها خلال مقابلة قصيرة أمام موظفي السجن وبحضور السجّانة التي لم أجرؤ أمامها على سؤالهنّ عن أي موضوع خاص، إذ كنت أخشى أن تنقل كل كلمة نتحدث بها إلى من لا يجب أن يسمعها. وكان قلقي عليهنّ يكبر مرّات ويتضخم وفي مرات أخرى يسهل ويتصاغر. هذه هي آلامي العميقة في السجن التي لم يستطع أحد مشاركتي فيها ولم يعرف إنسان مدى انعكاسها على نفسي.

مساكين صغيراتي الثلاث، منذ الصغر وهنّ يذقن الحرمان من عاطفة الأبوّة أولاً ثم من الأمومة. وكان عليهنّ أن يتقبّلن آلامهنّ بصمت ويتذكرن شخصية أبيهنّ ويتقيّدن بالتضحيات يوماً بعد يوم. ويا لقلبهنّ الصغير الذي كان يخفق خوفاً واضطراباً وحزناً وحنيناً. كان عليهنّ التطلّع إلى القمة التي أرادها الزعيم لنا ولا

ينسينها أبداً. كل هذه المشاعر تنغرس في أذهانهنّ وفي قلوبهنّ وتكبر وتتجذر مع مرور الزمن. وكنت أفكّر أنّ هناك حولهنّ الكثيرين الذين يذكرونهن بالواجب الملقى عليهن، ولكن من يدخل خفايا قلوبهنّ وأنفسهنّ الرقيقة؟ من يسأل عن متطلباتهن؟ إلى أي شيء هنّ متعطشات؟ من يسأل عن حقهنّ في الحياة الروحية والنفسية والاجتماعية؟ من يتحسّس حاجاتهنّ في السير على طريق العاطفة؟ نعم، قد تكون الأم أحياناً، وفقط الأم الواعية، هي الوحيدة التي تستطيع دخول هذا العالم الصغير الكبير بما فيه من مواضيع أساسية وإنشائية وتربوية أو تكوينية كي تبني عليها شخصية الطفل (الرجل والمرأة مستقبلاً). وبقدر ما كنت أفرح عند رؤيتهنّ كان قلقي على مصيرهنّ بنفس المستوى أو أكثر.

بعد المساعي العديدة التي قام بها رفقاؤنا في الشام وفي لبنان، وبعد الفحص الطبي في المستشفى العسكري، تقرّر إجراء جراحة لي لاستئصال الورم الذي قال التقرير الطبي إنه ورم مجهول. نُقلت إلى المستشفى العسكري لإجراء العملية، وبقيت ذلك النهار في غرفة السجن بالمستشفى. ولما لم تكن هناك غرف للنساء السجينات في المستشفى فقد أعطوني غرفة أحد السياسيين الموقوفين في المستشفى بعد أن وضعوا له سريراً خارج الغرفة على شرفة واسعة. كانت هناك أسرّة أخرى جاهزة عليها مرضى موقوفون عرفت لاحقاً أنهم أُوقفوا بعد الانقلاب والانفصال، وعلمت أيضاً أنّ الذي أعطاني غرفته هو الدكتور سامي الجندي وزير الإعلام في حكومة البعث وسفير سوريا إلى باريس (حين كتابة هذه المذكرات). الجندي كان على اتصال دائم مع رفيقنا نقولا الخوري من مرمريتا وقد وعده بالسعي للإفراج عنّي عندما وقع الانقلاب البعثي على الانفصاليين، وكان وزيراً للإعلام في ذلك الوقت. وزرته عند مجيئي إلى باريس لأشكره على اهتمامه وردّ هو الزيارة، ثم تابع الاتصال مع فؤاد الشمالي زوج أليسار والأمين كمال خير بك. ومنذ مدة علمت بأنه ألقى محاضرة في المؤسسة الثقافية الشرقية الفرنسية التي يديرها فؤاد مع بعض السوريين في باريس.

لم أرَ أحداً في تلك الغرفة التي وضعوني فيها مدة حتى يهيّئوني للعملية. كان الحارس يفتح الباب ليعطيني ما أحتاجه ثم يغادر ويقفل الباب وراءه. كنت أعرفه من المزّة ، اسمه خلف إلياس وهو جندي من الحرس من عشائر تدمر، أخلاقه عالية لم يزعجني بكلمة أبداً بل بالعكس كان يحزن لوضعي ويتمنّى الإفراج عنّي. وبعد الظهر عندما لم يأتِ أحد ليقابلني أو ليشرح لي ما يجري، طلبت لقاء الوكيل المسؤول عن السجن فكان جوابهم أن أنتظر قليلاً إذ لا أحد يعلم متى يأتون إليّ. لكنهم فتحوا باب الغرفة كي أتحرك فوقفت أتحدث مع السياسيين، أو بالأحرى هم الذين بادروا إلى التحدّث معي وأبدوا جميعهم كل اهتمام واحترام وقدّموا لي ما كانوا يتناولون من قهوة وشاي وفاكهة وهم يحاولون التخفيف من قلقي قبل الجراحة. أذكر أنّ أحدهم، وهو ضابط لم أعد أذكر اسمه، قال لي إنّ الانتماء إلى الأحزاب ليس محرّماً، وكوني امرأة سياسية فإن لي حرية القول والعمل مثل كل السياسيين لأن الديموقراطية هي من مميزات الشعوب الراقية. أجبته: نعم، لكني لست سياسية بل كل ما في الأمر أنني مواطنة عقائدية مقتنعة برسالتي التي هي رسالة زوجي، رسالة أمّتي، وهي تعني هذه الحقيقة التي يجب عليَّ معرفتها والتي تختلف عن تلك السياسة التي لا عمل لي فيها. والفارق هنا أن العقيدة تخوّلني التكلم عنها دوماً بكل حريّة أمّا السياسة فللعارفين بها فقط. وأذكر أنّ الدكتور سامي الجندي علّق في حينه ضاحكاً: كل واحد منّا هنا سياسي ويمثّل حزباً ما، فتعالوا نجتمع في حزب واحد! فقلت له: ليس المهم أن نؤلف أحزاباً بل المهم أن تكون لدينا القناعة بهذه الأحزاب. وقد استعدنا ذاكرة تلك الأيام عندما اجتمعنا في باريس بعد سنوات.

عند الساعة التاسعة مساءً أتى رئيس الحرس، وهو وكيل في الجيش، وقال لي: إننا ذاهبون فتفضّلي معنا. سألته إلى أين؟ فأجاب: فقط تعالي معنا! وحملوا حقيبتي. ودّعت السياسيين وتمنّيت لهم الفرج القريب، وخرجت بصحبة الشرطة إلى حيث كانت تنتظرنا سيارة جيب صغيرة يقودها شرطي. جلست في المقعد الخلفي بين شرطيين كل واحد منهما مسلّح برشاش. وفي الطريق سألت أحد الحارسين: إلى أين نحن ذاهبون؟ فقال إلى القلعة! وعدت أسأله: ولماذا تعيدونني

من دون أن تشرحوا لي ما يجري؟ أجاب: لست أدري! لكنني عرفت لاحقاً أن الطبيب العقيد الذي كان سيجري العملية عاد وتشاور مع المسؤولين في الجيش وقرروا إمّا تأجيلها أو إلغاءها.

في ليلة 31 كانون الأول سنة 1961 كنت أسهر أمام التلفزيون الخاص بالسجّانة ام ياسين والذي كانت تحضره كل أسبوع للترفيه عن السجينات بإذن خاص من المدير. فجأة قطع التلفزيون برامجه عند الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ليذيع نبأ فشل محاولة إنقلابية قام بها السوريون القوميون في لبنان. كم كان غريباً هذا النبأ، وكم من الألم حمل إليّ! انقلاب فاشل، وفي لبنان؟ وماذا الآن بعد هذا الفشل؟ تابعت البرنامج التلفزيوني في غرفتي وكأنني في دنيا غريبة عني. لم أعد أبصر شيئاً أو أسمع شيئاً. وكنت أتساءل بيني وبين نفسي: متى وكيف دُبّر هذا الانقلاب، وما هي الأسباب؟ كيف يمكن أن أعرف وأنا سجينة في القلعة؟ لكن يكفي أن يصلني هذا الخبر كي أتصوّر حجم الآلام التي سيلقاها الحزب خصوصاً وأن جراحنا لم تندمل بعد منذ حوادث سنة 1955 وصولاً إلى حوادث سنة 1958.

وطلع عليّ النهار، أتعس نهار في جوّ القلعة. وبدأت إذاعة لبنان تُكيل الشتائم والإتهامات للقوميين. ولن أقول شيئاً عن إذاعة «صوت العرب» لأنها في الأساس متخصصة بالشتائم يميناً ويساراً. وأتى بعض الأصدقاء ليقولوا لي إنّ الإنقلاب ما يزال قائماً والثورة مستمرة، وإنّ القوميين معتصمون في الجبال يقاومون الجيش بمساندة الشعب. وتكاثرت عليّ الأخبار المتناقضة، مرّات من مصادر الحكومة ومرّات من أصدقائنا وكلها تحمل صوراً متضاربة.. إلى أن انتهت باعتقالات هي الأوسع والأضخم في تاريخ لبنان. فبعد أن سلّم القوميون الضباط الذين كانوا يحتجزونهم اعتُقل الكثير منهم في حين فرّ بعضهم إلى مختلف المناطق الداخلية والخارجية.

كانت عمليات الانتقام والتنكيل التي مارستها السلطات اللبنانية من أفظع ما شهده تاريخ الإرهاب، فقد أعدمت عن سابق تصوّر وتصميم عدداً من القوميين الشاميين ومن بينهم الضابط محمود نعمة وذلك بعد اعتقالهم وهم عُزّل من

السلاح.. لقد اغتيلوا جميعهم برصاص الدولة، إذ روت المصادر المطّلعة أن الجنود كانوا يأمرون الموقوفين بالركض ثم يطلقون عليهم الرصاص من الخلف فيخرّون قتلى الواحد وراء الآخر.

هذا ما فعلته الحكومة «المسؤولة»! فبعد أن أصبح هؤلاء في قبضتها وتحت رحمتها، وبدلاً من التحقيق معهم وتقديمهم إلى المحكمة ليُحاكموا على فعلتهم، إذ بها تقتلهم قبل التحقيق وقبل معرفة مسؤولياتهم وكشفها أمام الرأي العام! كانت فرصة سانحة للنفوس الضعيفة، ومع ذلك لم يخلُ الشعب في لبنان من رجال صالحين وقفوا في وجه المحاولات المجرمة ليعلنوا أن الحكومات تأتي وتذهب أما الشعب فباقٍ.

كانت تلك الأيام مليئة بمشاعر القلق والأخبار السيئة. وكانت مواقف القوميين والمسؤولين الذين لم يتهربوا من مسؤولية أفعالهم مشرّفة للغاية. أما الانتقامات من القوميين فتواصلت على أشدّها، وسمعت من الأخبار ما تقشعرّ له الأبدان. ودامت الأهوال على الحزب زمناً طويلاً أصيب الكثيرون خلاله بأمراض خطيرة وتدهورت أحوالهم وتعرضوا للإهمال الشديد في أصعب ظروف السجن.. فمتى يعي شعبي من هو عدوّه؟ متى يعرف مصيره؟ متى يسأل إلى أين؟ ومتى يعرف من هو؟ تعالوا يا رفقائي لنواصل السير، فإنّ العجز كبير والحمل ثقيل والفساد متغلغل والأمراض النفسيّة متفشّية. ولن نترك هذا الحمل الثقيل على كاهل الأمّة، فنحن أبناؤها ومنها رضعنا الحياة.. فلنعطها الحياة حتى تستمرّ هي في العطاء.

المتذمّرون من الإقدام على هذا الانقلاب كانوا كثيرين، ولذلك انتشرت الأقاويل والتعليقات والاتهامات. والمبرّر الوحيد لكل هذا هو الفشل. ومع أنني حتى الآن لا أعرف سبب الانقلاب أو ما حمل الحزب على القيام به، إلاّ أنني متأكدة من شيء واحد الا وهو أنه قام بطرق حزبية دستورية وبموافقة المسؤولين الذين لم ينكروا ذلك أمام المحكمة بل تحمّلوا مسؤولية العمل بشجاعة.

في 8 آذار سنة 1963 وقع انقلاب بعثي على الحكم المدني فأطاح برئيس الجمهورية ناظم القدسي ورئيس الوزراة خالد العظم وساق الجميع إلى المزّة. ونفّذ الانقلابيون تسريحات واسعة في الجيش وفي المؤسسات الأخرى، وعمدوا إلى تعبئة كل ما استطاعوا من المراكز بالبعثيين حتى أصبح الجيش كله من أوله إلى آخره جيشاً بعثياً اشتراكيّاً. وفي الوقت نفسه هاجموا أسلافهم وكشفوا الكثير من أخطائهم، ولكنهم لن يتقرّبوا من الناصرية بل على العكس.

تشكّلت هيئة مجلس قيادة الثورة من ضباط اشتركوا في التخطيط الانقلابي، وكان فيها ضباط أعرف عنهم سابقاً لكن لا أستطيع تحديد نواياهم نحونا. وأصبح الدكتور سامي الجندي وزيراً للإعلام في ذلك العهد، ونور الدين الأتاسي وأمين الحافظ وصلاح جديد وغيرهم أعضاء في مجلس قيادة الثورة. وقد تبدّلت وجوه كثيرة في هذا المجلس من دون أن أعرف أسباب ذلك، وحتى خروجي من السجن كان قد بقي كل من أمين الحافظ رئيس المجلس وصلاح جديد رئيس الأركان.

بعد نجاح الانقلاب البعثي علمت أنّ هناك جناحاً بين البعثيين لا يريد العفو عنّا، وعرفت أيضاً أنّ نهجهم السياسي مخالف لوحدتنا السورية وأنهم يختلفون في ما بينهم في بعض الآراء القومية. وشعرت بأنّ الشعب لن تكون له أية مشاركة في ذلك الحكم، خصوصاً أن حزب البعث يفتقد القاعدة الشعبية، وربما ينفرد بالحكم العسكري. وبعد مدة تألفت وزارة مدنية بعثية برئاسة صلاح الدين البيطار، غير أن هذه الحكومة لم تعمّر طويلاً بل سقطت وتغيّرت، ثم سقطت الأخرى.. واستمرت الحالة على هذه الشاكلة طوال هذه الفترة.

أصدر البيطار بعد تسلّمه رئاسة الحكومة قراراً بالعفو، فكان عفواً غريباً عجيباً لم نرَ مثله في تاريخ السجون. صدر قرار العفو عن كل جرائم القتل أو محاولة القتل حتى لو كانت بدافع السرقة، ولكن لم يصدر أي عفو عن السياسيين ولا عن عمليات السرقة أو التهريب. وهكذا شمل العفو القتل ومحاولة القتل في السرقة والقتل ومحاولة القتل في التهريب لكنه لم يشمل السرقة أو التهريب دون القتل، فكان مصير السارق دون قتل والمهرب دون قتل البقاء في السجن! وقد

أثارت هذه القرارات سخرية الشعب الذي كان يعرف خلفية العفو، إذ كان ابن أخ صلاح الدين البيطار محكوماً بالسجن المؤبّد بعد إدانته بقتل صيرفي داخل بيته في شارع أبو رمانة بهدف سرقة خزينته، فأُبدل المؤبّد بخمسة عشر سنة سجناً.

وكان هذا ثاني عفو عامّ يُنفّذ في سورية منذ دخولنا السجن، الأول يوم الوحدة والثاني بعد الإنقلاب البعثي، ولم يشمل أي منهما السياسيين. ولذلك بُذلت محاولات جديدة للإفراج عن القوميين، خصوصاً عنّي أنا. واشترك في هذه المساعي كثيرون من لبنان والشام. وكان لغبطة البطريرك المعوشي محاولات دؤوبة مع أصدقائه ومعارفه في الشام. كما أجرى رفقاؤنا في الأرجنتين اتّصالات مع أمين الحافظ بوصفه صديقاً قديماً لهم توطدت العلاقات معه أثناء وجوده وعائلته في بوانس آيريس حيث كان يتولى منصب الملحق العسكري في السفارة السورية.

ومن جهة أخرى قامت شقيقتي ديانا والرفيق نزار المحايري بشتى الاتصالات مع من يلزم في لبنان والشام لطلب العفو عني حسب قانون العفو الذي يشمل الأمراض العضالة مثل مرضي إذا صحّ وكان عضالاً.

وعندما صدر العفو تشكّلت لجنة من الأطباء كي ترفع تقريرها حسب الكشف الطبي. ولمّا جاء دوري للفحص لاحظت من خلال أسئلتهم وقراءة التقارير الطبية القديمة أنهم غير مهتمين بالأمر، ما جعلني أشكّك في نواياهم، فقد سجلوا إفادتهم من دون رؤية صور الأشعة ولا الاطّلاع على الإفادات السابقة التي وضعها اختصاصيون في الأمراض السرطانية.. فجاء قرارهم النهائي أنه ليس مرضاً عضالاً.

وعدنا إلى نقطة البداية، وعاد الرفيق المحامي نزار المحايري إلى رفع دعوى على الكشف الطبي مطالباً بالأخذ بإفادات الأطباء الإختصاصيين معتمداً على عدد من المواد القانونية التي لم تطبق أصلاً في الكشف الطبي الذي قامت به اللجنة المعينة لهذا الغرض، خصوصاً انّ طبيباً من أعضائها لم يكن مختصاً بالأمراض السرطانية، وكان معظمهم من الفوج المتخرّج حديثاً. وكانت هذه اللجنة

معيّنة من قبل النيابة العامة العسكرية التي كانت مؤلفة من عناصر شاركت في ملاحقاتنا خلال العهد البائد. وكنت أذكر أسماء أعضائها أمّا الآن فقد طواها النسيان.

شكّلت النيابة العامّة لجنة جديدة للنظر في هذه الدعوى. وانعقدت جلسة الفحص وإعداد التقرير في غرفة النيابة العامة بنفس المحكمة أمام النائب العامّ العسكري (أظنّه العادلي). ودُهشت عندما رأيت نفس الهيئة التي جاءت إلى القلعة. وقد كرّروا قرارهم السابق أمام النائب العام. وطُلب مني أن أوقّع على هذا التقرير لأتبلّغ القرار النهائي فرفضت، وقلت للنائب العام: إنّ الموجودين حالياً في اللجنة الطبية ليس من اختصاصهم الأمراض السرطانية، ولهذا فأنا لا آخذ بعين الاعتبار هذا القرار. فأجابني: هذه هي اللجنة المحلّفة من قبل المحكمة وعندها اطّلاع واسع في كل الحقول الطبية. وقال لي أحدهم: أنا متأكد مئة في المئة أنّ هذا المرض ليس خبيثاً ولا داعي للقلق، ونحن على استعداد لإعطائك القرار النهائي بعد فحص خزعة النسيج. قلت: وقد يكون في هذه العملية نهاية لحياتي؟ أجاب: إن العفو هو للأمراض العضالة، وإذا كان مرضك خطيراً وعضالاً فيكون العفو على هذا الأساس. قلت: ولكن من حقّي كإنسان أن لا أعجّل موتي بيديّ، فإذا أخذتم الخزعة وكان المرض سرطانياً فلا يعود هناك مجال لبقائي حيّة. قال: هذا هو قرارنا. عندها قلت للنائب العام: أنا أرضى بذلك شرط أن يكتب الطبيب المذكور ضماناً لي على حياتي وعدم تعرّضي للخطر من جراء العملية، وأن يكون القول مصحوباً برسالة تؤكد أنها سليمة مئة في المئة. أجاب: هذا مستحيل لأنني لا أسمح بإعطاء ضمانات ليست مؤكّدة مئة في المئة. فقلت له: وأنا لن أوقّع على أي تقرير طبّي وسأرفع دعواي إلى الحكومة.

وهكذا كان، وحُوّلت قضيتي إلى اللجنة المختصّة بالأمراض السرطانية وكانت مؤلّفة من أشخاص حياديين ينظرون إلى وضعي بشفقة وليس بحقد. والتقيت كذلك بالدكتور كنعان الجابي الذي خدم في المشفى العسكري وعاينني في المزّة

بطريقة إنسانية راقية وكان أحد الاختصاصيين في الأمراض السرطانية، وقد ذكّرني بلقائنا في المزّة . فلجميع الأطباء في الجيش الذين أظهروا عطفهم عليَّ أقدّم الشكر الجزيل.

أخذ ضبّاط الشرطة يترددون عليَّ في الآونة الأخيرة. وكان مدير الأمن الزعيم يوسف سابا أحد الأشخاص الذين زاروني بعد رفع قضيتي إلى المحكمة العسكرية للمطالبة بالكشف على مرضي من قبل اختصاصيين في السرطان. وشعرت بأن قضيتي أصبحت مطروحة بين أيديهم وهم جادّون في التعامل معها. وبدأت آمال العفو تلوح في الأفق من خلال اتصالات قومية وطائفية ووعود أُعطيت لرفقائنا في الأرجنتين من قِبَل أمين الحافظ.

أمّا العقيد صلاح جديد فقد وقف على الحياد رافضاً التدخّل لا سلباً ولا إيجاباً. وكان رأيه أن لا يتعاطى بقضايا القوميين مطلقاً حتى بالنسبة إلى شقيقه فؤاد الذي كان يسعى للحصول على ربع المدة بعد العفو بحيث يُخفض حكمه إلى عشر سنوات قضى منها ثماني سنوات. وحصل في النهاية على ربع المدة القانونية.. لكن عن طريق أصدقاء له في الجيش!

قرّرت والدتي السفر إلى الأرجنتين بعد أن أنهكتها كثرة الهموم والقلق المستمرّ عليّ وعلى بناتي. كانت قد تجاوزت الثمانين من عمرها، وعلمت أنها ترغب في أن تقضي بقية حياتها قرب ابنها الوحيد. ولذلك طلبت منها أن لا تنتظر إخلاء سبيلي وشجّعتها على السفر ووعدتها بأن ألحق بها إلى الأرجنتين عندما يصدر قرار العفو. وقبل أن تغادر البلاد جاءت تزورني مودّعة لآخر مرّة في سجن القلعة أواخر سنة 1963 . مسكينة والدتي، دخلت والدموع في عينيها وفارقتني والدموع في عينيها أيضاً. كانت تسير إلى الخارج ونظرها معلّق بي تودّعني بعينيها الحنونتين والألم يحزّ في قلبها قبل أن يحجب الجدار الخارجي وجهها عني.. وكانت تلك آخر مرة أشاهد فيها والدتي.

بعد الأخذ والردّ في المسائل القانونية وتنفيذ كل المتطلبات الإجرائية، وفي ضوء الجهود والمساعي والاتصالات التي قامت بها شقيقتي ديانا والرفيق نزار المحايري، سمعت في صبيحة أحد أيام كانون الأول السجّانة أم نبيل تركض وهي تصرخ بصوت متهدّج: مدام سعاده، مدام سعاده، العفو، العفو، لقد أذاعوه الآن من لندن. اليوم تخرجين من السجن وكفاك هذا العذاب! فشكرتها بحرارة على اهتمامها.

فرحت، لكني في الوقت نفسه شعرت بأني سأواجه أموراً عديدة خارج السجن هي أهمّ وأخطر من حياة السجن. تُرى كيف بناتي؟ وماذا عن مشاعرهنّ بعد هذا الغياب الطويل؟ ماذا صنع الزمن والبعد بهنّ؟ هل أجدهن كما أعرفهنّ؟ هل أليسار سعيدة بزواجها، وكنت حتى ذلك الوقت لا أعرف زوجها؟ هل صفية وخطيبها منسجمان مع بعضهما؟ وماذا عسى تغيّر فيهنّ؟ سألاقيهنّ طبعاً، هنّ بناتي وأنا أمّهنّ والحب بيننا لا شك فيه. لكن كم فقدت نفوسهنّ من البنيان الرقيق المستمر استمرار الحياة؟ لعلّي أصبحت غريبة عنهنّ؟ طبعاً سينادينني بكلمة «أمّي»، لكني أتساءل إلى أي حد بقي هذا الاسم في نفوسهنّ؟ لقد كبرن مثل كل البنات وتعلّمن وتربّين، فهل لا زلن بحاجة إليّ الآن؟ كانت صورهنّ الصغيرة في السن التي تركتهنّ فيها ودخلت السجن هي الصور التي تطفو على ذاكرتي والتي كنت أبحث عنها وأستعيدها دائماً وأتمسك بها كخشبة الإنقاذ. الكارثة في بيتنا تكمن في هذا البعد الطويل وفي الانقطاع بالأفكار ومجرى الحياة.

وما إن انتشر الخبر حتّى عمّت السجن فرحة كبيرة، وراحت بعض السجينات يزغردن ويرقصن تعبيراً عن سعادتهن. ويتوافد إليّ الجميع لتهنئتي، من المدير إلى رجال الشرطة إلى السجناء السياسيين وغيرهم. وبعد أن بثّت الإذاعة الشاميّة نبأ العفو أصبح الخبر مؤكّداً ورسميّاً. لكن كيف أفرح ولي في السجن أبناء لا زالوا معتقلين؟ كيف أطمئن وأنا بعيدة عنهم؟ كيف يمكن التمتّع بهذه الحرية ورفقائي محتجزون وراء القضبان؟ هم قلقون عليّ، ولاشك في أن قلقهم سيهون عندما أخرج من السجن، ولكن لن يهون عليّ بقاؤهم أسرى. ألا يكفي ما لاقوا من عذاب؟

وأمّهاتهم وأطفالهم وزوجاتهم وأهاليهم كم من الأهوال تحمّلوا وعانوا؟ بذل رفقائي كلهم المستحيل من أجلي. كلّ واحد منهم، حتى الذين هم في السجون، حاول التوجيه في السعي إلى العفو عنّي. نعم كلّهم وكأنهم قلب واحد يصرخ إلى الأم التي غابت عنهم طويلاً: تعالي إلينا نريدك طليقة حرّة بيننا! وأنا، بأي شيء يمكنني أن أبادلهم؟ لقد أعطوني من الثقة أكثر مما أستحق، وأعطوني من حبهم أكثر مما انتظرت، وأحاطوني بعنايتهم وسواعدهم وإيمانهم الذي صمد في وجه العواصف الهوجاء، ومنهم استمدّيت قوتي. حيّيت يا عقيدة الأبطال، والفخر لك يا أمتي بهؤلاء الأبناء.

إستغرقت إجراءات تنفيذ قرار العفو من يوم صدوره وحتى تبليغي به رسمياً أكثر من عشرين يوماً، فقد ألحقوه بسلسلة من المعاملات وكأنه جزء من العفو العامّ وبالتالي يخضع للنظر في المادة التي تلحق به. سارت الإجراءات ببطء من مكتب إلى آخر ومن تواقيع إلى أخرى، خصوصاً تواقيع الأشخاص المختصّين بالنظر فيه. وقد تبقى الأوراق نائمة في أحد المكاتب بانتظار عودة الموظف المختصّ من عطلته أو غيابه! وكان الرفيق نزار وشقيقتي ديانا لا يملاّن من الملاحقات ليلاً ونهاراً. وأثار هذا التأخير الطويل، الذي بدا وكأنه مفتعل، قلقاً نفسياً عند البعض الذين استغربوا إحالته على لجنة العفو طالما أنه عفو خاص لا يخضع للترتيبات التي يتطلبها العفو العام.

وأثناء فترة الانتظار هذه التي استغرقت عشرين يوماً تم اكتشاف محاولتين انقلابيتين عسكريتين في الشام... فيا حسرتي على هذا العفو فكأنه يتأرجح بين النار والهاوية وهو على وشك أن يقع في إحدى هاتين المصيبتين.

وأخيراً انتهت المعاملات وتبلّغت القرار رسمياً من مكتب الإدارة بحضور الرفيق نزار وشقيقتي. وجاء التبليغ مشروطاً بمغادرة البلاد كون العفو لا يشمل منع إقامتي في الشام، فوافقت. وعندما أبلغتهم أننا قررنا الذهاب إلى الأردن (على رغم رأي الأمين عصام المحايري وكامل حسّان بأن أعود إلى لبنان)، عدلوا عن

إخلاء سبيلي وقرروا أن أغادر إلى دولة غير عربية. وبما أنني لم أكن أحمل جواز سفر... فقد أقعدوني في السجن بانتظار إنجاز معاملات السفر!

الأيام التي مرّت بين إصدار العفو والتبليغ الرسمي كنت أقضيها في السجن مع شقيقتي وبناتي عندما يأتين إلى دمشق. وأصبحت أشعر بالتغيّر ضمن السجن إذ لم يعد الإنسان في قبضة الموظفين وخاضعاً لتحكّمهم بل بات يشعر وكأنه خرج من طوقهم حتى وإن كان لا يزال بقربهم، فيفقد الالتزام بهم ويصبح حرّاً في شؤونه. هذا الشعور هو الخطوة الأولى نحو العودة إلى الاستقلال الشخصي والتخلّص من اعتبارات غريبة فرضناها على أنفسنا طيلة فترة السجن.

وانتهت معاملات جواز السفر، وغادرت السجن برفقة نزار وديانا والرفيق حسن عابدين متوجهين إلى بيت الرفيق عابدين لقضاء يومين بصحبة راغدة وديانا. وكانت صفيّة قد عادت إلى بيروت لتعدّ أطروحتها الجامعية.

خرجت مساء يوم السبت في 26 كانون الأول 1963 وسافرت صباح يوم 28 الساعة 4,20 على متن طائرة بوينغ إلى باريس. ورافقتنا سيارة تابعة للمكتب الثاني فيها ثلاثة موظّفين ظلّوا معي حتى صعودي إلى الطائرة وإغلاق أبوابها.

تركت ورائي صفيّة وراغدة، وفي باريس سألاقي أليسار وزوجها الذي لا أعرفه بعد. وتركت ديانا التي جاهدت وركضت وسعت حتى تمكّنت من رؤيتي وأنا أغادر تلك البلاد التي أحببتها أكثر من نفسي..

أكرا. غانا، في 15. 4. 66

الفهرس

أ

أبو زلام، عمر: 168، 182
أبو سليمان، نصري: 274
أبي عجرم، فؤاد: 214
أبو فاضل، رياض: 274، 275
الأتاسي، عدنان: 325، 374
الأتاسي، نور الدين: 389
الأتاسي، هاشم: 267، 272، 340
الأخلاق: 194، 197
الأخوان المسلمون: 213، 227
اخي جورج: 28، 64، 177
أدما: 321، 323، 379
ادهم، برهان: 324
أدونيس: 14
أديب، خالد: 55، 57، 62، 63، 64، 67، 82
إذاعة «صوت العرب»: 387
الأرجنتين: 390، 392
الأردن: 35، 394
أرسلان، مجيد: 152
أرشيد، مصطفى: 242
إسبر، الياس: 209
الاستعمار البريطاني: 210
«إسرائيل»: 225
اسكاف (الأرشمندريت): 193
الإسكندرية: 38
أسوج: 114
الأشقر، أسد: 62، 63، 86، 87، 115، 143
الأشقر، وديع: 130
أضنة: 38
الأطرش، زيد: 366
الأطرش، منصور: 209، 224
افريقيا: 7، 38، 62، 87، 115، 244، 311
أكرا: 39
ألمانيا: 51، 53، 60، 63، 186
اليسار القرطاجية: 37
الياس، خلف: 386
الياس، وديع: 133، 139
ام نبيل (السجانة): 377، 393
ام ياسين (السجانة): 358، 360، 361، 365، 367، 368، 369، 375، 376، 377، 378، 387
الأمة السورية: 142
الأمة العربية: 319
الأمينة الأولى: 18، 22، 177، 182، 379، 380
أنتيبا، فاضل: 130
أنتيبا، فايزة: 130، 152
إنكلترا: 44، 51، 53، 114
الإنكليز: 34، 35، 44، 51، 53، 114
أوستراليا: 38
أوغاريت: 204
أياس، مأمون: 115، 120، 125، 126، 128، 143
باريس: 5، 11، 22، 46، 385، 386، 395
بانياس: 196، 203
البرازي، محسن: 186
البرازي، وجيه: 367، 368، 377
البرازيل: 38، 39، 63، 86، 88، 101، 11 5، 119، 150
بزري، صلاح: 184، 185
البزري، عفيف: 339، 340
بشور، إميليا: 196
بصيرة: 202
البطريرك المعوشي: 384، 390
البطولة: 61، 128
البعثيون: 339، 340، 341، 389
البعلبكي، محمد: 135، 142
بعمرة: 198، 200، 201
بغداد: 189، 336، 374
بكداش، خالد: 340
بلدي، جورج: 163، 164، 168، 183، 186
بلطجي، جانين: 136
البناء: 67، 88، 91، 105، 107، 113، 132، 138، 139، 160، 194، 195، 198، 205
البنك العربي: 223، 263
بهنا، جوزيف: 82
بوانس آيريس: 174، 190، 390
بور سعيد: 321، 325، 327
بوش (الدكتور): 52، 54، 102
بيت مري: 236، 237، 238، 260، 276
بيتهوفن: 95
بيروت: 3، 21، 30، 41، 80، 122، 123، 124، 128، 129، 130، 133، 145، 147، 151، 170، 171، 179، 187، 188، 190، 325، 327، 364، 368، 379، 395

بيروت المساء(جريدة): 134
البيطار، صلاح الدين: 389، 390
البيطار، هاني: 260

ت

تاج، يوسف: 131
تدمر: 266، 268، 278، 286
التركاوي، تركي: 320
التركاوي، علي: 320، 321، 322
تشيكوفسكي: 95
التقي، كمال: 274
تقي الدين، بهيج: 274
تقي الدين، سعيد: 234
التكريتي (الدكتور): 386
تلكلخ: 176
توكومان: 86، 113، 114، 115، 116، 118، 125

ث

ثابت، نعمة: 115، 120، 121، 125، 126، 128، 143

ج

الجابي، كنعان: 391
الجامعة الأميركية: 124، 125، 137
الجامعة السورية: 208
جبل الدروز: 209، 224
جديد، صلاح: 389، 392
جديد، غسان: 326
جديد، فؤاد: 240، 266، 268
الجرّاح، محمد: 363، 366
جريج، جبران: 188
جزدان، ألبير: 267، 268
جسر الشغور: 196، 205
جلبوط، سناء: 357
جلبوط، فايزة: 357
جلبوط، وردة: 357
جمال الدين، عبد المجيد: 321، 331، 332
جمعة، إسماعيل: 243
جمعة، سامي: 277
الجمعية السورية الثقافية: 100
الجمهورية العربية المتحدة: 335، 336، 337
جنبلاط، كمال: 133، 173، 178، 187
الجندي، سامي: 385، 387، 389
جنون الخلود (كتاب): 89
جنيف: 23
جواد، محمد: 149، 150، 151، 152
الجيل الجديد(جريدة): 101، 144

ح

حادثة الجمّيزة: 151، 156
الحافظ، أمين: 289، 290، 292
الحب: 12، 58، 76، 89، 93
حب نمرة: 197
حداد، جوزيف: 151، 155
الحرب العالمية الأولى: 27، 28، 29، 34
الحرب العالمية الثانية: 53، 110، 120
الحركة القومية الاجتماعية: 6، 144، 178، 185
حزب البعث: 208، 224، 227، 334، 398
حزب البعث العربي الاشتراكي: 226
الحزب السوري القومي الاجتماعي: 11، 88، 135، 209، 220، 227، 234، 279
حسّان، كامل: 242، 254، 266، 268
حسونة، ماريا (رئيسة دير صيدنايا): 138، 176
حسين، عزت: 244، 245، 247، 260
الحسيني، إبراهيم: 182، 190، 191
حضانة السيدات اللبنانيات: 145
حكيم، أحمد: 155
حكيم، يسرى: 155، 156، 296
حلب: 196، 205، 337
الحلبي، إميلي: 188، 189، 190، 191، 196
الحلفاء: 35
حماة: 20، 68، 196، 337
حمامي، نازك: 259
حمص: 157، 158، 195، 196، 205، 337
حمود، محمد يوسف: 142
حنانيا، الياس: 38، 39
حنانيا، ألومبيادة: 38، 39
الحناوي، سامي: 178، 213، 219
حوادث سنة 1949: 128، 129، 235، 246
حوادث سنة 1955: 160، 216، 333، 374، 387
حوادث سنة 1958: 387
حوران: 14
الحوراني، أكرم: 184، 339، 340
حيدر، كاترين: 173

خ

الخالدي، مصطفى: 124، 133، 156
خالو، الياس: 173
خالو، حنة: 38
خالو، روزة: 30
خالو، قسطنطين: 38، 39
خالو، مريانة: 38، 39
خالو، هيلانة ملحم: 28
خروتشيف: 348
الخضر: 179

الخوري، بشارة: 139
الخوري، خليل بشارة: 153
الخوري، رشيد: 88، 89، 92
الخوري، سامي: 266، 268
الخوري، فؤاد: 165، 168، 189
الخوري، فارس: 181
الخوري، نقولا: 385
خوري، عادل: 330
خوري، عارف: 330
خوري، عبلة: 166، 167، 177، 179، 181، 189، 249، 330
خيرالله، خليل: 168، 173
خيرالله، شوقي: 168
خيريك، كمال: 5، 385

د

دار الجيل الجديد: 223
داريا: 226
داغر، ميشيلين: 380
دانيال، إبراهيم: 380
دبس، ناديا: 330، 339، 347، 355، 360
دبوسي، منعم: 261، 264، 268، 273، 326، 333، 334
دمشق: 5، 14، 158، 174، 176، 177، 179، 182، 183، 186، 187، 189، 190، 194، 196، 205، 325، 327، 329، 339، 340، 355، 364، 376، 374، 377، 378، 381، 383، 395
الدنيا (جريدة): 194، 195
دياب، سابا: 38
دياب، طرفندا: 43
دير الزور: 205، 321
دير صيدنايا: 163، 175، 215، 260
دير مار جرجس: 179
دير معلولا: 185، 187، 193
الديري، أكرم: 378
الديري، خلدون: 281، 282
الديري، عادل: 281، 282
ديك (كلب الزعيم): 141
الديك، ميشال: 211، 212، 262
الديمقراطية: 386

ر

رأس شمرا: 205
الرسالة (القومية الاجتماعية): 58، 61، 96، 101
رعد، إميل: 144
رعد، إنعام: 144
روسيا: 172

ز

الزوبعة (جريدة): 88، 92، 95، 96، 97، 101، 102، 114، 150
زحلان، فؤاد: 156
زحلاوي، إيلي (الأرشمندريت): 381
زريق، قسطنطين: 196
الزعيم (وسعاده): ورد في كل صفحات الكتاب
ـ الزعيم الحبيب: 93
ـ الزعيم المحبوب: 57
ـ زعيمي الخالد: 25
ـ أبو الأمة: 165
الزعيم، حسني: 135، 159، 162، 163، 176، 179، 181، 195
زكريا، غسان: 236
الزلط، عبد الفتاح: 370
زلفو، ملك: 236
زلفو، هدى: 236
زلفو، هند: 236
زمرد (المعلمة): 31
زيتون، نورا: 380

س

سابا، جبران: 67
سابا، وليم: 138
سابا، يوسف: 392
ساروجة (سوق في دمشق): 223
سالم، جميل: 186
ستالين: 348
سجن القلعة: 341، 355، 358، 359، 374، 375، 392
سجن المزّة: 319، 321، 333، 334، 342، 347، 379
سرج (الأرشمندريت): 380
السرّاج، عبد الحميد: 271، 337، 339، 340، 341، 363، 373، 376، 377، 378
سرور، نورا: 183
سرور، هايل: 325، 341
سري الدين، أديل: 152، 153
سعاده، أليسار: 18، 153، 159، 166، 168، 169، 176، 177، 178، 199، 205، 329، 350، 363، 385، 393، 395
سعادة، أمين: 195
سعاده، جولييت المير: 11، 13، 17، 18
سعاده، خليل: 64
سعاده، راغدة: 18، 133، 134، 138، 141، 145، 153، 159، 168، 173، 176، 177، 178، 185، 196، 199، 262، 350، 395

سعاده، صفية: 18، 98، 104، 111، 114، 116، 118، 122، 123، 145، 146، 159، 166، 168، 169، 176، 177، 178، 199، 205، 329، 350، 363، 381، 393، 395
سعادة، عبدالله: 134
سعادة، عبود: 73
سعادة، غابي: 20، 204
السعيد، نوري: 336
سلامة، عيسى: 202
السلطنة العثمانية: 29
سلوم، فرحان: 274
السنغاليون: 34
سورية: 19، 33، 35، 52، 66، 75
سورية الطبيعية: 12، 14
السوريون اليهود: 69
السوفيات: 50، 335
سويسرا: 351
سيلفا، سموديو: 169

ش

الشام: 32، 33، 35، 135، 136، 155، 156، 157، 170، 176، 178، 179، 182، 183، 184، 185، 186، 188، 196، 319، 324، 326، 329، 331، 335، 336، 337، 338، 339، 340، 348، 356، 373، 384، 385، 390، 394
شاهين (الدكتور): 259
شاوي، اسكندر: 6، 137، 167، 264، 266، 268، 273
الشخصية السورية: 69
شرابي، هشام: 144
شقير، شوكت: 378
شلاش، أمير: 213
الشمالي، فؤاد: 5، 22، 385
شمعون، كميل: 178، 338
شهاب، فؤاد: 9
شوبان: 95
شوبرت: 95
الشوّاف، فؤاد: 156، 157، 172، 203، 266، 268
الشوّاف، قاسم: 156، 157
الشوّاف، مريم: 157، 183
الشوّاف، وداد: 156
الشويري، نجيب: 158، 160، 161، 162، 167، 178، 185، 187
الشيخ، جورجيت: 205
الشيشكلي، أديب: 164، 177، 178، 179، 181، 183، 184، 185، 193، 194، 207، 208، 209، 213، 220، 223، 224، 225، 226، 227، 240
الشيشكلي، صلاح: 178، 207، 210
شيفر (الدكتور): 205
الشيوعية: 194، 199
الشيوعيون: 199، 200، 319، 324، 336

ص

صائب، فيصل: 213
صائب، لطيفة: 213، 221
صائب، نزار: 213
صافيتا: 158، 196، 198، 200، 201
صالح، خالدة: 325، 326، 327، 379
صايغ، فايز: 122، 125، 128، 143
صايغ، قسطنطين: 7
صحف القاهرة: 319
صحف المهجر: 87
صعب، أديل: 160، 161، 167، 177، 192
صعب، معروف: 162، 163، 179، 181، 187، 191، 192
صعب، نهال: 276، 277
صلاح، محمد: 211، 212
الصلح، رياض: 132، 134، 152، 169، 181، 184، 186، 187، 201
الصلح، سامي: 137
صليبا (المطران): 166، 173
الصليبيون: 204
الصهيونية: 22، 134
صيدلية أبي عجرم: 214
صيدنايا: 137، 163، 164، 165، 175، 182

ض

ضاحي، جهاد: 370
ضهور الشوير: 74، 122، 123، 130، 131، 132، 160، 168، 187
ضو، نعمان: 116

ط

الطائفة المارونية: 60
الطائفية: 63، 99
الطابور الخامس: 60، 63
طبارة (السيدة): 153
الطباع، بشير: 267، 268
طحان، الكسندرس (البطريرك): 138

طرابلس: 27، 28، 35، 38، 39، 41، 64، 131، 134، 173، 174، 185، 189، 201، 337
طرطوس: 158، 196، 201، 203
طعمة، شفيق: 196
الطويل، حسن: 230
طيار، صادق: 201
ع
العائدي، عدنان: 325
عابدين، حسن: 395
عازار، أديب: 221، 222، 223، 242
العالم العربي: 223، 280
عامر، عبد الحكيم: 341، 376، 377
عبد الحق، شحادة: 213، 224
عبد الرحيم (الشيخ): 200، 247
عبد الرحيم، يونس: 15
عبد الكريم، عزيز: 336
عبد المسيح، جورج: 16، 121، 122، 139، 155، 160، 174، 183، 186، 187، 188، 189، 190، 191، 192، 196، 207، 210، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 222، 223، 224، 226، 228، 229، 230، 231، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 246، 256، 258، 261، 263، 264، 265، 266، 271، 273، 274، 275، 276، 279، 326، 327، 334، 378، 379، 380
عبد المسيح، جان: 237
عبد المسيح، نضال: 237
عبد المسيح، أمل: 237
عبد الملك، حسني: 67
عبد الناصر، جمال: 335، 337، 339، 340، 341، 343، 365، 373، 374، 376، 377
عبود، إدغار: 138
عبود، نجيبة: 70
العجلاني، منير: 325، 335، 341، 367
عجمي، نجلاء: 122
العدواني الثلاثي على مصر: 321، 324
العراق: 336، 341
العرزال: 74، 123، 127
عزام، جورج: 193
عزيزة، موسى: 68، 69، 70
العسلي، صبري: 267، 272
عطية، جورج: 144
العظم، خالد: 389
العظم، هشام: 341
عفلق، ميشال: 226
العقل السوري: 73
العقيدة السورية القومية الاجتماعية: 143
العقيدة القومية الاجتماعية: 125
عقيل، جلال: 17، 20
علّوش، بدر الدين: 370
عمان: 166، 167
العمري، صبحي: 325
عيسى، سليمان: 323، 331
العيون (عيون الفار): 200
غ
الغربة: 11، 15، 22، 27، 35، 38، 41، 88
الغزّي، فوزي: 355
الغزي، ماجد: 189
ف
فاخوري، الياس: 71
فاخوري، أنيس: 216
فاخوري، شكري: 31
فاخوري، مريانا: 57، 71
فاروق (الملك): 210
فرح (الأرشمندريت): 380
فرح، جان: 168، 176
فرح، ماري: 168، 193
فرحات، صبحي: 182
فرنسا: 5، 53، 60
الفرنسيون: 204
فروجي، روز: 215
الفكر السوري القومي الاجتماعي: 125
الفكر القومي الاجتماعي: 125
فلسطين: 134، 135، 143، 156، 358
الفولغا (نهر): 37
فيروز: 365
فينو كينّو (الدكتور): 102، 103، 104
ق
قاسم، عبد الكريم: 336
القامشلي: 276
القاهرة: 115، 125، 126، 319، 336، 374، 377
القباني، صبري: 195
قبرصي، عبدالله: 136

القدس: 212، 237، 264
القدسي، ناظم: 389، 185
القضية (القومية): 50، 67، 84، 99، 191
القضية اللبنانية: 126
قطريب، فؤاد: 192
قلعة «صهيون» صلاح الدين: 204
قلعة الحصن: 197، 204، 205
قلعجي، قدري: 194
القمر الاصطناعي الأمريكي: 348
القمر الاصطناعي الروسي: 348
قنّوت، عارف: 363، 366
قنيزح، الياس جرجي: 151، 156، 179، 182، 187، 191، 192، 196، 202
القوتلي، شكري: 135، 333
القومية العربية: 335

ك

كاليفورنيا: 38
كبارة، سامي: 329، 336، 371
كبريت، رضا: 238
الكتائبيون: 146
الكردي، إبراهيم: 104، 105، 106، 107
كريدية، محي الدين: 235
الكزبري، مأمون: 378
كسواني، حنا: 226
الكفرون: 198
كلاّس، خليل: 370
الكلية العلمية الوطنية: 215
كوزاك (بيت): 198
كوردوبا (جبال): 73، 83، 91
الكويت: 336

ل

اللاذقية: 156، 182، 183، 196، 203، 204
لبنان: 14، 16، 17، 21، 33، 35، 60، 63، 115، 118، 119، 120، 126، 129، 319، 320، 321، 330، 337، 338، 339، 357، 384، 385، 387، 388، 390، 394
لطف الله، فؤاد: 119
لورانس (مدبرة المنزل): 243، 259
اللوزي، سليم: 375

م

مالك، شارل: 234
المالكي، رياض: 370
المالكي، عدنان: 15، 326، 334، 370، 374، 378
المالكي، مصطفى: 325
مأمون، سيف الدين: 260، 261
المبادئ السورية القومية الاجتماعية: 63، 126
المتني، نسيب: 337، 338
المثل العليا: 87
مجاعص، جميل يعقوب: 123
مجاعص، نايفة الياس: 153، 174
مجاعص، وديع الياس: 131، 168، 214
المحايري، سهام: 195
المحايري، عصام: 160، 179، 184، 191، 192، 234، 254، 263، 266، 268، 394
المحايري، نزار: 383، 390، 393
محسن، عبد الحميد: 179، 181، 191، 196
محسن، عبد الله: 179، 181، 191، 196، 216، 225
محمد (النبي): 110
مخلوف، بديع: 326، 333
مخلوف، جميل: 203
مدرسة البيزانسون: 381
مدرسة روضة الأحداث: 215، 274
مرسيليا: 41، 42
المرشد، سليمان: 208، 213
المرشد، سميع: 208، 209
المرشد، فاتح: 208، 213
المرشد، مجيب: 208، 209، 213
مرمريتا: 196، 197، 385
مرهج، جان: 176
المسؤولية: 51، 59، 77
مستشفى الدكتور بوش: 102
مصح الدكتور بوش: 54
مستشفى سجن المزّة: 321
المستشفى «السوري اللبناني»: 68
مسوتي، بهجت: 251، 254، 157، 280، 375
مسّوح، أمين: 105
مسّوح، جبران: 67، 104، 106، 107، 119
مسّوح، خليل: 45
المسيح: 110
مشتى الحلو: 198، 199
المشنوق، عبد الله: 179، 180
مصر: 319، 321، 324، 333، 335، 336، 374، 377
المصريون: 34
مصطفى (معاون مدير سجن المزّة): 330
معركة بورسعيد: 321
المعلوف، رشدي: 153
معلولا: 185، 186، 187
المعوشي، بولس بطرس (البطريرك): 384، 390
مفرج، شفيق: 313
منصور، عبد الرزاق: 201
مكتبة صور: 113
ملحم، ميخائيل: 46

منصور، عبد الرزاق: 201
المهتار، عجاج: 162
المهجر: 14، 22، 41، 59، 60، 61، 65، 68، 69، 71، 87، 119
الموسيقى: 76، 84، 95، 114
موصللي، أسيمة: 163، 178، 195
موصللي، بشير: 162، 167، 177، 181
موصللي، منذر: 163
المير، جورج: 44، 45، 74، 90، 93، 105، 105، 106، 107، 119، 130، 174، 176، 189، 191، 215، 217، 221، 260، 276
المير، حنّة (الماما، والدتي): 5، 27، 28، 29، 30، 38، 39، 44، 49، 65، 75، 79، 81، 82، 90، 104، 111، 127، 128، 329، 371، 392
المير، ديانا: 21، 27، 44، 45، 58، 75، 81، 330، 383، 390، 393، 394، 395
المير، عبده (أبي): 38
المير، كتالينا: 28، 44، 45، 58، 75، 90
المير، مارغريت: 28

ن

النادي السوري اللبناني: 68، 69، 70
ناصيف، أدما: 321، 323، 397
ناصيف، زكي: 130، 216
نبع كركر: 198
نبكي، إبراهيم: 67
نجار، أمين: 183، 380
نجار، فؤاد: 144
نجيب، محمد: 210
نشوء الأمم (كتاب): 79، 142
نصر الله، هيام: 136
نصّار، فاروق: 223
نصّار، مارسيل: 122
النصولي، محي الدين: 134، 135، 179، 180
النظام: 11، 43، 197، 198
نظام الدين، زكي: 236
نعمة، محمود: 387
النفس السورية: 331
النفوري، فيصل: 228
نقابة المحامين (دمشق): 273
نهرا، خليل: 357
النهضة (القوميّة): 56، 144، 199
نيويورك: 54، 55

هـ

هتلر: 51، 60، 110
الهجرة: 22، 27، 38، 41، 47
الهنود: 34
هيئة الأمم: 134، 135
هيئة النساء الفلسطينيات: 208

و

وادي النصارى: 197
الوحدة العربية: 335
الوطن: 12، 14، 22، 27، 28، 38، 39، 41، 43، 53، 57، 59، 63، 71، 88، 91، 98، 99، 110، 113، 115
وعد بلفور: 125، 128
الوعي القومي: 334
ويس، جاسم: 321، 322، 323، 324، 325، 331

ي

يازجي، رجا: 8
يازجي، يوسف: 167
اليهود: 35، 69، 135، 345

